ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

مارس و يونيو ١٩٥٨

ثقافة الهند

تصدر أربع مرات في السنة: مارس، ويونيو، وسبتمبر، وديسمبر

الاشتراك للسنة: في الهند: ثماني روبيات في الخارج: ثماني شلنات

ثمن العدد الواحد: روبيتان

[illegible]

تطلب من

مجلس الهند للروابط الثقافية، پتودی هاوس، دلهی الجدیدة نمرة ۱

مطبعة «ق» بالهند
صاحبها خليل شرف الدين، ١٩١ شارع سيسون وارا، بمباي ٣
طبعه ونشره مجلس الهند للروابط الثقافية

ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

المجلد التاسع — مارس و يونيو سنة ١٩٥٨ — العدد الأول و الثانى

فهرس الصور

مولانا أبو الكلام آزاد رحمه الله

الرئيس المؤسس لمجلس الهند للروابط الثقافيه بدلهى الجديدة





يفتتح مؤتمر للتعاون [illegible]





حين افتتح أكاديمية الفنون الوطنية (Lalit Kala Academy)
بدلهي الجديدة، أغسطس عام ١٩٥٤



يقابل صاحب الجلالة ملك افغانستان، بدهلي الجديدة، في دار رئيس الوزراء
المستر جواهرلعل نهرو، [illegible] عام ١٩٥٨



نهرو خطيبا في اجتماع عام بجوار المسجد الجامع في دلهي
يناير عام ١٩٤٨



بعذر المغفور له في بعثة ودية إلى أوربا والشرق الأوسط ولحضور المؤتمر
العام ليونسكو في باريس، مايو عام ١٩٥١



[illegible] گورکھپور
[illegible] ۱۹۵۰



مع إمبراطور رضا شاه پهلوی، بدهلی الجدیدة

مارس ١٩٥٣



يلق كلمة الرئاسة فى الاجتماع العام لمج
ابريل



ـع الروابط الثقافية بدلهي الجديدة

١٩

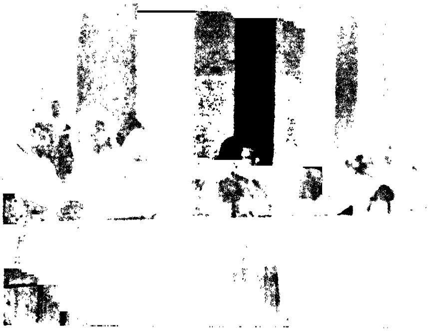


مع رئيس جمهورية تركيا في أنقره
يوليو ١٩٥١

بد



الزعماء يستقبلون جلالة الملك سعود حين زيارته الهند في نوفمبر - ديسمبر
١٩٥٦ . من اليمين في "الصف الأول": صاحب الفضل مولانا أبو الكلام آزاد،
المستر جواهرلال نهرو، جلالة الملك سعود، ورئيس جمهورية الهند



بخاطب الاجتماع العام لمجلس الهند للروابط الثقافية بدلهي الجديدة
في ١٤ فبراير سنة ١٩٥٨

محتويات هذا العدد

مولانا آزاد كما عرفته

للاستاذ همايون كبير

تعريب: الاستاذ محمود على خان

صاحب الرأى المتوازن

رأيت مولانا آزاد وسمعت كلامه كغيرى من آلاف الرجال والنساء من الجيل الحاضر قبل أن أتشرف بمقابلته فى سنة ١٩٣٦. وذلك قبيل الانتخابات العمومية الأولى بعد دستور ١٩٣٥. ولما حضرت إليه فى صحبة السيد فضل الحق والمستر سرت تشندروس والمستر جى. كى. گپتا والدكتور آر. أحمد، وكان زعماء المؤتمر الوطنى عندئذ يتناقشون فى مسألة مهمة. وهى هل يناسب لحزب المؤتمر الوطنى الهندى فى بنغال أن ينتخب منه المرشحين فى دوائر انتخاب المسلمين أو يساعد حزب كرشك پرجا فى حملة الانتخاب؟ وكانت لائحة ذلك الحزب تشابه لائحة المؤتمر ولعلها كانت تفوق عليها قليلا من الناحية الاقتصادية والزراعية نظرا إلى موقف المؤتمر عندئذ. فكان من زعماء المؤتمر من يرى أنه لا يناسب لحزب المؤتمر الوطنى أن ينافس ولو فى مقعد واحد من مقاعد المسلمين، حينما يرى آخرون منهم أنه لابد للمؤتمر أن يقتحم فى معركة الانتخاب ويسعى لكل مقعد ولا يحجم عن معارضة حزب كرشك پرجا أيضا إن مست الحاجة إليه.

ولكن مولانا آزاد كدأبه المعهود لم يؤيد رأيا من هذين الرأيين المتطرفين، بل أوضح لنا سبيلا جديدا سبيل المصالحة بين الرأيين وقد أقنع كلنا بما أبداه من الرأى السديد.

وكانت هذه أول مرة قابلت مولانا آزاد وتبين لى أنه رجل له تفكير واضح ورأى متوازن رزين. ولعل وضاحة التفكير وتوازن الفكر ورزانته كانت من الصفات المميزة لرأيه الثاقب.

لم يكن مولانا آزاد متحزبا فى رأيه أو مائلا إلى جهة واحدة فقط بل كان يرغب دائما فى التجاوز عن معارضيه فى الرأى وكان لا يسمح لميله الشخصى أو لكراهته لشىء أن يؤثر فى رأيه. وكان عدم انحيازه الذهنى وسعة فكره ونظره فى المسألة من جميع نواحيها مما جعل لكل ما قال وزنا وتقديرا. وكلما عرضنا عليه مشكلة من المشاكل وجدنا دائما فى إمكانه أن يقدم لنا حلا للمسألة. وكان ما أبداه من الحل حلا ظاهرا حين قدمه ولكن لم يكن يخطر ببال أحد منا قبل أن يعرضه لنا.

ولم تكن هذه الاتصالات القديمة بينى وبينه إلا نادرة وكانت من الصبغة السياسية فقط ولكن لم يمض قليل حتى زادت لى معرفته الشخصية.

سألنى مولانا آزاد قبيل انعقاد جلسة المؤتمر الوطنى الهنـدى فى رام‌گر: «هل أنت تحضر فى الاجتماع؟»، قلت له أنا أحب أن أحضر ولكن لم تتيسر لى حتى الآن الترتيبات اللازمة للحضور فيه. والآن كما أظن صرت متأخرا بكثير. فلما سمع ذلك دعانى بدون تردد إلى الحضور فى المؤتمر كضيف على حسابه وقال لى «أنا اهيئ لك محلا فى خيمتى فى معسكر المؤتمر»، ودهشت من فضله وكرمه على من هو أجنبى وأصغر سنا بالنسبة إلى من كانوا حوله من الأصحاب. لم يقبل مولانا الأعذار التى قدمتها (وكانت تلك الأعذار بدون رغبة فى قلبى) وقال لى «لابد من حضورك».

روح التسامح

لن أنسى اليومين أو الثلاثة التى قضيتها فى معسكر المؤتمر. وكثيرا ما كان يجتمع

معه على مائدة الباندت جواهر لال نهرو والسيدة سروجنى نائيدو وغيرهما فى الفطور والغداء والعشاء. وكانت المحادثة لم تنحصر فى موضوع السياسة بل عمت واشتملت على جميع النواحى من تاريخ البشر والثقافة الانسانية. وكان الاستماع إلى تلك الأحاديث سرورا لكل مستمع. وكان يدهشنى مرة بعد أخرى معالجته للمسائل بطرق جديدة معقولة ونظره فى الأمور على نهج عصرى.

كان مولانا آزاد شديد الغيرة والتلهب فى الوطنية ولكن كان فى نفس الوقت محبا للشرفية. وكان متحليا بروح التسامح إلى درجة فائقة. كان المستر سرياش تشندر بوس يدعو الأمة حينذاك إلى مؤتمر كان من أهدافه أن ترفض الأمة فكرة التصالح والتراضى مع المستعمرين (وتلجأ إلى العنف) وكان ذلك ضد أهداف المؤتمر الوطنى وتحديا له. وجذابا للغاية لكثير من زعماء المؤتمر الوطنى. ولكن مولانا آزاد لم يكن منهم. فلم يتكلم بكلمة تؤلم المستر بوس أو تؤلم أعضاء المؤتمر الذى كان يدعو إليه ضد التصالح والتراضى المتبادل. وقد أبدى مثل هذه النخوة والشهامة مع العصبة الاسلامية وزعمائه مع أنهم سبوه وشتموه داخل جلساتهم وخارجها. ولكن مولانا لم يكن إلا مجاملا دائما فى إشاراته إليهم. ومع كونه راسخ العقيدة فى الوطنية ومعارضا لسياسة العصبة الاسلامية لم يهاجم شخصية من شخصياتها.

أما الطلبة وغيرهم من الشبان الذين قاموا ضده، فلم يكن يلومهم بل كان يلوم أولئك الذين أضلوهم عن سواء السبيل.

كنت أظن أن مولانا آزاد عالم من كبار علماء الدين كما ظن كثيرون غيرى ولا يعرف من السياسة وحل المشاكل على النهج الحديث إلا قليلا. ولكنى دهشت حينما علمت أن معالجته لكثير من القضايا السياسة كانت معالجة علمية اقتصادية وأحسن من معالجة كثيرين من الساسة الهنود الذين تلقوا علوما حديثة.

الدين والسياسة

مولانا آزاد لم يكن يخاف أن عقيدته السياسية تضر بسمعته. وكل منا يعرف الطريق الذى قاوم به مداهنات العصبة الاسلامية وتهديداته. وكفانا مثالا بأنه كان يؤم الناس فى صلوة العيدين فى كلكتة منذ سنين ويحضر آلاف من الناس ليستمعوا إلى خطبته، فقامت العصبة الاسلامية بفتنة جديدة وأخذت تحث الناس على أن يعزلوه عن الامامة فى صلوة العيدين. فاستنكر هذه الحركة آلاف من المسلمين الذين كانوا يحبونه وطلبوا إليه أن لا يستسلم لضغط زعماء العصبة الاسلامية. وأن لا يقبل اقتراحهم أن تكون هناك جماعتان لصلوة العيدين يؤم إحداهما مولانا آزاد ويؤم الأخرى إمام آخر ينتخبه زعماء العصبة. وذلك طلباً للتفاهم والتراضى بين الفريقين. ولكن مولانا آزاد لم يرض بذلك وصرح بأنه لا يسمح للاختلافات السياسية أن تؤثر فى الأمور الدينية، وأعلن بأنه لا يريد أن يؤم الناس فى العيدين إذا كانت ثلة قليلة من المسلمين تستنكر إمامته.

ولما خرج مولانا آزاد من السجن عام ١٩٤٥ أكرم على بأن أدخلنى فى زمرة المقربين فى حضرته، وقال لى بأنه قرأ فى بعض أحد تكر محاضرتى فى شان مهاراجا شيواجى راؤ فى موضوع وحدة الثقافة الهندية — وأضيفت إلى هذه المحاضرة تفاصيل فيما بعد ونشرت بعنوان «التراث الهندى» — وطلب إلى أن أشتغل فى خدمته كسكرتير فى مؤتمر شملا الذى دعى إليه اللورد ويول، فقبلته بدون تردد فكان أول يوم تشرفت بصحبته التى استمرت إلى آخر يوم من حياته.

وجدير بأن أذكر هنا واقعة تتجلى بها صفتان جليلتان من أخلاقه، وهما تمسكه بالصدق وحسه الطبيعية، وهى أن مولانا آزاد قام برحلته إلى لندن عام ١٩٥١ وزار المستر إتلى. وكان المستر كرشنا مينون حينذاك المندوب السامى فى

لندن. فلما عرف مينون المستر إتلى بمولانا آزاد قال له إن مولانا مع تضلعه من اللغة الانكليزية لا يتكلم بها من حيث المبدأ. فلما سمع مولانا ذلك سأل المستر كرشنا مينون أن يقول لمستر إتلى أنه لا ينكر فضل كرشنا مينون، ولكن الحقيقة هي أنه لا يصعب عليه مطالعة اللغة الانجليزية ولكنه لم يتعود على التكلم. لأنه تعلم الانجليزية بنفسه بمطالعة الكتب ولم يتمرن في التكلم بها وإلا لما تردد أن يتكلم معه بلغته.

الاسترضاء الوزارى

أنا أختم هذا البيان الوجيز بذكر واقعة أخرى يظهر بها كرمه وفضله واحترامه لمن كان يشاركه في العمل أو يعمل تحت إشرافه. وهى أن رجلا من كبار الرسميين جاءنى يوما وكان في حالة شديدة من الحزن والضيق — وأنا أسميه في هذه القصة باسم المستر ايكس (X) — وقال بأن مولانا آزاد أصبح ساخطا عليه وسجل سخطه على ملفة أوراقه. فطلبت الملفة وطالعتها فوجدت فيها أن المستر ايكس لم يذكر بعض الحقائق الملائمة التى لابد من ذكرها. فقلت له ما الذى دعاك إلى ترك هذه الحقائق؟ فأجاب بأنه ذكرها فعلا حينما قدم الملفة أول مرة، ولكنه نسى أن يكررها لما قدم الملفة في المرة الاخيرة فقلت له إنه لا يتوقع من الوزير أن يطالع أوراق الملفة بأجمعها كلما تقدم إليه. فكان عليك أن تسجل ملاحظتك في المرة الأخيرة بايراد الحقائق اللازمة، حتى يكون الوزير مستغنيا عن المراجعة إلى ما كتبته أول مرة. ولكنى مع ذلك قلت لمولانا آزاد بأن المستر ايكس قد أتى بالتفاصيل اللازمة والحقائق الملائمة حينما رفع الملفة في المرة الأولى. فبمجرد ما سمع ذلك برأ المستر ايكس وكتب على الملفة بأنه لم يكن على الحق في ملاحظته في شأن المستر ايكس، وهو آسف عليه، فلما علم بذلك المستر ايكس غرق في بحر من الاندهاش، وقال كان يكفى

له أن يكتب أنه عفا عنى، لأنى لم أطلب ولم أتوقع أن يسجل أسفه على الملقة. فقال مولانا آزاد إنى جعلت حصلى على الملقة وطالبه أعضاء المكتب كلهم. فأظهرت الآن أسفى أيضا حتى يعرفوا أنك لم تكن على الخطأ.

السياسى الفيلسوف

إمام الهند المغفور له أبو الكلام آزاد

بقلم الاستاذ محى الدين الألوائى

ما زالت أنباء وفاة إمام الهند مولانا أبى الكلام آزاد موضع حديث فى الدوائر المختلفة العلمية والأدبية والفلسفية والسياسية. فلا عجب أن امتد أثرها وتردد صداها فى المحافل العلمية والمراكز السياسية على حد سواء، لأنه كان علما من أعلام الهند البارزة، وقطبا من أقطاب العالم الاسلامى، وزعيما فيلسوفا وسياسيا محنكا فى القرن العشرين.

إن مولانا أبا الكلام آزاد كان محدثا بارعا وخطيبا مصقعا وأديبا كبيرا عرفه الشرق وأحبه ونهل من علمه فأخلص له. وهو عالم ضليع تعمق فى دراسة الدين واشتهر بتفسيره للقرآن الكريم باللغة الاردية «ترجمان القرآن».

وبدأ أبو الكلام آزاد حركاته السياسية وخدماته القومية والوطنية بتحرير صحيفته الأسبوعية «الهلال»، لتنوير الرأى العام الاسلامى فى الهند حول المشاكل التى تواجه تركيا والأقطار الاسلامية الأخرى على أيدى المستعمرين، ولتنظيم صفوف المسلمين فى الحركة الوطنية. وبلغت مجلة «الهلال» رواجا واسعا إذ كانت تصدر لها أكثر من عشرة آلاف نسخة. وجاءت الحرب العظمى الأولى فازداد رواجها إلى خمسة وعشرين ألف نسخة.

ولكن العهد لم يطل بها فقد وجدت السلطات البريطانية فى «الهلال» منبعا لا ينضب لانتقاد الحكومة وأداة فعالة فى تنظيم صفوف أبناء الهند تحت لواء

الوطنية الموحد فصادرتها. ولكن مولانا آزاد لم يستسلم فأصدر صحيفة أخرى سماها «البلاغ»، وكان مصيرها كسابقتها. وفي الأخير اعتقلت الحكومة مولانا آزاد.

واستمر في كفاحه ضد الاستعمار وفي سبيل تحرير الوطن. ولم تستطع ضروب من العذاب والسجون التي لاقاها في حكم الانجليز من إرجاعه عن هدفه. وفي حركة «الخلافة» الشهيرة سيق إلى السجن فقدم عريضة دفاعية تألفت من ثلاثين صفحة، ولكن قررت السلطات الانجليزية أن جزاءه على تقديم تلك العريضة هو السجن بالأشغال الشاقة المؤبدة! وكان أحد الأعمدة الأربعة للهند الحديثة التي تتمثل في غاندي، آزاد، نهرو، قدواني. وقد قضى مولانا آزاد في السجن أكثر من أحد عشر عاما، وكان يرأس المؤتمر الوطني الهندي الذي قاد الهند إلى الاستقلال في الأعوام التي تعد من أصعبها في تاريخ الهند.

مولده وأسرته

ينتمي نسبه إلى عائلة عريقة يرجع تاريخها إلى أيام «أكبر» امبراطور الهند المشهور. و ولد في مكة سنة ١٨٨٩ حيث أقام والده بضع سنين بعد أن غادر الهند فرارا من طغيان المستعمرين عقب الحركة الوطنية الأولى، و ملتجئا إلى صحاري جزيرة العرب. وكانت أمه من عائلة عربية في المدينة المنورة. واسمه الحقيقي «محي الدين أحمد» ولقبه المشهور «أبو الكلام آزاد» وأتم دراسته الابتدائية عند والده في مكة المعظمة والمدينة المنورة. وكانت عائلته من جانبي الوالد والأم مضرب الأمثال في العلم والفضل والحكمة والفلسفة.

واشتهر منذ صغره بالذكاء والفطانة والفهم السريع والقوة الحافظة الجبارة حيث تدهش أقرانه وزملاءه. وفي سنة ١٨٩٨ عادت العائلة إلى الهند وأقامت في كلكتا. وقد طاف مولانا آزاد في عنفوان شبابه بالعراق و إيران ومصر وتركيا وفلسطين، واتصل بزعمائها ومصلحيها الكبار، وصقلت هذه

الرحلات والزيارات عقله ونورت ذهنـــه وفتحت آفاقه حتى أصبح فذاً في التجارب وفريداً في الخبرة.

نشاطه العلمي والسياسي

وبدأ نشاطه العلمي ولم يتجاوز بعد الخامس عشر من عمره فأصدر مجلتـــه الشهيرة «لسان الصدق». وكان يتبادل الرسائل والخطابات وهو في الرابع عشر من عمره، مع العلامة الشهير مولانا «شبلي». وكانت مقالاته في شتى المواضيع تنشر في مجـــلة «مخزن» التي كانت تصدر من لاهور. وفي سن الثلاثين من عمره كتب تاريخ حياته المعروف باسم «تذكرة»، وتتجلى منها فلسفته الثورية ومقدرته العلمية وعقيدته السياسية. وكتبها وهو في السجـــن ولم يكن لديه مرجع ولا ملاذ إلا حافظته الحفلة، فتمخضت في مجلدين ذاكرته. وهذا الكتاب الذي كتبه مولانا آزاد في اللغـــة الأردية آية في الدقة والبلاغة وروعة الأسلوب، ويعتبر من أروع المؤلفات في الهند والباكستان. وتتجلى فلسفته الأساسية من عبارة جاءت فيها ما معناها:

«لا أستطيع أن أؤمن بأمر وأقره قبل أن أغربله بغربال عقلي وأعرضه على محك عقلي».

وأما فلسفته الدينية فتلخص في قول وضعه منذ عهد بعيد إذ قال:

«إن أثمن الكنوز التي قـــدمها الدين الحنيف للعـــالم هي رسالة الديموقراطية والتساوي بين البشر. أنا مسلم وأعتز باسلامي وبأن تقاليد الاسلام تراثي، وتعاليم الاسلام وتاريخه وفنونه وآدابه وحضارته هي غناي وثروتي. فواجبي أن أحتفظ بهـذا التراث وهذه الثروة».

ولقـــد كرس أبو الكلام آزاد حياته في تحقيق هـــذه المثل العليا و رفع علم

الديموقراطية وخـدم أمته ووطنه باخلاص وإعانه المطلق بتعاليم الاسلام وفطنـته الواسعة بأمور الحياة. كل هذا وذاك قد وسع نظرته إلى المشاكل ودفع شخصيته إلى مدارج الكمال وميز منظاره الخاص الذى ينظر به إلى قضايا العالم بميزات شتى. وأسرد الآن مقتطفات من خطبة مولانا آزاد ألقاها مفتتحا لمؤتمر منظمة « يونسكو » المنعقد فى نيو دلهى عام ١٩٥٦ للميلاد. وتبدو منها جليا سعة اطلاعه على التطورات العلمية والقضايا العالمية فيقول:

« ومن أهم المتناقضات فى عصرنا الحاضر أنه بينما نرى جميع الأمم والشعوب تنشد السلام وترنو إليـه. فان حكومات العالم تنفق على الاستعدادات الحربية ما يفوق بكثير عما تنفقه فى سبيل أغراض السلام. وكما لا يخفى عليكم فان ميزانية منظمة « اليونسكو » لا تتعدى عشرة ملايين الدولارات. وإذا ما قارنا هذا الرقم بآلاف الملايين التى تنفقها دولة واحدة من الدول على أغراض التسلح فلا يسع المرأ إلا أن يتساءل إذا ماكانت موجة من الهوس والجنون الجماعى قد حلت بالعالم أجمع؟ أضف إلى هذا كله أن قسما كبيرا من هذه الميزانية الضئيلة للنظمة ينفق على جهازها الادارى. وإنى أعلم أن إدارة ما لن يتسنى لها أن تنتظم إلا إذا توفر لها ما يدير شؤونها. فليس هناك فائدة ترجى من وراء ترداد الحقيقة القائلة بأن ما يبقى بعد حسم النفقات الادارية يكاد أن لا يفى بنفقات المشاريع التى تضطلع بها المنظمة. وطبيعى أنه اذا قدر لنا أن نراقب النجوم فعلينا أن نجهز أنفسنا بالمنظار الضرورى لذلك. على أننا يجب علينا أن لا نسمح لأنفسنا بالانهماك بهذا المنظار إلى درجة تنسينا مهمة مراقبة النجوم ».

وأردف مولانا يقول:

«وإن الاسباب التي أدت إلى شن الحروب في الماضي قد أصبحت في عصرنا هذا بالية عتيقة. أما الآن وقد أحرز العالم هذه المدى من التقدم في الميادين العلمية والفنية فليس هناك ما يحول بين أي فرد وتمتعه بالقدر الكافي الذي يضمن له أن يحيى ويعيش عيشة راضية. وإذا قدر للعالم أن يحل مشكلة تزايد عدد السكان، وهو الموضوع الذي تلعب فيه التربية دورا هاما. فان أسباب الصراع الاقتصادي بين الأمم والأفراد ستؤول إلى الزوال. وعلى النحو لم تعد النظم الاستعمارية ذات بال ولا تعتبر في مصاف العوامل الحيوية الهامة. والواقع أنها في كثير من الأمصار قد ولت إلى غير رجعة وحتى في البقاع التي لا تزال هي في الوجود فان أيامها قليلة معدودة. وكذلك نظرا للادراك المتزايد في مختلف أرجاء العالم والاعتراف عبدأ حق تقرير المصير فان العادة في الاتجاه إلى الحرب لاعتبارات إقليمية أو قومية أصبحت من العادات البالية».

«ولو كان الانسان أكثر تعقلا لكانت الفرصة لاقامة السلام في العصور الحاضرة أحسن منها من أي وقت مضى. ولكن رغما عن هذا فان العالم اليوم فريسة للتوتر والشكوك والوجل والحقد. وهنا لا يسعني إلا أن أتساءل ما هي الأسباب الرئيسية لهذه الأوضاع؟ وأخالكم توافقون على أن مردها إلى الصراع ما بين المبادئ والمثل. فالصراع القائم اليوم هو صراع فكري وليس بمادي. ويقوم الآن في العالم معسكران: معسكر للرأسمالية ومعسكر للاشتراكية. وإن هذا الانقسام بين المعسكرين لا يقوم على أسس قومية فحسب بل يرد إلى حد ما إلى الصراع بين المبادئ التي تدين بها شعوبها. ويلاحظ أننا نجد في كل بلد مؤيدين للمعسكر المضاد الأمر الذي

يطبع الصراع الحالى بطابع الحرب الدولية والحرب الأهلية على حد سواء. فلا عجب والحالة هذه أن يؤدى الصراع الحالى إلى كل هذه المرارة فى سائر الجهات. ولما كان هذا الصراع يستمد جذوره من الصراع بين المبادئ والمثل، فلا مندوحة لنا من مكافحته بنفس السلاح أى بسلاح المبادئ. وعلى هذا لا يسع لمنظمة «يونسكو» أن تتجاهل هذا الصراع. وعندى أنه من واجب المنظمة أن تضع تسوية لهذا الصراع الفكرى، وأن تتقدم الدول العالميـــة باقتراحات تتضمن حلا له. ولا مشادة أن الصراع الفكرى من المشاكل القائمة حقيقة فى إهماله ما يعرض الانسانية إلى الخطر».

وأضاف يقول:

والخطوة الأولى فى سبيل التوصل إلى حل لهذه المشكلة تأتى عن طريق الاعتراف بالحقائق والوقائع. وعلينا أن نعترف بصراحـــة تامـــة وبدون تهيب أنه ليس من الممكن محو إزالة معالم المثل التى ينافح عنها كل من المعسكرين. ولا أعتقد أن أحدا فى تمام حواسه وعقله يقول بامكانيـة حمل أمريكا أو الاتحاد السوفياتى على اعتناق المبادئ التى يدين بهـا الفريق الآخر. والواقع أن العالم الآن كما عهده فى السالف لم يشاهد قيام وحدة فى المبادئ والمثل القائمة فيه. فبلدان العالم خلال الأجيال الغابرة اعتنقت مبادئ ومعتقدات يختلف بعضها عن بعض. فما الذى يمنعنا والحالة هـــذه أن نقر التباين القائم بين هذه المبادئ والمثل بنفس الروح التى اعترفنا فيها باختلاف الأديان والمعتقدات».

واستطرد مولانا يتول علا المبادئ التى يتمسك بها كلا الفريقين والأسس التى

تقوم عليها تلك المبادئ فقال :

«ولأن الصراع بين النظامين يقوم على اعتبارات المبادئ فمن واجب منظمة «اليونسكو» ومن مسؤولياتها أن تحاول لايجاد حل لهذا الصراع وأن هذا الحل يجب أن يقوم بادئ ذى بدء على مستوى فكرى ثقافى وعلى أساس الاعتراف بالحقيقة الواقعة بأن هناك هذين النظامين ولا مندوحة لها من البقاء. وعلينا فى نفس الوقت أن نسلم بأن من حق كل من النظامين أن يعمل للترويج إلى مبادئه على شرط أن يأتى هذه الترويج على وجه سلمى منظم. وإن منظمة اليونسكو تدين وتعترف بحرية الرأى على أكمل وجه كما أن مطالبة الفريقين لهذه الحرية وتطبيقها تتمشى مع روح هذه المنظمة. فى حين أن من حق كل من هذين النظامين أن يعبر عن وجهة نظره وآرائه بحرية كاملة ليس لأى منهما من حق أن يعمد إلى الوسائل الهدامة العنيفة وإننا جميعا نعترف من حيث المبدأ بحق أى شعب من شعوب العالم بتقرير مصيره. والنتيجة الطبيعية لهذا الاعتراف، هى أن من حق كل أمة أن تتخذ النظام الاجتماعى أو السياسى الذى يروق لها. وأن أمة ما لا تملك أى حق لفرض إرادتها على الآخرين».

كيف كان يقضى أيامه

كان مولانا آزاد يستيقظ من نومه فى الساعة الخامسة صباحا، وعقب الفراغ من الاجراءات الضرورية والافطار يبدأ فى استقبال الزوار ويناقش معهم فى الأمور السياسية والأدبية والعلمية. وتدوم هذه الحالة إلى الحادية عشرة أو إلى وقت الظهر فى أغلب الأوقات. ومن المعلوم أن الناس يلتجئون

إليه فى الأمور الصعبة والمسائل العويصة لايجاد حل سريع وتسوية معقولة ومقبولة حول تلك المعضلات. ولمساعدته على مواجهة هذه المسائل والوصول إلى حلول مطالعته الواسعة العميقة وخبرته وحنكته السياسية وسرعة خاطره وحذقة فهمه. ولم يلتجئ إلى رحابه شخص فى مسألة ما إلا أن وجد عنده مفرجا منها، ولم يعرض عليه عقدة أو مسألة شائكة إلا أن وجد لديه حلا مجديا لها. ولم يكن يدوس أنفه فى سفاسف الأمور ويضيع أوقاته النفيسة فى المناظرات القشرية والبحوث السطحية أو فى قيل وقال ويلبس دائما زيا عاديا نظيفا بدون تبختر ولا تقشف. ويمتلك فى مكتبته دائما أحدث الكتب وأروعها فى شتى اللغات، الانجليزية والفارسية والعربية والاردوية والفرنسية وغيرها من لغات العالم الحية فى مختلف المواضيع. ويصل إليه يوميا مختلف الجرائد والمجلات من إيران وأفغانستان وتركيا والبلاد العربية والأوروبية. وكان يصرف وقتا كافيا يوميا فى مطالعة تلك المجموعة النفيسة والاطلاع على مجريات الأمور فى شتى بقاع الأرض. ومنذ أن استقلت الهند وعين وزير المعارف فى الحكومة المركزية كان يأخذ بيد الملايين الهنود إلى شاطئ النور والعرفان ويوجه عناية خاصة إلى النهضة العلمية إلى طول البلاد وعرضها.

ووصفه المهاتما غاندى « إنه لا يبارى فى العلوم الاسلامية كما كان متبحراً فى اللغة العربية، ووطنيته متينة صادقة كايمانه بالاسلام ».

وتمنى كثيرا أن ينسحب من ميدان السياسة ويكرس أوقاته ونشاطه فى سبيل العلم والأدب، ولكن آلاف المسائل السياسية العويصة والظروف التى أحاطت بالوطن وشعبه قد أجبرته أن يبقى فى كرسى السياسة. وهذه الأيام التى قضاها فى ميدان السياسة يبلغ صداها فى آذان كل فرد فى القارة الهندية بدون تفريق. ولم يتصل به أو يتعرف عليه شخص ما إلا وقد اغترف من منهل علمه وتشبع من

نور فيحته. وإذا كان مشهورا في السياسة والكياسة في الدوائر الدبلوماسية والسياسية كان معروفا مضرب الأمثال بالتبحر والقدرة الفائقة في البلاغة والفصاحة والخطابة في الأوساط العلمية والأدبية والفلسفية.

وإليكم اقتباسات من بعض الخطب التي ألقاها مولانا آزاد في المحافل الدولية وتساعدنا على إلقاء النور على النواحي السياسية والفلسفية الكامنة في أعماق قصيته. مثلا الخطاب الذي ألقاه في الجلسة النهائية لمؤتمر «يونسكو» المنعقد عام ١٩٥٦ بنيو دلهي بصفة كونه رئيس المؤتمر فقال:

«لقد حملتنا التطورات الأخيرة على أن نفكر بصفاء ووضوح. لقد كنا نطلق النفس بعد الحرب الكونية بأن النظم الاستعمارية ووسائل الاستغلال قد قضى عليها تماما وآلت إلى الزوال. ولقد كنا نأمل أن المحاولات التي قد تقوم بها دولة ما لاستغلال دولة أخرى لن تكرر. على أن الأحداث الأخيرة قد أثبتت أننا أسرفنا في التفاؤل، وأن العالم الجديد الذي ننشده ونتوخاه لم يولد بعد. فاذا كانت مثل هذه الأوضاع تقوى على الظهور على مسرح العالم رغم الدمار والويلات التي أنزلتها الحربان العالميتان على الجنس البشري، وعلى رغم الجهود التي بذلتها هيئة الأمم المتحدة وسابقتها جامعة الأمم، فليس بغريب على المرء أن يفقد أمله وثقته بمستقبل البشرية. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو «هل نسمح لليأس والقنوط أن يتسربا إلى نفوسنا لأجل هذه التطورات المفجعة؟» وجوابي على ذلك النفي القاطع. والنتيجة المعقولة التي يجب أن نخرج بها هي أن الأهداف السامية التي نتوخاها تتطلب منا جهودا أعظم وأشد مما بذلناها حتى الآن. فان كنا ما زلنا أبعد ما نكون عن أهدافنا

المنشودة فلزام علينا، والحالة هذه، أن لا نتوقف عن السير، بل نمضى فى الشوط ونسارع فى خطانا. وإذا قدر واعترضت سبلنا بعض العقبات فعلينا أن نضاعف الجهود للتغلب عليها. وإذا وجدنا أنه ليس بمجيب لندائنا ودعوتنا فعلينا أن نشدد ونلح فيها. والواقع أن مثل هذه الصعوبات يجب أن تشحذ عزائمنا وتولد فى نفوسنا الثقة والأمل. وعلينا أيضا أن نسير قدما بكل عزم وحزم وتصميم حتى نبلغ الأهداف المنشودة والغايات المطلوبة. وإن الطريق التى تكفل لنا النجاح وتمكننا من بلوغ مآربنا تأتى عن طريق بعث شعور جديد بين الأمم وإقناعها بأن المعتدى مقضى عليه بالعزلة ولن يجد من يؤيده ويعطف عليه. وإذا ما تيسر لنا إثارة الرأى العام العالمى لدرجة تبادر دول العالم معها إلى استنكار العدوان وأعمال العنف. فان أمة من الأمم لن تجرؤ على الاقدام على الأعمال العنيفة وارتكاب العدوان. ولذلك يحتم علينا أن نضاعف من الجهود المبذولة لتقوية المنظمة العالمية وتعزيزها بحيث تصبح معقلا للرأى العام الذى يحمل المعتدين على أن يكفوا أو يقلعوا عن أعمالهم العدوانية ».

واستطرد يقول:

« كلنا نعلم أن منظمة « اليونسكو » ليست بالمنبر الذى يصلح ويليق لمناقشة القضايا السياسية، ومع ذلك إنى أعتقد أن من واجب منظمة « اليونسكو » أن تعمل طبقا لرد الفعل المعنوى الذى يخلف فى النفوس كلما تعرض سلام العالم للخطر ».

ولما أذاعت البرقيات بأنباء النزو الثلاثى على مصر ألقى المرحوم « أبو الكلام آزاد »

خطبة تاريخية تهز مضاجع المستعمرين وتقرع آذان المعتدين. وكان يتحدث فى دورة مؤتمر «اليونسكو» فى نيو دلهى فقال:

«وقد سبق لى أن بينت منذ لحظة فى شىء من الأمل أن الأسباب التى كانت فى الماضى تدعو إلى شن الحروب والتى تنحصر فى الاعتبارات الاقليمية والدينية والقومية قد أصبحت فى عصرنا الحديث بالية غير مألوفة. وأنه لمن دواعى الأسف والحزن العميقين أن أضطر إلى الاعتراف بأن الأمل الذى علقت به نفسى قد أخفق. والآن دلت الأحداث التى وقعت فى مصر منذ أيام على أننا ما زلنا نمارس الأساليب العتيقة والدبلوماسية البالية. وأننا ما زلنا فى بعد عن تحقيق أحلامنا. أجل إننا فى منظمة «اليونسكو» ليس من مهمتنا أن نعنى بمثل هذه القضايا السياسية ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نتغاضى عما لهذه القضايا من تأثير فى ميدان التفاهم الدولى الذى نعمل من أجله. وإنى لأرجو من حضراتكم بكل تواضع أن تبادروا معى للنظر فى هذه الأحداث ودرسها بعين الجد والانصاف. لقد اجتاحت القوات الاسرائيلية الحدود المصرية لمهاجمة مصر بينما قامت بريطانيا وفرنسا بتوجيه إنذار إلى مصر، ثم ما لبثت قاذفاتها أن تهاجم الأرض المصرية. واسمحوا لى أيها السادة، أن أسألكم هنا سؤالا، أين تقف هيئة الأمم المتحدة من هذه الصورة القائمة؟ وإنى لا أستطيع أن أتصور كيف أن دولتين عظيمتين كبريطانيا وفرنسا — وهما من الدول المؤسسة لمنظمة الأمم المتحدة — تقدمان على مثل هذا العدوان الغاشم ضد مصر، كأن منظمة الأمم المتحدة أو مجلسها الأمن ليس

فى عالم الوجود! تصوروا أيها السادة».

وأضاف يقول

«ومن دواعى الأسف أن النتيجة التى يمكننا أن نخرج بها بعد كل هذا التفكير، هى أن المنظمة لم توفق بعد إلى تهيئة العقليـــة السلبية أو توفير الاحترام الضرورى للسلام. وهى العوامل التى لا مندوحة لمنظمة عن تهيتها وإعدادها، إذا قدر لنا أن نتفادى ما يهددنا من جراء تقدم العالم فى الميادين العلمية و الفنية من أخطار هذا التقدم العلمى والفنى الذى يعتبر بمثابة السيف المسلط على رقابنا. فلا مندوحة لنا، والحالة هذه، إلا أن نضاعف من جهودنا فى سبيل بناء تحصينات السلام وغرس مبادئ الأمن والطمأنينة فى عقول البشر وأفكارهم. ولعمرى فهذه هى عين الأهداف الأساسية التى قامت هذه المؤسسة الجليلة من أجلها. وإنى أرى لزاما على هذه المنظمة حتى فى أوقات الشدة أن تتحول إلى ما يشبه ضمير العالم الحى كقوة ديناميكية فعالة تعمل لصالح البشرية جمعاء».

وبالجملة كان مولانا أبو الكلام آزاد مفكرا سياسيا و أديبا قديراً وكاتبا مجيدا. ويكتب العلامة المشهور «يوسف على مهر» حول مؤلفات آزاد و تصانيفه:

«إن أبا الكلام آزاد قد طالع الكتب الرئيسية فى العلوم الشرقيـــة والغربية بتعمق بالغ، وأصبحت كتبه التى وضعها فى شتى المواضيع، والخطب التى ألقاها فى مختلف المناسبات، والمقالات التى نشرها فى عدة مجلات وجرائد، محل تقدير واحترام لدى أولى الألبـاب فى أرجاء العالم».

وكتب المهاتما غاندى فى مقدمة تاريخ حياة مولانا آزاد الذى وضعه المستر مها ديو ديسائى :

« حصل لى الشرف العظيم أن أعمل مع مولانا آزاد فى الميدان الوطنى والقومى منذ عام ١٩٢٠ . ولا يدانيه أحد فى التبحر فى العلوم الاسلامية كما أنه متمكن فى اللغة العربية . وهو الآن الرئيس الأعلى للمؤتمر الوطنى الهندى . ويجب على كل فرد يريد الاطلاع على مجرى السياسة الهندية أن لا يغفل أو يتجاهل عن هذه الحقيقة » .

من خطبته التاريخية أيام الاضطرابات بدلهى

ألقى مولانا أبو الكلام آزاد خطبة تاريخيـــة هامة فى « جامع دلهى » أيام الاضطرابات بدلهى عام ١٩٤٧ . فقال ما معناه :

« أيها المواطنون ! إن هذه القمة التاريخية ليست بجديدة على ، فقد ساعدنى الحظ وسمح لى القدر لأن ألقى بين ظهرانيكم خطبا عديدة من قبل أيام أن كان الفرح يهلل وجوهكم والغبطة تثلج صدوركم والكرامة ترفع رؤسكم . وبينما الآن أرى آثار الفزع بادية فى وجوهكم ومظاهر القلق ظاهرة على أساريركم ، أعود بذاكرتى إلى الحوادث الماضية والأيام السابقة إذ كنت أدعوكم فيها إلى شاطئ النجاة ، فقطعتم لسانى ، وإذ كنت أناديكم على قلبى إلى التعقل للأشياء والتنبه إلى الظروف فقطعتم أيادى ، ونبهتكم إلى المخاطر التى كنت أراها منتشرة فى أفقكم وأنتم فى غفلة عما تساقون إليه وغفوة عن أساليب التضليل والتمويه ، ولم تصغوا إلى ندائى ولم تلبوا دعوتى . فوقعت ما كنت أتوقع واضطربت الأحوال وتأزمت الأمور ، وكاد الزمام أن يفلت من الأيدى . وها

هو الآن بين ظهرانيكم بقلب حائر وصدر مكسور — أيها المواطنون! لا تتركوا للخوف ثغرة للتسرب إلى صفوفكم، فانه داء عضال، ولا تسمحوا لليأس بجوة للتغلغل إلى قلوبكم، فانه قاطع الأوصال ومهبط الهمم، فاصبروا واثبتوا. إن هى إلا نتائج أعمالكم، فلا يلومن أحد إلا نفسه. وقلت لكم مرات من قبل وأكرر هذا القول مرة أخرى، ألا وهو: ابتعدوا عن التذبذب والشك وتسلحوا باليقين وقوة الارادة. واجعلوا العزم رائدكم، والحزم قائدكم، وسيروا إلى الأمام بخطى ثابتة، وتقدموا إلى ميدان العمل والنجاح بقلوب مليئة بالأمل والرجاء. واستأصلوا من عقولكم الخمول والكسل، فان الخوف مجلبة المصائب واليأس منبع الهزائم.

«أيها المواطنون! اجعلوا تطورا أساسيا فى وجهات نظركم، وتسلحوا بعقول ثابتة وأفكار صائبة. فان أسلافكم العظام قد ركبوا البحار وعبروا الجبال وتحملوا المشقات فى سبيل المجد والكرامة. ولم يعرف اليأس أو الخوف سبيلا إلى قلوبهم ولم يفتروا ولم يضجروا ولم يفشلوا فى الوصول إلى أهدافهم النبيلة. فأنتم أبناء هؤلاء العظام، فكيف تسمحون لأنفسكم الفرار خوفا من المصائب وجزعا من الأهوال، تاركين وراءكم تراثكم التاريخى وأماناتكم التى تحملتموها على عواتقكم. فان فعلتم ذلك فيكون جريمة لا تغفر فى حق أجدادكم العظام ووصمة عار فى جبين تاريخكم ونقطة سوداء فى مستقبلكم».

ولبى إمام الهند مولانا محى الدين أحمد أبو الكلام آزاد إلى نداء ربه وانتقل لجوار رحمته فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة صباح يوم السبت الموافق للثانى والعشرين من شهر فبراير عام ١٩٥٨. ودفن فى الميدان الفسيح الواقع بين «جامع دلهى» التاريخى و «القلعة الحمراء» المشهورة، فى الساعة الثالثة والدقيقة العشرين بعد الظهر يوم السبت المذكور.

مولانا ابو الكلام آزاد

وآثاره الباهرة

للأستاذ عبد الحليم

قد راح إلى رحمة الله تعالى صاحب العز والسعادة وزير المعارف للهند ورئيس المجلس الهندي للاكتشافات الطبيعية والروابط الثقافية مولانا أبو الكلام آزاد يوم السبت من شهر فبراير سنة ١٩٥٨ للميلاد. ولا شك أن بوفاته غربت شمس من العلم الغزير، والأدب الرفيع، والخطابة البالغة، والسياسة الطاهرة من الكيد والدهاء، بل انقضت دورة ذهبية للعلماء المجددين المتأخرين الألمعيين. ولعل فى مثلهم قيل « فرسان بالنهار ورهبان بالليل ».

نشأته وتعليمه

ولد رحمه الله بمكة المكرمة سنة ١٨٨٨ للميلاد ونشأ وترعرع تحت حضانة أبيه المولوى خير الدين/" ، الذى كان عالماً متبحرا ورجلا تقيا من أتقياء زمانه، وكان من سكان مدينة دهلى القديمة (عاصمة الهند اليوم). وبعد أن تحمل هو وأسرته كثيرا من المصائب والعقوبات للثورة الهندية سنة ١٨٥٧ للميلاد، غادر إلى مكة المكرمة مهاجرا، فأقام بها زمانا. وفى خلال مدة قيامه تزوج مع فتاة عفيفة، بنت الشيخ محمد ظاهر الوطرى، التى منحه الله تعالى من بطنها ابنا سمى بأحمد محى الدين المدعو بأبى الكلام آزاد فيما بعد.

ثم إن الزمان دار وسار وانقلبت الأحوال فى الهند، فسافر مع عائلته إلى الهند وعزم على الاقامة بكلكتا. وإنما استحسن القيام بها دون مدينة أخرى من بلاد

الهند، لأن كثيرا من تلامذته وأتباعه المسترشدين منه كانوا يسكنون فيها، وهم كانوا يعظمونه وأسرته تعظيما بالغا وينزلونه منزلة مقتداهم وإمامهم الديني. فهناك في كلكتا بالغ المولوى خير الدين د- جهده أن يربي ابنه أحمد محي الدين، فيروز بخت (اسمه العرفي التاريخي) أحسن التربية ويعلمه علوما متداولة في ذلك العصر. فلذلك قرر له أساتذة اختصاصيين، فما زالوا يعلمونه ويدرسونه مدة ماشاءها الله، مع كال الرعاية للاداب المتوارثة والرسوم الأهلية العريقة.

وما أرسله والده الكريم إلى أية مدرسة من المدارس العصرية، لأنه كان يرى أن تعاليم ودراسات تلك المدارس أصبحت ناقصة بدون جدوى وأيضا غير موافية بمقتضيات العصر، على أنها كانت تحت إدارة الحكومة البريطانية التي تأبى طبيعته السمحة أن يبعث إليها ابنه، والغيرة القومية ما كانت تأذنه أن يرسله إلى تلك المدارس التي تتظلل عليها أيدي الأجانب الظالمة الغاصبة، كما يذكر ذلك مولانا رحمه الله في كتابه «تذكرة» فيقول:

«.... لكن والدي المرحوم لم يرتض بأن يرسلني إلى أي مدرسة من المدارس، وذلك لأن المدرسة العالية الرسمية (بكلكتا) كانت لديه غير معتبرة، بدون شأن ولا أهمية، فما كان يهتم بمعارفها المدرسية، وبالحقيقة إن تلك المدرسة كانت كذلك، ومع ذلك كان هو لا يحب أن يرسلني للتعلم والتدرس خارج مدينة كلكتا، على أسلك مسلكا لا يعجبه فيما بعد. فبناء على هذه الحقيقة، قد اختار أن يعلمني نفسه أو يقرر لي أساتذه نابغة في علومهم فيقيموا بيتي ويعلموني. فلا شك أن في زمان تدرسي وتعلمي ما وطئت قدماي أرضا عدا أرض بيتي، ولا تنفست إلا في فضاء أسرتي. أما إذا قضيت ذلك الزمان فقد سافرت أسفارا طويلة بعيدة النواحي ونائية الجهات من خارج الهند».

ولعله يشير بهذا إلى رحلاته إلى بلاد الشرق الأوسط من مصر والشام والعراق

وفي موضع آخر يقول:

« إن الناس يعتادون أن يقضوا صباهم في الألعاب الرائجة في زمانهم لكن كانت حالي على عكس حالهم . حينما كنت ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة كنت معتادا أن أذهب بكتابي المدرسي وأعتكف في زاوية لا تهتدى إليها أنظار الناس. لابد أنك رأيت مرسة دلهوزى، واقعة حذاء الوسطة العامة . كانت موسومة وقتذاك على العموم بـ «لال دكى» وكانت مزدحمة مفعمة بالأشجار المورقة الباسقة من سائر نواحيها، وكان في داخلها مساء رحب ومقعد للجلوس . ولا أعلم هل الأشجار موجودة الآن أم لا. فإذا أنتهز لي الفرصة ، كنت أخرج من بيتي بكتابي وأتوغل في تلك الأشجار الملتفة وأجلس تحت ظلالها، بعيدا عن أنظار الناس، منهمكا في دراسة الكتاب» .

ومن القطعتين الصادر ذكرهما تبين أن طبيعة مولانا آزاد كانت مائلة إلى التوحد والانفراد من بدايتها . ولذلك السجية دخل عظيم فيما أتى به مولانا المرحوم من الأمور السياسية الهامة والعلمية والأدبية والدينية . فأصبح آية من آيات الله وبرهانا على معجزات صنعه في البشر :

وليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

حياته السياسية السامية

في سنة ١٩١٢ أصدر من كلكتا جريدة «الهلال» . وقد كانت مزدانة بالموضوعات الهامة مما يتعلق بالدين وبسياسة المسلمين الهنديين العصرية على الخصوص، وبثقافتهم الرائعة القديمة على العموم . وهي كانت تكشف عن مكائد الحكومة الافرنجية وتفشى

دسائسها وتهاجم عليها بتائيد الحق و إدحاض الباطل. فلذلك قضت الحكومة عليها بعد سنوات فسلبت مبلغ ضمانتها للطبع والنشر، وحبست مولانا المرحوم فى سجن رانجى، فمكث فى السجن نحو ثلاث سنين لكن لم يزل قلبه متدفقا بخدمة الملة والدين و متفكرا فى شؤون المسلمين وغيرهم من أهالى وطنه العزيز، فكتب فى أيام حبسه أحسن معالمه و أجود آثاره وهو «ترجمان القرآن» قد أتى فيه مولانا رح ببيان مطالب و نكات الآيات القرآنية على منوال حديث ومنهاج جديد فى اللغة الأردوية البليغة التى كان هو فيها خطيبا مصقعا ومنشئا بارعا ومنفردا فى أسلوبه الرائع المتعال. ثم إذا أطلق من السجن أصدر جريدة أخرى سياسية على طراز «الهلال» وهى «البلاغ» لكن مامضى عليها عدة شهور حتى ألجئت على قطع إشاعتها ونشرها. وكان السبب لذلك يرجع إلى ضغط الحكومة وسياستها العقيمة السوداء.

ثم إذا أحس أن الحكومة الافرنجية لاتزال تعاكسه فى عزائمه وتعارضه فى أى مشروع هام لافادة المسلمين على الخصوص و أهل الهند على العموم، ألحق نفسه بنهضات المجلس الشعبى للهند و تواصل بثوراتها تواصلا عمليا حارا. فأصبح من أركانه و زعمائه الكبار فى مدة قليلة. وكان ذلك العصر عصر «ثورة الخلافة» و «عدم الموالاة» مع الحكومة. فقدم أفضل التضحيات منه فى سبيل تحرير الوطن و إنقاذه من مخالب أعدائه الأجانب. ولعله يشير إلى هذا الزمان نفسه إذا هو يستطرد قائلا فى كتابه «تذكرة»

> « إذا انقضى زمان تعلمى و تدريسى خرجت من محيط بيتى، فضاء أسرتى، و تفحصت عن مسلك جديد لنفسى فوجدته»

أصبح مولانا أبوالكلام آزاد رئيس مجلس الشعب الهندى وهو ابن خمس و ثلاثين فقط فى سنة ١٩٢٣ الميلاد. ولا شك أن كونه رئيسا بهذه السن لجماعة سياسية مهمة مثل مجلس الشعب الهندى كان من أسمى مفاخره لا يساهمه فيه أحد حتى الآن. ومنذ تلك الأيام صار المرحوم مدار النهضات القومية الوطنية فى الهند بجميع نواحيها. ومازال

رئيسا بالتعاقب والتوالى لمجلس الشعب الهندى منذ سنة ١٩٣٩ إلى ١٩٤٦ و إلى مقدمة الحرية الكاملة وكان أول زعيم هندى أخبر يبشرى أن الوطن على و شك الحرية و الاستقلال المنتظر منذ دهور.

ومدى عشر سنوات من أواخر عمره ظل وزير التعليم للهند فى المركز، و أفاد مجلس الوزراء المركزية بآرائه و إرشاداته الجيدة الثمينة. ولا شك أن وفاته ضربة شديدة لأهالى الهند و مأساة عظيمة لأولئك الذين تصدوا تأسيس الحكومة الهندية الحرة على أسس جديدة مبتكرة قوية، وعلى الخصوص لصاحب الفخامة جواهر لال نهرو رئيس الوزراء. فقال فى خطاب ألقاه بعد وفاته فى جمع حاشد، مبنا عن التأسف الشديد و والحزن العميق لرحلته.

• "الآن إلى من أذهب لمشورة والاستنارة إذا عن لى مشكلة سياسية، موفاته ظهر خلاء عظيم. ويتسع ذلك الخلاء من حين إلى حين فلا جبر لهذا الكسر الفادح".

آثاره الخالدة

ومن أشهر آثاره العلمية الخالدة هو كتاب «ترجمان القرآن» فى اللغة الأردوية العذبة، فهو تفسير لكلام الله العلام على طراز جيد يصقل العقول، و ينشط القلوب و يملأ الأرواح نوراً و ضياء وطمأنينة وقد استفاد فى تحقيق الآيات وتفهيم مطالبها بالعلوم القديمة والحديثة. فهو على هذا يجمع المعارف القديمة والحديثة، و بمطالعته يشعر القارى بل يوقن بأن القرآن الحكيم جاء هاديا و نبراسا لأى زمان «فلا يطفأ نوره ولا تفنى عجائبه».

وله مكتوبات كتبها فى محبس أحمد نكر إلى صديقه المكرم النواب حبيب الرحمن خان الشروانى المرحوم، لكن لم تصل إليه إلا إذا أطلق من السجن فى ١٩٤٥ للميلاد. وقد جاءت مجموعة هذه المكتوبات المسماة بـ «غبار خاطر» على أحسن الرشحات اليراعية

الأدبية العالية فى اللغة الأردوية، ليس لها فى تلك اللغة نظير فى المنثورات الحديثة ولا القديمة، وقد تجلى فيها قلمه الفنان الساحر بأسمى أساليبه الذى كان فيه منفرداً بذاته. وليس لأسلوبه رحمه الله عندنا اصطلاح إلا أن نقول أن نثره هو الشعر المنظوم. ومن خصائص نثره أنه كان يأتى بالأشعار الكثيرة لشعراء العربية والفارسية والأردوية النابغين فيها، بين قطعات نثره، فتظن أن تلك الأشعار قد قيلت لتلك الموارد نفسها، فيتهلل الشعر وينطق عن نفسه. هذا هو أسلوبه فى الموضوعات الأدبية الخالصة.

أما أسلوبه فى الموضوعات التاريخية فهو مختلف و مميز عن أساليب إنشاءه فى الموضوعات مراعيا بمقتضياتها و بما يلائمها من نعومة الألفاظ و غزارة المعنى و جلال التركيب و جمال التنسيق و سحر البيان. ويشهد على ذلك كله مقالاته القيمة فى جريدة «الهلال» و «البلاغ». وكثير من منشئى زمانه قد اقتفوا أسلوبه النادر الفاتن وتقلدوا بطرازه الخاص، لكن ما شفوا أنفسهم بنيل أملهم ففشلوا فى سعيهم حتى. أن مولانا المرحوم «فضل الحسن حسرت الموهانى» الشاعر النابغ فى الغزليات من اللغة الأردوية اعترف بذلك و قال مصرحاً:

«منذ قرأت منشورات أبى الكلام، لا أجد حلاوة فى منظوماتى.

فما زال ولا يزال نثره البديع العالى منارا شامخا لن يبلغ المنشؤن الفاضلون قمته، إلى عدة عصور وأجيال.

إن لمولانا المرحوم خطبات أنيقة حارة دينية وسياسية، فهى أيضاً نماذج الفصاحة العليا، والبلاغة النادرة المثال، مع أنها تاريخ للنهضة القومية الهندية.

شمائله النبيلة

كان رحمه الله رجلا تقيا ومتزنا بالأخلاق الفاضلة والسجايا الجميلة. ومن أجل شمائله النبيلة الجديرة بأن يقتدى بها، أنه ما كان يعارض أبداً أى معارض له دينى أو

سياسي، فما كان يحاوره ولا يخاطبه بالمطاعن والشتائم ولو أنه أصابه منه مثلها. فبذلك تظهر كرامة فطرته الكريمة وقداسة قريحته العبقرية. فهو منفرد بذاته في هذه الأسوة الحسنة السمحاء.

وكان هناك في شخصيته جوهر آخر خلق، عالي الشمم، وهو استقلال طبعه وثباته العظيم على الطريق التي قضى أن يسلكها ويدأب عليها. فهي أيضا مجية جديرة بأن نقلدها ونمثل بها في شعب حياتنا كلها. فانا رأينا كثيراً من الزعماء السياسيين أنهم تذبذبوا بين مسلك ومسلك، فحاروا وترددوا وتمايلوا في حياتهم السياسية من اليمين إلى اليسار أو عكسه. ولكن مولانا أبا الكلام ما خلق إلا أن اختار مسلكا قويما، فظل مستمرا عليه حتى آخر رمق حياته. وهي السجية الشريفة التي نالت درجة عليا في هيكل أخلاقه وقد صرحها كثيرا في صفحات «التذكرة»، وأنا متيقن أن كاتب سوانح حياته سوف لا يصرف النظر عنها.

ولمولانا سوانح حياته نفسه. وهي على وشك الطباعة والنشر. فلعلها ستكون كلمة أخيرة في تفاصيل حياته الطاهرة.

وبالختام أقول إن مولانا المرحوم كان روحاً أكثر منه جسداً، كان عقلا أعظم منه جسماً، كان فكرا أكثر منه رسما، وكان عملا أزيد منه علما، بل كان شعلة جوالة من نهضة وجذوة من ثورة ولمعة من حياة، ومناراً من الرشد والهدى لآ لاف من النفوس في الأيام الحالكة السوداء. ما يحق أن أقول والحق يقال، إن المؤرخ المستقبل إذا يؤرخ تاريخ نهضة تحرير الوطن العزيز من مخالب الأجانب، ويتذكر التفديات والتضحيات في سبيلها، ويكتب عن تقويم الحكومة الهندية الحرة على أساس الجمهورية المستقيمة، فلا بد أن يكتب اسمه السامي على مبدأ فهرست الزعماء الكبار الأخيار الأقطاب بحروف ذهبية متلألأة لا يذهب رواءها بمر الأيام وكر الليالي. طاب الله ثراه وجعل الجنة مثواه. آمين.

كلمة المغفور له مولانا أبى الكلام آزاد

فى الاجتماع العام لمجلس الهند للروابط الثقافية المنعقد فى شهر فبراير ١٩٥٨

كان صاحبنا الفقيد معنيا بتوحيد الشعوب العالميـة ثقافة و أدبا، فوجه دائما بالغ اهتمامه إلى توطيد الروابط الوثيقة بينها، و ذلك سعيا منه فى أن يتعرف العالم بالأسس الصالحة القويمة التى تعتمد عليها الانسانية، وتستمد منها نورا وهاجا للمعرفة والثقافة من أقصى العالم إلى أقصاه، ومن أجل هذا عنى بمجلس الهند للروابط الثقافية عناية خاصة، و أشرف على جميع شؤونها بنفسه، وعقد له اجتماعا عاما فى شهر فبراير الماضى و ألقى فيه كلمة قيمة. وما كنا نعرف أنها ستكون له آخر كلمة وتخطفه المنية منا قبل أن يرى أمانيه تتحقق، ونتحف القراء الكرام هنا بتلك الكلمة داعين إلى الله أن يوفقنا لتحقيق الغايات المنشودة.

أيها الأصدقاء!

إنى لأشعر بالغبطة والسرور إذ أرحب بكم إلى هذا الاجتماع العام لمجلس الهند للروابط الثقافية.

لعلكم تذكرون الحاجة المتزايدة التى دفعتنا — بمجرد استقلال الهند — إلى توطيد وتقريب الروابط الثقافية مع دول العالم الأخرى، أدركنا حينذاك أن أحسن وسيلة لتحقيق هذه الغاية هى تأسيس منظمة مستقلة تقوم بتمثيل الهند أمام العالم وتجعل عمله الرئيسى إزالة المغالطات والعصبية المنتشرتين ضد الهند فى مناطق العالم المختلفة. وضاعفتنا ضرورة أن الهند لم تجد فرصة ملائمة — خلال قرنين كاملين —

لتلعب على منصة العالم دورها الواجب. وذلك أنها بقيت طوال هذه المدة تنوء تحت سيطرة الحكومة البريطانية. وتمثل و تظهر للعالم مظهراً تختاره لها الحكومة البريطانية. ومن الطبيعي أن هذا التمثيل لم يتفق وصالح الهند أبدا، وإنما كان مساعداً على تحقيق الأهداف البريطانية. وما إن تمتعت الهند بالاستقلال حتى استطاعت أن تمثل أمام العالم تمثيلا حقيقيا و فى موقفها الحقيقى.

وكنا تناولنا المشكلة سنة ١٩٤٩ مستعرضين نواحيها، وكان النتاج الجيد تأسيس مجلس الهند للروابط الثقافية فى شهر إبريل ١٩٥٠. وكان الغرض من تأسيس المجلس — كما ينص دستوره — إنشاء الروابط الثقافية مع الدول الأجنبية، وأن نشاطه الجليل هذا لن يقف عند دولة دون دولة، بل سيستوعب العالم كله من أقصاه إلى أقصاه.

ومن الجلى الباهر أن تنهيد مثل هذا المقرر المتنوع والقيام بمثل هذا النشاط واسع النطاق لا يمكن دفعة واحدة. فقررنا للبداية أن نتقدم خطوة خطوة لنضمن نجاح الجهود الأولية ونأمن الفشل فيها. فأجمعنا على توزيع نشاط المجلس إلى عدة شعب متعلقة بالمناطق المختلفة. واستهللنا العمل بشعبة الشرق الأوسط وتركيا ومصر.

ربما يتساءل بعض الأصدقاء لماذا خص المجلس هذه الشعبة وفضلها على غيرها العمل؟ والاجابة على هذا السؤال أوضح والحوافز على هذا الترجيح أبده منها على التساؤل، فان الهند أدركت الاستقلال فى ظروف أدت إلى انقسام البلاد وخلقت فى الجو بيئة مليئة بالحقد والشحناء والطائفية، مما سبب اضطهاد عدد وفير من الهندوس والسيخ و مذابحهم فى باكستان على نحو ما أصاب المسلمون مصارعهم فى الهند. وتدفقت أمواج اللاجئين على الثغور. ولم يكن لنا داع للشكوى لو كانت الحقائق وصلت هى هى إلى العالم الخارجى. بيد أنى أجدنى مضطراً إلى القول مع

الأسف الشديد بأن الدولة الباكستانية حديثة الولادة استغلت المأساة ولم تظهر إلا جانبا منها، واتخذت منه وسائل للدعاية ضد الهند، حتى شاعت فى البلاد الاسلامية نزعة مؤداها «أن الهند انقسمت على أسس الطائفية، ولم تعد الآن إلا دولة هندوسية بحتة. وأن المسلمين فيها — لو تخلف منهم عدد ضئيل — لا يتمتعون بحرية فى دينهم أو بجتمعهم». وكفانا مثالا لهذا الاعتقاد الخاطئ السائد فى الشرق الأوسط ما حدث فى ١٩٤٩ مع الفقيد السيد حسين أول سفير هندى فى مصر. فانه أخبر مندوبى الصحافة بأنه سفير للحكومة الهندية. وكان المصريون إلى ذاك الحين حانقين على الهند، فلم يطيقوا الاعتقاد بأن رجلا مسلما يمكنه أن يمثل الهند سفيرا لها. فخيل إليهم أن هنا خطأ، والسيد حسين سفير لباكستان لا للهند. فأذاعت الصحف ونشرت أن السيد حسين أول سفير لباكستان، وطبعت الجرائد المصورة صورته كسفير لباكستان. واطلع السيد حسين على الخطأ وكتب إلى الحكومة المصرية لتصحح الخطأ. فأصدرت الحكومة نشرة صحافية أوضحت فيها الحقائق. فهذا المثال الواحد يكشف لنا عن الاعتقاد الخاطئ السائد عن الهند فى تلك الدول.

ويسرنى أن أخبركم بأن الموقف سرعان ما تغير روائيا بعد تأسيس مجلس الهند للروابط الثقافية. وأدركت هذه البلاد قاطبة أن آراءهم وأفكارهم ومزاعمهم المختلقة كانت على غير أساس. وعرف شعوب هذه البلاد أن الحكومة الهندية ليست بحكومة هندوسية خالصة، وإنما هى حكومة وطنية تمثل جميع الهنود.

وأخذ المجلس أثر إنشاء هذه الشعبة يصدر هذه المجلة «ثقافة الهند» أربع مرات فى كل سنة. وكانت للمقالات المنشورة فى المجلة أثر كهربائى فى العالم الاسلامى. فرأوا الهند بمنظار جديد وفى ضوء جديد، وقدرت الجرائد المصرية والعراقية والايرانية هذه المجلة، وأخذت تترجم من مقالاتها إلى اللغات المختلفة أو تقتبس منها. وأكبر كذلك كثير من المؤلفين والكتاب ذاتى الصيت من قيمة المجلة.

و أشادوا بذكر مساعينا الأدبية. و وجدت بعض ما نشر فيها قبولا حسنا حتى قامت جمعية عراقية بتدوينها ونشرها كتبا. على نحو ما ظهرت التراجم الفارسية لها فى هيئة كتب. وهذا إلى جانب ما ذهب به منها المستشرقون الانجليز والألمان والايطاليون والفرنسيون إلى لغاتهم.

و للمجلس مجلة أخرى فارسية تسمى «هند و إيران» تصدرها الجمعية الهندية الايرانية للمجلس.

وكانت شعبة الشرق الأوسط فى البداية قد اجتزأت بمصر على أنها سرعان ما وسع فى نشاطها إلى البلاد الأفريقية الأخرى. و افتتحت شعبة تختص بشؤون أفريقيا. ويمكن تقدير نجاح المجلس فى هذه الحقول بحقيقة بسيطة سبق أن أخبرتكم بها. وهى أن الهند كانت تظهر إلى البلاد الاسلامية فى غير مظهرها. لكن لم تمض سنتان على قيام المجلس أن تغير الموقف تماما. وتحولت نزعة الشعوب التى لم تثق بالهند سابقا. و أصبحت لها أصدقاء أصفياء. فسودان — مثلا — دولة مسلمة مازالت منذ استقلالها متطلعة إلى الهند. فاذا أرادت تنظيم أول انتخاباتها التمست خدمة شخصية هندية. و دعت كذلك أحد الهنود لتنظيم التعليم الثانوى من جديد. وعندما احتاجت إلى رجال لمصالحها القضائية فكانت هى الهند التى التفتت إليها.

وتبعث دول العراق والسودان وإيران طلبتها إلى الهند للتعليم العالى. وكان هؤلاء الطلاب فى السابق يؤمون أوربا وأمريكا. والآن يدرس جماعة منهم كثيرة العدد فى الهند.

وهكذا ليس بخاف عليكم أن مصر وكوريا وإيران والسودان دعت رئيس وزرائنا إلى زيارة بلادهم على نحو ما تشرفت الهند بدعوة رؤسائهم ورؤساء وزرائهم الذين تحدثوا بحماس عن الجو الودى الذى وجدوه هنا. وتيسر لنا صفاء هذه الروابط لأن التحيزات القديمة قد ولت أدبارا. واستطاعت الهند

أن تظهر أمام هذه الدول مظهرها الحقيق. وأفصح جلالة الملك عاهل المملكة السعودية بكلمات رائعة عن احترامه الخالص للهند حكومة وشعبا، ونوه بالطريقة السلمية التي يتعائش بها جميع الملل في الهند متصادقين متوادين في كنف دستور الهند. وسيسركم أن لهذا المجلس أكبر نصيب في هذا التحويل.

وبعـــد أن أحسنا تنظيم شعبة الشرق الأوسط وأفريقيا و اطمأنا على نجاح جهودها خطونا خطوة أخرى لتنظيم شعبة لآسيا الجنوبية الشرقية، فان الشعوب في هذه المناطق — إلى جانب كونها جيرانا لنا — تعزز العلاقات القريبة مع الهند، ومعظم سكان هذه المناطق إما يدينون بالاسلام أو بالبوذية. ولهم أواصر متعددة النواحي مع شعب بلادنا، مما شجعنا على إصدار مجلة إنكليزية باسم الثقافة الهندية الآسيوية[1] و وجدت بين طلبة التاريخ البوذي والثقافـــة البوذية قبولا حسنا. وأصبحت المقالات على هذه المواضيع وعلى اللغة البالية أقوى دوافع لالتفات رجال الأدب في هذه البلاد وفي العالم الغربي.

وإني لأشعر الآن بأن حان حين أن نوسع مدى نشاطنا ونجعله مستوعبا لكل ما نرمي إليه. وستكون خطوتنا الأولى — طبعا — توطيـــد الروابط القريبـــة مع الدول أعضاء الكومن ويلتهم. ولي فكرة أخرى لانشاء شعبة مستقلة تعالج الشؤون في هذا الميدان، وتتناول أثر ذلك إنشاء الروابط ومضاعفتها مع أمريكا و أوربا.

وستعرفون في تقرير سكرتير المجلس ما قام به المجلس من أعمال باهرة بتفاصيلها، على أني أشير — موجزا — إلى بعض النقاط الهامة من برنامجه.

يتحمل المجلس تكاليف ثلاث أساتذة اللغة السنـــسكرتية والتاريخ الهندي مبعوثين في تركيا و إيران و كمبوديا.

يقوم الأساتذة في مناطق كاريبيان بالقاء محاضرات ثقافية على حساب المجلس.

1. Indo-Asian Culture.

وأعددنا برنامجاً آخر لمبادلة الطلبة ورجالات الأدب والعلماء مع عدة البلاد الأجانب.

التمس الهنود المتوطنون فى خارج الهند إلى المجلس ليساعدهم على التسهيلات اللازمة فى تدريس اللغة الهندية والثقافة الهندية أطفالهم.

اهتم المجلس بالمحاضرات التى ألقاها كبار الرجال من الهند وغيرها. وقدم كثيرا من الكتب، معظمها للكتاب الهنود، إلى دور الكتب والجامعات والمعاهد الثقافية والتعليمية الأخرى فى البلدان الأجنبية من العالم.

وكذلك نرى تقدما ملموسا فى مشروع ترجمة الأدب الهندية الكلاسيكية إلى اللغات الأخرى. وأخص بالذكر منها ترجمة «رامايانا» و «مهابهارتا» وترجمها إلى العربية الوديع البستانى.

ويسرنى أن أتحدث — بوجه خاص — عن الطريقة التى اتخذها المجلس للعناية بالطلاب الأجانب الذين يؤمون الهند للدراسة. وقد سبق أن أخبرتكم بأن كثيرا من الطلبة يقصدون الهند من بلاد الشرق الأوسط للدراسات العليا. وهؤلاء بجانب من يأتون بلادنا من الدول الأخرى. ويعنى المجلس بالطلبة عناية وسيعة المدى فيرتب لهم المخيمات الصيفية و Seminars و يقيم لهم حلقات للدراسات الشرقية فى المراكز المختلفة، تعاون الطلبة الوافدين على تفهم التقاليد المحلية تفهما يؤهلهم للمعائشة فى جوهم الجديد.

و اهتم المجلس هكذا بمعالجة مشكلة المساكن للطلبة الوافدين بحيث يتسنى لهم معاشرة الأسر الهندية. ومن المقترح أن تنشأ مساكن دولية للطلاب فى المدن الكبيرة، و بداية فى تحقيق هذه الغاية أحرزنا فى مدينة كلكتا عمارة فخمة تتوقع أن تتحول مدينة للطلاب قبل بداية السنة الدراسية القادمة. ولى وطيد رجاء بأن

المساكن المماثلة الدولية ستفتح عما قريب فى بومباى و دلهى .

و لعل هذا البيان القصير — على إيجازها — يكفيكم لتفهم أهداف المجلس ويجعلكم ملمين ببعض الالمام بنشاطه المتعدد النواحى ،

ومن البديهى الجلى أن المجلس يؤدى واجباته أداءاً فعالا إذا اهتم أعضاءه جميعهم بنشاطه اهتماما دائما . وأنا آمل فى كل منكم أن يجعل من نفسه متحدثا بلسان المجلس فى منطقته وينشئ مراكز رسمية لتقوم بتقديم الهند وتمثيلها إلى العالم، وذلك سعيا منا لتحقيق الغايات المرجوة التى تتطلع إليها بقيام المجلس .

وقبل أن أستأذنكم أتقدم بأخص الترحيب إلى ممثلى بلاد اوربة و أمريكا الذين اشتركوا فى الاجتماع لأول مرة . و إلى ممثلى الدولة الباكستانية الذين هم الآخرون يشرفون الاجتماع أول تشريف . و أرجو أن تزداد الروابط الودية بيننا ، فاننا انقسمنا على أسس سياسية ، لكننا لا نزال شعبا واحدا بحيث لا يمكن تقسيم حياتنا الثقافيـة إلا على حسابنا نحن . و أرجو أن علاقاتنا مع جميع هذه البلاد ستدوم متزايدة وسيكون للمجلس نصيب متضاعف فى تقريب شعوب بلادنا فيما بينها .

فقيد الشرق

محى الدين ابو الكلام أحمد رحمه الله تعالى

للأستاذ عامر الأنصارى

أطل اليوم الثانى والعشرون من شهر فبراير بنكبة فاجأت الهند وواقعة وقعت فقرعت القلوب قرعا. ورجت الهند كلها رجا. وطمست الكواكب طمسا ورجفت الجبال رجفها. وزلزلت الأرض زلزالها. ففزع الانسان وقال ما لها؟ وصاحت الانسانية لهولها. فما هذه الصاعقة التى تصعق القلوب وما هذه البارقة التى تبرق العيون. وما هذه المصيبة التى تعصف بالنفوس! هل انشقت السماء أو سيرت الجبال؛ وأخذ الناس يتساءلون. هل فاجأنا نبأ عظيم أو أرست الساعة مرساها؟ فصدقه الناعى وقال هو نبأ عظيم، وأنعى إليكم فلذة كبدكم ومهجة أرواحكم. الزعيم أبا الكلام رحمه الله. همد فى وحشة هذا الليل الرهيب قلبه الذى كان أمس يجيش بالحياة. وسكت عزمه الذى كان يستخف بالشدائد الجسام، فارق عنكم الناسفة العربدة. فسقط فى أيدى القوم وأمسوا حيارى لايبصرون شيئا، وتصاعدت فى كل ناحية زفرات الأسف حرارا، وسالت عبرات الأسى سودا.

فما هى إلا نكبة أى نكبة ٭ أهاجت سعيرا فى الحشا يتلهب
فلا جسم إلا بالتحرق ذائب ٭ ولا قلب إلا فى الأسى يتقلب

كانت الفاجعة شديدة، ولم ير القوم أن يتسلوا لها، فاندفعوا يفزعون إلى الشك ويتعللون بالظنون، وتعذر عليهم أن يفهموا الموت مقرونا إلى أبى الكلام

ولم يطيقوا بأنهم فقدوا روحهم القشية التى كانت تعمرهم . أو سلبوا قوتهم الحيوية التى كانت تغمرهم . وحلق بعضهم إلى بعض وتساءلوا فى فزع : «هل يموت الربان ومازال البحر مضطربا ، وهل يختفى القطب ومازال المركب حائرا ، وهل نفقد من كنا نرى فيه عزة لنفوسنا ، ودرعا لدينا ووطننا . فهل فارقنا القائد والنضال بين الحق والباطل مستمر؟ كلا ، كلا ، لن يفارقنا قائدنا العظيم الذى هدى قافلة الانسانية . بعد ما كانت تخبط مكروبة فى مجاهل الضلال وخوادع السبل ، ولن يخلو عنا ذلك الرجل الفريد الذى واسى المروءة حينما كان قوادها الغواة يلتهمون زادها كالوحش . أفهل ترك هذا النابغة قومه حيارى لا يهتدون إلى طريق ؟

تعلل الناس بالشك وهرعوا إلى تكذيب النبأ . لكن وا أسفاه ! حقت الحاقة . و وقعت الواقعة وليس لوقعتها كاذبة . خفضت من خفضت وقرعت من قرعت .

ارتاعت الانسانية والتاعت المروءة . وانصدعت القلوب وتفجرت الدموع بل الدماء من العيون وعلا النحيب والبكاء من الصدور ، وأصبحت الأمة تشكو شكاة الطائر المهيض . وقد أخذ بألبابها الذهول وساد عليها الوجوم ، وسرعان ما دوى صوت الناعى فى الآفاق ليفجعها و يرجها أى رج ويهز أركانها أى هز !

ولم تشرق الشمس من اليوم المفجع حتى تدفقت الجموع إلى محل الزعيم الراحل مسرعين فى دموعهم الهاطلة ليزوروا فقيدهم آخر زيارة ، وتساقطوا من كل صوب على مكان طار منه النبأ العظيم الذى زلزل العالم زلزالا شديدا وابتلى المؤمنين بلاءاً شديدا . فاجتمعوا أمام جثمان المغفور له باكين ناحبين يغسلون بالدموع حبيبهم الذى فارقهم بعد أن عاش بينهم ٦٩ سنة يهديهم فى الرخاء والنعماء ، ويرشدهم فى البأساء والضراء . وألقوا آخر نظرة على من كانت صلته بالأمة صلة روحية ، ومن كان يحسم المشكلات بالقضاء ، ويحل المعضلات بالجهاد ،

ويطرد النوائب بالنضال، ويدرس المودة والمواخاة. وكان موضع الاجلال بيننا أينما حل، حتى اعتبرنا نزوله فى مدينة أو قرية تاريخا لاينسى. وضاعفتنا اللوعة والحرقة إذ تذكرنا يوم كنا نهرع فى حياته لرؤيته وسماع كلامه. فنتوسم فى أساريره نور البلاغة. ونتنسم من أعطافه ريح العلم وتتخفف أمامه من أوزار العيش وتبعات الجهالة.

ورأينا. والحزن يقضى علينا. أن حبيبنا قد هاجر عنا وفارقنا فراقا أبديا. فانا لله وإنا إليه راجعون. ونشكو إليه.

ولما شكوت اشتكى كل ما على الأرض واهتز شرق وغرب

وكنا قد فوجئنا بنبأ مرضه قبل يومين. فخفقت قلوبنا. وأخذنا نبتهل إلى الله شفائه. ولم يخطر على بالنا أننا نفقده بعد ساعات عديدة. ولكن كان أمر الله مقدورا. وصعدت روحه إلى بارئها وأدركنا الحقيقة المفجعة المحزنة.

أدركنا مع الوجد المتهالك. أن النجم الذى طلع على سماء الهند — لا — بل الشمس التى أشرقت على سماء العالم ونورت أرجاء الأرض لأكثر من نصف قرن. قد أفلت اليوم عن ظلام حالك. ووجدنا أن الفكر الذى جرد نشاطه لاستقراء الدقائق وأحد عزمه لاستجلاء الحقائق، والقلم الذى شغل الصحف بالمقالات والمناظرات. واللسان الذى عمر الأندية بالخطب والمحاضرات، والمبسم الذى أحيا المجالس بالملح والمحاورات. والنفحة السماوية التى نشرت علينا الأنس والقوة، واليمين التى أفاضت علينا الجود والكرم، والمنبع الذى بث فينا الحكمة والمعرفة. وجدنا أن مصدر هذه العوارف والمعارف كلها قد استلب عنا، وعلمنا أن مثابة القصاد من كل قطر وطبقة، وكعبة الطلاب من كل ناحية وصوب، ابتعد عنا وحيل بيننا وبينه ولن نعود نستمتع بفيضه غير ذكراه.

كيف الوصول إلى سعاد ودونها؟ ❊ قلل الجبال ودونهن حتوف

حملنا جنازته على القلوب لا على الأكتاف، وسلمناه إلى الأرض، مرقده الدائم، مساء اليوم نفسه. تغمده الله بغفرانه وجعل الجنة مثواه. و وضعنا جسده فى باطن الأرض، فانقطع عن صلات العالم الخارجى، سابحا فى سكينة الفردوس. لكن احتنق كل من كان حول لحده، كأننا آلات ميكانيكية وهنت أوتارها وانحلت عراها، ونهضنا متثاقلين يتحامل بعضنا على بعض مطرقين رؤسنا إلا نظرات حزينة، ألقاها بعضنا على بعض، تنم عن الكمد المحرق فى القلوب.

نحاول أن نستذكر أبا الكلام رحمه الله ونتحدث إليكم عنه، ولكن كيف السبيل وما هى الوسيلة إليه؟ فاللسان محصور والقلم مكسور والفكر فى شرود، كيف وقد كان له من الحكمة والمعرفة حظ يعجز الوصف عنه.

إلى الله أشكو من زمانى بواره ❊ فأمسيت فى الحرمان بى يضرب المثل
فلا ملتجى جاه ولا عز صاحب ❊ ولا مالك يحنو فيا قوم ما العمل؟

كان رحمه الله شخصية نادرة، وكان علما من الأعلام و رسولا من الرسل، بيد أن لكل رسول ولكل علم ناحية من نواحى الاصلاح تشرق فيه نفسه، وتنتشر فى جوانبه سناه، ويمتاز النابغون بأن لهم عقيدة فطرية قوامها الايمان، وأن لهم رسالة روحية بلاغها التضحية والجهاد. فنهم من يمتاز بالناحية الدينية، ومنهم من يسمو بالناحية الوطنية، و منهم من يجول فى النواحى السياسية أو الاجتماعية، وكل واحد منهم يبلغ رسالته على نحو ما بلغ المرسلون رسالات الوحى. وجمع المغفور له بين أشتات الرسالة، فكان فى الوقت نفسه مرشدا دينيا و وطنيا، وقائدا سياسيا واجتماعيا، على نحو ما كان مثالا للتضحية والجهاد. جعل منذ الشباب الأول عقله وميله ومواهبه وقفا على تبليغ رسالته وثابر عليه حتى قضى نحبه وما بدل تبديلا.

قام مجاهدا يوم تضطرب الهند ويزدرد الاستعمار الأمة الهندية بأنيابه ويقودها القواد إلى الذل والهوان. فبرز أبو الكلام رحمه الله بطلا شجاعا، أديبا، طبيبا، يهيب بالأمة إلى أن تستيقظ من نومها ولا تتشبث بالضراعة. ولاتستكين أمام الحوادث، ولاتئن من الألم. ولا تستسلم للذل. ولا تهن عزائمها ولا يهى دعائمها. بل تقف فى وجـــه النوائب وقفة الأسد. وتقاوم الشدائد أشجع المقاومة، وتطرد المستعمرين عن حوضها. وتنال من السمو ما تستأهله ناسية فى هذا السبيل كل عزيزة وثمينة.

توفى عنا فى شهر فبراير الماضى هذا الرجل الفذ رحمه الله تاركا بيننا أدبه وثقافته اللذين عبير الروح وشعاع النفس ونضج العواطف، ورسالته التى تحملنا على رقابة الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان. ولن تزال تتطلب إلينا روح الفقيد أن نصون هذه الأمانة. رضا الله جميعا. وجعله من الشهـــداء والصديقين كما جعله من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

مولده

ولد أبو الكلام فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٨م بمكة المكرمة، وكان أبوه الشيخ خير الدين من أجل العلماء و كبار رجال الدين، ينتمى نسبه إلى أسرة علية عريقة فى المجد والشرف، أحد أبنائها الشيخ جمال الدين الذى عاش أيام الامبراطور أكبر، و شغل وظيـــفة الارشاد. وكان من إخلاصه للدين أن لم يوافق معاصريه على اعتبار الامبراطور أكبر إمام المسلمين، ورفض أن يوقع هذه الوثيقة دون أن يكترث لما يواجهه من المصائب. وما زالت الأسرة ذات مكانة ممتازة بين الفقهاء والمصلحين، حتى ثارت ثورة سنة ١٨٥٧، وشب الهنود

إلى سلاحهم يدافعون عن قيمهم ودينهم وتقاليدهم، وبذلوا فى هذا السبيل كل ما رخص وغلا، مجاهدين بأنفسهم وأموالهم. لكن الدائرة دارت عليهم وأصيبوا بألوان من الاضطهاد والاستخفاف والاستهتار. وتسيطر الانجليز على مصائر الهنود مما أرغم كثيرا من الأسر الهندية على مغادرة دلهى وطنهم و وطن آبائهم، ومن بينها أسرة أبى الكلام التى قصدت مهبط الوحى وألقت فى مكة المكرمة رحالها، لتأمن بأنفسها وأعراضها ومكانتها. وعاد الشيخ خير الدين رب الأسرة بمجرد استقراره يشتغل فى الوعظ والارشاد، وذاع صيته حتى بلغ السلطان عبد الحميد عاهل تركيا، فبعث إليه يدعوه إلى مملكته. وارتأى الشيخ أن يلبى العاهل. فسافر إلى قسطنطينية، وأقام فيها سنوات ينشر الحكمة والمعرفة وطبع عدة كتبه بالعربية والفارسية.

ورجع إلى مكة المكرمة مدفوعا برغبته الملحة فى إصلاح قناة زبيدة، ولما طاب به المقام تزوج كريمة للشيخ محمد طاهر الوطرى أحد أبناء العلم والادب، ورزق منها ولدا سماه الأبوان «أحمد» تيمنا وتفاؤلا. ومن كان يدرى حينذاك أن هذا الوليد سيكون له فى المستقبل شأن عظيم!

وأقام الشيخ خير الدين فى الأرض المقدسة أعواما، مما هيأ لأحمد أن يرتضع اللغة العربية من مراضعها، ويتربى على لبانها، ويرتوى من مناهلها. وعادت الأسرة إلى الهند كرة أخرى عند ما ألح على الشيخ أتباعه، ثم لم يدعوه يفارقهم، فاستقر فى كلكته. وهنا أخذ الوليد الناطق بالضاد يدرس اللغة الاردوية. وبما أن أباه كان من المتشبثين بتقاليدهم لم ير أبوه أن يرسل ولده إلى مدرسة أو كتاب، بل اعتنى بتربيته وتعليمه فى المنزل تحت إشراف الأساتذة الكبار، فأخذ فى دراسة المنهاج المتداول المشهور بـ «المنهاج النظامى». وظهرت عليه منذ نعومة أظفاره أمارات النجابة والكياسة التى أدهشت أترابه وأساتذته.

ولم يكد يدرج فى ١٤ من عمره حتى تخرج فى جميع الكتب المتداولة، وحفظ أمهات المتون. وكان دائما مكبا على القراءة والمطالعة. حتى اضطر أبوه إلى زجره مرارا حرصا على صحته. وأمر بأن يطفأ الانوار بعد الساعة العاشرة فى الليل، وينام كل واحد فى الدار. على أن الولد النجيب المولع بالقراءة اخترع حيلة ناجحة. وذلك أن ادخر ما كان يتعاطى يوميا قرشا قرشا واشترى به شموعا ونورها بعد الساعة العاشرة يقرأ فى ضوئها الضئيل.

وهكذا نشأ نشأة يختزن العلم والأدب فى صدره ويعمم قلبه حكمة ومعرفة، ويتذوق الآداب. حتى وجدت طبيعته العدة تلهم إليه الأشعار وهو فى ١٣ من عمره. وأرسل شاعره إلى مجلة أردوية «أرمغان فرخ». فوجدت بين الأدباء والشعراء قبولا حسنا. وازداد كل يوم ذوقا وأدبا حتى سنحت له أن يصدر بنفسه مجلة سماها «بيرنگ عالم» أشرف على جميع شؤونها. ومما يدل على بداهة وجودة طبعه أن بعث إليه مرة «نادر خان» أحد من تلامذة ملك الشعراء غالب، وطلب إليه أن ينشد مرتجلا. اختبارا لذكائه. فنظم أحمد إلى ما أراد. وأنشد مرتجلا والأستاذ نادر خان ينظر إليه فى دهش وحيرة.

ثم خطا خطوة أخرى وشرع فى كتابة المقالات ونشرها فى مجلة شهيرة «خدنگ نظر» يصدرها الأستاذ نوبت راى من لكهنؤ. وفى «أحسن الاخبار» و«تحفة أحمديه» الصادرتين من كلكته. ولم تنطف غلته الأدبية بهذه الجزازات فأصدر مجلة «لسان الصدق». وكتب فيها مقالات مؤثرة لها قيمتها الأدبية ومكانتها التاريخية تغلغلت فى قلوب الجمهور باسم كاتبها ونقد أفكار المعاصرين والقدماء. وقليل من القراء يعرفون أن منشئ هذه المقالات ورئيس تحريرات مجلة «لسان الصدق» شاب مترعرع لم يكمل العقد الثانى من عمره، بل تمثلوا فى أفكاره شيخا مسنا خبيرا، ذاق من الدهر حلوه ومره واقتحم غمرات الأدب

وملأ مناكبه ، حتى أصبح محنكا عارفا بدقائق الأمور ومستقرئا بحقائق المسائل. فدعاه أعضاء «جمعية حماية الاسلام» إلى لاهور سنة ١٩٠٤ ليلقي في اجتماعها العام محاضرة على «الأساس النقلى للدين». ولم يكن الشعب قد رآه من قبل. فكانوا منتظرين بفارغ الصبر إلى ظهوره على المنصة. وما من أحد يتصور أن غلاما حديث السن يجرأ على حديث عن الموضوع الصعب. فخيل إليهم حين رأوه أنه مندوب عن أبي الكلام ليقرأ مقاله. لكنهم دهشوا وأخذ بألبابهم حين سمعوه وعرفوا أنه أبو الكلام نفسه الذي يدوى صوته في دنيا الصحافة. ومن طرائف هذا الاجتماع أنه كان من بين المدعوين الأديب الشهير «ألطاف حسين حالي»، وكان أحمد نقد كتابه «حيات جاويد» في مجلته. فلما تعرف عليه ظن أن الشاب ابن أبي الكلام رئيس مجلة «لسان الصدق» فسأله عن أبيه منوها بأدبه، ولشد ما كانت حيرته حين عرف أنه يخاطب أبا الكلام نفسه لا أباه. فقال «حالي» إنه شاب محنك حنكة الشيوخ.

رسالة أبي الكلام

ووفقه الله في السنين الأولى من القرن العشرين أن يطوف بالبلاد العربية، فزار مصر وسوريا والعراق، واطلع على جوها الخلقي والأدبي وفكرها الديني والسياسي. فانطلق فكره من عقاله إلى الآفاق الفسيحة، وتخلصت عقليته من تقاليد الأسرة والبيئة إلى عالم الانسانية. فذهب يبحث عن الحقيقة يقتحم كل غمر ويطوف بكل واد، ويجتاز معامه الشكوك ومجاهل الريب وخوادع السبل، حتى تخطت الدائرة الأقليمية إلى الدائرة الانسانية، وكانت تساعده على ذلك طبيعتاه الصوفية المؤمنة والعسكرية المغامرة، ورثهما من أبيه الذي شهد ثورة سنة ١٨٥٧، فكان في نفس الوقت زاهدا في الدنيا ومجاهدا في سبيل الله. وشعر في قلبه برسالة تتلوى للظهور.

ووجد الأمة الهندية تعانى الذل والهوان، تحتاج إلى مرشد يرشدها وهاد يهديها. ألفاها متقاعسة عن دينها ومكانتها، ناسية عزتها قانعة بهوانها. وجد المسلم الهندى اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة. يتشدق خطباؤه بالهدى، ويتشدق شعراؤه بالحكمة. يتظاهرون بالتصديق، ويباهون بالايمان. يزعمون أنهم يعبدون الله ويطيعون الحق ويحكمون العقل ويؤثرون العدل ويتوخون السلام. يزعمون كل ذلك وفى قرارة قلوبهم أن إلههم هواهم، والحق عندهم معناه المنفعة، والعقل معناه الحيلة، وأن السياسة معناه المكر والخداع. ورأى أن زعماء الأمة ينتهبون أفرادها كالوحش، وسدوا أسماعهم عن الانسانية، وركوها مكروبة تخبط خبط عشواء. واتخذ الاستعمار منهم وسائل لاضعاف القوة الروحية، والدس فى أذهان أبناء الهند أن أمتهم لا تصلح للاستقلال والحرية ومسايرة الزمن، ولا تتأهل أن تتمتع بالسيادة والكرامة. وتغلب عليها سلطان القوة مما لم يترك للمثل الأعلى وجود فى ذهن، أو للغرض النبيل أثر فى سعى، أو للشعور الانسانى مجرى فى حس، أو للسمو الالهى معنى فى نفس. وما من أحد من الزعماء أو العظماء من يفكر فى مصير الأمة الهندية، ويدرك ما ستؤول إليه هذه الغفلة، فيقوم بتوجيه الشباب توجيها سديدا، ويثقفه ثقافة صحيحة سليمة، ويرضعه لبان الشعور الدينى الوطنى، ويوحى إلى النشأ الهندى أنه أفراد أمة واحدة تسير إلى غاية واحدة، عليها أن تكون قافلة واحدة ممتزجة الروح، متحدة العقيدة، حتى يتمثلوا وحدة التفكير ووحدة فى الثقافة ووحدة فى الاتجاه القومى.

رأى أبو الكلام قواد الأمة يرفعون أصواتهم وينادون الأمة المسلمة الهندية إلى أن تعتزل السياسة، وتعرض عن جهاد الحرية وتترك ميدان النضال لغيرها، وتستسلم للذل والهوان، وتتملق للمستعمر وتعمل على تحقيق أهدافه المستعمرة وتنسى مكانتها بين العالم. واختفت من ذهن الابناء أنهم أفراد أمة أخرجت

للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وغرب عن بالهم أنهم أمة عهدت إليها قيادة العالم، وأنهم هم المسئولون عن كل ما يحدث فى العالم من الفساد والصلاح والانحطاط والسمو.

وأدرك أبو الكلام أن أمة مسلمة هندية تريد أن تهرب عن الميدان، و تعرض عن الكفاح مع أنها كانت هى الوحيدة التى عرفت رسالتها فى سنة ١٩٥٧، وأدركت بأن الظروف تتطلب إليها التضحية بكل ما فى وسعها، حتى لو تكاسلت بل لو اتخذت موقف الانتظار سيكون أمرها مما يرثى له، وأنها ستصبح من الشعوب المسودة بعد أن كانت سيدة. فقامت بكل ما يمكن للدفاع عن نفسها وحريتها وحياتها وقيمها الروحية والخلقية. وجد أبو الكلام أن هذه الأمة نفسها تتخاذل وتستسلم للذل والهوان، وقد سيطر الخوف على لبه.

ولم يكن هذا فحسب. و إنما كان هناك أدباء ينشرون الأدب الماجن فى البلاد، ويقضون على الروح الأدبية النزيهة. وكان خطباء و زعماء يساعدون المستعمرين بمحاولاتهم المستمرة لصرف الأمة الهندية عن آدابهم وتاريخهم، حتى يستقر فى قلوب الأبناء. أن الأدب الغربى من لوازم المدنية، وأن لغاتهم ولاسيما اللغة الأردوية لم تعد أداة للفهم والافهام، وهى لا تصلح لأن نستخدمها فى الأدب السياسى أو الدينى. وأن آدابها لن تولد شيئاً غير الزخرف وليس لنا مناص من أن نتخذ من الأدب الأوربى أدبا لهم، ونشرب أبنائنا ما فيها من السموم الحلوة.

فكانت هذه الزعة الأدبية، كما ترى، قاضية على الروح الوطنية والقومية، ساقطة بالأمة إلى قعر الذلة والهوان العميق الذى لا سبيل لها إلى الخروج منه لو سقط فيه مرة، فينجح الاستعمار نجاحا دائما. وكانت هذه الأفكار تحتشد فى صدره وتنال من فكره. وتوفى عنه أبوه سنة ١٩٠٩، تاركا ابنه على مقاطع الطريق، إما أن يرجع عن كل ما فكر وأدرك إلى البيئة الموروثة و يقيد

نفسه بأغلال التقاليد والاسرة ويأخذ فى الوعظ والارشاد على نحو قديم بال، ولا يتعدى صوته حدود المساجد ولا تتخطى رسالته نحوا محدودة إلى عالم الانسان الفسيح الواسع الممتد الآفاق: وإما أن يصدر من بيئة ضيقة إلى مملكة الانسانية، ويدعوها إلى ما تحتاج إليها. وأشغل أبو الكلام فكره فى الطريقين حتى هدته عبقريته إلى خلق مكانة جديدة تجمع بين التقاليد القديمة وآفاق الفكر الفسيحة الحاضرة، فأكب على فهم القرآن فهما جديداً وتفسيره من ناحية حديثة. ويقول هو فى مقدمة التفسير:

« مضى لى سبع وعشرون عاما بالتمام، والقرآن كان موضوع مطالعة ليلى ودراسة نهارى، ذهبت فى الفحص والتفكير وراء سور القرآن وآياتها بل وكلماتها إلى أبعد حدوده وأوسع نواحيه. فدقق فكرى سورة سورة، وحقق نظرى آية آية، وتعب دراستى لفظا لفظاً. ولى أن اقول أنى قرأت من كل ما يوجد من الكتب والتفاسير خطية كانت أو مطبوعة أكثرها. فلم تفت لفكرى ناحية من نواحى علوم القرآن فى ساحتها ومقالاتها. وقالوا عن العلم قديما و جديدا ولست على شىء من هذا الفضل. فالذى يقال عنه أنه القديم فقد ورثته. وأما الجديد فشققته بعصاى وجعلت لنفسى إليه سبيلا. فهو عندى كالقديم علما وخبرة.

إن كل ما وهبت لى أسرتى وبيئتى وأسلمت إلى أوضاع الاجتماع والتعليم أبيت أن أقتنع به منذ أول يوم. فما حالت دونى شروط التقليد وعوائده فى أية ناحية قصدتها. ولم تزل عاطفة الفحص والتنقيب منى عطشان أينما حللت.

فلى فى داخل فؤادى اليوم يقين شاكته الظنون بأصنافها

وألوانها، ولى فى أعماق روحى عقيـدة ابتليت بكل بلاء العصيان وعـــذاب الجحود. ولقد شربت السم من كل كأس واختبرت مضـاده من كل مستشفى. حينما كنت ظمآنا لم يكن عطشى كغيرى، وعندما ارتويت كان مشربى غير المنهل العموى.

وبعـد الفحص والطلب طوال هـــذه السنوات بسطت من القرآن كما علمت وقدر ما علمت على هذه الصفحات.

ما كان حديثا يفترى ولـكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون. » ثقافة الهند سبتمبر ٥٨—١٩٥٢م

وما زال بطلنا يمعن فى كل ذلك ويبحث عن حل حاسم للشاكل. ورأى أن يصدر مجلة أسبوعية سماها الهلال، ليتخذ منها أداة لتبليغ رسالته. قال المغفور له فى العدد الأول من مجلته:

« رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا. وبعد، فقد حلمت بعين اليقظة النابهة سنه ١٩٠٦ رؤياً، ومكثت سنين متالية أبحث عن التعبير العملى لهـذه الرؤيا، وكنت فى غاية اشتياق إلى تحقيق هذه البغية. وما زلت بين الآمال والعزائم. و لطالمـا هاجنى القنوط مهاجمة عنيفة للتغلب عـــلى عزائمى والنيل من إرادتى، لكننى تشبثت بعزيمتى المستحكمة معتمدا على عون الله و واثقا بتوفيقه، إلى أن حان يوم أقول «هذا تأويل رؤياى وقد جعل ربى حقا». ولا يخفى على عالم السرائر وعارف الخفايا ما تحيط بى من المشاكل المضنية، وما تهددنى من الآلام والأحزان ما تكاد تذهب وعيي وتحرمنى من طمأنينة البال، بيد أننا لا نجد مبررا لترك حياتنا تسير معطلة وتضيع سدى،

وما لنا نشغل كفاءتنا بالحديث عن الفشل والخيبة وشكوى الدهر. ليت شعرى ماذا دعا الناس إلى الايمان بأن الحياة لابد أن تكون مقرونة بالطمأنينة والهدوء. وما يمنعنا أن نقوم فى وجه النوائب والآلام. ألا ترون أن الغواصين يسحون البحر إلى شاطىء السلام، بينما يتمدد الخائفون وجلا وهم راكبون فى السفن. ألا إن الحياة مقرونة بالشدائد لا فكاك منها قبل الموت، فهلا روض الشاكون الناحبون نفسهم لاحتمال المشاق ومكابدة الشدائد، فعبروا الأبحر دون خوف وخشية، ولا تنتهى أعمارهم وهم متقلبون فى الأمواج بين الحياة والممات ولا يكادون يعبرون إلى الساحل.»

اتخذ أبو الكلام من مجلته أداة لتبليغ رسالته. وكذب الذين يظنون أن الآداب الأردوية لا تصلح غير الزخرفة والتشبيب. وأن الأمة الهندية لا تستأهل الحرية والسيادة. ونادى الأمة بألفاظ لا تزال ترن صداها فى العالم، قال لها

«يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الحكم إلا لله. أمر ألا تعبدوا إلا إياه. ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. فيا قوم، اعلموا وأدركوا أنه ما قدر له أن يكون سيكون، وما من أحد، مهما شأم، يحول دون حدوثه، وسيأتى يوم تكون الهند قد اجتازت عن آخر مراحل التطور السياسى. وسنرى علنا أن سيف الحرية التى طلع بها القرن العشرون قد حطم أغلال العبودية وقيود الرق التى غلت الهند بها قوائمها.

سيحدث ما له أن يحدث، وسيسجل التاريخ تقدم البلاد و خطواتها فى ميدان النهضة. أفلا فكرتم فيما يسجل عنكم التاريخ، وما يخلد لكم صفحات هذا التاريخ، لتكشف عنكم أمام أجيالكم المقبلة؟ ألا! ستجاهر أوراق التاريخ بأنه كانت فى الهند أمة مشئومة سيئة الطالع، ما زالت حجرة عثرة فى سبيل التقدم، واتخذت من نفسها ألعوبة تتسلى بها أطماع المستعمرين، وأصبحت جرحا داميا فى ناصية الهند، وجعلت وظيفتها أن تتقلب بين أيدى الحاكم الغاشم وتصبح له أداة للقضاء على صالح الانسان والبلاد.»

وعلم أبو الكلام بأن الأمة المسلمة الهندية قد حطت من مكانتها حتى لم يبق لها ذهن أو مروءة، وبرأت من كل أمارات الحياة، وأنها وضعت الأغلال على أعناقها ليقودها الحاكم الغشوم ويتراقص أفرادها طبقا لأطماع المستعمر كما يرقص القردة. وما من فرد من أفراد الأمة يكون له فكر يفكر به، أو لسان ينطق به، أو رجل يمشى بها أو يد يقبض بها، وإنما هى أداة للاستعمار فاقدة الوعى مسلوبة الفكر، محرومة الارادة، مثلها مثل حجر سقط على الأرض لا يتحرك إلا إذا حركه محرك، على نحو ما أصبحت وصمة العار والشؤم على ناصية الانسانية. ختم على سمعهم وجعل على بصرهم غشاوة، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون. وا حسرتاه! إن الأمة المسلمة ذات سيادة وتاريخ حافل بالمجد التى ورثت الدنيا وجعلت خليفة الله فيها وبعثت ليخلص عباد الله من ربقات العبودية، وتحطم أغلال الرق، وتقود الناس إلى عبادة الله خالقها، نسيت وظيفتها، و آمنت بأنها أخرجت لتضع الأغلال على أعناقها، وتعبد الشياطين والأبالسة، وتتنازل عن ما سخر لها فى السموات والأرض وتفخر بعبوديتها وتتباهى برقها، وتستقر فى قعر الذلة والهوان وتفرح بها.

أخرجت هذه الأمة لتكون ينبوعا للخير، تنهل منه الأقوام الذليلة، وملجأ تلجأ إليها الأمم المستعبدة. لكنها اطمأنت إلى الخزى واقتنعت بالهوان، و أعرضت من الدين الحنيف. وأمست محكومة بعد أن كانت حاكمة، وألقت لواء الحرية من يدها، ونسيت أنها نزلت فى شأنها: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً...» وتناست أن وظيفتها: «وجاهدوا فى الله حق جهاده.»

فقال أبو الكلام:

« إن العقل موهبة من الله وهبها لنستخدمها فى الاصلاح، لا لأن نضيعها فى العطلة. فما بالنا لا نميز بين اليقظة والنوم، وبين الموت والحياة؟ ولا نفكر فيما يقول عنا المؤرخ إذا لم نتحامل؟ وكيف لا تفجع أكبادنا. ولا تلتهب أرواحنا. ولا تلتاع قلوبنا! وما يمنعنا أن نمى بجروحنا الدامية التى تكاد تقضى عــلى القوة الروحية. وأن نرى ما على العيون أن ترى. وأن نفقه ما على القلوب أن تفقه. وأن نسمع ما على الآذان أن تسمع؟ ألسنا من أتباع الدين الحنيف القويم. وحاملين أمانة الله. وخليفة الله فى الأرض؟ فما بالنا نخاف ونتخاذل. ولا نجاهــد لأن نصبح أحرارا ذوى سيادة. ونتمتع بكرامة. ونخطو خطوات. ونخلص الأمم المستعبدة من ربقات العبودية؟

و إذا أعرضنا ولم نستغل مواهبنا. فسيطوى التاريخ ما خص لنا من باب حافل بالمجد والشرف. ويفتح لنا بابا آخر ينفض منه أمام الأجيال أن الهنــد سعت وراء الحرية وجاهدت فى نيل الاستقلال، ونادت أبنائها لحمل لواء الجهاد. فلبى قوم إلى ندائها، واحتجب قوم آخرون والتجأوا إلى مغارات الذلة. و واحسرتا!

أن هـذا القوم كانت أمة مسلمة زاحفة بأنها أمة قائدة الأقوام و زعيمة الأمم . »

دعا أبو الكلام الأمة دعوة هزت الأعـداء وتغلغلت فى النفوس، وخاف الاستعمار على نفسه وشوكته . فشمر لمقاومته .

وكان بجلة الهلال تنشر يوما فيوما غير ساترة أهدافها . وبما أنها كانت نتيجة فكر عميق طويل، كانت ضربة كاملة على سياسة « فرق تسد » السياسة التى أتى بها الاستعمار معه وبذل كل مجهوده فى نشرهـا . فكانت الدروس تلقى عـلى قلب الأمة المسلمة أنه أمة مستقلة لا يجوز لها التعاون مع أبناء الهند الآخرين مهما ساءت حالها، و إنما واجبها أن تنفرد بذاتها تطالب بالحقوق المستقلة، ولا تكترث لموطنها و مهدها، و تشغل نفسها فى هذه الأمور التافهة، وتترك بلادها تتداعى أركانها . فأصبحت تفضل الانجليز على الهنود المواطنين، و فوق ذلك أخذت تخاف الهندوس ظانة بأن لا ملجأ لها إلا الانجليز، فتشبث بأذيالهم .

وكانت الأمة الهنـــدية حينذاك خطت خطوات واسعة فى جهاد الحرية وكان حزب المؤتمر الوطنى يوشك أن يرفع صوته لجلاء المستعمر، فقـام أبو الكلام ونادى الأمة المسلمة عـــلى صفحات الهلال نداء جديدا، و خاطبهم مخاطبة مبتكرة، و دعاهم دعوة جديدة بأسلوب بديع، ولم توافق الهلال الأفكار السياسية المتـــداولة حينئذ، فلم تكن رجعية السياسة والفكر كما لم تعد الدائرة الدينية الصالحة . وخالفت الزعيم محمد على فى عدة مسائل مخالفة راجحة ومقبولة بفضل آرائها السديدة وأساليبها المتقنة . وأصدر الزعيم محمد على أيضاً جريدة يومية «همدرد» لكنها لم تصل أختها الهلال فى عمق الفكر و سداد الرأى . ونجح أبو الكلام بواسطة الهلال فى تغير الأفكار العامة وتوجيهها توجيها جـــديدا وخلق فى النشأ الهندى أسـساً حديثة للآداب ما لها أهمية سياسية واجتماعية، وتأثر

على صفحات المجلة مسائل كثيرة مناقشة صحيحة. وقدم لها حلا قبله الناس قبولا حسنا. ولم تنقطع الهلال للسياسة وكانت عاكفة فى نفس الوقت على المسائل الدينية والفقهية وعالجها معالجة وافية. ولم يكتف أبو الكلام فى مثل هذه المسائل بالمنقولات بل ناقشها مناقشة عقلية تأثر بها الافكار ورحب بها العقول. وهكذا كانت القيود تتحطم من عقول الناس وتتهيأ لهم آفاق جديدة للفهم والفكر. وأخذ النشأ الجديد يدركون أنهم لا يهتدون السبيل إلى الحقائق لو واظبوا على اتباع القدماء بدون فكر و روية. وأن الوقت يقتضى أن يعرضوا عن المجادلات الطائشة. ولا يصروا على النظريات المتداولة بل يعرضوا عن المناظرات الدينية التى لا تجدى شيئا. ويبحثوا عن الحقيقة.

وكان من براعة الأسلوب والفكر أن اتخذ من كل حادثة وواقعة وسيلة لدعوته. وذكر المسلم الهندى تاريخ الأمم والملل حتى ينتبه من نومه ويفيق من غشيته. ومازال يجهر بدعوته على رغم المصائب والمشاكل ومراوغة الطامعين. فكان قلبه بين أصبعى الرحمن يوجهه دائما إلى الارشاد. ولم يمل إلى الأغراض النفسية والأهداف المادية. وطالب الشباب المسلمين بأن يقوموا ويعملوا، وأخبرهم بأن الأعمال كثيرة والأعمار قصيرة والاسلام فى خطر والحرية من حقهم. فهلا جعلوا من أنفسهم جنودا وأجابوا داعى الله وجاهدوا فى سبيل الله، ولا يعتمدوا على العدد أو العدة بل يثقوا بمن عنده كل شىء. ولا يخافوا فى الله لومة لائم، ويخرجوا رؤسهم فى طريق الجهاد، إما الموت وإما السيادة.

وكانت الحكومة تراقب الهلال ورئيسه ودعوته مراقبة شديدة. وتخاف على سيادتها واستعمارها. حتى عيل صبرها وصادرت الهلال، بيد أن أبا الكلام لم يكن ممن يستسلم للخوف فأصدر مجلة أخرى باسم «البلاغ» وداوم على دعوته. ولكن الأخرى أيضاً صارت مصير اختها الهلال. وأجلت الحكومة أبا الكلام

من مقاطعة بنغال، وليس هذا فحسب. وإنما أخذت المراقبة أوراق «تفسير القرآن» وعملت بها ما عملت.

وحينما كان محبوسا فى رانجى شغل نفسه فى تفسير القرآن وحل مطالبه وكتب نبذة من سيرته سماها «تذكرة». وكان قيامه فى رانجى قيام دعوة فأصبحت المدينة كعبة الطلاب ومركز القصاد، وكان الناس يؤمونه ليفهموا معانى القرآن الكريم.

وأطلق سراح أبى الكلام فى سنه ٢٠، وكان الهند قد خطت فى ميدان السياسة خطوة أخرى، وتعرف أبو الكلام بالزعيم «غاندى» فى السنة نفسها، وكان هو الآخر من رجالات ديانته، ولم يكن هناك شيء يجمعهما إلا الحماس وعاطفة العمل، فاتفقا واتحدا اتحاداً لم ينفك إلى أن فارقا العالم. وهذا كله مع اختلاف طبائعهما إختلافا باتا. فان الزعيم غاندى كان زعيم الشعب يخالطهم ويعاشرهم وينظر بعين الشعب ويعمل بأيديهم بخلاف أبى الكلام. فانه كان مفكراً مدبرا تقود الأمة دون أن يخالطهم أو يندمج معهم. ويعد لقائهما واتحادهما من الحوادث التاريخية الهامة. ولاسيما أن أبا الكلام كان حينذاك زعيما مسلما وحيدا من وافق على المبادئ الغاندية ولو اختلف معه فى بعض الفروع. وبدأ منذ ذاك الحين فى تاريخ الهند عصر جديد. لايزال العالم يذكره. وفتحت السجون لأبى الكلام أبوابها، وبادرت القيود المستعمرة إليه، ولم تغلق حتى بلغت قافلة الجهاد منزلها الأخير وأدركت الهند استقلالها.

وكانت السنتان ٢٠ و ٢١ من أشغل الأيام لأبى الكلام. فكان مشغولا صباحاً ومساءاً، ليلا ونهاراً يخاطب الجمهور و ينصحه للاستقامة والمواظبة، ويشجعه على التقدم فى ميدان الجهاد، ويصرح للأمة بأن النجاح ينتظركم ولا يمكن لقوة أن تحولكم دونه، ولا يستطيع الباطل لهزيمتكم مهما زادت شوكته،

بيد أن الشرط الأول الأساسى أن تكونوا أقوياء الايمان أخلصاء الوفاء، مكبين على العمل مستعدين للتضحية. ودعا الشعب بوجه خاص إلى اتحاد المسلمين مع غيرهم، والبقاء على السلام والاحتفاظ بالنظام. والمصابرة على العمل، وأهاب بالشعوب الهندية إلى أن يكونوا منهم كتلة واحدة لمقاومة الاستعمار.

وحظرت الحكومة سنة ١٩٢١م على الاجتماعات العامة فى نواحى بنجاب وتقدم أبو الكلام وقام يوم الجمعة فى «جامع شاهى» خطيبا يهز أركان الحكومة بخطابه. ولم تمض أيام أن ألقت الحكومة القبض على «إخوة على» لقرار خاص. فقام أبو الكلام خطيبا وقال.

«إن القرار الذى ألقت الحكومة القبض لأجله على «إخوة على»، ليس إلا مسئلة دينية إسلامية يجب على كل مسلم أن يتمسك و يعلن بها، وأنا الذى اقترحت ذلك القرار ووافقت عليه، ولتسمع الحكومة أن مثل هــذه القرارات ستقترح وتصدر. وإذا كانت هى جريمة فسنواظب ارتكابها بدون احتشام».

وأعاد أبو الكلام قوله هــذا مرارا فى اجتماعات عامــة، حتى اضطر إلى دخول السجن. والبيان الذى قدمه أبو الكلام عند محاكمته أهمية تاريخية لاتنسى، وسنذكرها فى المقال الثانى. ولما خرج الفقيد من السجن كانت السياسة الهندية قد تغيرت تغيرا كثيرا. وكانت سياسة «فرق تسد» شائعــة ناجحة، وأخذ الزعماء يبتلون على أيدى الشعب بلاءا شديدا. وأصبحت جمعية عظيــمة من المسلمين تطالب بأن المسلمين أمة واحدة لاتستطيع بأية حال أن تتعاون مع غيرهم. لكن كان أبو الكلام رابط الجاش ثابت العقيدة، لم يتزحزح عن عقيدته، ومازال يدعو إلى وحدة الشعب، وقاسى فى هذا السبيل ما قاساه وعانى ما عاناه، وكان من شدة العقيدة أن قال:

• لو نزل ملك من الملائكة من سحب السماء على «منارة قطب»، وينادى بأن نيل الحرية ممكن خلال ٢٤ ساعة بشرط أن يتنازل المسلمون عن وحدة الأمة فأجيب على هذا الداعى بأنى أريد اتحاد الشعب ولا أريد الحرية، فان معنى التأخير فى نيل الحرية، هو خسارة للهند لا غير، لكن الحرمان من الاتحاد هو خسارة لعالم الانسانية كلها».

ولما خرج من السجن وجد الحزب الوطنى يكاد يتشقق خلافا فيما بينه، فكان هو أبو الكلام الذى أزال الخلاف من بين أعضائه، وحلل الاختلافات الداخلية تحليلا بديعا، فقال:

• إن الاختلاف إذا كان فى الأصول فلا بد لكل واحد من الثبات على العقيدة والتأكد من رأيه، وأما إذا كان الاختلاف فرعيا فلا ينبغى الاصرار حتى يتعطل العمل وتذهب الكفاءات سدى، وتضيع الأعمار عبثا».

وكان تحليل المشاكل من ميزاته، فكان يدركها إدراكا تاما ويقدم لها حلا مفصلا ولم يدع العواطف أبدا تنال من فكره وعقله. فكانت المشاكل الوطنية والسياسة ترفع إليه، لانه كان المفكر الوحيد لحلها، دون أن يتحيز لجانب أو يتأثر بعامل. والتمس دائما الحق، وقضى بالحق ولو كان يخالف أصدقاءه. ويعرف أصدقاءه أنه عمل على نشر الحق معهم ولهم وعليهم. وكل ذلك يرغمنا على التفكير بأن هذه القوة والروح والصفاء لم يكن إلا مستمدا من منبع روحى لا نراه، وكان حليما يحتمل المشاق والعناد ببسمة، وحدث مرارا أن خرج يدعو الناس إلى الجهاد والتفانى فى سبيل الاستقلال، فكذبه القوم وعامله معاملة سيئة قاسية، حتى بصق بعضهم على وجهه وسبه سبابا، لكنه تحمل كل ذلك بصبر وأناة، ولم يزل قدمه عما وضعه عليه مرة.

وشكا أحد أصدقائه إليه مرة أن كثيرا من الشعب الهندى لا يصغى إليه ويسبه سبابا فاحشا. و ذلك أن ثقافات الشعب الهنـــدى وتقاليدهم تختلف فيما بينها كل الاختلاف. فأنى لهم أن يعيشوا مجتمعين متحدين. فتبسم وقال:

« هذه هي النعمة . ألا ترى أن بستانا لا يعجب أحدا إذا كانت الأزهار فيه على لون واحد وطراز واحد . ولا يلتذ أحد بباقة تكون أزهارها ذات لون ونمط واحد . وإنما مهمة البستانى أن تنبت فى حديقته أزهار متنوعة اللون مختلفة الأوضاع . فيشكل منها باقة . »

نبذة من أسلوبه الأدبى

وكان المفيد صاحب أسلوب جذاب طريف لم يهتد إليه أحـــد من أدباء اللغة الأردوية مابين قديم وجديد. ولا يسع أحدا أن يصف هذا الأسلوب الرائع البديع المعجز. فانه جامع بين نواح مختلفة تناسب كل موضوع وبحث. فنجد له أسلوبا فى المقالات الدينية والخطب العامية. وأسلوبا فى النوادر التاريخية. وأسلوبا فى القطع الأدبية الساحرة. يمتاز بعضها عن بعض لكن روحها واحدة ومنبعها واحد. تنصب منه تعبيرات بليغة رائعة تحرك النفوس وتثير الاعجاب.

وكان أسلوبه على اختلاف ونوعه يغرى بالتقليد، لكن عجز المقلدون دونه. ولم يبلغ أحـــدهم ماكان للمغفور له من القدرة البيانية والوصف الوقيق، وصدق التعبير، وبراعة التصوير. فكان يصف الحوادث وصفا بليغا مصورا من غير إبهام ولا عى. لم يخذله قلمه ولم يخنه فكره، ولم يتخلف عنه مدد اللغة. جمع بين الأساليب الأدبية والأساليب العلمية ومزجها وخلق منهـا أسلوبا جـديدا تصاغ فيه المعانى العلمية والدينية والأدبية صوغا بديعا يتدفق بالحياة ويوسع آفاق الفكر.

وكان قلمه ولسانه ينشران الدرر المنظومة. فلو كانت محدودة بالقوافى لقلناها

أشعارا. وكان يكثر من الأشعار فى مقالاته وخطبه، لا للترصيع والزينة. وإنما جعل منها دائما جزءاً من الكلام لايستطيع الانفكاك، فلو أفرزت هذه الأشعار لنقص الكلام. وكان حافظا لأشعار لاتعد ولا تحصى، وكان كل واحد منها تابع وصيف لذاكرته استحضره متى وأينما أراد. وكان فى كل ماكتب أو تفوه نقيا صافيا ضافى البيان ما يملأنا سرورا ولذة، ويخلق فينا ثقـة وإيمانا، ويرغبنا فى الاستزادة منها، ولم يتبع فى أسلوبه أحدا من القدماء أو الحاضرين، وإنما ابتكر لنفسه أسلوبا تغلغل فى مدارس الفكر والأدب و امتازت به مكتبة الآداب الاردوية، لحريته وانطلاقه وحيويته وجماله. وكان هذا بفضل الفقيد أن تجلت عبقرية اللغة الأردوية وسعتها النادرة، وأدرك رجال الأدب أنها إحدى اللغات التى تستطيع الوصف البديع لدقائق الحيـاة وخوالج النفس. وتتمكن من التعبير الرقيق عن خـواطر ومشاعر وكيفيات نفسية. وعل السبب فى ذلك أنه لم يكن من الأدباء الذين يتخـذون الأدب حرفة ومكسبا. ويحتكرونه ويتنافسون فى تنميقه وتزيينه ليصلوا إلى أغراضهم أو يثبتوا براعتهم. فتبقى نتاجاتهم الأدبية لا روح فيها ولا قوة ولا متعة ولا طرافة. وكان أبو الكلام عـلى عكس ذلك أديبا كرس حياته للأدب ولم يقيد نفسه فى قيود. فخلف ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة.

وكان من سحر أسلوبه يسخر القلوب ويملك عـلى نزعات الجمهور، كما حدث مرة أن ألح عليـه بعض أصدقاءه ليلقى خطبة فى اجتماع عام، وكان الجو لا يلائم أحدا ينطق بكلمات الوحدة ويدعو الشعب إلى الاتحاد. فخالف البعض والتمس إليه أن لا يجرأ على الخطاب. لكن أبا الكلام تبسم واستعد للحاضرة، وكان أعـداؤه بالمرصاد ليمطروه أحجارا. وما إن أخذ الخطيب البارع يخطب حتى صرف قلوبهم، فاذا هم يبكون ويخشعون ويستمعون إلى الخطاب ساكتين

صامتين كأن على رؤسهم الطير.

ويعد كتابه «غبار خاطر» من أروع ما كتب فى الأدب الأردوى وهو مجموع الكتابات التى كان يرسلها المقيد حين كان فى المعتقل الانجليزى.

وا مولانا أبو الكلاماه !!

دموع تلميذ على وفات أستاذه

للأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسينى

أواه !! تحرقنى اليوم لوعة، وتأخذنى رجفـــة حين أتناول القلم لأندب على هذه الصفحات من كنت بالامس أرد عليها مناهل علمه، المنبثقة من ينابيع صدره، والمنتخبة من معادن فكره، فى شؤون علمية مختلفة، وضروب بلاغية متفرقة، تذوب ظرفا، وتقطر حسنا!

وا أسفاه !! كيف أندب اليوم من وفت محامده، وحمد وفاؤه، وصفت موارده، وورد صفاؤه، وترفع قدره، وقدر ترفعه، وقام شاهد بيانه، وشهد قيام تبيانه، فأنى:

لم أدر هل خطب ألم بساحتى؟ ٭ فأناخ أم سهم أصاب سوادى!
أقذى العيون فأسلت بمدامع ٭ تجرى على الخدين كالفرصادى!
ما كنت أحسبنى أراع لحادث ٭ حتى منيت بها فأوهن آدى!

• • • •

حنانيك يا رب!! أ فى الساعة التى يضطرب فيها بحر الشرق بدسائس الاستعمار الدينية والثقافية والسياسية، وتحار فيه مراكب الامم، وتبتعد عنها المرافىء، تموت الربابنة، وتختفى الاقطاب؟!!

أ فى الساعة التى يستمر فيها النضال بين أمم الشرق والغرب للحرية والكرامة، والحياة والتقدم تسقط الكماة، وتختطف الحماة؟!!

وباه !! فى كل يوم تجاوب فى الشرق أصداء الأسى على بطولة تودى، أو زعامة تخلو، أو نبوغ ينطفئ !!

فنى شهر ديسمبر الماضى وارت الهند فى التراب بجزع شديد بطولة فى العلم والتقوى، والجولة فى الجهاد السياسى فى شخص مولانا حسين أحمد المدنى الذى وصفه عالم مصرى شهير حين عرفه وسبر غوره بأنه رجل جمع صفات قل أن تجتمع فى غيره من زعيم، أو قائد، أو عالم !!

وفى أوائل فبراير الماضى بوءت مصر بكد عظيم طودا من العلم، وبطلا فى الجهاد، وقدوة فى التقوى فى شخص الشيخ محمد الخضر حسين التونسى أول شيخ الأزهر فى عهد الثورة بمصر، حدثه !!

وفى أواخر فبراير المذكور أهالت الهند التراب بحسرة ملتاعة، ودموع هاطلة، على جبل شامخ من العلم، ومثال نادر من الزعامة، ونبوغ شاذ فى الأدب فى شخص مولانا أبى الكلام أحمد !!

° ° ° °

واحسرتاه !! اليوم انقطعت صلتى المباشرة وغير المباشرة بمولانا انقطاعا كليا ! وهى التى دامت حوالى أربعين سنة، كنت فيها أستقى مرة من قليب علمه، وطوراً أشيم بارقة أدبه، وتارة أرد ساحل بحره، ومرة أستكف قطر مزنه، وطوراً أقتطف ثمار رسائله، فتقع موقع الرى من ذى الغلة، والشفاء من ذى العلة !!

فوداعاً يا مولانا !! لقد تركت شعبك بعد أن قمت بخدمته المتواصلة خمسين سنة فى تباين فيك !! وهو أكبر دليل على سمو زعامتك! وعلو منزلتك! فان سيدنا عليا رضى الله عنه أعلن قبلا بكثير: يهلك فى فتيان محب مفرط، ومبغض مفرط. فتباين الناس فى رجل برهان على رفعة مركزه، إذ هى صفة أنبه الناس وأبعدهم غاية فى مراتب الدين، وشرف الدنيا.

أما سياسة العوام فليس على الأرض عمل أكد منها لأهله . إن رضا الناس جميعا ـه لا ينال . قيل لبعض العرب : من السيد فيكم ؟ قال : الذى إذا أقبل هبناه ، إذا أدبر اغتبناه !!

فاغتيابك يا مولانا ! سواء كان بالهند أو بالخارج ، إذا جردناه عن الدسائس لاستعمارية التى اشتغلت لتفريق الشعب الهندى ، وتشويه الحقائق ، وكذلك استثنينا اتصك الطبيعية الانسانية ، وجدنا معظمه مبنيا على عدم فهم طبعك ، ومبادئ حياتك . تمنى أن نوفق لنشرها تفصيلا ما دامت سير العظماء والزعماء تراثاً يرثه نسل بعد ل ، وقبساً يستنير به جيل بعد جيل . والله ولى التوفيق !

° ° ° °

وا لهفاه !! أقفرت اليوم رباع الفضل كانت إلى الأمس بعلمك عامرة ، وذبلت باض الأدب كانت بالأمس ببيانك ناضرة !!

وأين يجد الشعب الهندى مجالسك التى كانت كالبستان فى الخريف ، أشجاره باسقة ، أثماره يانعة ، وأزهاره منورة ، وأنهاره مصردة ! لكل عين فيه منظر ، ولكل يد فيه قطف ، ولكل فم فيه مذاق . ينطلق فيها لسانك ، فيضع الهناء مواضع النقب ، ويفل فز ويصيب المفصل ، لا تعترضه لكنة ، ولا تقف به حبسة ، يفحم كل أفوه ، يسكت كل ناطق ، ويحير كل لبيب !!

وا أسفاه !! خسر الأدب الأردوى بالهند بفقدك فى البلاغة بطلا من حماته ، وفى الخطابة قائدا من كماته ! وتتطلع اليوم العيون إلى مكانك الموحش فى حسرة زافرة ، وجد كظيم !!

وأما أنا ، وإن رتعت بالأمس فى رياض ألفاظك ومعانيك ، والتقطت الدر لمنثور من متساقط فيك ، ولكن اليوم فى قلبى من فراقك نار لا تخمد ، وغليل لا

يرد، ووجد يتجدد!! أواه!!

أخفض الزفرات وهي صواعد! ٭ وأكفكف العبرات وهي جوارى!!
وشهاب نار الحزن إن طاوعته ٭ أورى وإن عاصيته متـوارى!!
وأكف نيران الأسى ولربما
علق الصبر فارتمت بشرار!!

أكرم الله مثواك يا مولانا وتغمدك بسحائب رحمته!!.

القاهرة
(عاصمة الجمهورية العربية المتحدة)

تلميذك الحزين
السيد أبو النصر أحمد الحسيني

الفن الهندى خلال العصور

لة ألقاها المغفور له عند افتتاحه المعرض الفنى بـ «نيو دلهى» ٦ نومبر ١٩٤٨

تعريب : الأستاذ صدر الدين

أقدم إليكم غاية الشكر والامتنان على عنايتكم بهذا المعرض للفن الهندى، وعلى ادرتكم إلى تلبية رجائنا لفتحه.

إن هذا المعرض الذى نظمته لكم وزارة المعارف الهندية غير مسبوق بنوعه و نام فى الهند لأول مرة. و أنا لواثق بأنكم ستوافقون على أنه لا يبلغ برنامج من امج التعليم القومى قمة كماله إلا أن يخصص فيه للفن الوطنى مكان مناسب، والمعرض لحالى أوضح دليل على إدراكنا هذه الحقيقة، ويمتاز بأنه أول خطوة إلى الهدف ى تطمح إليه وزارة المعارف. ومن مزايا هذا المعرض أنه تمثل خمسة آلاف نة متتالية من التاريخ الهندى فى مجده وشرفه، ومن هنا نعرف بسهولة ما له من مة من النواحى التعليمية.

و يجدر بى فى هذا المحل أن أذكر لكم موجزا كيف وفقنا إلى جمع هذه التحف لعروضة.

أظهرت «الأكاديمية الملكية للفنون» فى لندن عنايتها الخاصة بالفنون الشرقية، و لك قبل أن تنشب الحرب أظفارها، فأقامت فى سنة ١٩٣١ معرضا للفن الايرانى، نظمت فى سنة ١٩٣٥ معرضا آخر للفن الصينى. ولما وضعت الحرب أوزارها أت الأكاديمية أن تقيم معرضا مماثلا للفنون الهندية، و رحبت الحكومة الهندية لاقتراح ترحيبا حارا، و أكدت بمساعدتها الممكنة، وكان نتاجها الجيد أن تقرر

قيام المعرض للفن الهندى فى لندن.

و أجمعوا على أن يجعلوا، تمثيل الهند من الناحيتين التاريخية والفنية مبدأ رئيسيا لانتخاب التحف، وكلنا نعرف أن التحف الفنية منشورة فى أنحاء البلاد، وليست مكتنزة فى متحف خاص. فمنها ما تملكه الحكومة المركزية، ومنها ما تحتفظ به الأقاليم، ومنها ما توجد فى الأمارات الهندية، وتلك علاوة على التحف النادرة التى يحترص عليها أفراد. فكان الملزوم أن يعهد إلى خبراء الفن اختيار التحف وانتقاء ما يناسب منها. وتحقيقا لهذا الغرض شكلت لجنة تحت رئاسة السيدة «سروجنى نائيدو» و دعى ثلاثة خبراء من إنجلترا لتنفيذ أوامر اللجنة، وأقاموا بجولات فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها و انتخبوا ١٠٠٠ تحفة أثر الاختبار الدقيق وأرسلوها إلى إنجلترا فى ٢٣٩ علبة.

وبدأ المعرض فى «برلنكتن هاوس» (لندن) فى اليوم الأول من شهر ديسمبر ١٩٤٧، و دام إلى شهر فبراير ١٩٤٨.

وكان المعرض سعيا ناجحا و وافيا بالغرض الذى جمعت التحف لأجله. وعندماحان يوم إعادة التحف إلى الهند، رأت وزارة المعارف الهندية أن لا ترد هذه التحف الفنيــة إلى مقراتها قبل أن تعرضها مرة فى بلادها. فانه من البديهى الجلى أن إعداد مجموعة ثمينة كتلها ما لا يمكن كل يوم، ولا سيما حين كان المعرض فى لندن نتيجة انتخاب دقيق بين جميع المجموعات الفنيـة الموجودة فى البلاد. وكانت-ولا ريب-أروع مجموعة من الفن الهندى، وأكبر مساعد فى دراسة تاريخ الأمة. وبما أن الحاجة إلى إحياء ذكرى البلاد لم تكن فى الماضى أكثر منها فى الظروف الراهنة التى تجتاز بها بعد نيل الحرية، أجمعنا على عرض التحف عند نهاية العام قبل إرجاعها إلى ملاكها.

وكانت المرحلة التـالية هى اختيار محل يليق بمثل هذا المعرض الثمين، إذ كنا

فى حاجة إلى عمارة تفى بكل ما يتطلبه المعرض، وتسع ألف تحفة على اختلاف أنواعها حتى ننسقها تنسيقا كامل الافادة. وهنا أخذتنى مخيلتى إلى الغرف الواسعة لـ (Government House)، وكنت كلما مررت بقاعتها الفخمة شعرت دائما بدافع قوى يحدث إلى: يا لها من روعة متحف أو مكتبة تشغل هذه القاعة!

وعل الشاعر الفارسى لم ينشد إلا صدى خواطرى هذه حينما تمنى على كعبة الله أن تتحول معبدا للنار:

« اين خانه بدين خوبى آتشكده بايستى »

(ما أجمل البيت، ليته يكون معبدا للنيران).

يا صاحب الجلالة! أنا شاكر لكم على تشريفكم بتلبية ندائى بمجرد أن عرضت الفكرة عليكم، وسرعان ما خيرتم وزارة المعارف فى هذا الجزء من الدار الفخمة فهذا بفضلكم ومنكم أن نرى المعرض الرائع فى هذه القاعة.

وطلبنا إلى مصلحة الآثار التابعة لوزارة المعارف الهندية تنظيم شؤون المعرض وكونا لجنة تنفيذية تحت رئاسة سكرتير المعارف، وتسلم المدير العام لمصلحة الآثا[ر] وظيفة سكرتير اللجنة. وكان العمل صعبا هاما يقضى بالحيطة البالغة. على أ[ن] تغمرنى موجة الفرح إذ أشكر عدة المصالح الحكومية التى بادرت بموظفيها بحماس كامل إلى كل خدمة طلبت إليهم. ولا أحتشم فى اعترافى بأنهم هم الذين يعود إليه[م] الفضل فى نجاح المعرض.

و أذكركم الآن بعض ما يمتاز به هذا المعرض المحيط بالفن الهندى كامل الاحاطة والذى يمثل الفن الهندى منذ ٣٠٠٠ ق.م. إلى القرن التاسع عشر الميلادى.

ينقسم المعرض إلى خمسة أقسام: النحت (Sculpture)، والتماثيل البرونز (Bronze Images) والصور الملونة (Painting) والمنسوجات (Textiles) والفنو[ن] الدقيقة (Minor Arts).

ويشمل قسم النحت على التماثيل والتحف الثمينة والمجوهرات من عصور مدنية وادى الهندس إلى العصور الحاضرة، ولى أن أخص بالذكر:

١ـ عاصمة الثور من تاج القرن الثالث ق.م. وهى نموذج رائع للفن الأشوكى.

٢ـ حاملة المروحة من تاج «بتنه» لنفس القرن وهى مطلية بالطلاء «الموري» اللامع، ولا حاجة إلى ذكر ما فيها من روعة و جمال.

٣ـ تماثيل النسوة المنحوتة من الحجر الأحمر، مما أعقبها فنانو «متهرا».

٤ـ تمثال ضخم لبوذا القائم، يعود تاريخه إلى القرن الخامس، وهـذه كلها إلى جانب المنحوتات الأنيقة من معابد «أوريسه» و «ميسور» مما خلفها رجال القرنين العاشر والحادى عشر.

و أما الفن البرونزى مجده متمثلا فى أجمل آياتها الموجودة فى البـلاد، فاليكم تمـثال شهـيـر مـن القرن الثانى عشر يمثل «شيوا» أو «ناتاراجا» فى «الرقص الكازميكى» Cosmic.

وموجز القول أن القسم بجملته يكشف لنا عن تاريخ البرونز الهندى فى أدوارها المتتابعة، فمرفه منذ عصر راقصة شهيرة لـ «موهنجودارو» حتى نماذج فنون «تاكسيلا» و «بنغال» و «الهند الغربية» و «مدراس».

ويحتضن قسم الصور الملونة على ما يقرب من ٣٥٠ آية من آيات الفن، تمثل المدارس الفنية قاطبة: فنرى فيها المدارس البالوية البنغالية، والكجراتية، والراجستهانية، والجبلية المتاخمة لهمالايا.

ونرى من آيات المدرسة البالوية عدة مخطوطات على أوراق النخل المتداولة فى القرن الحادى عشر. وهكذا تحتوى المدرسة الكجراتية على نماذج رائعة. ونجد فى القسم الراجستهانى سلسلة رائعة من «راگ مالا» فى ألوانها اللامعة، وهى من

مجموعة « تريزرى والا » Treasury wala . ومما يسركم أننا اشترينا هذه المجموعة للتحف الأهلى وتعرض على الشعب لأول مرة.

و نرى المدرسة « الكانكرية » متمثلة فى صور « رام ليلا » من منتجات القرن الثامن عشر ، وكان أزهى عصور للدرسة .

وهنا نماذج و أمثلة تجهر بمزية المدرسة « المغولية » من بينها صورة بديعة من صور « حمزه نامه » ملونة على القماش ، وكانت إلى هذا الحين فى معرض الخفاء خاملة .

وأرى أن أشير بصفة خاصة إلى صور « رزم نامه » (الترجمة الفارسية لمهابهارت) وصفحة من « درب نامه » وصفحتين من « تاريخ الألفى » وثمانية أوراق من « عيار دانش » وكل ذلك من مخلفات عصر الامبراطور « أكبر » .

وهنا مجموعة أخرى نادرة من صور « راگ مالا » ، أسلوبها مولد من الأسلوبين الراجبوتى والمغولى ، وكان متداولا أيام الامبراطور « جهانكير » ، ونرى فيها الامبراطور نفسه ، ولا شك أنها من أهم المعروضات . وهذا كله إلى جانب صور الامبراطور « شاهجهان » و « جهانكير » وغيرهما من الشخصيات الممتازة .

و فى هذا القسم عدة وثائق خطية أخرى ، تمتاز بخطوطها البديعة النادرة ، فمنها وثيقة مختومة بخاتم « حميده بانو بيكم » والدة « أكبر » ، ومنها نسخة ثمينة للقرآن الكريم ، نسخت فى سنة ١٧٨١ « آصف الدولة » عامل أودهه أعارتها إلينا مكتبة « رامبور » .

وأما المدرسة « الدكنية » فتمثلها صورتان رائعتان كبيرتان لموكب نجم لـ « چاند بيبى » و وصيفاتها و « عبد الله قطب شاه » .

ويشتمل قسم المنسوجات على نماذج جميلة للساريات الحريرية الموشاة المذهبة ،

عليها من «أحمداباد» و «أورنگ آباد» و «سورت» و «تجور». وهنا نموذج الفن الكجراتي الممتاز من طراز Tie & Dye يمثل الصيد والرقص.

و من الفنون الدقيقة نموذج خشبي مطعم بالعاج من آيات «ميسور»، وخناجر ذات المقابض اليشمية وسيوف من العصر المغولي. وهنا ترس منقطع النظير من ممتلكات الامبراطور «أكبر». و في وسطه صورة شمس يدور حولها الاثنا عشر رمزا للزودياك.

سادتي الكرام، إن ما قالوا عن الفن كثير و أكثر منه ما سيحدثون عنه في المستقبل. إلا أن أهم ميزته — كما أرى — هي ناحيته التاريخية. و ذلك أن فن كل أمة يمثل تاريخها تمثيلا مرئيا محسوسا. بينما الوقائع المسجلة في دفتي الكتب تبقى قاصرة، عن إراءتها وإنما تكتفي بالحديث عن الماضي. لكن الفن — على العكس — لا يجتزئ بالحديث ويتعدى دائرة المقال إلى الاراءة. فنرى فيه التاريخ حيا نشعر به و نتأثر.

ومن ثمة. نقف أمام تماثيل و أشكال ناظرين إليها و نقرأ منها تاريخا مفصلا لقرون متتابعة، و إن تمثالا واحدا لـ «أبولو» أو «فينوس» — على سبيل المثال — ينفذ بنا إلى دقائق الحياة و يطلعنا على عقلية اليونانيين أكثر مما نفيد من خمسة آلاف صفحة من الكتب.

و ستجدون في المعرض تمثالا رائعا لبوذا في وقوفه يرجع في تاريخه إلى القرن الخامس، فاذا وقفتم بين أيدي هذا التمثال لعدة دقائق منصتين إلى المناجاة الصامتة المنبعثة من الحجارة. فستدرسون — خلال ثوان — من تاريخ الهند القديمة أكثر مما تعرفون من مئات صفحات التاريخ التي كتبها عباقرة التاريخ.

ويتضمن مثل هذه المعارض جانبا آخر لا يقل أهمية. وهو أن الفن وسيلة لتربية العواطف، ومن أجل هــذا عنصر أساسي لكل مشروع يهدف إلى التعليم الأعلى

ة، وليس لنا أن نعتبر التعليم — سواء كان فى المرحلة الثانوية أو الجامعية — تاما : إلا أن يربى كفاءاتنا لفهم و إدراك الجمال. ولا أجد مناصا من الاعتراف التربية الفنيـــة مصابة بالاهمال المؤسف، ولم يعن بها لا من حيث كونه مخزنا خ القديم، ولا من ناحية الجمال.

ولا شك أن طلابنا يقومون برحلات على حسابهم أو ترشدهم معاهدهم إلى ف مثل «المتحف الهندى» فى «كلكتا»، ومتاحف «جيبور»، و «ميسور»، حيدر آباد». و هذه الرحلات على قلتها تخلو من اهتمام واجب فضلا عن ال فى دراسة الفن و اعتبارها عنصرا أساسيا من الدراسات العامة.

و وافقت وزارة المعارف على عدة مقترحات ترمى إلى تثقيف حياتنا و تمويلها الفن عنصرا للتعليم الثانوى والجامعى. و من الظاهر أن تحقيق هذه المقترحات نذ بعضا من الوقت، و من أجل هذا أرجوكم أن تروا فى المعرض الحالى فاتحة نستهدفه. ولى أمل واثق بأن هذا المعرض سيوقظ فى كل منا شعورا حيا ى و بالفرح والاعتزاز بالتقاليد القديمة — بل سيحفزنا إلى إنعاش مدركاتنا حتى . أناقة و جمالا فى شؤوننا اليومية.

يا صاحب الفخامة، أرجوكم — و أنا مغمور بالفرح — أن تتكرموا بتدشين المعرض.

(من مطبوعات مكتب النشر الهندى)

الشعب الهندى يرثى الفقيد الكريم

للأستاذ ناصر الأنصارى

غصت ميدان «رام ليلا» يوم الأحد بالجماهير التى لا يحصى عددها وقد اجتمعت لرثاء الراحل الكريم، مولانا أبى الكلام آزاد، وشوهد السيد نهرو، رئيس الوزراء، قد اغرورقت عيناه بالدموع عندما نهض متثاقلا متحاملا وقال:

« قد يستطيع الزمن التخفيف من هول المصاب، ولكن أنى لنا أن نسد الفراغ الذى شغر فى القلب بوفاة الراحل الكريم؟ ولا أزال طول حياتى أتذكر هذا المصاب الجلل كلما واجهتنى الخطوب والمعضلات. وإنى لأتسائل، أين لى بعد اليوم ذلك الصديق الحميم الذى كنت أنشد عنده دائما النصيحة و المشورة؟ »

وكان حزب المؤتمر الوطنى لولاية «دلهى» قد نظم هذا الاجتماع وترأسه فخامة رئيس الجمهورية الهندية الدكتور «راجندر برشاد»، وتكلم فى الاجتماع فخامة رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء نهرو، ونائب رئيس الجمهورية الدكتور «رادها كرشنن» بلهجة تنم عن حزنهم العميق، فأشادوا جميعا بذكر المناقب و أكدوا احترامهم ومودتهم للفقيد المحترم الذى جمع فى شخصيته بين عالم عظيم، و وطنى مجاهد، و وصفوه بأنه كان خير نموذج لأحسن ما تحويه الثقافة الهندية فى ماضيها و حاضرها، ونوهوا بمواقفه العظيمة، فانه كان مناضلا لا يعرف الاحجام والوجل فى سبيل حرية بلاده، و سياسيا نافذ البصيرة، و صاحب كفاءة و مقدرة، ينفذ بثاقب فكره إلى أعماق المشاكل، مهما أعضلت و تعقدت. وكان رحمه الله بمثابة جسر بين العهد القديم والعهد الجديد، و عبقريا يدرك ضمير البلاد و حاجتها،

شخصية لامعة تلألأت وسطعت فى سماء الهند خلال حركة الاستقلال الهندى منارا هدى الشعب الهندى إلى الطريق القويم. وعلاوة على رئيس الجمهورية الهندية، ونائب رئيسها ورئيس الوزراء، حضر الاجتماع المستر «دهيبر» رئيس حزب المؤتمر الوطنى، و «آچاريا كرپلانى»، و «البخشى غلام محمد» رئيس وزراء كشمير «گيانى گورمكهـ سنگهـ» مسافر، ومولانا حفظ الرحمن والسيدة «أرونا آصف على» الدكتور «هـ ـ ن ـ كنزرو» والمستر «ا ـ ك ـ گوپالن» والدكتور ذاكر حسين حاكم ولاية بهار. وألقوا كلماتهم التى نمت عن أحزانهم العميقة وحبهم الصافى للفقيد.

ودعا رئيس الوزراء المستر نهرو فى خطابه الجمهور إلى أن يتبرعوا ما يتيسر لهم لإقامة مؤسسات تذكارية، تخلد لنا الفقيد المحترم مولانا أبى الكلام آزاد، ولإنشاء نصب تذكارية على ضريحه، وذلك وفقا لقرار اتخذته اللجنة العاملة لحزب المؤتمر الوطنى بهذا الصدد. وقال رئيس الوزراء:

« نرمى وراء هذه التبرعات إلى ثلاثة أهداف كان الفقيد فى حياته دائما يطمح إلى تحقيقها.

أولها: إرسال بعثات الطلبة إلى البلاد العربية والفارسية من غربى آسيا، واستيفادهم إلى الهند من هذه البلاد للدراسة، وذلك تعزيزا وتوطيدا للروابط الثقافية بين الهند وبين هذه البلاد.

وثانيها: تأسيس مقعد أو أكثر فى الجامعات الهندية للابحاث العلمية المتعلقة بالنواحى الاجتماعية والثقافية الهندية.

والثالث من هذه الأهداف إنشاء دور الكتب فى جميع أنحاء الهنـــد. »

قال السيد نهرو:

« إن « ساهتيه آكاديمى » (الأكاديمية العلمية) قد قررت أن تنشر جميع أعمال الراحل الكريم وتآليفه مع تراجمها بلغات أخرى. وأؤكد بأن الحكومة الهندية ستبذل أقصى جهودها فى إنشاء مؤسسات ونصب تذكارية تناسب منزلة الفقيد وتخلد ذكراه. »

ووافق الحاضرون الآخرون على إنشاء النصب التذكارية على ضريحه وإقامة المؤسسات تخليداً لذكراه. وقال فخامة رئيس الجمهورية، وهو أول من تكلم فى الاجتماع:

« إن تاريخ الهند خلال خمسين عاما الماضية مقترن باسم الفقيد على وجه لا يمكن فصله عنها. وإن القلم الذى ألهب الوطنية فى آلاف من نفوس هذه البلاد، قد وقف اليوم، وإن الصوت الذى أثار ملايين الهنود وأيقظ فى نفوسهم الحمية والحماس الوطنى، قد خفت اليوم. ولعل أحسن ما نزجيه لزعيمنا الراحل من آيات التقدير والتبجيل أن نجعل نصب أعيننا المثل والمبادئ التى نافح عنها طوال عمره ونسترشدها ونتخذ منها منبعا للهداية، وعلى الأخص ولاؤه ووفاؤه وحبه العميق للبلاد واستنكاره للميول والنزعات الطائفية. »

وقال رئيس الوزراء المستر نهرو:

« إن وفاة مولانا أبى الكلام آزاد لنهاية عهد من تاريخ هذه البلاد. إذ كانت شخصيته كجسر أوصل بين العهد القديم والعهد الجديد وأحسن نموذج لهما. »

وقال « البخشى غلام محمد » رئيس وزراء كشمير، وقد شرق صوته مرارا أثناء خطابه واختنق لمرارة الألم:

« إن زعماء كاشمير استشاروا مولانا آزاد حين واجههم مشكلة انضمام ولاية كاشمير، فأشار عليهم بأن أنسب شيء هو انضمامها إلى الهند، وطلب منهم أن لا يتريثوا فى الانضمام و يتثبتوا على قرارهم غير واجلين من العواقب أو المشاكل، مما قد تواجههم. »

نى « البخشى غلام محمد » يقول:

« هلا رأى الذين يسبون الحكومة الهندية هؤلاء الآلاف من غير المسلمين الذين اجتمعوا هنا لرثاء الراحل الكريم؟ كأنه كان من بنى عمومتهم! ولا شك أن هذا الاجتماع يقلع جذور الدعاية الكاذبة المنشورة عن روابط أهالى الهند بعضهم مع بعض. »

و وقفت الجماهير صموتا لدقيقة كاملة إبداء لما تحوى عليه قلوبهم من تقدير و ترام لفقيدهم. وقال الدكتور « راجندرا پرشاد » رئيس الجمهورية الهندية:

« إن الجماهير الغفيرة التى احتشدت اليوم فى هذا الاجتماع قد كشفت عن أعمق التقدير والتكريم للزعيم الذى فارقنا فراقا أبديا يوم السبت الماضى، وكفانا بهم شاهدا على ما كان للمغفور له من حب وثقة فى قلوب الهنود، إذ بادر ملايينهم بغض النظر عن دينهم و طبقتهم للرثاء على وفاة الزعيم الجبار الذى اقترن حياته خلال ٤٥ عاما الماضية بحركة استقلال الهند و تعميرها اقترانا غير منفصل. »

استطرد رئيس الجمهورية قائلا:

« إن مولانا آزاد أثار الشعب بكتاباته البليغة البديعة وبث فيهم روح الكفاح والجهاد لتحرير وطنهم. و أرشدنا بأعماله الباهرة و تضحياته العظيمة إلى تذليل العقبات وإزاحة العوائق والعراقيل التى

تعرقل سبيل الأمة. وكان عبقريا ومفكرا اكتنه الغوامض وهو لم يبلغ بعد رشده، و اهتدى بفكره إلى أن لا مناص للهنود، مسلمين وغيرهم، من أن يتعايشوا فى هذه البلاد مسالمين متصالحين حتى تكون حياتهم ملؤها الود والصداقة. وما زال مؤمنا بهذا المبدأ إلى أن جاد نفسه الأخيرة. ولم يكترث لما اعترته فى هذا السبيل من عقبات وعراقيل ومحن وشدائد وإنما واصل عمله وجهده ليلا ونهاراً لتدعيم الحق. »

وأضاف فخامة رئيس الجمهورية قائلا :

« إن الملاقات بينه وبين مولانا آزاد كانت من التوطد والرصانة إلى حد لا يمكن وصفها أو تعبيرها فى هذه الفرصة القصيرة. وإنما أنا أكتفى بالقول بأنه يتحتم علينا أن نحـذو حذوه ونهتدى بهديه، الشخصية الفريدة التى كانت أروع نموذج لتكريس النفس و تقديم التضحيات فى سبيل الاتحاد وحرية البلاد، ونستفيد مما كان يبشر به ويدعو إليه. ولعل هذا يعد من أعظم آيات التكريم والتقدير. وهو السبيل الوحيد للدفاع عن استقلالنا و تعزيز دعائمه. »

ومضى الدكتور « راجندر برشاد » يقول :

« تعالوا نعهد على أن نسلك مسلكا أرشدنا إليه مولانا آزاد وعلى الأخص نتعاهد على العمل المتواصل لرفاه الشعب والبلاد. وإنى لعلى يقين بأننا لو أدركنا حياة مولانا آزاد وفهمناها فهما لورعنا عن المنازعات الطائفية، أو الفئوية أو المؤسسة على الديانات. »

وقال رئيس الوزراء السيد نهرو :

« توفى مولانا آزاد إلى رحمة الله و إننا كلنا سنذوق الموت حتما، لكن لا تزال قافلة الأمة تواصل سيرها. ولا شك فى أن وفاته أحدثت فراغاً لا يمكن سده، وما من نفس يستطيع ملأ هذا الفراغ ولا أقصد أن البلاد لا ترزق رجالات فيما بعد، بيد أنهم لن يماثلوه ولن يتصفوا بما اتصفت به شخصيته من صفات وميزات — وإنه لحق أنه كان فى شخصيته مركزا جامعا اجتمعت فيه مختلف الأفكار والفلسفات والثقافات والمدنيات. يعتبر حقا كجسر بين العهد القديم والجديد، فذكرنا بما يمتاز به لماضينا المجيد من السؤدد والعظمة، ولم يقتصر تذكيره على كلمات فحسب بل مثلها لنا بأعماله الباهرة وكتاباته البليغة التى تعد ذخرا ثمينا فى خزينة اللغة الأردوية. »

ثم تطرق المستر نهرو الى ذكر المؤسسات التذكارية لمولانا أبى الكلام آزاد وقال:

« إن الحكومة ستتخذ خطوات بهذا الصدد فى الوقت المناسب إلا أن الأهم أن تعمر قلوبنا بالمؤسسات الحقيقة — وشهدنا أمس بما كان له فى كل قلب من حب وثقة حين احتشدت الجماهير بغض النظر عن اختلاف أديانهم وطبقاتهم وعقائدهم، و اشتركوا للندبة على هذا الخسران المبين. »

وقال المستر نهرو:

« إن الهند قد احتضنت مختلف المدنيات والحضارات والأفكار والثقافات ولم تزل عملية الاندماج سارية منذ آلاف من السنين، ونجحت الهند فى هضمها وامتصاصها، فترى لها نماذج رائعة وشواهد بينة فى فنون الموسيقى، والأفكار والنظريات والآركيالوجية (علم الآثار)، وكان رحمه الله خير رمز لهذا الاختلاط والاشتراك الثقافى. وكانت

شخصيته بلاشك همزة الوصل بين مختلف الثقافات والأفكار والنظريات .
ولم يزل طول حياته يعمل للتوحيد بينها »

وأعرب الدكتور « رادها كرشنن » نائب رئيس الجمهورية عن رثاءه قائلا :

« قد أعيانا هول المصاب حتى عجزنا عن إبداء ما تكنه صدورنا من تقدير وتكريم لخدمات وتضحيات قدمها مولانا آزاد لحركة الاستقلال الوطنى وفى سبيل التقدم الذى تلاها . وكان رحمه الله قد أصيب بمصائب جمة لكنها أخفقت فى زعزعته عن آرائه و وجهات نظره ونظرياته . »

وأضاف الدكتور « رادها كرشنن » يقول :

إنه يذكر ما ارتكبه طلاب من بعض الجامعات من إهانة مولانا آزاد لكنه لم يحد قيد شعر عن ما وضع نصب عينه . ومن هنا يعود علينا جميعا أن نفهم فى هذه الآونة التى يسودها الاختلاف والانشقاق أن أهم شيء للتقدم الوطنى هو الاستقامة والوفاق الوطنى . وأما ماعداه فدونه رتبة وأحط منزلة . وإن من أعظم المبادئ التى تشتمل عليه حياة مولانا آزاد هوالعدل فى شئون تتصل بالشعب ، والحنان فيما يتصل بأصدقائه وأحباءه ولم تزل حياته حياة استكشاف ونيل ، وقد حيى حياة ملؤها السؤدد والكرامة ، وكفى ذلك لكل هندى افتخارا ومباهاة . وإنى لعلى يقين بأن ذكراه تخلد ولن تفارق قلوبنا وتترعرع بين حين وآخر . »

وقال المستر « دهيبر » رئيس حزب المؤتمر الوطنى :

« إن وفاة مولانا آزاد نائبة أخرى أصيبت بها الأمة الهندية بعد

وفاة «بتيل» و رفيع أحمد القدوائى. استمر رحمه الله مشتغلا فى كفاح التحرير الوطنى منذ ١٩١٤ الميلادى وخرج منه مجـاهدا ممتازا يدافع عن حياض الاتحـاد بين الشعب و وجـــه أعظم عنايته إلى تماسك الثقافة الهنـدية المشتركة، وبذل جهوده الثمينة لمـا وضع نصب عينه من الهدف العظيم ولم تتمكن قط الدعاية الكاذبة التى قام بها السفهاء من التطرق إلى أعماله. وكان حياته درسا للشعب الهندى لأن يعمل جميع الشعوب الهنـدية بغض النظر عن دينهم لانعاش البلاد و رفاه الشعب.»

وقال «ج ـ ب ـ كر پلانى» زعيم الحزب الاشتراكى الشعبى Praja Socialist Party :

« إن مولانا أبا الكلام آزاد كان جمع فى شخصيته بين زعيم مكافح و عالم جبار و أديب بارع. وكان قد توصل إلى أن لا مناص لتحرير بلاد الهند من أن تعيش المسلمون والهنادكة متحابين موادين ولم يدخر وسعا فى محاولته لتحقيق هذا المرام.»

وقال المستر آچاريا كرپلانى:

« إن مما يؤلمنا هو أن الزعماء والأسلاف لا يزالون يقضون نحبهم واحـدا بعد واحد ولا يخلفهم أحد ذو مقدرة وكفاءة يرشد الشعب وينور الطريق لهم. و مهما كان الأمر فان الحقيقة أنه لا يمكن سد الفراغ الذى فاجأت به وفاة مولانا أبى الكلام آزاد.»

وقال المستر «گوپالن» زعيم الحزب الشيوعى:

«إن الفقيد المحترم كان مرموقا إليه بنظرة الاجلال ومعظما فى أعين الناس قاطبة ومحببا إلى أقدتهم جميعا، وكافح كفاحا مريرا لحرية البلاد،

وعمل بعدها على تعميرها. فلنعهد اليـــوم أن نقفو آثاره ونهتدى
بهديه. وعلى الأخص فيما اتصف به من الطابع الاتحادى بين
المسلمين والهنادكة ونبذل جهودنا لانعاش البلاد والتقدم بها.

وكان الدكتور ه. ن. كنزرو، والمستر گورمكه سنگه مسافر، ومولانا حفظ الرحمن أعضاء البرلمان الهندى ممن تكلموا فى الاجتماع.

ثورة الهند السياسية

وبيان لفقيد الشرق معالى أبى الكلام آزاد عند محاكمته

إن الجهاد العظيم الذى قامت به الهند لنيل الحرية والسيادة، يكاد يكون فذا ، تاريخ العالم. لا لأنه كان جهاد بلاد استعبدت استعبادا قاسيا، وحكمت بالنار الحديد أجيالا، فصبت على رأسها المصائب تلو المصائب، ودهمتها الدواهى إثر لدواهى، بل لأنه كان فريدا فى نوعه. فأصوله جديدة، وطرقه عجيبة، ومظاهراته ىلمية، وروحه العاملة فيـه خالية من كل حقـد، لم يكن فيه إلا الايثار وكظم غيظ وتحمل الشدائد والتضحية بالمهج. وكان القائمون به يُضربون ولا يضربون، صابون ولا يصيبون، يقتلون ولا يقتلون، يقاومون القوة لا بالشدة والبطش، ل بالصبر والحلم والسلم، ويحاربون الاستبداد لا بالحـديد والنار، بل بالايمان اليقين والثقـة بالله. فكان جهادا سلميا حقا، وحربا روحية بريئة من العنف القوة، ولا ريب فى أنه كان صحيفة عبر وكتاب بصائر لسائر الأمم المستضعفة، بين لها أن الفوز والنصر لا يتوقفان على بسطة الجسم والقوة المادية، بل المنبع لحقيقى هو القوة المعنوية وزكاء القلوب التى فى الصدور. فهو أول مثال للمقابلة سلمية للقوات المتسلحة القتالة، وهب الشرق كله سلاحا ماضيا صائبا من لايمان والصدق، يدافع به العدو الغاشم المعتمد على النيران والأسلحة الذرية.

ولا أبالغ فى وصف هـذا الجهاد، ولا أهيم به فى أودية الخيال، أو أتخيل كالشعراء فى المحال، وإنما أتكلم عن حقيقة وبرهان وأكشف عن كنه الحال، فانه جهاد زعزع أساس الدولة البريطانية فى البلاد، وتركها فى حيرة وارتباك، فظلت

لموالة الأيدى مع ما تملك من قوة وسلاح، ولم تستطع قهره ومقارعتـه بكل
أوتيت من البطش والجـلاد. فان السلاح يقرع السلاح، والقوة تصادم
نوة. والمصارع يصرع المصارع. ولكن هل سمعت سيفا يقتل روحا، أو صرعة
سرع قلبا. عجز الاستبداد أن يقهر هـذا الجهاد السلمى، لأنه لم تكن أمامها
ة مادية فتكسرها ولا يد فتاكة فتجذمها، وإنما كل ما هنالك عنق للقتل وقلب
حياة. وجسم للصلب وروح للبقاء. فما أعجب هذا الجهاد! وما أسلم هذا العراك.

وكانت من أهم ما امتاز بهـا هـذا الجهاد «حركة اللاتعاون السلمى» نقدم
كم بيانا وجيزا عنها ثم نتحفكم بالخطاب الجليل الذى خاطب به المحكمة الانجليزية
بـد الشرق معالى مولانا أبى الكلام آزاد عندما حوكم فيها، ففيه من البصائر
لعمر ما لايزال يرن صداها فى العالم.

قامت حركة الجهاد فى الهـند بعد هدنة الحرب الكبرى مباشرة، وظلت
نا محصورة فى قيام المظاهرات. وحشد المحافل. واجتماع المؤتمرات. وإرسال
فود إلى إنجلترة وغيرها من الطرق السياسية المعهودة، ولما لم تنتج شيئا ملموسا
اورت «جمعية الخلافة» و «الجمعية الوطنية» فى وضع خطة موفقة. وأعلنتا فى
سطس سنة ١٩٢٠ باللاتعاون السلمى، وكان الغرض أن تقطع جميع العلائق
، تساعد الحكومة البريطانية على أهدافها وبقائها فى البلاد. وذلك أن الهند لم
ن فى وسعها أن تعتمد على الأسلحة فى كفاحها. ولأنها أرادت أن تقدم
، نفسها مثالا عمليا لمقاومة القوة بالطريق السلمية. وتقوم فى وجه القوى المادية
لم والتضحية والثبات على الحق إلى أن تمل القـوة من الظلم والعسف، ولا
ب أصحاب الحق من الصبر والتضحية. وكانت اللائحة الأساسية كما يلى:
. ترد إلى الحكومة جميع مناصبها وألقاب شرفها وأوسمتها.
. مقاطعة جميع مدارس الحكومة وكلياتها، وتأسيس المدارس الوطنية للأطفال

واشتغال الشبان بنشر الحركة وترويجها.

٣- تقاطع جميع المحاكم القضائية، فلا يذهب إليها المحامون ولا أصحاب الدعاوى بل تؤسس المحاكم الوطنية لتفصل فيها الدعاوى على الطرق البسيطة.

٤- تقاطع إصلاحات الحكومة التى تمن بها على البلاد، فلا يرشح أحد نفسه للمجالس النيابية، ولا ينتخب لها أحد.

٥- تقاطع البضائع الانكليزية، ولا سيما القماش منها، وعلى الهنود أن يغزلوا القطن بأيديهم فينسج منه القماش، ويلبسه الشعب.

٦- مقاطعة الخدمة العسكرية، حتى لا تستعمل الحكومة البريطانية الهنود فى استعباد الأمم الحرة.

٧- لا تدفع الضرائب إلى الحكومة، مهما تكن العواقب.

ولا يخفى ما فى هذه الحركة من خطورة، إذ لم تكن إلا دعوة إلى الايثار وهضم النفس، وتحمل الخسائر والتعرض للنوائب، فلم يلبها أحد إلا وقد نفض يديه من وسائل العيش وألقى نفسه وأهله فى عرضة الضنك والفاقة والفقر، وأعرض عن كل ما عند الحكومة من الرتب والمناصب والجاه، وعرض نفسه على الحبس والتعذيب وعلى القتل والصلب أحيانا، لكن البلاد رحبت بها و تقبلتها بقبول حسن، وتدفقت جماعات تلبى الدعوة وتعلن باللاتعاون وتتفانى فى سبيل العمل بها، والحكومة تراها بعينها ولا تعرف كيف تصد تيارها.

مقاطعة ولى العهد

وعندما رأت الحكومة أن الحركة لا تزال تتقوى وتنتشر وأنها عجزت عن قهرها، لجأت إلى حيلة أخرى، فرتب الحاكم العام «اللورد ريدنج» الداهية الشهير برنامجا لجولة ولى عهد إنجلتره فى البلاد الهندية، ظنا منه أن الهند لا تأبى لستقبال

الضيف والترحيب به، وذلك أن العائلة الملكية تعتبر عندهم فوق المنازعات السياسية. ولكن سرعان ما خاب أمله. فان الشعب الهندى بمجرد أن سمع بهذه الجولة قرر مقاطعتها. وأعلنت «جمعية الخلافة» و «جمعية العلماء» و «الجمعية الوطنية» مقاطعة الترحيب الملكى.

وقامت إثر هذا الاعلان مصادمة شديدة فى طول البلاد. فكانت الحكومة تمد بجميع وسائلها الكثيرة ومواردها الوافرة لانجاح السياحة الملكية. وفى جهة أخرى كان زعماء البلاد الذين لاحول لهم ولا قوة إلا قوة روحهم وحماسهم يصرون على مقاطعتها. وكانت النتيجة مدهشة جدا. إذ سجل التاريخ أن أقوى دول العالم بكل ما أوتيت من سلطة ونفوذ خضعت أمام الرأى العالم لبلاد ضعيفة البنيان قوية الروح. ولقد شاهد بحل الامبراطور بعينى رأسه منظرا مدهشا لم يشاهد مثله. فلم يدخل مدينة إلا وجد الأسواق فيها مقفولة والأبواب مؤصدة والشوارع مهجورة. وقد شاهد نفس ما شاهد عم أبيه «الدوق آوف كنوت» منذ سنة. و وصفت إحدى الجرائد الباريسية هذه الحالة «أن الهند اليوم مثل ما كانت باريس عند دخول الجيوش الألمانية فى حرب السبعين!»

وغاظت الحالة الحكومة فاعتزمت على قمع الحركة بالقوة والشدة. ونسيت أنها لا تقمعها وإنما تزيدها نشاطا.

ونظمت الجمعيات الوطنية جماعات المتطوعين ليقوموا بخدمات فى هذا الجهاد السلمى وأعلنت الحكومة أن جماعتهم هذه غير قانونية ويجب إلغائها، وحظرت الاجتماعات وحرمت الشعب من حرية اللسان والقلم. وبدأت الحكومة بتنفيذ هذه القوانين فى كلكتا أولا. لأن قدوم البرنس إليها كان قريبا، وهى أعظم المدن الهندية وتكاد تكون أوربية لكثرة الأوربيين فيها. فكانت مقاطعة البرنس بها مؤلمة جدا. فبادرت باعلان هذه القوانين فيها.

موقف أبي الكلام

وقام مولانا أبو الكلام فى هذا الوقت ونشر أنه يجب على الأمة نبذ هذه القوانين والمبادرة إلى السجون، وقرر معاليه الأمور الآتية.

١ ـ إن الخضوع لمثل هـــذه القوانين الجائرة معناه التنازل عن الحقوق المدنية والانسانية، ولا يجوز للحكومة أن تحظر المجامع السلمية، والأعمال الوطنية البريئة، فلو خضعنا لها خوفا من السجن والعقاب، لنكون مجرمين أمام ضمائرنا وأمام الانسانية عـــلى سواء، فليس عـــلى محبي الحرية والحق إلا أن يعصوها موطنين أنفسهم على احتمال جميع المصائب التى تصبها الحكومة على رؤوسهم ولا يخضعوا لها فى حال من الأحوال.

٢ ـ توسيع نطاق التطوع، فينبث المتطوعون فى كل شارع وزقاق معلنين للقاطعة الملكية التى تريدنا الحكومة على مجانبتها، ولا يطيعون السلطات بل يقدمون أنفسهم للاعتقال بدون كره ولا مقاومة.

٣ ـ تعقد المجالس والمحافل فى المجتمعات العامة، ويسلم الحضور أنفسهم إلى الشرطة إذا أرادوا القبض عليهم.

٤ ـ وإذا ألقى القبض على أحـد فلا يدافع عن نفسه فى المحاكم التى تنوب ع الحكومة الجائرة وإنما يقاطعها مقاطعة تامة.

٥ ـ تتوقف هزيمة الحكومة عـــلى العدد الذى يدخل منا السجن، فلنهرول إ السجون زرافات زرافات، حتى تتعب الحكومة من اعتقالنا ولا نتع نحن من الاقبال عليه.

ولبت الأمة الدعوة، وابتدأت الأعمال الجديدة بكل قوة، وسارع النا إلى إدارات التطوع أفواجا، وعقدت الاجتماعات العامة، وأخذ الخطباء يخطبون ويقدحون فى الحكومة ومعاملتها. حتى دهشت الحكومة فلا تدرى ما تعم

إذ أنها لم تعد قادرة على اعتقال جميع المتطوعين ولا على غض النظر عنهم ؛ لكنها لم تر بدا من الاعتقال والتسجين، ظانة أن الناس سيخافون من صولتها ويثوبون إلى طاعتها. فأخذت تعتقل فى كلكتا وحدها آلافا من المتطوعين كل يوم، وكان المنظر مؤثرا للغاية. فان عصابات المتطوعين كانت تترى، كلما اعتقلت واحدة حلت محلها أخرى، وهكذا إلى الليل.

ثم وسعت الحكومة دائرة إرهابها، وأعلنت القوانين القاسية فى طول البلاد وعرضها، لكن الأمة لم تتزحزح عما أرادت وأخذ الوطنيون يظهرون فى كل محل ويعصون القوانين، وأخذت السلطة تقبض عليهم وتسجنهم. وإن القلم ليعجز عن وصف تلك الحمية والغيرة والحماسة التى كانت تشاهد فى كل زقاق و شارع وبلد من القطر الهندى المعظم. فكان الناس يتنافسون فى المبادرة إلى الاعتقال، حتى الصبيان كانوا يبكون شوقا إليه ويلحون على الشرطة أن تعتقلهم، فكم منهم دخلوا السجون بالحاح شديد و ودعتهم أمهاتهم بدموع الفرح، ولم يكن المتطوعون وحدهم يقدمون أنفسهم للاعتقال بل كان الألوف من المارة والسوقة إذا رأوهم على هذه الحالة يتحمسون فيزاحمون ويقولون للشرطة اقبضوا علينا، نحن معهم!

ولم يمض على هذه الحالة أسبوع إلا بدت علائم الفتور على وجه الحكومة، لأن السجون على كثرتها وسعتها كانت قد امتلأت، وكذلك جميع الأبنية التى استخدمت لهذا الغرض. وعجزت الحكومة عن الاحتفاظ بالنظام والضبط فى السجون وإعداد الطعام والشراب للمعتقلين، فاضطرت إلى أن تخلى سبيل ألوف منهم. فكان السجن يفتح أبوابه وينادى المنادى فيهم «ألا! من كان منكم يريد الذهاب فليذهب». ولكنهم يرفضون الخروج من السجون، فيحملهم البوليس على أكتافهم ويلقونهم وراء الباب، فيتوجهون إلى الأماكن العامة ويعصون

رام حتى يرجعوا إلى السجن مرة أخرى! فلما ثقل عـلى الحكومة ذلك
ت من إدخالهم السجون، فكانت تعتقلهم نهارا وتطلقهم ليلا غـير أن
لقين كانوا يعودون إلى العصيان.

وضجرت الحكومة من هذه الحالة ضجرا شديدا وأيقنت أن النار لا تخمد
أن تمد يدها إلى الزعماء فتسلبهم حريتهم، وهم بدورهم كانوا مستعدين لاجابة
رتها من أول يوم، معتقدين أنه لا بد لتقـوية الحركة وتكميل العمل من أن
طلوا السجن أنفسهم. فألقى القبض على صاحب الخطاب فى ١٠ ديسمبر سنة
١٩، وذهب إلى السجن بوجه ضاحك وثغر باسم.

وكان رحمه الله أعلن قبل اعتقاله بساعات بأنه سيلقى القبض عليه لا محالة،
ن هذه الساعة تكون ساعة اختبار عزم الأمة وثباتها. وصدقت الأمة وأبلت
حسنـا، فازدادت نشاطا وعزماً، وبلغ عـدد المسجونين خمسين ألفا فى
كتا وحدها، و وجدت الحكومة نفسها قبل نهاية أسبوعين عاجزة عن قمع
الحركة، فاضطرت إلى أن تجنح للسلم، فأعلنت بأنها تريد الهدنة، وترغب
إطلاق سراح جميع المسجونين، فيمسك الزعماء عن أعمالهم، بدون أن يعترف
د من الفريقين بالغلبة والانكسار.

فضل الفقيد على البلاد

وللفقيد صاحب الخطاب أهمية عظمى فى النهضة الهندية فانه من مؤسسيها. ولم
ن فى مسلمى الهنـد إلى سنة ١٩١٢ أية حركة عامة نافذة قوية للاصلاح الدينى
السياسى، فكانوا فى الدين على جمود وتقليد كما لم يكن لهم فى السياسة شأن.
ا كانوا يخافون منها كأنها حية تنهشهم، معتقدين أن الاستقلال يضر بهم،
ا هم فى هذه الظلمات إذ قام فيهم صاحب الخطاب فصاح بأعلى صوته:

«اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد» ودعاهم إلى التوحيد الخالص، والتمسك بالكتاب والسنة ونبذ التقليد والبدع والخرافات، وتطهير الأعمال والعقائد من المحدثات. وفسر القرآن بأسلوب بديع ونزهه عن كل الترهات، واستنبط منه ومن سنة الرسول كل ما يحتاجه المسلمون فى دينهم ودنياهم.

ودعاهم كذلك إلى الحرية التامة واستقلال البلاد والاتحاد مع أبناء الوطن مهما كان دينهم، وإلى مقاومة الأجانب المسيطرين بغير حق. فقامت عليه القيامة من كل جهة، وصوب المعارضون إليه نبالهم، وبسطت الحكومة له شركها، ولكن لم توقفه العراقيل فى طريقه، ولا صدته الموانع عن عمله، فما زال يلقى الخطب الرنانة، ويحبر المقالات الحماسية، ويقرع أسماعهم ببلاغته الفذة، ويوقظ قلوبهم بمواعظه البالغة، وينفخ فى أجسادهم الميتة روح الدين والحرية، حتى انتبهوا من رقدتهم وهبوا من نومتهم، وهرعوا إلى الداعى ملبين دعوته، وكل هذا فى خلال بضع سنوات، المدة التى لا تكاد أن تصدق. وكانت لسان دعوته مجلة «الهلال» الأسبوعية خالدة الذكر.

ويمكن تلخيص دعوة الهلال الاجتماعية والسياسية فى ما يلى:

١ـ إن العبودية سواء كانت للأجانب أو الغاصبين من الأمة نفسها لا تجتمع مع الاسلام. وأن السعى للحرية، والاستقلال وتحمل الشدائد والمصائب والاغتباط بالموت فى سبيله، كل ذلك واجب على المسلمين، وهو تراثهم الملى ورثوها عن أجدادهم. فاما أن يعيشوا أحرارا أو يموتوا كراما، وليس بين هذا وذاك من سبيل فى الاسلام، لأن شريعته مادامت لا تبيح استبداد الولاة من المسلمين أنفسهم، فكيف تبيح لهم أن يعيشوا خاضعين لظلم الأجانب واستبدادهم؟ والمسلم الذى يقنع ويرضى بهذه العيشة لاريب فى حرمانه من روح الحياة الاسلامية.

٢- على المسلم الهنــــدى واجبـان: واجب إسلامى و واجب وطنى، فالواجب الاسلامى يطالبهم بأن لا يحصروا نظرهم فى حدود أرضهم، فان جنسية الاسلام لا تتقيد بالوطن أو النسل. فعليهم أن يقوموا بمساعدة ممكنة لاخوانهم المسلمين فى العالم كله. وأما الواجب الوطنى فيطالبهم بالاتحاد مع أبناء وطنهم وبذل نفوسهم وأموالهم فى سبيل الحرية والاستقلال.

٣- لا تهدد الدول الغربية الاسلام أو المسلمين فقط، بل تهدد الشرق بأسره، فيجب على الشرق أن يتماسك ويتعاضد لصون حريتها وحياتها.

٤- اللغة العربية هى اللغة الملية للمسلمين كافة، وإنه من العوامل الأساسية للانحطاط الدينى هجران اللغة العربية وشيوع العجمية والفلسفة اليونانية. فيجب عليهم إحياء اللغة العربية.

وعندما ابتدأت الحرب الكبرى أصبحت الهنـــد فى حالة تشبه الأحكام العرفية، وأخذت الحكومة تسجن وتعتقل كل من ارتابت فيه غير أن صاحبنا داوم على دعوته، يقول ما كان يقول، لم يخف من الحرب أو السلطة العسكرية.

ولما رأته الحكومة متصلبا فى أفكاره ومصرا على أعماله وعجزت عن استمالته إليها بالترغيبات أو تخويفه بالتهديدات، صادرت أولا جريدته ثم نفته من مقاطعة كلكتا واعتقلته ولم تخل سبيله إلا بعد الهدنة فى يناير سنة ١٩٢٠.

ولم يكد يطلق سراحه حتى انهمك فى إنهاض الحركة الوطنية الجديدة، و واصل الليل ليلا ونهارا إلى أن زجته الحكومة فى السجن بعد عامين.

ولا شك أن خطاب الزعيم الراحل عند محاكمته يسجل فى تاريخ الحرية والجهاد للأمم. إذ هو آية عظيمة من آيات الصدع بالحق وتشنيع الباطل وتقبيح الاستبداد ومثل عال للجرأة والشجاعـــة والثبات على الحق كالجبال الراسيات. وها هو خطابه فيما يلى:

الخطاب

الذي خاطب به المحكمة الانكليزية العالم العلامة الأستاذ أبو الكلام

إني قد كنت عازما على أن لا أقدم إلى المحكمة بيانا ما، لأنها مكان لا رجاء لنا فيه، ولا طلب منه، ولا شكوى إليه، وإنما هي كمنعرج الطريق إلى المنزل لا بد من قطعه للسابل، ولذا نقف فيه وقفة على كره ما، وإلا لدخلنا السجن توا.

إن الجمعية الوطنية وجمعية الخلافة وجمعية العلماء قد أبحن تقديم بيان إلى المحاكم، لا للدفاع بل لاعلام الامة بالحقيقة. بيد أن ما برحت أشير على الناس بأن يؤثروا الصمت على الكلام، وأن يقاطعوا المحاكم مقاطعة تامة. وذلك لأني أرى أن كلّ من يقدم بيانا لدحض التهمة وكشف الحق — وإن كان قصده به إعلام الجمهور — لا يسلم من الظنة، إذ يجوز أن يكون في نفسه أدنى هوى للتخلص من العقاب، أو في أعماق قلبه أقل رجاء في عدل المحاكم. مع أن سبيل «تارك التعاون» مستقيم نير، لا ينبغي أن توسخه الظنون والشبهات.

اليأس التام من العدل

إن «اللاتعاون» نتيجة لليأس التام من الحالة الحاضرة، وهذه اليأس هو الذي ألجأ الامة إلى أن تغيرها، وتبدل غيرها بها. فكأن من يقاطع الحكومة ويأبى معاونتها، يعلن بأنه يئس من عدلها وحبها للحق، وأنه لا يعترف بها بل يعدها حكومة غاصبة جائرة وغير شرعية، لهذا يود إسقاطها وتحطيمها. أفبعد هذا يرجع القهقرى فينتظر منها أن تنصفه كحكومة عادلة صالحة للبقاء والدوام؟

وإن غضضنا الطرف عن هذه الحقيقة الثابتة، فان السعي للتبرئة من التهمة ليس

لا فعلا عبثا وإنكاراً للحقائق. إذ كل بصير يعلم أنه لا رجاء فى المحاكم أن تنصف تعدل فى الحالة الحاضرة، لا لأن رجالها لا يحبون العدل، بل لأنها سائرة على نظام يستطيع معه حاكم أن ينصف أولئك الذين لا تريد الحكومة نفسها أن تنصفهم.

وإنى هنا أصرح بأن خطاب «اللاتعاون» ليس مع الأفراد والآحاد، بل مع الحكومة ونظامها ومبادئها.

موقف أصحاب الحق أمام المحاكم والقضاة!

إن هذه الحالة مثل سائر حالات عصرنا ليست بفذة، فالتاريخ شاهد على أنه كلما طغت القوات الحاكمة ورفعت السلاح فى وجه الحرية والحق، كانت المحاكم آلات مسخرة بأيديها تفتك بها كيف تشاء، و ليس هذا بعجيب، فان المحاكم تملك قوة قضائية، وتلك القوة يمكن استعمالها فى العدل والظلم على سواء، فهى فى يد الحكومة العادلة أعظم وسيلة لاقامة العدل والحق. وبيد الحكومات الجائرة أفظع آلة للانتقام والجور ومقاومة الحق والاصلاح.

والتاريخ يدلنا على أن قاعات المحاكم كانت مسارح للفظاعة والظلم بعد ميادين القتال، فكما أهريقت الدماء البريئة فى ساحات الحروب، حوكمت النفوس الزكية فى إيوانات المحاكم، فشنقت وصلبت وقتلت وألقت فى غياهب السجون. و ليس هنالك عصبة صالحة محبة للحق من الأنبياء والحكماء والعلماء والصالحين، إلا ونراها واقفة كالجناة والمجرمين فى قاعات المحاكم أمام القضاة. نعم إن كر الأيام ومر العشى قد محا كثيراً من مساوىء العهد القديم. فلا يوجد الآن شىء من المحاكم الرومية القرن الثانى المسيحى. ولا جمعيات التفتيش السرية (Inquisition) التى كانت فى القرون المتوسطة. ولكنى لا أستطيع الاعتراف بأن عصرنا هذا قد نجا من تلك العوامل النفسية التى كانت تعمل فى تلك المحاكم — حقا إن تلك الأبنية التى كانت وكامن

للاسرار الرهيبة قد دكت دكا. ولكن من ذا الذى يقدر أن يقلب تلك القلوب التى تكن فيها الأسرار المخبفة لحب الذات والظلم؟

مقام عجيب ولكنه عظيم!

إن جدول مظالم المحاكم وفظائعها طويل عريض — تلك المظالم التى لم يفرغ التاريخ إلى الآن من البكاء منها — فيرى فيه اسم المسيح (ع) الانسان الكامل الذى أوقف مع اللصوص فى محكمة أجنبية. وسقراط الحكيم الذى اضطر إلى شرب كأس السم، لأنه كان أصدق رجل فى بلاده. وكذا «فلورنس غيليلو» الذى لم يكذب مشاهداته العلمية لأنها كانت جناية فى عين القضاة والمحاكم — وصفت المسيح بالانسان الكامل لأنى أعتقد أنه انسان. ولكن الملايين من الناس يعتقدون أنه فوق هذا — إذن ما أعجب قفص الجناة! وما أعظم شأنه! إنه موقف للصنفين معاً: الأبرار والأشرار! حتى أنه كان لائقا بهذا الوجود العظيم!

حمداً وشكراً

وإنى إذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف، وأرانى قد شرفت بالوقوف فيه، يسبح روحى بحمد الله ويلهج لسانى بشكره من غير قصد منى. وهو وحده يعلم ما أجده من الجذل والابتهاج. إذ أحسبنى فى هذا القفص محسوداً للملوك والسلاطين العظام، فأين لهم فى قصورهم المريحة تلك المسرة والراحة التى يرقص لها قلبى فى صدرى؟ وياليت الانسان الغافل والعاكف على هواه، يشعر بنفحة منها! وإنى أقول حقا أنه لو أدركها الناس لتمنوا المثول فى هذا المكان، ولنذروا النذور لأجله!

لم أخاطب المحكمة؟

إنى كنت عازما على السكوت فى المحكمة، ولما أحضرت فيها ورأيت الحكومة

تقدم فى إثبات جريمتى الخطبتين اللتين ألقيتا فى بعض مجامع «كلكتا» وهما لا يحتويان على جميع الأمور التى مازلت أكررها فى جميع خطبى ورسائلى ومقالاتى التى تعدو الحصر، والتى إن قدمت كانت أنفع لمقصدها — علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة ذلك المستند الذى يعتبر فى هذه الأيام كافيا لانزال العقاب، مع شدة رغبتها وحرصها على سجنى. فغيرت قصدى وقلت إن العلة التى كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له. فأردت أن أثبت بلسانى الأمر الذى لا تستطيع الحكومة إثباته مع علمها به وشدة رغبتها فى إثباته. وإنى أعلم أن قوانين المحاكم لا توجه على، ولا تضطرنى إلى الاعتراف به من تلقاء نفسى. ولكن قانون الحقيقة فوق هذه القوانين الوضعية. وهو الذى يسوقنى إلى ما سأقوله. إذ ليس من الحق أن نذر شيئا مستورا، لأن الخصم لا يستطيع إثباته.

الاعتراف بالجناية

إن الاستبداد الذى ابتليت به الهند نوع من ذلك الاستبداد الذى يصيب الأمم فى طور ضعفها و وهنها. وهو من طبعه يبغض الحركة الوطنية والحرية والمطالبة بالحقوق بغضاً شديداً. لأنه يعلم أنها إذا نجحت سقطت قوته الظالمة وامحى وجوده الفاحش. وما من وجود يحب سقوط نفسه وزواله مهما يكن زواله ضروريا فى عين الحق والانصاف. فالتدافع بين الحرية والاستبداد «تنازع للبقاء» و «تزاحم فى الحياة» كل من الفريقين يجد ويكد للفوز والبقاء: الأمة تريد أن تنال حقها المغصوب، والاستبداد يأبى عليها ولا يريد التزحزح عن مقامه، ولاتثريب عليه، لانه —وإن كان وجوده خلافا للحق— يدافع عن نفسه وحياته، وليس لنا أن ننكر مقتضيات الطبيعة، فكما يسعى الخير لبقائه، يسعى الشر أيضاً، ومهما يكن ملوما فى نفسه لا يلام على رغبته فى الحياة.

وقد بدأ التزاحم فى الهند بين هاتين القوتين: الحرية والاستبداد—فليس يدع أن

تكون الحرية والمطالبة بالحقوق جناية فى عين الاستبداد، وأن يكون محاربو وجوده الباطل جناة وأئمة وأهلا للعقاب الشديد — فما دام الأمر كذلك فانى أعلن على مسمع من المحكمة والحكومة بأنى أنا قد ارتكبت هذه الجناية ارتكابا واقترفتها اقترافا. وأن كانت الحكومة لا تعلم — وهى لتعلم — فلتعلم الآن أنى من أولئك الجناة الذين بذروا بذور هذه الجناية فى قلوب أمتهم. ووقفوا حياتهم على سقيها وتنميتها وتثميرها. بل إنى ولا فخر — أول مسلم فى الهند دعا أمته من اثنتى عشرة سنة إلى هذه الجناية دعوة عامة، وحول وجهها فى خلال ثلاث سنوات عن العبودية التى كانت الحكومة زينتها لها إلى الحرية التى قد أشرقت شمسها الآن ولن تنكسف أبدا. فان كنت آثما فى زعمها متمادياً بما تشاء. ها أنا ذا معترف بالجناية بصدر رحب ولسان طلق، غير جزع منها ولا نادم عليها. لأن هذا ما كنت أتوقعه وأعرفه من قبل!

وإنى لا أنتظر من الحكومة إلا الغلظة والقسوة لأنى وإن ألفيتها تدعى العصمة من الخطأ والزلل ولا تعترف بذنوبها، أعلم أنها ما ادعت أبدا أنها مثل المسيح عليه السلام فى لينه وحنانه. فاذن كيف أنتظر منها أن تقبل أعداءها وتحبهم كأصدقائها؟ وأعلم أنها لا تعاملهم إلا بتلك المعاملة التى نراها منها الآن. والتى مازال الاستبداد يختارها لمحق الحرية والحق وخنق أصحابه وحماته. فالشدة والغلظة من الحكومة شىء طبيعى لا ينبغى لنا أن نشكو أو نعجب منه. بل على كل من الحزبين أن يعملا على مكانتهما حتى يفصل الله بينهما وهو خير الفاصلين.

[ثم قال بعد هذا إنه لم يقبض عليه لأجل الخطبتين اللتين قدمتا فى المحكمة بل ليخلو للحكومة جو كلكتا، كيلا يقاطع احتفال ولى عهد إنكلترة عند قدومه إليها، ولتضعف الحركة الوطنية والاسلامية. ثم ذكر أشد ما فى الخطبتين وهو ما يلى:]

أشد ما فى الخطبتين

إن الحكومة التى تأسست على الظلم لظالمة وهى إما أن تتوب من ذنوبها وفظائعها

وتخضع للحق وإما أن تزول من الوجود!

أيها الناس! إن كنتم تتألمون لاخوانكم الذين قبض عليهم، فعلى كل منكم أن يبت فى نفسه الآن: هل هو راض بأن تظل هذه الحكومة قائمة فى بلادنا كما كانت عند القبض على إخواننا؟

إذا كنتم تريدون تحرير بلادكم من رق العبودية فطريقته واحدة، وهى أن لا تدعوا فرصة لأعدائكم الماكرين لاستعمال أسلحتهم القتالة التى عندهم بغير حساب...

إن بعض الناس يظن أن الخطيب إذا فاه بمثل هذه الاقوال يحتاط لنفسه، وإلا فانه بالحقيقة لا يقصد بها شيئا، ولكنى أيها الاخوان أعتقد أنه ليس فيكم أحد يحسب أولئك الذين يتعبون لأجلكم خوافين من السجن أو الاعتقال، أو مخلصين لهذه الحكومة الظالمة فى نفسها وقوتها بقولهم إن أعمالنا يجب أن تكون بالأمن والنظام — لا، لا، إن هذا لا يتصور أبداً، بل الحق الذى لا مراء فيه أنهم يقولون ذلك لأنهم يرون نجاحكم متوقفا على الأمن والنظام، إذ أنتم لا تملكون تلك الآلات الجهنمية التى تتسلح بها هذه الحكومة، وإنما الأسلحة التى لديكم هى الايمان والضمير وقوة التضحية — فاستعملوها فى وجهها تنجحون. وإلا فلا نجاح لكم بالأسلحة المادية.

أيها الناس! إن كنتم تريدون أن تعرقلوا الحكومة برهة من الزمان فطرقه كثيرة، ولو كنت — لا سمح الله — من المحبين للحكومة لبحث بها ودعوتكم إليها، ولكن الذى أريده منكم هو (الحرب الحرب)، الحرب التى لا تنتهى فى يوم واحد بل تمتد إلى يوم الفصل، وما أدراكم ما يوم الفصل؟ اليوم الذى إما أن تمحى فيه هذه الحكومة الجائرة وإما أن تفنى ثلاثمائة مليون من النفوس البشرية!

الاعتراف فوق الاعتراف

إن كانت هذه التصريحات «جناية» فانى معترف بأن قلبى قد اشتغل بها ولسانى نطق بها، وإنى أنا الذى صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس، ليس فى هاتين الخطبتين فقط بل فى خطب أكثر من أن تعد وتحصى، بل ما برحت أقول أكبر وأشد منها، وذلك بأنى أعتقد أن الصدع بها واجب على، ولن يمنعنى من أداء الواجب كونه معاقبا عليه بقانون ١٢٤ من القوانين الهندية[1] بل إنى لأجدنى الآن مدفوعا إلى التصريح بها أمام المحكمة، ولا أزال قائلا بها مادام لسانى بين أسنانى، وروحى فى جسمانى. وإن لم أفعل ذلك أكن ظالما لنفسى وعاصيا عند الله وعند الناس أجمعين!

الحكومة الحاضرة «ظالمة!»

نعم إنى قلت «إن الحكومة الحاضرة ظالمة»، وإن لم أقل هذا فماذا أقول يا ترى؟ وأيم الله إنى لأعجب كيف يطلب منى أن أسمى شيئا بغير اسمه وأن أدعو الأسود بالأبيض؟

إن ما قلته هو أهون ما يجب أن يقال فى هذا الباب، إذ لا أعلم حقيقة ملفوظة أخف منه.

لا ريب أنى ما زلت أقول إنه ليس إلا أن تتوب الحكومة من آثامها وتغير خطتها وترجع عن ظلمها، فان لم تستطعه فبعداً لها وسحقا! وليت شعرى ماذا يقال غير هذا؟ الشر إما أن يصلح وإما أن يزول، وهل بينهما طريق آخر؟ إن هذه الحقيقة قديمة العهد طويلة العمر لا يضاهيها فى الكبر إلا الجبال والبحار. وإنى ما دمت أعتقد أن هذه الحكومة من أولها إلى آخرها شر على شر فكيف أستطيع أن

[1] – إن مادة ١٢٤ هذه مثل المادة ١٥١ من القوانين المصرية الخاصة بالذين يحرضون على كرامة الحكومة بأى واسطة من وسائط النشر أو الصور أو الكلام أو الحكاية الخ (المترجم)

أدعو لها وأقول: دومى ولا تصلحى.

لماذا أعتقد هذا؟

لما أعتقده أنا وملايين من أبناء وطنى وإخوان دينى؟ الجواب أصبح الآن واضحا جليا حتى يصح أن يعبر عنه بقول الشاعر الانجليزى «ملتون»: إنه بعد الشمس أوضح شىء وأجلى محسوس، عـلى أنى أصرح هنا بأنى أعتقد ذلك لأنى هندى ولأنى مسلم ولأنى إنسان.

الحكم الشخصى ظلم بالذات

إنى أعتقد أن الحرية حق طبيعى لكل إنسان ولكل أمة، فطرة الله التى فطر الناس عليها. وليس لشخص أو حكومة أن تستعبد عباد الله وتتخذهم خولا. وسم الاستعباد والرق بأى اسم شئت، غير أنه على كل حال استعباد ورق، ومشيئة الله وناموسه يمقته وينفيه، وإنى لأجله لا أعترف بالحكومة الهندية بل أعدها حكومة غير شرعية، لأنها مستبدة طاغية، استعبدت البلاد وقهرت العباد، داست الشرائع وخانت المواثيق، ليسخطها الشعب ويمجها الحق، فهى معدومة فى نظر الأمة وإن كانت موجودة بقوة السلاح. وأرى واجباتى الدينية والوطنية والانسانية تطالبنى بأن أحرر بنى جلدتى من رقها وعبوديتها الشائنة.

ولا يقاطع كلامى «بالاصلاحات الادارية» و «الترقى التدريجى» كلمات خطتها الحكومة وزخرفتها لتخادع به البله والحمق. أما أنا فلا أخدع بها. إذ الحرية فى اعتقادى حق طبيعى للانسان، وليس لأحد أن يحدد ويقسم فى تأدية الحقوق. وإن مثل الذى يقول «إن أمة تنال حريتها تدريجاً» كمثل الذى يقول للدائن «يرد إليك الدين قسطا قسطا»، نعم إن لم يستطع أخذه دفعة واحدة يضطر إلى قوله بالاقساط، ولكن لا يسقط به حق الآخذ مرة واحدة.

«الاصلاحات» وما هى «الاصلاحات»؟ إن هى إلا كما قال الفيلسوف الروسى «تولستوى»: إن أبيح للمسجونين انتخاب سجانهم بالأصوات، فانهم إلا يصيرون به أحراراً».

الحكومة الحاضرة حسنة أو قبيحة؟ سؤال ثانوى. أما السؤال الأساسى فهو: هل وجودها حق وشرعى؟ فانى أعتقد أن مثل هذه الحكومة الأجنبية المتسلطة، باعتبار أصل خلقتها، غير شرعية. لأن نفس وجودها ظلم وشر. فهى لو لم ترتكب جميع تلك المظالم التى ارتكبتها بهذه الكثرة، لكانت فى اعتقادى ظالمة وجائرة، ويكفى لقبحها وشناعتها أنها موجودة. نعم نعترف بحسناتها إن كانت لها حسنات، ولكن يظل وجودها على كل حال ظلما وغير شرعى. ومثاله أن لو تسلط أحد على بيتنا وأداره إدارة حسنة وعمل أعمالا صالحة، فانه بهذه الحسنات لا يصير تسلطه حقا وشرعيا.

إن الشر يصح أن ينعت ويقسم بالكم والكيف، فنقول «كم هو وكيف هو؟ ولكن لا يصح نعته وتقسيمه بالحسن والقبيح، فلا تقول «أحسن، هو أم قبيح؟ نعم يقال «سرقة قبيحة»، وهكذا الاستبداد، فانى لا أستطيع أن أتصوره حسنا وشرعيا فى حال من الأحوال. لأنه بذاته و وجوده قبيح وشر وغير شرعى، نعم ربما يوجد نوع من الاستبداد أخف وطأة، وأقل ظلما وأكثر لينا من غيره، ولكن الاستبداد الذى دهم الهند لم يقف عند قبحه الخلقى، بل مازال يكتسب السيئات فوق السيئات، والمنكرات تلو المنكرات، ظلمات بعضها فوق بعض، فاذن كيف يمكن غض النظر عن ظلمه ولا يشهر قبحه، ولا يشدد النكير عليه؟

الاسلام والاستبداد

إنى مسلم، ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وأقبحه وأشهر مساو

وليعلم أن الأسلام لا يعترف بالحكومة الشخصية، ولا بحكومة عصبة من الموظفين ينقدون رواتبهم، لأنه نظام كامل للجمهورية، وإنما جاء ليرد إلى النـوع الانسانى حريته المغصوبة التى كان اغتصبها الملوك المستبدون، والحكومات الأجنبية، والرؤساء الروحانيون ذوو الأهواء، والرجال الأقوياء من الجماعـة. وقد كانوا يعتقدون أن الحق للقوة والتسلط، والقهر والغلبة. ولكن الاسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس فى القـوة، بل الحق هو الحق، وإنه ليس لأحد من البشر أن يعبد عباد الله ويذلهم ويسخرهم. ثم قضى على سائر الامتيازات والمناصب المؤسسة على الغلبـة القومية والجنسية قضاء تاما، وبين أن الناس كلهم متساوون فى الانسانية، متساوون فى الحقوق، متساوون فى الحياة، وليس اللون والجنس والنسل معياراً للفضل والحسب، وإنما معياره «العمل» وحده، فأعلاهم قدرا وأكرمهم حسبا، أحسنهم عملا وأتقاهم لربهم: «يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم» - الحجرات.

الاسلام نظام جمهورى

إن الاسلام أعلن «حقوق الانسان» قبل انقلاب فرنسا بأحدعشر قرنا، وليس مجرد إعلان، بل وضع نظاما عمليا لجمهورية الحق بالغـا فى الكمال منتهاه، ونظيراً لنفسه فى الاتقان، كما قال المؤرخ الشهير «غبون-أو-جبون» فكانت حكومة نبى الاسلام وخلفائه الأربعة جمهورية كاملة، تتشكل برأى الأمة وإنتخابها ونيابتها. ولذا توجد فى مصطلحات الاسلام كلمات جامعة لهذا الغرض لا توجد مثلها فى لغة ما. فحيث إنه لم يعترف بوجود ملك ومنصبه، وعوضه بمنصب لرئيس الجمهورية، سماه بـ «الخلافة» وهى فى اللغة «النيابة» وسمى صاحبها بـ «الخليفة» أى «النائب» الذى لا يملك قوة ولا نفوذا بنفسه، وكذلك اختار لنظام الجمهورية كلمة «الشورى». و وصف المسلمين بقوله «وأمرهم شورى بينهم» والشورى ضد الاستبداد. فقرن به

أن جميع أعمال الحكومة يجب أن تكون برأى الجماعــة وشوراها، لا برأى شخص وحكمه — فأى اسم للجمهورية ورئيسها ونظامها يكون أحسن وأجمع من هذه الأسماء الاسلامية؟

البيوروكريسى الوطنى والاسلامى ظلم أيضاً

فما دام الاسلام يمنع المسلمين عن قبول حكومة إسلامية لم تتشكل برأى الأمة وانتخابها. فما تكون قيمة هذا «البيوروكريسى» الأجنبى Burocreci فى عين المسلمين؟ وهب أنه لو تقوم الآن فى الهند حكومة إسلامية على نظام شخصى، أو تكون بيــوروكريسا لطائفة من الوطنيين. فان الاسلام يوجب عــلى أن أسميها أيضا ظالمــة وجائرة. وأسعى لحرابها ونقضها كما أفعل الآن ولست ببدع. فعلماء الاسلام مازالوا يجاهرون بظلم الولاة ويحاسبون المستبدين من المسلمين أنفسهم.

وإنى لأعترف بكل الأسف أن نظام الاسلام الجمهورى لم يعمل به طويلا بل أضلت القيصرية والكسروية ولاة المسلمين، فحادوا عن الطريق وآثروا التشبه بقيصر وكسرى واستنكفوا من التشبه بأسلافهم الخلفاء الراشدين، الذين عاشوا طول حياتهم فى ثياب رثة كآحاد الناس، بيد أنه لم يخل عهد من أصحاب الحق الذين ناهضوا الملوك والسلاطين فى استبدادهم وتفردهم بالحكم. وتحملوا جميع تلك المصائب التى صبت عليهم فى هذه السبيل بوجوه مستبشرة.

الوظيفة الملية للمسلمين إعلاء الحق وإعلانه

ولعمرى إن المطالبة من مسلم بأن يسكت عن الحق ولا يسمى الظلم ظلما، مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الاسلامية، فان كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحدا بأن يرتد عن دينه. فليس لكم أن تطالبوا مسلما بأن يمتنع عن قوله للظلم إنه ظلم، لأن معنى كلتا المطالبتين واحد.

إن التصديق بالحق وإعلانه عنصر ضرورى للحياة الاسلامية، فان فصل عنها فقدت أكبر ما تمتاز به، لأن الاسلام أسس قومية المسلمين عليه، وجعلهم شهداء الحق على العالم كله، فكما يجب على الشاهد أن لا يتوانى فى ابداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم أن لا يتتعتع فى إعلاء الحق، ولا يبالى فى أداء فرضه بمصيبة وابتلاء، بل يصدع به حيثما كان، ولو لاقى دونه الحمام. وتصير هـذه الفريضة أوكد وأوجب عندما يسود الظلم والجور. ويمنع الناس من اعلان الحق بالعنف والشدة، لأنه إن أجيز السكوت عنه خوفا من بطش الجبارين الذين يقطعون الألسنة ويفتنون الأبدان بأنواع من العذاب، يصبح الحق فى خطر دائم. ولا يبقى لظهوره وقيامه من سبيل، مع أن ناموس الحق فوق القوة. وليس بمحتاج فى ثبوته إلى تصديق القوة، ولا يضره سكوت الناس عنه قاطبة، بل إنه يظل على كل حال حقا، حقا عندما نجد فى سبيله ما نحب ونشتهى، وحقا عنـدما يكون دونه الموت الزؤام، وهل تصير النار بردا، والثلج نارا لأننا نحبس ونسجن؟

وجوب الشهادة بالحق وخطر كتمانها

لهذا أنبيء المسلمون فى كتابهم أنهم «شهداء الحق» فى أرض الله. فالشهادة بالحق والصدع به وظيفتهم الملية وديانتهم القومية التى تميزهم عن سائر الأمم الغابرة والآتية: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس!» وقال لهم نبيهم (ص) «أنتم شهـداء لله فى الأرض[١]». فالمسلم مادام مسلما لا يستطيع كتمان هذه الشهادة وإن حبس أو قتل أو ألقى جسده فى النيران المتأججة.

وأخبر القرآن بأن من يكتم شهادته يبوء بغضب الله، ومأواه جهنم وبئس المهاد وكذلك أنبأ أن الأمم الكبيرة لم تهلك إلا لأنها كتمت الحق: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله

١ — رواه البخارى

ويلعنهم اللاعنون[٢]». وقال: «لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داؤد وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتــدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون!»

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ولهذا نعد «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» من آكد الفرائض الاسلامية. وقد أخبر القرآن أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أساس لعظمة المسلمين ولمكارم التقــوى، وأنهم خير الأمم لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأنهم إن حادوا عنه يفقدون سؤددهم ومجدهم الشامخ: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر»—(١٠٦:٣) وقال النبى (ص) «والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده، ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم» (رواه الترمذى عن حذيفة).

وأما أداء هذه الفريضة فعلى ثلاث درجات فى ثلاث حالات مختلفة. قال النبى صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان»—(رواه مسلم).

وحيث إننا لسوء حظنا لا نقدر فى هــذه البلاد على تغيير منكرات الحكومة بأيدينا لجأنا إلى الدرجة الثانية التى فى وسعنا، وهى أن نعلن بألسنتنا ظلمها ومساوئها، وتندد بمثالبها ونشهر بمعايبها. ٢

الأركان الأربعة

إن القرآن وضع أساس الحيــاة الاسلامية على أربع دعائم: الايمان، والعمل الصالح، والتوصية بالحق، والتوصية بالصبر. فالايمان والعمل الصالح معناهما ظاهر،

[٢]— من سورة البقرة

ما «التوصية بالحق» فهى أن يوصى كل أخاه بالتزام الحق.

«والتوصية بالصبر» هى أن يتواصيا بتجشم المهالك وتحمل النوازل فى سبيل الحق، وإنما قرنت هذه بتلك لأن وقوع المحن والمشاق أمر لا مناص منه فى سبيله: «والعصر إن الانسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا الحق وتواصوا بالصبر»

التوحيد الاسلامى والأمر بالمعروف

التوحيد أساس الاسلام، وقطب رحاه، وضده «الشرك» الذى أشرب المسلمون نغضه فى قلوبهم، ومعنى التوحيد أن يوحد الله فى ذاته وصفاته، والشرك هو أن يجعل له سبحانه شريك فى ذاته أو صفاته. والتوحيد يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون إلا لله الواحد العظيم. أما غيره فلا يخاف منه ولا يخشع له، وأن من يخشى غير الله فهو مشرك به وجاعل غيره أهلا للخوف والطاعة. وهذا ما لا يجتمع مع التوحيد أبدا.

الاسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق، والقرآن يكرر هذا مرة بعد أخرى: «لا يخشون أحدا إلا الله. وكفى بالله حسيبا» (٣٣:٣٩) «من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله» (٩:٢٠) «ولا يخافون لومة لائم» (٥:٥٨) «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلاتخافوهم وخافون، إن كنتم مؤمنين» (٣:١٧٥) «أليس الله بكاف عبده؟ ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله فما له من هاد» (٣٩:٣٥)

والرسول (ص) يقول: «خير الشهداء حمزه بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله» رواه الحاكم عن جابر على شرط الصحيحين. وفى رواية

«أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (رواه أبو داؤد وابن ماجه والترمذى) وقد كان يأخذ العهد من أصحابه أن يقولوا بالحق أينما كانوا (كما رواه عبادة بن الصامت وأخرجه الشيخان).

وقد ايضت عين الدهر ولم تر مثل هذه الضحايا العظيمة الكثيرة فى إعلاء كلمة الحق التى قدمتها الأمة الاسلامية فى كل دور من حياتها. فتراجم علمائها ومشايخها وسادتها عامرة عن هذه الضحايا.

ألا! فلتعلم الحكومة الانكليزية أن المسلم الذى أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ويتغلغل فى لجج الدواهى والكوارث. ولا يقبل السكوت عن الحق، لا يخيفه قانون ١٢٤ من العقوبات المدنية. ولا يرده عن دينه وأداء فريضته. إذ أكبر عقاب فى هذا القانون حبس المرء طول حياته. والمسلم يرحب به ويتمناه إن كان لا بد منه فى سبيل الحق.

لا يوجد فى الاسلام قانون ١٢٤

إن تاريخ الأمة الاســـلامية ينقسم إلى دورين مختلفين، فالدور الاول، دور نبى الاسلام (ص) وخلفائه الأربعة، وقد كان النظام الاسلامى الجمهورى فيه قائما بأتم معانيه. فكانت الأمة متمتعة بالجمهورية الحق، ترتع فى رياض المساواة الاسلامية العامة، وتعيش عيشة هنيئة فى ظلال الحرية الكاملة، لا تخيفها الملكية المطلقة، ولا تثقل كواهلها القيصرية والكسروية. خليفتها ورئيس جمهوريتها من آحادها، تنصبه بأيديها وتحاسبه فى جليل الأمور وحقيرها، ولا تسمح له أن يجحف بها أو يستبد برأيه دون رأيها. وهو نفسه يكون من أعدل الناس وأفضلهم وأعلمهم بوظائف الخلافة والحكومة، يعيش عيشة الفقراء والمساكين، يستر جسده باطمار بالية، ويسكن فى كوخ حقير. ولم يكن إذ ذاك بدار الخلافة الاسلامية «القصر الأبيض» لجمهورية أمريكا.

وقد كان المسلمون فى هذا الدور يقاطعون الخلفاء ويناقشونهم وهم على المنابر يخطبون، حتى إن عجوزا من عجائز العاصمة كانت تتجرأ عليهم وتخاطب الواحد منهم على ملاء من الناس بقولها «إن تزغ عن الحق نقومك بسيوفنا!»، والخليفة لا يؤاخذها ولا يعاقبها على ذلك بجناية «الثورة» بل يشكر الله ويحمده أن وجد فى الأمة ألسنة صادقة ذربة فى إعلان الحق كهذه العجوز. وقد قام الخليفة مرة يوم الجمعة خطيبا وقال «اسمعوا وأطيعوا»، فرد عليه رجل قائلا: «والله لا نسمع ولا نطيع لأنك خنت الأمانة، وأخذت القماش أكثر من سهام المسلمين»، فنادى الخليفة ابنه، فشهد أن أباه لم يخن المسلمين، بل إنى قد أعطيته سهمى من القماش. ومن سهمينا فصلت الجبة والرداء.

وقد كان سير الأمة هذا مع ذلك الخليفة الذى كانت تقشعر من خشيته جلود الملوك فى عقر دورهم، وتخر أمام هيبته عروش فارس ومصر، وتزلزل من بأسه جدران القسطنطينية، ولكن مع هذا كله لم يكن عند الحكومة الاسلامية قانون ١٢٤ يحاكم به الخليفة معارضيه من أصحاب الحق.

أما الدور الثانى فدور الحكومة الشخصية والملكية المطلقة، بدأ باستيلاء بنى أمية على الخلافة قهرا وعنوة. فانقلبت فيه الجمهورية الاسلامية على رأسها وحل الاستبداد والقهر محلها، وظهر مكان الخليفة الاسلامى ملك مكلل بتاج الملك، متربع على عرش الحكومة المذهب. ولكن إستبداد هذا الدور مع سائر عقوباته المريعة من الجلد بالسياط، والحبس فى السجون، والقتل بالسيوف، لم يستطع أن يصد المسلمين عن إعلان الحق، ويقعدهم عن الذود عنه وحمايته، بل ظلت ألسنتهم حادة ذلقة فى اعلانه، ونفوسهم متهيئة لتقديم المهج فى سبيله، فأصحاب الرسول (ص) ما عاشوا ظلوا ينددون بظلم الولاة ويشهرونه، ويطلبونهم بتغييره، وجعل الحكومة شورى بين المسلمين.[1] ثم قام مقامهم التابعون الذين تربوا فى حجورهم وتخلقوا بأخلاقهم،

١ — أراد معاوية بن أبي سفيان أن يجعل ابنه يزيد خليفة بعده وأخذ يكره الناس على مبايعته، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فرد عليه قائلا «أهرقلية؟ إذا مات كسرى قام كسرى مكانه، والله لا نفعل أبدا!»

فكانوا خير خلف لخير سلف، ما هابوا غير الله، وما داهنوا احـــدا من خلقه. بل كانوا يجهرون بالحق، ويقولون للجبابرة والطواغيت «أصلحوا، أو زولوا، أزالكم الله!» وقد عد الامام محمد الغزالى أولئك الصحابة والتابعين الذين كانوا إلى زمن الخليفة هشام بن عبد الملك وأنكروا ظلم الأمراء وطالبوهم بحكومة الشورى والنيابة، فبلغ عددهم أكثر من ثلاثة وعشرين رجلا. وإنى أنبه ههنا أنه لا يوجد فى شريعة الاسلام قانون ١٢٤ (من القوانين الهندية) الذى كان يمنع هؤلاء الأخيار، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإعلان الحق. وتقبيح الظلم.

طلب الخليفة الأموى الشهير هشـام بن عبد المطلب، طاوس اليمانى يوما إلى مجلسه. فلما دخل عليه، لم يسلم عليه بامرة المؤمنين، ولكن قال «السلام عليك يا هشام!» وجلس بازائه. وقال «كيف أنت يا هشام؟». فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله. وقال له «يا طاوس: ما الذى حملك على ما صنعت؟». قال «وما الذى صنعت؟». فازداد غضبا وغيظا. وقال «خلعت نعليك بحاشية بساطى، ولم تقبل يدى. ولم تسلم على بامرة المؤمنين. ولم تكننى، وجلست بازائى بغير إذنى وقلت كيف أنت يا هشـام». قال «أما ما فعلت من خلع نعلى بحاشية بساطك فانى أخلعها بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات، وأما قولك لم تقبل يدى فانى سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول، (لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة)، وأما قولك لم تسلم على بأمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بامرتك. فكرهت أن أكذب. وأما قولك جلست بازائى. فانى سمعت أمير المؤمنين عليا يقول (إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أ[هل] النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام). فقال هشام عظنى. فقال «سمعت أمير المؤمنين عـــلى رضى الله عنه أن فى جهنم حيات كالقلال، وعقارب كالبغا[ل] تلدغ كل أمير لا يعدل فى رعيته». ثم قام — انتهى ملخصا.

وكان مالك بن دينـار ينادى فى جامع البصرة «إن الله دفع إلى هؤلاء الملوك غنما سمانا صحاحا، فأكلوا اللحم، ولبسوا الصوف، وتركوها عظاما تتقعقع!»

وخاطب أبو حازم، سليمان بن عبد الملك الجبار بقوله «إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هـــذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد ارتحلوا، فلو شعرت بما قالوا وما قيل فيهم!» فقـال له رجل من جلسائه «بئسما قلت». قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء «ليبيننه للناس ولا يكتمونه!» قال سليمان: وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد؟ قال: أن تأخذه من حله، فتضعه فى حقه. فقال سليمان: ومن يقدر على ذلك؟ فقال من يطلب الجنة ويخاف من النار، فقال سليمان أدع لى، فقال أبو حازم «اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة، وإن كان عـــدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى» فقال سليمان: أوصنى، فقال أوصيك وأوجز، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك من حيث أمرك.

وكان سعيد بن المسيب التابعى الكبير يقول على رؤس الأشهاد فى ولاة زمنه: يجيعون الناس، ويشبعون الكلاب.

وقد ظل علماء الاسلام على هـذه الديدنة بعد عهد بنى أمية، غير هيابين ولا وجلين فى عهد العباسية، فهذا المنصور الخليفة العباسى القهار لما قال لسفيان الثورى «ارفع إلينا حاجتك» رد عليه قائلا «اتق الله! فقد ملأت الأرض ظلما وجوراً».

كتاب هارون الرشيد

ولما استقر على منصة الخلافة هارون الرشيد الخليفة العباسى الشهير، كتب إلى سفيان الثورى كتابا بيده، يقول فيه:

«من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى أخيه سفيان بن سعيد ابن المنذر.

أما بعد، يا أخي، فقد علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله. واعلم أني قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك، ولم أقطع منها ودك، وإني منطو لك على أفضل المحبة. واعلم يا أبا عبد الله! أنه ما بقي من إخواني وإخوانك أحد إلا وقد زارني وهناني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسي، وقرت به عيني، وإني استبطأتك فلم تأتني، وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً مني إليك شديداً، وقد علمت يا أبا عبد الله، ما جاء في فضل المؤمن وزيارته ومواصلته، فاذا ورد إليك كتابي فالعجل العجل».

وهل يعلم اللورد ريدنغ من كان هذا الرشيد الذي يكتب إلى عالم من علماء المسلمين بهذه اللهجة اللينة؟ إنه قد كان يحكم ربع الكرة الأرضية ويخاطب قيصر الروم في كتاب منه إليه بـ «يا ابن الكلب» كما صرح به المؤرخ جبن الانكليزي. ثم هل علم بما رد عليه ذلك العالم؟ إن لم يعلم فليسمع مني جوابه ثم يتدبر فيه، فانه يجلي له ما خفي عليه من حقيقة الاسلام، وجرأة المسلمين في إعلان الحق، ويبين له أن ما تطلبه حكومته منا لا ينال، وأن المسلم لا يمتنع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو لجع في النفس والمال.

قد كان من حديث سفيان أنه لما أتاه الرسول بكتاب الخليفة، كان في مسجد الكوفة وحوله أصحابه، فرمى إليه الرسول الكتاب، فلما رآه ارتعد وتباعد منه، كأنه حية عرضت له. ثم أدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذ الكتاب فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان عنده، وقال يأخذه بعضكم يقرؤه، فاني استغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده، فلما فرغ من قراءته، قال «اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه». فقيل له «يا أبا عبد الله إنه خليفة، فلو كتبت إليه في قرطاس نقي». فقال: «اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فان اكتسبه من حلال فسوف

يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شىء مسه ظالم عندنا، فيفسد علينا ديننا». ثم قال اكتبوا:

«من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى، إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد، الذى سلب حلاوة الايمان. أما بعد، فانى قد كتبت إليك أعرفك أن قد صرمت حبلك، وقطعت ودك، وقليت موضعك، فانك قد جعلتنى شاهدا عليك باقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه، وأنفذته فى غيرحكمه، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى، حتى كتبت إلى تشهدنى على نفسك. أما أنى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا قراءة كتابك، وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى. يا هارون! هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها فى أرض الله تعالى، والمجاهدون فى سبيل الله، وابن السبيل؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم، والأرامل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك؟ فشد يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جوابا، وللبلاء جلبابا، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل، فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما، وللظالمين إماما. يا هارون، قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت سترا دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون.

«أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟ فكيف بك يا هارون غدا، إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فقدمت بين يدى الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم

سابق وإمام إلى النار. كأنى بك يا هارون. وقد أخذت بضيق الخناق، و وردت المساق، وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك، وسيئات غيرك فى ميزانك، زيادة عن سيئاتك، بلاء على بلاء.. وظلمة فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتى، واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها، واعلم أنى قد نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية والسلام».

فلما وصل هذا الكتاب إلى هارون أقبل يقرأه ودموعه تنحدر من عينيه، ويقرأ ويشهق. ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون، يقرأه عند كل صلاة حتى توفى. انتهى ملخصا

ولم يكن العلماء والأئمة هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وحدهم، بل كان يوجد إذ ذاك من دهماء المسلمين وعامتهم من يؤدى هذه الفريضة بكل شجاعة ورباطة جأش. فبينما كان الخليفة المنصور العباسى يطوف بالبيت إذ سمع رجلا عند الملتزم يقول «اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع»، فدعاه المنصور وقال: ما هذا الذى سمعتك تقوله من ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم؟ فقال: «الرجل الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغى والفساد فى الأرض، أنت». قال المنصور «ويحك كيف يدخلنى الطمع، والصفراء والبيضاء فى يدى، والحلو والحامض فى قبضتى؟» قال «وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك، إن الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر، وأبوابا من الحديد، وحجبة معهم السلاح، ثم سجنت نفسك فيها منهم، وبعثت عمالك فى جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة، إن نسيت لم يذكروك، وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم

على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم. فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا. فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا. وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل » — إلى آخره. فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارتفع صوته.

ومن ذا الذى لم يسمع بظلم داهية بنى أمية الحجاج بن يوسف الثقفى وغلظته وسفكه للدماء. ولكنه مع جبروته وغطرسته لم يستطع صد المسلمين عن إعلان الحق، فلقد جيء إليـــه يوما بحطيط الزيات أسيرا، فلما دخل عليه، قال أنت حطيط؟ قال «نعم. سل ما بدا لك. فانى عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن». قال فما تقول فى؟ قال أقول: إنك من أعداء الله فى الأرض تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة. قال فما تقول فى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال أقول: إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

ودخل رجل من المسلمين عـــلى المأمون بن الرشيد وقال له على ملأ من رجاله: يا ظالم، أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم. فأقبل عليه المأمون وقال من أنت؟ قال: أنا رجل من السياحين، فكرت فيما عمل الصديقون قبلى، فلم أجد لنفسى فيه حظا، فتعلقت بموعظتك لعلى ألحقهم. فأمر بضرب عنقه.

فهكذا كان المسلمون فى الأيام الأولى يتقربون إلى مولاهم بتعرضهم للملوك والسلاطين وتخشينهم لهم فى القول وتقديم مهجهم للهلاك. ولقد ظلوا على هذه الوتيرة بعد، ولا يزال يوجد فيهم الربانيون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى يأتى أمر الله، كما ورد فى الخبر «لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين عـــلى الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون».

الفتنة التتارية والفتنة الغربية

فلا تفتنهم الفتنة الحديثة الغربية. ولا تستطيع ردعهم عن علمهم الحق، إذ هى ليست بجديدة لهم. فلقد دهموا قبلها بالفتنة التتارية، وزلزلوا بها زلزالا شديدا. فكما نرى الدول الأوروبية ولا سيما انكلترة قد دمرت البلادا لاسلامية، ومزقت شمل الخلافة العثمانية. وقضت على حرية الممالك الشرقية، وأباحت سفك دماء المسلمين أنهارا فى السهول الاناضولية. كذلك كانت الفتنة التتارية، والتتار لم يكونوا أناسى بل سباعا و وحوشا. أهالوا على البلاد الاسلامية كالسيل الجارف، ووضعوا السيف فى رقاب المسلمين. ودمروا الخلافة العباسية ودخلوا بغداد فجاسوا خلال الديار. ولكن هل قدرت سيوف هلاكو ومنكو وأباقاآن السفاكين، أن تقهر العلماء الربانيين وتسكتهم عن الحق؟ كلا. فهذا شاعر إيران الشهير السعدى الشيرازى قد قال لهلاكوخان وجها لوجه «إنك ظالم!» ودعا شمس الدين التازى على منكو خان وهو يسمع ويرى، ولعن شيخ الاسلام أحمد بن تيمية أباقاآن فى حضرته وعلى ملأ من جنوده. نعم كانت فى أيدى التتار السيوف البتارة تطير الهامات فى طرفة عين. ولكن لم يكن فى «الثورة الجنكيزية» قانون ١٢٤ الذى امتازت به الدولة البريطانية المدنية فى بلاد الهند!

الحجاج وريدنغ

فاذا كنا نحن المسلمين نعامل حكومتنا الاسلامية هذه المعاملة، فماذا يرجوه منا عمال هذه الحكومة الأجنبية؟ وهل تكون الحكومة الانكليزية الهندية «القانونية» أكرم علينا من الحكومات الاسلامية التى طاعتها واجبة علينا «شرعا ودينا»؟ وهل دولة الملك جورج الخامس ونيابة اللورد ريدنغ أعز علينا من خلافة عبد الملك بن مروان ونيابة الحجاج بن يوسف الثقفى؟ ولو غضضنا الطرف عن الفرق الشرعى العظيم بين الحكومة الأجنبية غير الاسلامية

والحكومة الوطنية الاسلامية، وأنزلناهما منزلة واحدة، أفلا نقول فى حكومات «جيمسفورد» و «ريدنغ» ما قلناه فى حكومات الحجاج وخالد القسرى من قبل؟ قد قلنا يومئذ: أتق الله، فقد ملأت الأرض ظلما وجورا! وهذا هو الذى نقوله اليوم، ولا نزال نقوله حتى يزول الاستبداد أو نزول نحن!

والحقيقة أن ما نعمله الآن فى الهند من ترك التعاون ومقاطعة الحكومة، إنما كنا أمرنا به فى مقابلة ظلم الولاة من المسلمين، لا فى مقابلة الأجانب. ولو فهم أساطين بريطانيا ودهاتها هذه الحقيقة، لاعترفوا بأن مساهلة المسلمين ومداراتهم قد بلغت منتهاها، وأنه لا ينبغى أن ينتظر منهم أكثر من هذا، إذ ليس وراءه إلا الارتداد عن الاسلام أو النفاق فيه، ولا يمكنهم أن يفعلوا ذلك حبا فى سواد عيون البريطانيين (أو زرقتها).

وظيفة المسلمين إذا ظلموا

إن الشريعة الاسلامية رسمت للمسلمين خطتين إذا ظلموا، خطة ضد إستبداد الحكومة الاسلامية، وخطة ضد إستبداد الحكومة الأجنبية. والأولى تنحصر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإعلان الحق وتقبيح الظلم من استطاع إليه سبيلا. أما الثانية فليست إلا السيف والحرب العوان وضرب الرقاب. وفى كلتيهما أمر المسلمون بأن يضحوا نفوسهم ويرحبوا بالموت صابرين ثابتين شاكرين، راجين رحمة ربهم وفلاح الدنيا والآخرة. ولذا تجدهم كما تجرعوا كؤوس المنايا بين الولاة الظلمة من أنفسهم فى سبيل الحق، كذلك باعوا رؤوسهم بيد الأجانب فى إعلاء كلمة الحق، وقد سبقوا سائر الأمم فى هذا المضمار، فلا يوجد «لسعيهم الحربى» مثال، ولا يوجد «لسعيهم المدنى» مثال.

ولقد كان يجب على مسلمى الهند الآن أن يتخذوا الخطة الثانية فيحاربوا

الحكومة الانكليزية بالسلاح ويتفانوا فى جهادها، غير أنهم آثروا الأولى، وأعلنوا أنهم لا يرفعون عليها السلاح، ولا يسفكون الدماء، بل يظلون متمسكين بعرى الأمن والسلم، وإنما يقاطعونها، وينفضون أيديهم من التعاون معها ويشهرون سوءاتها، ويطلبون تغيرها «بالسعى المدنى» أى يعاملونها كما كانوا يعاملون الحكومات الاسلامية الجائرة.

أجل. إن فيهم ضعفا و وهنا. ولا يستطيعون محاربة الدولة البريطانية القوية، إلا أنهم لم يكونوا عاجزين عن إلقاء أنفسهم فى أفواه مدافعها وسد طريقها بجثثهم الممزقة. ولكنهم مع قدرتهم عليه اختاروا الخطة الأولى، ولم يضيقوا عليها السبل. فهلا كان يجب علينا أن تفكر فى صنيعهم وتسامحهم معها؟ فحسبها أنهم يعاملونها كمعاملتهم لحكوماتهم الاسلامية!

انقلاب الحال

وإنى أقول حقا إنه لا يؤلمنى أن أرى الحكومة عازمة على معاقبتى، وأنها لا تحاكمنى إلا لأن تزجنى فى السجون، إذ هذا أمر لا بد منه، وإنما الذى يؤلمنى فيفتت كبدى هو أن أرى الحالة تنقلب إنقلابا تاما. فبدلا من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق، يطلب منه السكوت عنه وكتمان الشهادة، وأن لا يقول للظالم «إنك ظالم!» لأن قانون ١٢٤ يعاقب عليه!

ولقد كان المسلم فى العهد الأول يوقف بين يدى ملك جبار لقوله له «إنك ظالم». فيصب عليه العذاب إلى أن تنشق له القصب، ثم يمدون قصبة قصبة حتى يذهب لحمه كله. فلا يسمعونه يستغيث أو يندم أو يتألم، بل لا ينفك لسانه يقول ما قاله أولا[1] فوازنوا بين هذا وبين قانونكم ١٢٤.

---

١ — وقد فعل هذا الحجاج بن يوسف الثقفى مع حطيط الزيات الذى مرت حكاية آنفا — المترجم.

ولست أنكر أن الحقيقة المحزنة هى أن المسلمين أنفسهم مسئولون عن هذا الانقلاب المخزى وتسلط الأجانب عليهم، لأنهم قد فقدوا خصائص الحياة الاسلامية، وكسبوا جميع رذائل العبودية، حتى أصبحوا بحالتهم الحاضرة أكبر فتنة للاسلام. أقول هذا وقلبى يذوب حزناً وكمدا على وجود أناس من المسلمين فى هذه البلاد، يتخذون أربابا من دون الله ويعبدون الظلم والظلمة جهرا وعلنا، فالى الله المشتكى ثم إلى الله المشتكى!

الحرية أو الموت

ولكن سوء حال المسلمين لا يسود ناصية تعاليم الاسلام الحق البيضاء المصونة بين دفتى الكتاب الحكيم. وهى لا تبيح للمسلمين فى حال من الأحوال أن يعيشوا عبيدا وخولا للأجانب والمستبدين، بل توجب عليهم أن يحيوا أحرارا، أو يموتوا كراما، وليس بينهما سبيل.

وهذا الذى حملنى قبل اليوم باثنتى عشرة سنة على أن أذكر المسلمين فى «الهلال»[1] بأن الجهاد فى سبيل الحرية، وبيع الرؤس لاعلاء كلمة الحق هو إرثهم الاسلامى القديم الذى ورثوه عن أجدادهم العظام، وأنه يجب أن يحافظوا عليها بكل قوة، وأن دينهم يحتم عليهم أن يسبقوا جميع أبناء وطنهم فى الجهاد الوطنى، فلا يكونوا فيه أذناباً، بل رؤوساً وأعلاماً يهتدى بهم. ولقد كان من فضل الله أن دعوتى لم تذهب أدراج الرياح، بل لقيت القبول والاجابة منهم، وها نحن أولاء نراهم اليوم قد شمروا عن ساعديهم وعزموا عزما أكيدا على السعى والعمل مع إخوانهم الوطنيين من الهندوس والنصارى والمجوس لتحرير وطنهم من ربقة العبودية الأجنبية، ولا يقر لهم قرار إلا بعد نيل المرام.

[1] — الهلال مجلة لصاحب المقال.

مسألة الخلافة

وإنى لا أذكر هنا مظالم الحكومة حيال الخلافة الاسلامية لأنها أشهر من أن تذكر. ولكن الذى أريد التصريح به هو أنه لم يمض على يوم ولا ليلة فى خلال السنتين الماضيين إلا وأعلنت تلك المظالم على رؤس الأشهاد، وصرخت بأعلى صوتى قائلا «إن الدولة التى تدوس الخلافة الاسلامية تحت أقدامها ولا تندم على ما اقترفته فى الهند من الفظائع والمنكرات لا تستحق أن يخلص لها أحد من أبناء هذه البلاد. لأنها بأعمالها قد أصبحت عدوا ألد للاسلام والمسلمين ولسكان هذا القطر».

ولا تلومن الحكومة أحداً غير نفسها علـى سقوطها فى هذا المأزق الذى يصعب عليها الخروج منه. لأنى قد نبهتها سنة ١٩١٨ من معتقلى فى كتاب منى إلى «اللورد جيمسفورد» الوالى السابق. فصلت لها فيه الأحكام الاسلامية التى تتعلق بالخلافة وجزيرة العرب، وصارحتها بأن الدولة البريطانيــة إذا نقضت عهودها، واستولت على الخلافة والبلاد الاسلامية. توقع المسلمين فى حالة حرجة جدا ولا يبق لهم إذ ذاك إلا أن يكونوا مع الاسلام أو مع البريطانية، ومعلوم أنهم يؤثرون الاسلام عليها.

ولكنها لكبرها وعجرفتها لم تبال بما كتبت، فألقت كتابى ظهريا، ونكثت أيمانها من بعد توكيدها. فاحتلت دار الخلافــة الاسلامية واستولت على العراق والشام وفلسطين. وبسطت نفوذها على جزيرة العرب، فعادت الاسلام والمسلمين علناً، واضطرتهم إلى مقاطعتها ونبــذ معونتها والتبرى من طاعتها (وهو أقل ما توجبه الشريعة فى مثل هذه الحالة كما مر) ثم إنها باصرارها على غيها واعراضها عنهم واستنكافها من الانصات إليهم، أيأستهم من نفسها. حتى أيقنوا أن لا سبيل إلى الحياة ونيل حقوقهم المغصوبة إلا باسقاط هــذه الحكومة وإقامة حكومة

وطنية بحتة، وهى التى يسمونها فى لغتهم «بالسوراج».

أعدل هذا أم ظلم؟

والحاصل أن إعترافاتى فى هذا الباب جلية وصريحة، فانى لا أعد الحكومة الحاضرة إلا (بيوروكريسيا) غير شرعى وعدما محضا فى عين الحق والقانون والرضا فئات الملايين من أبناء البلاد يمقتونها أشد المقت، ويطلبون زوالها وسقوطها بأسرع ما يمكن، لأنهم ألفوها دائما تؤثر الرهبة والشدة فى أعمالها على العدل والحق، وتبيح سفك الدماء البريئة بدون رحمة ولا شفقة فى «جليانوالا باغ»[1] وتجلد الصبيان الذين ما عرفوا الذنوب بعد، لأن ينحنوا أمام العلم البريطانى المثلث. ثم أنهم وجدوها لا ترتدع عن دوس الخلافة الاسلامية، ولا تسمع الصيحات المتوالية التى تعلو من أفواه المسلمين وغيرهم، وتسلم أزمير وتراقية إلى اليونان ظلما وجورا، وتسمح لهم باراقة دماء المسلمين أنهارا فى سهول الأناضول.

ولقد رأوا جرأتها فى سحق الحق غير قليلة، وهمتها فى لبس الصدق بالافك غير كليلة، ولسانها فى تكذيب الحقائق غير عيى ولا متلعثم، فمع أنه يوجد فى ولاية أزمير ٧٠ فى المائة من المسلمين، يعلن رئيس وزرائها بدون أدنى لكنة أن الأكثرية للنصارى، ولقد وضع اليونانيون السيف فى رقاب المسلمين وذبحوهم ذبح الأنعام. وهو يقلب الحقيقة فيتهم العثمانيين بالقتل وسفك الدماء، ويشهر المظالم التركية المخترعة فى العالم بلا مبالاة، ويخفى بكل وقاحة تقرير لجنة التفتيش الأمريكية التى ندبتها حكومته بنفسها، ويؤلب على الأحرار العثمانيين الدول الغربية كلها، ويدعوها إلى محاربتهم وإستئصالهم.

---

١ — هو ميدان محيط بالجدران بمدينة امرتسر من مقاطعة بنجاب، قتلت فيه الجيوش الانكليزية مئات من الوطنيين، رجالا وشيوخا وأطفالا، كانوا اجتمعوا فيه ليتشاوروا فى بعض القوانين الجائرة — المترجم.

ثم إنهم وجدوها لا تخجل ولا تندم عـــلى هذه الفضائح والمنكرات، ولا ترغب فى تلافيها وإصلاح عوجها، بل تعـــود، فتستبد أكثر من قبل، وتقهر البلاد وتكبح سعيها الشرعى السلمى، وتعمل كل ما عملته فى السنة الماضية، وما تعمله منـذ ١٨ نوفمبر إلى الآن، من الأعمال الشنيعة التى تشمئز منها الانسانيـة وتمانها.

فياليت شعرى، إن لم أقل لمثل هـذه الحكومة «إنك ظالمة، فاما أن تتوبى وإما أن تزولى». فماذا أقوله؟ أأكذب وأقول لهـا: لا بل إنك عادلة فلا تتوبى ولا تزولى؟ لعمر الله، إن هذا لا يكون أبداً!

وهل يستحق الظلم أن يبدل اسمه ويسمى بغير اسمه لأنه يملك القـــوة والسجون والمشانق؟ كلا، بل أقول كما قال صالح ايطالية وبطل الحرية «ميزنى» إننا لا نسكت عن سيئاتكم لأنكم تملكون قوة عما قليل تزول!

قرة عينى فى «هذه الجناية»

إنى لأعجب كيف تقـــدم الحكومة هاتين الخطبتين الناقصتين ضدى؟ أفما كانت تجد غيرهما؟ أفلا توجد هذه الأقوال بعينها وأكثر منها فى الآلاف المؤلفة من الصحائف التى حبرتها، وفى جميع خطبى التى خطبتها فى سائر انحاء الهند؟ فلو أنها رجعت إليها لوجدتها مملئة من هذه الأفكار الثورية.

الحكومة تعلم أنى لست حديث عهد «بمبادىء الثورة» كما سمتها. فلقد مارستها وأنا صغير، وباشرت الخطابة والكتابة فيها وأنا ابن ثمانى عشرة سنة. وأفنيت شبابى فى عشقها والهيمان بها، ودعوت أمتى إليها جهرا على مسمع من الحكومة وحرضتها على المطالبة بحقوقها منها ولذا اعتقلتنى أربع سنوات ولكن الاعتقال لم يكن ليثنينى من أداء واجباتى. فظللت تحت المراقبة الشديدة أرفع صوتى بها

وأدعو الناس إليها، لا سراً بل علنا فى رابعة النهار — وكيف لا، وفيها قرة عينى، وهى مقصدى من الحياة، إن أعش أعش لأجلها وإن أمت أمت عليها (إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين).

الحركة الاسلامية الأخيرة

كيف استطيع التبرى من هـذه «الجناية» وأنا الذى قمت بهذه «الحركة الاسلامية» التى أحدثت انقلابا عظيما فى أفكار المسلمين السياسية وأوصلتهم إلى حيث نراهم الآن، فانهم بقبولهم أفكارى أصبحوا شركائى فى الجريمة واستحقوا العقاب الذى تشرفنى به الحكومة. ولقد أصدرت سنة ١٩١٢ صحيفة باسم «الهلال» بثثت بها جراثيم هذا الذنب فى المسلمين، فعلقت بقلوبهم وسممت أفكارهم، فبعد أن كانوا أعداء لاخوانهم الهندوس وعقبة كؤدا فى جهادهم الوطنى وآلة صماء بيد الحكومة، يعتقدون أن البلاد إذا استقلت، تغلب عليهم الهندوس وأسسوا دولتهم لأنهم أكثر عددا منهم، أصبحوا بدعوة «الهلال» يرجحون قوة الايمان والحق على قوة العدة والعدد. ودعوتهم إلى مساهمة الهندوس فى الجهاد الوطنى، فأصبحوا متحدين معهم وقاموا جميعا بالحركة الحاضرة. وغنى عن البيان أن الحكومة لم تكن لتتحمل الحركة التى أحدثتها «الهلال»، فعمدت إلى منعها واقفال مطبعتها. ثم لما أنشأت جريدة أخرى باسم «البلاغ» اعتقلتنى.

وإنى أصرح هنا بأن «الهلال» لم تكن إلا دعوة للحرية أو الموت، وإن ما يعمله الآن «مهاتما غاندى» من بث الروح الدينية فى الهندوس، كانت «الهلال» قد فرغت منه سنة ١٩١٤. وإن من المصادفات العجيبة أن المسلمين والهندوس ما قاموا بالحركة الجديدة القوية إلا بعد أن حلت فيهم الروحانية الدينية محل المدنية الغربية المادية.

مؤتمر الخلافة بكلكتا

ثم إني منذ خرجت من الاعتقال الطويل ما برحت أنشر هذه المبادئ بين الناس وأدعوهم إليها. ففي مؤتمر الخلافة الذي انعقد في ٢٨ و ٢٩ فبراير بكلكتا نفسها والذي رأست جلساته. حثت المسلمين على أن يعلنوا القرار الآتي:

«إن أصرت الحكومة على غوايتها، ولم تصغ لمطالبنا في مسئلة الخلافة، يضطر المسلمون بأوامر دينهم أن يصرموا جميع أواصر الولاء التي تربطهم بها!»

وألقيت في هذا المؤتمر خطبة طويلة بينت فيها جميع تلك الأمور بيانا تاما - وهي توجد في هاتين الخطبتين ناقصة.

التعاون والخدمة العسكرية

ولقد شرحت في هذه الخطبة أن الشريعة توجب على المسلمين في الحالة الحاضرة أن يكفوا عن التعاون مع الحكومة وأن يقاطعوها مقاطعة تامة، وهذا هو «اللاتعاون» الذي أطلق عليه بعد اسم Non co-operation وتولى «مهاتما غاندي» قيادته.

وفي نفس هذا المؤتمر أعلن: «أنه لا يحل للمسلمين أن ينسلكوا في الخدمة العسكرية لهذه الحكومة. لأنها تحارب الخلافة والدولة الاسلامية!» وإن من أعجب العجب أن تؤاخذ الحكومة أناسا[1] وتعاقبهم لاعلانهم هذا الحكم في مدينة كراچي ولا تؤاخذني به. مع أني صرحت مراراً على صفحات الجرائد وفي خطبي أن أول من قدم هذا الاقتراح وأعلن هذا الحكم الديني. هو أنا بعيني، فقد قرر وصودق عليه في ثلاثة مؤتمرات تحت رئاستي: أولا في كلكتا، ثم في بريلي، ثم في لاهور. وقد أعلنته مرارا في غير هذه المؤتمرات، ودعوت الحكومة إلى

---

١ — كانت الحكومة الانجليزية [illegible] محمد على و شوكت على و [illegible] سجنتهم لاعلانهم هذا في كراچي من مقاطعة [illegible].
—المترجم.

معاقبتى فلم تجبنى، مع أنى كنت أحق الناس وأولاهم بالعقاب عليه.

وقد طبعت خطبة مؤتمر كلكتا بعد زيادات فيها، ونشرت مع الترجمة الانكليزية مرارا، وهى بمثابة جدول مكتوب لجرائمى وذنوبى.

حياتى كلها «جناية»

إنى قد طفت البلاد الهندية كلها عدة مرات فى خلال السنتين الماضيتين، وحدى ومع «مهاتما غاندى» ولا توجد بلدة إلا وقد خطبت فيها على مسئلة الخلافة وبنجاب و «سوراج» واللاتعاون، وبينت جميع تلك الأمور التى تحتوى عليها هاتان الخطبتان.

ولقد انعقدت جمعية الخلافة الكبرى فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ مع الجمعية الوطنية العامة، بناغفور، وجمعية العلماء فى أبريل سنة ١٩٢١ ببريلى، وجمعية الخلافة لمقاطعة «اورهر» فى أكتوبر بآغره، وجمعية العلماء العامة فى نوفبر بلاهور، وقد رأست هذه الجمعيات كلها، وخطبت فيها خطباً طويلة، قلت فيها ما قلت فى هاتين الخطبتين، بل أكثر منه وأشد.

فان كانت مطالب هاتين الخطبتين لا تلائم الحكومة، وترانى أستحق العقاب لاجلها تحت قانون ١٢٤، فلم لا تعاقبنى على جميع خطبى وهى كلها مثلها، بل أشد وطأة على الاستبداد منهما؟ بل إنى مضطر إلى التصريح بأنى ارتكبت هذه الجناية مرارا يستحيل عدها، بل ما عملت فى السنتين الماضيتين غير هذه الجناية.

اللاتعاون السلمى

إننا قد وضعنا لجهادنا الحق خطة «اللاتعاون السلمى» أجل، إن القوات المادية واقفة أمامنا بجميع أسلحتها القتالة، وموادها العظيمة تريد أن تسحقنا سحقا، وتمحق الحرية والحق محقا، ولكن هذا لا يهولنا، لأننا لا نثق بالمادة

والأسلحة المادية، إنما إتكالنا على الله الواحد القهار، وثقتنا بالضحايا المتوالية التى قدمها، والثبات القوى الذى نظهره فى هذه المعمعة القائمة بين الحق والباطل والحرية والاستبداد. وإنى لا أرى — مثل مهاتما غاندى — أن استعمال السلاح لا يجوز بحال، فانى مسلم وأعتقد أن استعماله مباح فى المواقع التى أباحه الاسلام فيها. ولكنى مع هذا أسلم بجميع دلائل مهاتما غاندى فى المسئلة الحاضرة، وأعتقد صحتها. وإنى لعلى يقين من ربى فى أن الهند ستفوز فى قضيتها بخطة «اللاتعاون السلمى»، ويكون فوزها مثالا عظيما لفوز القوة الروحانية والأخلاقية والحق على الباطل والمادة.

الحالة الحاضرة طبيعية

وإنى أكرر أخيرا ما قلته أولا، وهو أن ما تعمله الحكومة معنا ليس بأمر عجيب ولا غير منتظر، فنلومها عليه أو نتبرم منه، فان القهر والعنف لقمع الحرية والحق دأب الحكومات الجائرة، وطبعها منذ الأيام الخالية إلى اليوم، ولا ينبغى لنا أن نمنى أنفسنا بتغير الطبيعة لأجلنا.

وهذا الضعف الطبيعى كما يوجد فى الآحاد، يوجد فى الجماعات، فكم من الناس من يرد النزر اليسير المغصوب لأنه لا حق له فيه؟ وكيف ننتظر من دولة أن تتخلى عن قارة تسلطت عليها ووجدتها تدر كالبقرة الحلوب؟ والقوة لا تقبل شيئا لأنه حق وعدل، بل تنتظر قوة مقاومة مثلها، فاذا تصادمت بها خضعت لكل طلب مهما كان فاحشا. فالحرب التى نشبت الآن بين البلاد والحكومة لا بد من طولها وامتدادها، ولا تأتى النتيجة إلا بعد شق الأنفس. وإن هذا الواضح جلى لكل بصير، بل هو عادى مثل سائر أحوالنا العادية، فلا ينبغى أن نتعجب منه أو نضجر.

وإنى أسلم بأننا لم يصبنا ما أصاب الأمم قبلنا فى هـــذا السبيل من العسف والظلم ونقص الأموال والأنفس. ولا أدرى أ هذا لضعف فى مطالبتنا بالحقوق و وهن فى سعينا وجهادنا، أم لأن ظلم الحكومة لم يبلغ منتهاه بعد؟ المستقبل رهين بكشفه وبيانه.

وقد علمنا التاريخ أن هـــذا التزاحم كما يبتدئ فى كل زمن متشابها، كذلك ينتهى دائما متشابها، فالحرية والحق ينتصران ويغلبـان، والاستبـــداد والباطل يخذلان ويسقطان، فاذا كنا صادقين فى قضيتنا، وصابرين فى ابتلائنا. ننجح ونفوز بلا ريب، وتضطر هذه الحكومة التى تعاملنا اليوم كالمجرمين، إلى أن ترحب بنا غدا كالأبطال والفاتحين!

الثـــورة

إنى قـد اتهمت «بالثورة» مهلا، ذرونى أفهم معنى «الثورة». أ هى ذلك السعى الذى لم ينجح بعد؟ إن كان هذا هو الثورة، فنعم إنى «لثـائر» ومتمثل بين يديكم، عاقبونى بأى عقاب شئتم؛ ولكن اعلموا أن هـــذا السعى إذا تكلل بالنجاح فانه يسمى بـ «حب الوطن» و «جهاد الحرية». فقد كنتم بالأمس تسمون قادة ايرلنـدة «ثواراً وعصاة»، ولكن أى اسم تختاره اليوم الدولة البريطانيـــة لديوليرا وغريفث؟ أ هم ثوار الآن أم أبطال الحرية؟

ولقد قال مرة قائد ايرلندة بأرنل: ما زال عملنا هذا يسمى فى البداية «ثورة» وفى النهاية «جهادا وحربا مقدسة للحرية والوطن»!

ناموس القضاء بالحق

إنى مسلم وحسب المسلم يقينا كتابه الذى يؤمن به، فالقرآن يدل على أن ناموس «انتخاب الطبيعة وبقاء الأصلح» ناموس عام، كما يعمل عمله فى الأجسام

والمادة، فيبقى منها الأصح والأصلح للبقاء. كذلك يعمل فى العقائد والأعمال، فالأعمال الصالحة تخلد وتثمر. والأعمال السيئة تفنى وتصير هباء منثورا. وإذا وقع بينهما نزاع غلبت الأولى وحلت محل الثانية: (فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال) — ١٣ : ١٨.

ولذا يسمى القرآن العمل الصالح بـ «الحق» الذى معناه الثبوت والقيام، ويسمى الشر والسوء بـ «الباطل» الذى من شأنه أن يزول: (إن الباطل كان زهوقا).

فالتدافع الذى نراه قائماً بين الحزبين سينتهى غدا بفوز الحق والصدق، وبخسران الباطل والظلم. تلك سنة الله (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا).

وإنى لا أدرى أقريب يوم الفصل أم بعيد؟ ولكننى أرى الجو قد اكفهر وتلبد بالغيوم، واجتمعت الآيات على سقوط الأمطار، والويل كل الويل لمن يرى الآيات والنذر، ثم لا يأخذ أهبته، ولا يرتق فتقه، ولا يسد ثغره، وإنى لأرى الحكومة من أولئك الذين لا تغنيهم الآيات والنذر، فانها لا تزال متمادية فى تيهها وخنزوانتها.

وقد قلت فى هاتين الخطبتين: إن الحرية لا ينبت نبتها ولا تستوى على سوقها إلا إذا سقيت بماء الظلم والقهر. فها هى ذى الحكومة قد أخذت تسقيها بظلمها وقهرها!

وكذلك قلت فيهما: إخوانى! لا تحزنوا على من حبس منكم، بل إن كنتم تطلبون الحق والحرية حقا، فهلموا إلى السجون واملؤها. فها نحن أولاء نرى السجون قد ازدحمت وامتلأت حجرها حتى لم يبق فيها محل للصوص والقتلة. واضطرت الحكومة إلى تشييد سجون جديدة!

وكيل الدعوى، والبوليس، والقاضي

وفي الختام أريد أن أسوق كلمة إلى هذا النفر من بني جلدتي الذين يعملون ضدي في هذه القضية، فأقول: أصحابي، ثقوا بأني لا أغضب ولا أحقد عليكم، بل لا أتهمكم بالكذب والزور علي، لأن كل ما قلتموه في الشهادة حق وصدق، ولكني أراكم قد عصيتم الله ربكم بمساعدة الحكومة في استبدادها وظلمها ومحاربتها للاسلام والانسانية. إني أعلم أن صوت الضمير يوبخكم في أعماق سرائركم على ما تعملونه، ولكنكم إنما اضطرتم إليه اضطراراً، لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم، وترزقون به أهليكم، وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء في سبيل الحق، فلذا لا أحنق عليكم ولا أعذلكم، بل أعفوا عنكم وأستغفر لكم الله».

وأما وكيل الدعوى فهو أيضاً أحد أبناء وطني، ولا علم لي بسريرته، وإنما أرى علانيته، وهي تشهد أنه لا حظ له في هذه القضية غير ما ينقده من النقود، فانه أجير يعمل لأجرته. فلذا لا أسخط ولا أحتمي عليه، بل أدعو لجميع هؤلاء بدعوة نبي الاسلام (ص) لقومه: «اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون».

فاقض ما أنت قاض!

وأنت أيها القاضي. ماذا عسى أن أقول لك؟ إن أقول إلا ما قاله المؤمنون قبلي في مثل موقفي هذا: (فاقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) فاني لا أحس بأدنى هم ولا ألم مهما تبالغ في العقاب، لأن خطابي مع الحكومة لا مع شخص واحد. وما دامت الحكومة فاسدة فلا رجاء في صلاح عمالها.

وإني لأختم خطابي بكلمات لفقيد ايطاليا وشهيد الحق «غاردينيو برونو» الذي كان أوقف مثلي أمام المحاكم فقال: «عاقبوني بأكثر ما يمكنكم أن تعاقبوني به فاني أؤكد لكم أن ما يشعر به قلبكم من العطف والحنان عند كتابتكم الجزاء لا يشعر قلبي في مقابله بذرة من الفزع والهلع عند سماعي هذا الجزاء».

الخاتمة

أيها القاضي، لقد طال الحديث وآن أوان الوداع، فليودع كل منا صاحبه، وإن ما يدور الآن بيننا سيسجله التاريخ بين دفاتره ويعتبر به المعتبرون، ولقد تشاركنا في ترتيبه على سواء، أنا من هذا القفص الجناة، وأنت من ذاك الكرسي القضاة، وإني عالم بأنه لابد من هذا الكرسي، وكذلك لابد من هذا القفص، فهلم بنا نفرغ من هذا العمل الذي سيكون عبرة وتذكرة للآتين، فالمؤرخ ينتظرنا، والمستقبل يترقب فراغنا، لنسرع في المجيء إليك ولتسرع أنت في القضاء علينا، وإن هذا العمل لا يطول قليلا حتى يفتح باب لمحكمة أخرى، وتلك المحكمة محكمة قانون الله الحق، الزمان يقضي فيها، ويكون قضاؤه حقا وحكمه نافذاً.

THAQĀFAT-'UL-HIND

(INDIAN CULTURE)

PUBLISHED QUARTERLY

in

MARCH, JUNE, SEPTEMBER and DECEMBER

CONTENTS

ANNUAL SUBSCRIPTION: Inland Rs. 8. Abroad Sh. 8. **SINGLE COPY**: Rs. 2.

INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS

PATAUDI HOUSE, NEW DELHI 1

PRINTED AT Q PRESS BY

Khaleel Sharafuddin, 46a Memonwada Road, Bombay 3, and Published by Mr. I. R. Khan Secretary Indian Council for Cultural Relations, Pataudi House, New Delhi 1

ثقافة الهند

تصدر أربع مرات فى السنة: مارس، و يونيو، و سبتمبر، و ديسمبر

الاشتراك للسنة: فى الهند: ثمانى روبيات. فى الخارج: ثمانى شلنات

ثمن العدد الواحد: روبيتان

تطلب من

مجلس الهند للروابط الثقافية، پتودى هاؤس، دلهى الجديدة نمرة ١

مطبعة «ق» بالهند

لصاحبها خليل شرف الدين، ٤٦ اـه شارع مينروارا، بمباى ٣

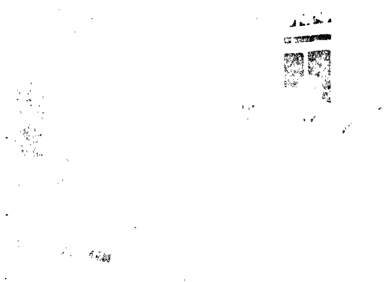
طبعت بأمر مجلس الهند للروابط الثقافية

ثقافة الهند

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

المجلد التاسع | سبتمبر سنة ١٩٥٨ | العدد الثالث

محتويات هذا العدد



مولانا أبو الكلام آزاد فى مدرسة الأطفال باستانبول (تركيا)
٤ يوليو ١٩٥١م

قبل استقلال الهنـــد

فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧



«أريد الاستقلال بالهند لكى تستفيد من وطنى الحر الدول الأخرى ما يتيسر لها، ولكى تتمكن من استخدام وسائلنا فى صالح البشرية. وإن عاطفة حب الوطن يحفزنا على أن يفنى الفرد لأسرته، وتفنى الأسرة فى صالح قريتها، وتضحى للقرى بذاتها لأقاليمها، والأقاليم لأجل الولايات، وتجود الولايات بكل ما لها فى صالح البلاد. وهكذا تتمنى على كل بلاد أن تستقل بسيادتها، لتتفانى فى صالح العالم كله إذا اقتضته الظروف.

«وإنما أعنى من القومية أو فكرة القومية، أن تصبح بلادى مستقلة ذات سيادة وكرامة، وتتفانى بآخر أفرادها لأجل البشرية وإبقائها، إذا دعت الحاجة إلى مثل ذلك. فهذه هى القومية التى تتمناها».

غاندى (سنة ١٩٢٥)

(Young India, 8-1-1925)



ربما لا يكون اليوم لكلمة «الحرية» معنى مرغوب فيه، فانها تتضمن معنى الاعتزال والانفصال عن الغير والتفرد بالذات، وقد ضاقت «الثقافة» بالقومية إلى حد كبير، بيد أنها في بحث مستمر عن تعاون وتعاضد أوسع من ذي قبل، فعندما نشيد بذكر الحرية لا نعني أننا نعارض الأهداف واسعة النطاق. ولا أرتاب ارتيابا ما في أن الهند بعد نيلها الاستقلال سترحب بكل سعي يرمي به إلى خلق التعاون والتوافق بين العالم بأسره، وليس الأمر إلى هذا الحد وإنما أنا موقن بأن الهند ستستعد لمقاسمة الدول المعاصرة في حريتها.

جواهرلال نهرو (ديسمبر — ١٩١٣)



إن الأمم والبلدان تواجه في تاريخها مرحلة تتحول فيها رغبة الحياة ذنبا كبيرا للبشر، ولا تعد له جريمة أكبر من أنهم أحياء، ويتضاعف السكان وراء الأبواب الحديدية في داخل الأسوار الشاهقة، ويزداد صانع الأطواق والكبول أهمية وقيمة. فتتعلق حبال الصلب في الأغصان المظللة، ليرحب بها أبناء البشر، فأتى في تاريخ الأقوام مرحلة مثل هذه، لكنها تسفر، طبقا لقانون الطبيعة، عن وقت تنجم فيه من كل بذرة من بذور التدمير، شجرة الحياة الدائمة المثمرة إثمارا خالدا.

أبوالكلام آزاد (سنة ١٩١٣)

رجل .. والرجال قليل

لصاحب الفخامة أحمـــد حسن الباقورى

وزير الاوقاف بالجمهورية العربية المتحده

— ١ —

كان مقدراً لهذا المقال أن يكون فى سجل الاحتفال بتكريم مولانا آزاد، يوم أراد زعماء قومه أن يكرموه، اعترافا بفضله، وتقديرا لما أدى من خدمات للأمة الهندية وللانسانية عامة فى مجال التحرير السياسى والفكرى.

وضرب المحتفلون موعدا .. وضرب القدر موعدا .. وكانت يد القدر أسبق من يد البشر، فمضى آزاد إلى ربه فى سكون أشبه بهـــذه السكينة التى كانت تظلل حياته وتعمر قلبه !! ومن يدرى ؟ فربما لو كان آزاد حياً لما استطاع المتحدثون عنه أن يكشفوا عن كل ما يملأ صدورهم من تمجيد لآثاره، وإكبار لشخصه ... إذ كان آزاد أزهد الناس فى مديح ... فما كان أثقل على سمعه، ولا آلم لنفسه، من أن يقال عنه ولو بعض الحقيقـــة فيه، شأن الرجل حين تكبر نفسه، ويستغنى بادراك ما وهبـــه الله من معانى الخير، عما تلوكه ألسن الناس من كلمات المديح.

لقد أراد القدر أن ينصف آزاد ... وأن يرضيه معا ....

أراد أن ينصفه فكن للمتحدثين عنه أن يقولوا ما يعرفون غير متحرجين فى قول فيه، ولا مشفقين أن يستحيوه بآيات المـــديح والاطراء .. فلهم الآن أن يثنوا عليه بما يعلمون وأن يصوروه باللون الذى يرتضون، إذ أخلى لهم آزاد

الطريق، فأصبح صفحة من صفحات التاريخ.. وأراد القدر كذلك أن يرضى آزاد، وأن يسمعه كلمة الحق التى آمن بها، وعاش لها، فليس للتحدثين فى مجال الذكرى إلا أن يقولوا الحقيقــة كاملة، وأن يقفوا من آزاد موقف المؤرخين، شهداء بالحق يؤدون للأجيال القادمة شهادة التاريخ فى إنسان!

وتقرير الحقيقة فى آزاد خير عمل مبرور يقدمه أصدقاؤه وتلاميذه.. فقـد كان الرجل طالب حقيقة ينشدها فى كل عمل يعمله أو قـول يقوله.. كان اتصال آزاد بالناس — وفاقا أو خلافا — وبالحياة — إقبالا أو إعراضا — يقوم على ميزان الحق والخير. فما كان حقا وخيرا فهو من قلبه بمكان الايمان، ومن فكره بمنزلة اليقين. وما لم يكن كذلك فهو أبعد شىء عن قلبه، وأبعـد شىء عن فكره، مهما تكن الدواعى إليه والمغريات. ذلك أنه لا يرى الحياة حياة إلا فى ظلال الحق والخير، ولا يرى الناس ناسا إلا فى مجال الحق والخير.

وبهـذا نستطيع أن نقول فى ثقة: إن لآزاد أن يطمئن فى مثوى خلوده، فلن يسمع فى ذكراه هذه إلا خيرا وحقا.. إذ الخير كل الخير فى ذكراه، والحق كل الحق فى سيرته، لأن حياته كلهـا للخير وللحق، ثم ليرض آزاد الرضا كله عن القدر، إذ جعل يوم تكريمه يوم ذكراه، لتظل سيرته خالدة على الأجيال، تبصر بالحق وتهدى للخير.

ولقد أراد القدر أيضا أن يكون حظى من آزاد فى مماته، أكثر من حظى منه فى حياته!

لم تجمع بينى وبينـه الأيام إلا لحظات قضيتهـا معه فى نيـــودلهى فى شهر أبريل سنـة ١٩٥٥، وأنا مع الرئيس جمال عبـــد الناصر فى الطريق إلى مؤتمر بندونج، وكان قدمنى إليه سفير مصر فى الهند وصديق الهند السيد إسماعيل كامل.. قدمنى إليه عـــلى أنى وزير مصرى مسلم، فى حكومة الثورة المصرية، وأنى من

رجال الدين المتخرجين فى الأزهر. وأذكر كلمة قالها آزاد ونحن نتعارف، قال: «إن الاستنارة فى الدين هى الطريق الوحيد لخدمة الدنيا والدين جميعا».

وكنت قد هيأت نفسى للقاء هـذا الرجل الكبير، ووطنتها على ألا أشغل بشىء عنه حتى أعرف حقيقته عن قرب، وأتناوله عن مشاهدة، بعد أن سمعت عنه ما تردد فى الدنيا من علمه ونبالة خلقه.

ولكن كيف لى أن أسبر غور هـذا البحر الزخار، وأن أتعرف على ما اشتمل عليه كيانه من آيات العظمة والنبوغ!

إن كل ما استطعت أن أظفر به فى هذا اللقاء القصير، هو روعـة الفنان أمام آية من آيات الفن، أو نشوة العالم أمام معجزة من معجزات العلم!. لقد بهرنى آزاد بشخصيته، وملأنى إعجابا بروحه المشرقة، ونفسه الصافية، التى استطاع بها فى لحظات، أن يتخطى موازين الزمن، فيجعلنى آنس إليـه أنس الصديق الودود بصديق امتد حبل صداقته عشرات السنين!

وانتهت هذه اللقاء، وما شفيت من آزاد غليلا . . بل لقد اشتد ظمئى إليه، وازداد شوقى إلى معرفة الكثير من أنبائه وأحواله . . وكذلك تطفى غلة الظامى، إذا لاح لعينيه نبع صاف رقراق . . وعزمت منذ ذلك اللقاء، عـلى أن أصل الرجل بقلبى وعقلى، وأن أقرأ له، وعنه، فى أوسع الحدود، إذ كان مبلغ علمى به إلى هذه اللحظة، شيئا قليلًا، بالاضافة إلى ما عنده من خير كثير، فى علوم الدين والدنيا . . فان الغرب قد شغلنا بتقدمه العلمى والصناعى، عن أمجادنا وعن رجالنا، حتى يكاد يصرفنا جميعا، عن كل ما عندنا من خير فى القديم والحـديث. ولكن صحوة الشرق اليـوم، جديرة أن تخلق فينا وعيا جديدا، يفتح قلوبنا وعقولنا عـلى ما بين أيدينا من خير كثير، فى ماضينا وحاضرنا، وأنه لايجـدى علينا وأقعد لنا، ما نأخذ عن الغرب بطريق الاستعارة والتقليد.

ولقد فارقت الرجل، وأنا على هذا الشعور، وبتلك النية، ولكن زحمة الحياة من حول الرجل، وشواغلها من حولى قد قصرت من جهدى فى هذا المدى، فما استطعت أن أتابع نشاط آزاد العلمى، ولا أن أتناول قدراً مناسباً من إنتاجه الفكرى. وكان أن رحل آزاد عن دنيانا هذه وأخلى مكانه منها. وسكن تدافع الحياة من حوله فأصبحت الفرصة ممكنة لأن يرى آزاد على حقيقته، وأن تتكشف جوانب عظمته للباحثين والدارسين، بعد أن انزاح غبار المعركة الدائرة بينه وبين الحياة..

لقد كان آزاد فى حياته حركة منطلقة لا تعرف السكون..كان أشبه بالشهاب يخترق الفضاء فى سرعة مذهلة، لا يرى منه إلا هـذا الضوء الخاطف..وأما ماوراء هذا الضوء فهيهات أن تدركه الأبصار أو تبلغ مداه الظنون.

— ٢ —

قلت: إن حظى من آزاد فى مماته أكثر من حظى منه فى حياته..فقد مات آزاد وهو فى كل خطرة من نفسى، وفى كل خالجة من شعورى..

لقـد كان وهو حى يملأ مجـالات ما كنا نحس بفراغ فيها..حتى إذا مات وجفت هـذه الموارد الغزيرة التى كان يتدفق بها قلم آزاد وينطق بها لسانه— شعرنا بهول الفاجعة، وأحسسنا المصيبة فى هذه النعمة التى انتزعها القـدر منا، وأصبحنا نتلفت إلى مكانه فى كل حدث يقع، وفى كل عظيمة تظهر..

إن شأن الناس فى دنيانا هـذه، ألا يعرفوا قيمة ما بأيديهم من نعم، فاذا خلت أيديهم منها، بأن لهم قـدرها وعظم فى أعينهم فضلها، وطالت حسرتهم عليها، وكثر حدهم لها.

لقد كان آزاد — كما كان كثير من رجالات الهند في قديمها وحديثها — نعمة من نعم الله على الانسانية، يبشر بالحق ويدعو إلى المحبة، ويهدى إلى الخير.. كان صاحب رسالة إنسانية، علوية المقاصد نبيلة الغايات.. حملها في قلبه، ونشأها في ضميره، وزكاها بعقله فأخصبت بها نفسه، وتفتحت لها مشاعره، وأصبح كل رأى أصيل أو مبدأ طيب يتصل بهذه النفس، ويلتقى بهذا الوجدان، يبدو على سمائها الصافية مشرقاً وضيئا ينير للناس مسالك الخير، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الهدى.

وإذا كان الماء يتلون بلون الاناء الذى يحل فيه، فان المبادئ والمثل تظهر في لون النفس التى تمتلىء بها.. استقامة أو عوجا، وخيرا أو شرا.. إن العلم تحصله النفس الفاضلة، فاذا هو رحمـــة راحمة بالناس، وخير متصل ينال منه القريب والبعيد عـــلى السواء.. والعلم نفسه تحصله نفس شريرة، فاذا هو رجوم ترمى الناس بالضلال، وتسوقهم إلى مواطن الزلل والفساد.. والحبة تلقى في أرض طيبة فتصبح شجرة مظلة مثمرة، وتلقى في الأرض السبخة فتأكلها كما يأكل الصدأ الحديد. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها، وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ...»

— ٣ —

كان آزاد صاحب نفس لا يحوم في سمائها إلا الخير، ولا يتردد في جنباتها إلا أناشيد السلام والمحبة.. فاذا اتصل بها الحق أضاء وأشرق، وإذا اتصل بها

الخير نما وزعرع.. وفى ذلك يقول القرآن: «والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا».

لقد كان من حظ آزاد أن كانت مكة مولده، وكانت الهند موطنه، وكان الاسلام دينه.. فى البلد الأمين.. مكة.. ولد آزاد حيث كان والداه يقيمان فيها، ويلتمسان البركة من مطالع النبوة فى سمائها القدسى، وأرضها الطهور.. وليس ببعيد أن تكون نفحة من نفحات السما. قد لمست روحه، وسكنت قلبه.. فان المواطن الطيبة ترجى فى رحابها رحمة الله، ويلتمس فيها رضوانه.

وفى الهند عاش آزاد حياته.. والهند موطن الانطلاق الروحى من كثافة المادة والتجرد النفسى من شهوات الحياة.. تزكو فيها الاستعدادات الطيبة، وتتفتح الملكات الموهوبة، وتعمق الخواطر الفاحصة المتأملة.

ودين الاسلام، الذى اعتقده آزاد، دين إنسانى يعلو بالانسانية فوق الأحساب والألوان والأجناس. يولد فيه الانسان مجرداً من كل صفة ترفعه على غيره، وتقدمه على سواه. مبرأ من كل نقيصة تحط من قدره أو تنزل من مكانته.. فليس فى شريعة الاسلام ما يرفع الانسان أو يخفضه إلا عمله وما اتصف به هذا العمل من صفات الخير أو الشر.

وحين التقت فى آزاد تعاليم الاسلام، صادفت مكانا كريما، وموطنا طيبا.. فلم تلبث هذه التعاليم أن اشتملت على كيانه كله. فكانت عقله الذى يفكر، وقلبه الذى ينبض، ووجدانه الذى يحس، فلم يجد مشقة فى رعاية أحكام الدين ولم يتكلف شيئا للاستقامة على طريق الاسلام وانتهاج مناهجه... فما كان الدين إلا تعبيرا عن خلجات هذه الفطرة السليمة، وترجمانا لما تنطوى عليه من خير..

ولو لم يكن آزاد صاحب دين لكان صاحب خلق يعيش به فى الناس بعيدا

عن مواطن الزيغ والضلال.

وتظهر عظمة آزاد، وبتجلى إيمانه الوثيق بالله، وفهمه الصحيح للاسلام، حين قدمه الانجليز للمحاكمة بتهمة التحريض على الثورة، وجمعوا لذلك أدلة الاتهام من خطبتين كان قد ألقاهما فى مدينة كلكتا، يدعو المسلمين خاصة والهنود عامة إلى العصيان المدنى.

كان ذلك فى أواخر سنة ١٩٢٢، وآزاد فى بقية من شباب يحرص المرء عليها أشد الحرص، ويضن بها أن تذهب فى مجال الحياة الجافية المظلمة.. إن المرء فى هذه المرحلة من العمر يقف وقفة المشفق على شبابه المتأهب للرحيل، الخائف من شبح الشيخوخة المقبلة.. فهو من هذا ومن تلك مقبل على متعه، مشغول بنفسه.

ولو وقف آزاد هذا الموقف قبل ذلك بسنوات، لقلنا إنها فورة الشباب وثورة الصبا: تدعوه إلى المغامرة وتحمله على التهور..

ولو وقف آزاد هذا الموقف بعد ذلك بسنوات، لقلنا إنه يأس الشيخوخة ومرارة الهرم: حملته على أن يخرج من الحياة من هذا الباب فى صورة بطل من أبطال التاريخ!

ولكن شاء القدر أن يتخير لآزاد هذا الموقف بالذات، فى الوقت الذى يقف فيه إحدى قدميه فى دنيا الشباب والأخرى فى طريقها إلى عالم الهرم.. أراد القدر ذلك ليثبت فى سجل الانسانية آية من آيات السمو البشرى، ومثلا من أمثلة الانسانية الرفيعة فى الايمان بالحق، والقيام فى وجه الظالمين الطغاة.. على حين اشتدت نوازع النفس وقويت رغبتها فى الحياة، وفى وقت استفحل فيه يأس الظالمين وجن جنونهم بالانتقام والتنكيل!

وهكذا التقى آزاد وحيدا إلا من إيمانه، أعزل إلا من روحه.. التقى بالامبراطورية الانجليزية كلها، بما كان لها إذ ذاك من قـوة متحكمة فى العالم، متسلطة على الشرق والغرب.. وما كان لها من رهبة مخيفة مفزعة تطوف على الناس بالاستكانة إليها واليأس من الخلاص منها. التقى آزاد بهذه الامبراطورية جبينا فى قفص الاتهام.. يواجه قضاة لا يطمع منهم فى رحمة، ولا ينتظر من جهتهم إلا ما ينتظر الحمل الوديع من مخالب الأسد.!

وتدور المعركة فى ساحة المحكمة. فيشهد التاريخ أعنف معركة وأعجبها.. يسجل فيها آزاد نصرا حاسما للانسانية، به يتقرر مصيرها، ويتحـدد موقفها لأجيال عديدة مقبلة.

ويدع الموقف لآزاد يتلو علينا فيه من آياته ما تعنو له جباه الجبابرة، وتستخذى له قوى البغى وأبالسة الشر فى كل مكان، على قدر ما تشتد به عزائم الرجال وتقوى به نفوس المؤمنين.

استقبل آزاد المحكمة ثابت الجأش، ساكن النفس، كأنما يسعى إلى موعـد حبيب إليه مألوف عنده، وساد المحكمة سكون رهيب.. قطعه آزاد بقوله:

« أيها القضاة! إنى كنت عازما على ألا أقدم إلى المحكمة بيانا ما، لأنها مكان لا رجاء لنا فيه، ولا طلب منه، ولا شكوى إليه، وإنما هى كمنعرج الطريق إلى المنزل، لا بد من قطعه للسابل، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا، وإلا لدخلنا السجن توا ».

فهو إنما يستعجل الطريق إلى السجن، أو الموت. لأن السجن أو الموت أحب إلى نفسه من أن يعيش طليقا فى وطن يتحكم فيـه الظالمون، ويستبد به الطغاة..

ثم يقول :

« إنى إذ أتدبر التاريخ العظيم لهــذا الموقف، وأرانى قد شرفت بالوقوف فيه، تسبح روحى بحمد الله، ويلهج لسانى بشكره من غير قصد منى، وهو وحده يعلم ما أجده من الفرح والابتهاج، إذ أحسبنى فى هذا القفص محسودا للملوك والسلاطين العظام.. فأين لهم فى قصورهم المريحــة، تلك المسرة والراحة التى يرقص لها قلبى فى صدرى!.. إنى أقول حقا: إنه لو أدركها الناس لتمنوا المثول فى هذا المكان ولنذروا النذور لأجله! »

ويقول :

« إنى كنت عازما عــلى السكوت فى المحكمة، ولما أحضرت إليها، ورأيت الحكومة تقدم فى إثبات جريمتى الخطبتين اللتين ألقيتا فى مجامع كلكتا، وهما لاتحتويان على جميع الأمور التى مازلت أكررها فى جميع خطبى ورسائلى ومقالاتى التى إن قدمت كانت أنفع لقصدها — علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة المستند الذى يعتبر فى هـذه الأيام كافيا لانزال العقاب، مع شدة رغبتها وحرصها عـلى سجنى.. فغيرت قصدى وقلت: إن العلة التى كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له وأردت أن أثبت بلسانى الأمر الذى لا تستطيع الحكومة إثباته.... »

أرأيتم متهما يقيم الدليل على تهمته، ويمهد للقاضى سبيل الحكم عليه؟ ولكن هكذا تكون مواقف الرجال فى ملاقاة الأهوال والمحن!

ثم يمضى آزاد يؤكد للمحكمة فى صراحة صريحــة ثبوت التهمة الموجهة عليه

فيقول:

« إن كانت هذه التصريحات جناية فانى معترف بأن قلبى قد اشتغل بها، ولسانى نطق بها، وأنا الذى صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس.. بل إنى لأجدنى الآن مدفوعا إلى التصريح بها أمام المحكمة، ولا أزال قائلا بها مادام لسانى بين أسنانى، وروحى فى جثمانى — وإن لم أفعل ذلك أكن ظالما لنفسى، وعاصيا عند الله، وعند الناس أجمعين ».

وهكذا يرى آزاد أن السكوت عن المنكر ظلم للنفس، وعصيان لله، وعقوق للانسانية.. إنه مطالب أمام عقيدته الدينية وأمام ضميره الانسانى، أن يدفع هذا الظلم بكل ما يستطيع، وما دامت القوة المادية غير مستطاعة له الآن، فلا أقل من أن يلعن الظالمين بلسانه ويفضح آثامهم على أعين الناس!

ويصرخ آزاد فى وجه قضاته:

« إنى مسلم.. ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وأقبحه، وأشهر مساويه.. إن الاسلام بمجرد ظهوره أعلن أن الحق ليس بالقوة. ولا هو القوة، بل الحق هو الحق، وأنه ليس لأحد من البشر أن يعبد عباد الله ويذلهم ويسخرهم.. الناس كلهم متساوون فى الانسانية، متساوون فى الحق، متساوون فى الحياة، وليس اللون والجنس والنسل معيارا للفضل والحسب، وإنما معياره العمل وحده، فأعلاهم قدرا، وأكرمهم حسبا، أحسنهم عملا، وأتقاهم لله.. إن الاسلام أعلن حقوق الانسان قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرنا.. ولعمرى إن مطالبة المسلم بأن يسكت عن الحق ولا يسمى الظلم ظلما، مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الانسانية. فان كنتم لا ترون لأنفسكم

أن تطالبوا أحـــدا بأن يرتد عن دينه، فليس لكم أن تطالبوا مسلما بأن يمتنع عن قوله للظالم إنه ظالم».

كذلك كان آزاد.. إنه لم يكن محترف سياسة، يتحول بها مع الأحوال ويتقلب مع مقتضيات الظروف، ولكنـه صاحب دين، وليس لصاحب الد أن يقبل المساومة فى دينه، والتنازل عن شىء من عقيدته.. إنها كل لا يتجزأ. فاما الحق، وإما الباطل.. وفى سبيل الحق يحتمل المسلم فى إيمـان وصـــبر ك ما يعرض له من فتنة وبلاء..

ثم يقول آزاد:

« الاسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق.. وقد ابيضت عين الدهر ولم تر مثل هـذه التضحيات الكثيرة فى إعلاء كلمة الحق التى قدمتها الأمة الاسلاميـة فى كل دور من حياتها.. ألا! فلتعلم الحكومة الانجليزية: أن المسلم الذى أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ويتغلغل فى لجج الدواهى والكوارث ولا يقبل السكوت عن الحق، لا يخيفـه قانون العقوبات الاستعمارى، ولا يرده عن دينه وأداء فريضته.

إنى أقول حقا: إنه لا يؤلمنى أن أرى الحكومة عازمة «عـــلى معاقبتى وأنها لا تحاكمنى إلا لأن تزجنى فى السجون، إذ هـــذا أمر لا بد منه.. وإنما الذى يؤلمنى فيفتت كبدى، هو أن أرى الحالة تنقلب انقلابا تاما، فبدلا من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجـــة والقول الحق، يطلب منه السكوت عنه وكتمان الشهادة، وألا يقول للظالم إنك ظالم، لأن قانون المستعمرات يعاقب عليه»!

وفى ختام هذا المشهد الرائع العجيب، يلتفت آزاد إلى أولئك الذين غرر بهم المستعمر من أبناء الهند ليقيموا الدليل على إدانته، فيقيم لهم العذر، ويطلب لهم المغفرة، ويوجه إليهم الخطاب قائلا :

« أصحابى.. ثقوا بأنى لا أغضب ولا أحقد عليكم، بل لا أتهمكم بالكذب والزور على. لأن كل ما قلتموه فى الشهادة حق وصدق، ولكنى أراكم قد عصيتم الله ربكم بمساعدة الحكومة الانجليزية فى استبدادها وظلمها ومحاربتها للاسلام والانسانية.. إنى أعلم أن صوت الضمير يوبخكم فى أعماق سرائركم على ما تعملونه، ولكنكم إنما اضطررتم إليه اضطرارا، لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم وترزقون به أهليكم. وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء فى سبيل الحق.. فلذا لا أحنق عليكم، ولا أعذلكم بل أعفو عنكم. وأستغفر الله لكم. »

إن آزاد يعرف الضعف الانسانى الذى يتسلط على بعض الناس.. إ[نه] لا يطلب من الحياة أن ترتفع بالناس جميعا إلى هذا المستوى الكريم الذى ارتفع إليه فى التضحية والاحتمال.. فهو يعذر ويغفر، ومن ثم، فان صلاته بالضال[ين] من مواطنيه تظل قائمة، يعالجها بحكمة، ويداويها بتسامحه.

وقبل أن يسدل الستار على هذه المأساة التى يمثلها الاستعمار على مسر[ح] القضاء، ويلبسها ثوب العدل والحق — يوجه آزاد حديثه إلى القاضى فيقول :

« وأنت أيها القاضى ماذا عسى أن أقول لك ؟ إن أقول إلا ما قاله المؤمنون قبلى فى مثل موقفى هذا (فاقض ما أنت قاض.. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا).. أيها القاضى لقد طال الحديث، وآن أوان الوداع، فليودع كل منا صاحبه. إن ما يدور الآن بيننا، سيسجله التاريخ فى سجله، ليعتبر به المعتبرون.. لقد اشتركنا فى ترتيبه

على سواء .. أنا من هـذا القفص للجناة ، وأنت من ذاك الكرسى للقضاء .. فهلم بنا نفرغ من هذا العمل .. لنسرع فى المجىء إليك ولتسرع أنت فى القضاء علينا ، فان هـذا العمل لا يطول قليلا حتى يفتح باب محكمة أخرى ، محكمة قانونـ الله الحق .. الزمان يقضى فيها ، ويكون قضاؤه حقا وحكمه نافذا ..

ذلك هو آزاد المسلم ، الذى تمكن الاسلام من قلبـه ، فخاض لجج الأهوال وتقحم سبل المهالك ، دون أن تتعثر خطاه ، أو يتحرف عن غايته .. إن الاسلام دين الوحدانية المطلقة التى رفعت بصر الانسان خالصا لله ، لا يلتفت إلى سواه .. فمن آمن بهـذا الدين فليرفع رأسه ، وليقل كلمة الحق لأنها كلمة الله . وقد وقف آزاد الموقف الذى يدعوه إليه دينه ، ويهتف به وجدانه .

ومن هنا ، ندرك سر هذه الرابطة القوية الوثيقة ، وهذا الالف المتين الذى جمع بين آزاد والزعيم العظيم غاندى .. إنهما يؤمنـان بالحق ويبشران به ، وإن اختلفا دينا ومعتقدا .

لقد كان آزاد مسلما عريقا فى دينه ، وكان غاندى هندوسيا عريقا فى دينه ، عظيما فى قومه .. وكانت الخلافات الطائفية جديرة أن تباعد بين الرجلين ، وأن تفسد الحياة بين هاتين الطائفتين الكبيرتين فى الهند ، إذ كان الاستعمار — طوال أربعة قرون — يغذى هذه الخلافات وينميها ، ويمد نارها بوقود جديد ، كلما هم زعماء الهند باطفائها .

ولكن فهمهما للدين وإدراكهما لسلطانه ، قد جمع بينهما على كلمة سواء .. فجعل من المسلمين والهندوسيين قوة واحدة فى وجـه الاستعمار ، وبهذه القوة هزمت الهند بريطانيا ، فأجلتها عن أرض الوطنـ ، وأعادت إلى أبنائه ما فقدوا من حرية وكرامة .

لم يكن الدين عند آزاد مجرد عقيدة يعيش فيها المرء كما تعيش القواقع فى أصدافها، لا ترى فى هذا الوجود إلا نفسها. ولا تحقق من معنى الحياة إلا ما يضمن لها الوجود.. ولم يكن الدين عند آزاد سلعة يتاجر بها فى سوق الكذب والرياء، لينال بها جاها عريضا، أو يصيب منها مالا كثيرا.. لم يكن الدين عند آزاد شيئا من هذا، وإنما كان الدين عنده أدبا عاليا، وخلقا كريما يمنح الناس خير ما عندهم من خير، وأكرم ما فيهم من إنسانية، حتى يجد الناس فى ظل الدين ما يجد المسافر من ظل الدوح فى يوم قائظ.

والاسلام الذى ارتضاه آزاد دينا له، هو دين يظلل الانسانية جميعها برحمته، ويجمعها جميعا إلى نسب واحد: يضم ما اختلف من ألوانها وما تفرق من شعوبها.. «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا.. إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

— ٤ —

وفهم آزاد رسالة العلم كما فهم حقيقة الدين.. فليس العلم عند آزاد ثروة يحصلها العلماء ثم يكنزونها كما يكنز البخلاء ما يجمعون من مال.. أو يبددونها فى غير طائل كما يبدد السفهاء أموالهم فى اللهو والعبث.. وإنما للعلم وظيفة كوظيفة الدين فى إنارة العقول، وتهذيب الطباع، وخلق روح إنسانى، يصل الانسان بالانسان، لخدمة الحق والخير، وكشف أسرار هذا الكون، وتسخير قوى الطبيعة لخير البشر أجمعين.

بهذا الفهم السليم لوظيفة العلم، طلب آزاد العلم وأضنى نفسه فى طلبه وأضر بصحته فى سبيله، ولكنه كان مع هذا سعيدا غاية السعادة راضيا أتم الرضا، لأنه إنما يطلب العلم بوجدان المجاهدين فى سبيل الله، وإيمان المدافعين عن كلمة

لحق، لتعلو، ولتبسط ظلها على الناس.

لهذا كان العلم عند آزاد أكبر قوة يعتمد عليها فى دعوته إلى السلام، إذ كان يرى أن للمعارف الانسانية ما للأنساب فى توثيق الصلات بين الناس، فاذا لتقى الناس فى مجال العلوم والفنون تقاربت لذلك قلوبهم، وتلاقت أفكارهم، أنس بعض إلى بعض كما يأنس الصديق إلى صديقه!

فى ظل الروابط العلميــة يمكن أن يلتقى الناس ويتآلفوا، ويمكن أن تقوم حــدة إنسانية شاملة، تجمع الناس إلى الاخاء والمحبة.. يقول آزاد فى حفل فتتاح أول مؤتمر لمجلس الهند للروابط الثقافية:

« هذا التعاون الثقافى ضرورى من وجهة النظر الأممية كذلك.. فاننا إن تمكنا من إنشاء كتل كبيرة على أساس الصداقة وحسن النية، زالت أسباب الارتياب والتنافر من بين الشعوب، وقدرنا على تنمية التفاهم وتدعيم السلام العالمى. وقد أثبتت التجارب أن الروابط الثقافية تعمل فى توحيد الشعوب أكثر مما يعمل الاتحاد السياسى، لأن الاتحاد السياسى قوامه النفع الذاتى، بينما العلاقات الثقافية تأتى بالتفاهم العام..»

— ٥ —

وإذن، فقد كانت تعاليم الاسلام ومقررات العلم ركائز فى قلب آزاد: تقوم عليها فى نفسه معانى الحب، وتشتد بها نوازع الخــير. فما أضمر آزاد فى حياته عداوة لأحد، ولا شغل نفسه بالتفكير فى الاضرار بانسان، ولو كان لانسان شرا محضا، وبلاء خالصا كاولئك الانجليز الذين استعبدوا قومه واستباحوا حرمات وطنه.

لهذا كان آزاد أشد الناس إيمانا بالحركة التحريرية التى تزعمها غاندى، والتى تعد حركة فريدة فى تاريخ الحياة البشرية، سواء أ كان ذلك فى أسلوبها أم فى النتيجة التى انتهت إليها.

لقد أعلن غاندى الحرب على الانجليز، ولكنها حرب سلبيـة لا يلق الهنود الانجليز فيها بسلاح، وإنما يلقونهم بالمقاطعـة المادية والأدبية، فلا يلبسون مما تنتج مصانع إنجلترا، ولا يأكلون مما تصدر إنجلترا، ولا يلقون أحـدا من الانجليز بالمودة فى أى مجال يتصلون بهم فيه.

ولم يكن أحد يقدر أن هذه الحركة ستفعل ما لم تفعله القذائف المدمرة.. ولكنها كانت ضربة قاصمة للاستعمار، زلزلت كيان المستعمرين وأجلتهم عن أرض الوطن.

هكذا يؤمن آزاد — كما كان يؤمن غاندى — بالخير، وإن الخـير لا يلد إلا خيرا، كما إن الشر لا يلد إلا شرا.

وبالخير وبالحق انتصرت الهند.. وعلى الخير والحق تعيش اليوم أمة الهند، وتقيم دولتها على دعائم المحبة والأمن والسلام.!

وحين تفقد الهنـد رجلا من رجالها كآزاد، فانما تفقد معها الانسانية قوة من قوى الخـير، وصوتا من أصوات الحق، فى وقت تبدو فيه الانسانيـة أشد ما تكون حاجة إلى دعاة الخير والحق.

ولكن عزاء الهند وعزاء الانسانية جميعها فى آزاد، أنه ترك وراءه ثروة طائلة من نتاج الفكر الحر والقلب السليم، ستكون دروسا نافعة لاذاعة الحرية والخير فى دنيا الناس.

ثم إن فى سيرة آزاد قدوة صالحة لأبناء هـذا الجيل والأجيال القادمة،

لا شك أن كثيرا من الناس فى الهند وفى غيرها من المسلمين وغير المسلمين سينتفعو بها ويتخرجون على هديها.

فاذا غربت شمس آزاد فى مرآى العين، فانها ستشرق فى نفوس كثيرة ع مدى الأجيال. وإذا انطوت هذه الصفحة المشرقة من سفر الحياة، فانها ستحا مكانها المهيأ لها فى سفر الخلود وسيأخذ صاحبها مكانه فى الخالدين.

وإذا رددت شبه القارة الهندية ذكرى فلاسفتها وزعمائها، وذكرت طاغور وغاندى، وإقبال، وآزاد فانها فى مقام الذكرى ستنظر بعين الأمل إلى الأبطاا المرتقبين من أبنائها الأحياء ليأخذوا مكان طاغور، وغاندى، وإقبال، وآزاد. فان الهند ولود لأبطال الانسانية وعظمائها.

رحم الله آزاد، ونفع بذكراه، وعوض الهند والعالم عن فقده!!!

«حياتي»

للفقيد مولانا أبو الكلام آزاد

تعريب عامر الأنصاري

أراد مولانا آزاد صديقنا أن يتحدث عن عشر سنوات (١٩٣٧ — ٤٧) من حياته، وهي الفترة التي شاهدت الهند تنال الاستقلال.

وقصد مولانا آزاد أن يباحث في أحداث وحركات هذه الفترة خطيرة الشأن، وعلى أساس هذه المباحثات كانت المسودة تعد باللغة الانجليزية ليتدبرها بنفسه فيستصوبها.

وود في أول الأمر أن لا يذكر فيها شيئاً يتعلق بحياته الشخصية، لكنه ازداد اهتماماً بالمشروع كلما تقدمت عملية إعداد الكتاب، ورضي أن يكتب سيرة كاملة لحياته في تلك المجلدات، ويكون الكتاب المرسوم بالبقية صديقنا جزءاً ثانياً من هذه الثلاثة. وتم تسويد الجزء الثاني قبل وفاته واستصوبه في حياته، ويطبع الآن مستقلاً بعنوان «الهند تفوز بالحرية». وهكذا أعد ملخص موجز من الجزء الأول وأضيف إلى الجزء الثاني في حياته بعد موافقته عليه، وفاجأته المنية وأوقفت العمل عن التقدم، فلم يكتب الجزء الأول والثالث.

ومن دواعي الافتخار أن تنشر مجلة ثقافة الهند باللغة العربية في عددها الحالي وفي أعدادها التالية ما وصفه مولانا آزاد من نيل الهند الاستقلال وصفاً شخصياً.

٢

قدم أجدادي من الهرات إلى الهند أيام الامبراطور «بابر». واستقروا أولا في «آجره» ثم انتقلوا منها إلى دلهي. وكانت الأسرة في عصر الامبراطور «أكبر» أسرة علمية، واشتهر منها مولانا «جمال الدين» كعالم تقي. لكن الأسرة أخذت تزداد بعده ميلا إلى الشؤون الدنيوية وشغل عدة أعضاء الأسرة، الوظائف الحكومية المدنية. وعين «محمد هادي حسن» منهم أيام الامبراطور «شاهجهان»، حاكما على قلعة «آجره».

وكان جد والد أمى مولانا «منور الدين»، آخر من شغل وظيفة «ركن الدين»، أنشئت هذه الوظيفة فى عهد الامبراطور «شاهجهان». وكان الغرض منها مراقبة لنشاط الحكومى بشأن ترقية العلوم والآداب. والمعهود إلى الفائز بهذه الوظيفة، ن يدير شؤونا تتعلق بمنحات الضيعة، والأوقاف، ومعاشات العلماء والأساتذة لمتقاعدين. ويمكننا أن نعتبره فى العالم الحاضر كدير للتعليم. وكانت السلطـة لمغولية إلى ذاك الحين قد أخذت فى الانهيار أللهم إلا المناصب العليا فانها ا زالت باقية كالسابق.

وتوفى جدى، ولا يزال والدى مولانا «خير الدين» حديث السن، فرباه الد أمه. وقبل أن تقوم الثورة بسنتين انزعج والدى من الظروف السائدة ى الهند، واعتزم على الهاجرة إلى مكة المكرمة، ولما بلغ مدينة «بهوپال» وقفته واليتها «سكندر جهان بيگم»، ونشبت الثورة وهو فى «بهوپال» لم يتمكن من مغادرتها حتى عامين، ثم جاء إلى بومبائى، لكن لم يستطع الوصول لى مكة المكرمة حيث فاجأته المنية قبل رحلته.

وكان والدى حينذاك فى ٢٥ من عمره، وذهب إلى مكة المكرمة واستقر منالك، وبنى لنفسه دارا، واقترن مع كريمة الشيخ محمد ظاهر الوطرى. وكان لشيخ أحد العلماء الكبار فى المدينة المنورة ممن ذاع صيته إلى خارج الجزيرة لعربية. واشتهر والدى فى العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه، عندما نشر ى مصر مؤلفه باللغة العربية فى عشرة مجلدات. وعاد إلى بومبائى عدة مرات رجع مرة إلى كلكتا. وأصبح فى كلتا المدينتين عدد كبير من أتباعه ومقدريه، وقام بجولة كبيرة مستوعبة فى كل من العراق وسوريا وتركيا.

وكان «نهر زبيدة» فى مكة المكرمة منبعا رئيسيا للمياه المشروبة حفرته لسيدة زبيدة قرينة الخليفة هارون الرشيد، لكنه أصبح فى أسوء حال بمرور

الزمن، وكادت المدينة أن تفقد المياه التي ازدادت عزة عليها في موسم الحج. وكان الحجيج يعانون متاعب جمة، فقام والدي بتصليح هذا النهر. وجمع لهذا الغرض مليوني روبية من الهند، ومصر وسوريا، وتركيا. وشيد النهر تشييدا لم يجد البدو بعد ذلك فرصة لتدميره. وكان العصر عصر السلطان «عبد المجيد» إمبراطور «تركيا»، فقدر خدمات والدي ومنحه أعلى الأوسمة المجيدية.

ولدت في مكة المكرمة سنة ١٨٨٨م.، وعاد والدي في العام ١٨٩٠م. إلى كلكتا مع جميع أسرته. وكان الداعي إلى رحلته أن سقط مرة في جدة وكسر قصبة رجله، التي لم تتمكن في محلها اللائق. فأشاروا عليه بأن أطباء كلكتا يستطيعون إصلاحه. وكان عازما حين بلوغه الهند على أن لا يمكث هنا إلا لفترة قصيرة، لكن أتباعه ومقدريه ألحوا عليه ولم يدعوه يعود إلى مكة المكرمة. وتوفيت والدتي بعد قدومنا إلى «كلكتا» بسنة ودفنت في ترابها.

وكان والدي من المؤمنين بالتقاليد القديمة. ولم يقل قط بالتعليم الغربي. فلم يخطر بباله أن يدربني تدريبا حديثا أو يعلمني على نمط جديد. واعتقد بأن التعليم الجديد سيقضي على العقيدة الدينية. ومن أجل هذا اهتم بتعليمي وفق ما اقتضته الطرق التقليدية المعهودة.

وكان منهاج التعليم القديم السائد بين مسلمي الهند، أن يتعلم الأطفال أولا اللغة العربية والفارسية، وعقب حصولهم على إلمام ما بهاتين اللغتين يتعلمون الفلسفة والحساب، والأقليدس والجبر. وكل هذه العلوم باللغة العربية. وكان لهم بجانب ذلك منهاج لدراسة الدين الاسلامي، يعتبر جزءا أساسيا لهذا التعليم. واعتنى والدي بتعليمي في داره، ولم ير أن يرسلني إلى أية مدرسة. ولا شك أنه كانت هناك «مدرسة كلكتا» لكن والدي لم يطمئن إليها اطمئنانا ما. وعلمني بنفسه في بداية الأمر، ثم عين عدة المدرسين لتدريس العلوم المختلفة.

وحرص دائما على أن أتلقى كل فن من أستاذه الاخصائى.

ومن المعتاد أن يتخرج الطلبة فى العلوم المتداولة، طبقا لمنهاج التعليم القديم، وأعمارهم تتراوح بين ٢٠ و ٢٥ سنة. وهذا بشمول الفترة التى يدرس فيها المتخرج الشاب الطلاب ليؤكد من حذقه وبراعته فى العلوم التى تلقاها. وكنت فى السادس عشر من عمرى حين انتهيت من دراساتى، وجمع والدى نحو ١٥ طالبا، علمتهم الفلسفة والمنطق والحساب للدرجة العالية.

ولم يمض كثير من الزمن أن اهتديت إلى مطالعة بعض مقالات «السير سيد أحمد خان»، وتأثرت بها تأثرا بالغا. وأدركت أنه ليس لأحد أن يصبح عالما بمعناه الحقيقى فى العالم الحاضر، اللهم إلا أن يدرس العلم الحديث والفلسفة والآداب الجديدة. فاعتزمت على دراسة اللغة الانجليزية، وتحدثت فى هذا الشأن إلى المولوى «محمد يوسف جعفرى» الذى كان إذ ذاك رئيس الممتحنين للدراسات الشرقية. فعلمنى الحروف الهجائية و أعطانى الكتاب الأول لـ «پيارے شند ساجر». وبمجرد أن تعلمت قليلا من اللغة الانجليزية، أخذت فى قراءة الانجيل المقدس. وإرواء لغلتى الأدبية هذه حصلت على تراجمه الأردوية والفارسية والانجليزية، وقرأتها قراءة مقارنة. وساعدتنى هذه العملية فى تفهم المتن إلى حد كبير. وشرعت هكذا فى قراءة الجرائد الانجليزية بمساعدة قاموس إنجليزى. وكان هذا خير طريق، إذ سرعان ما حصلت على معرفة أهلتنى لقراءة الكتب الانجليزية، وعكفت، بوجه خاص، على دراسة التاريخ والفلسفة.

وكانت الفترة لى فترة أزمة عقلية كبيرة، فقد ولدت فى أسرة متمسكة بالتقاليد الدينية إلى آخر حد. والتقاليد المألوفة للحياة كانت مقبولة لدى أسرتى دون أن ينحرف أحد أعضائها عن العوائد الموروثة أى انحراف. على أنى لم أقدر على الانسجام مع العادات والمعتقدات السائدة. وكان قلبى — على العكس — مفعما

بفكرة ثورية ضد هذه التقاليد. ولم تعد الأفكار الموروثة أو التربية البدائية تقنعني بها، وشعرت بحافز قوي، يدفعني إلى البحث عن الحقيقة. وأصبحت مدفوعا بهذا الحافز إلى تخطي الدائرة العائلية بحثا عن طريق خاص لنفسي.

وأول ما أثار قلقي كانت الخلافات السائدة بين مختلف طوائف المسلمين، ولا سيما مظهر هذه الاختلافات. إذ بقيت عاجزا عن إدراك الأسباب الدافعة إلى مثل هذه الاختلافات الشديدة، وخصوصا، حينما زعموا جميعهم بأنهم يستلهمون ويستوحون من منبع واحد. كما لم أستطع الانسجام مع الايمان الراسخ الذي يعتمد عليه كل طائفة في تخطئة غيرها وتكفيرها. فلم ألبث أن أثارت هذه الاختلافات الجارية بين المكاتب الرجعية، في عقلي شكوكا بالنسبة إلى الدين نفسه. فان الدين إذا كان عبارة عن الحق العالمي فما بال هذه الاختلافات والمنازعات التي تستفحل بين أتباع الديانات المختلفة؟ ولماذا تزعم كل ديانة بأنها هي المخزن الوحيد للحق والصداقة؟ ولما ذا تكذب الديانات الأخرى؟

وما زلت لثلث سنوات مضطربا حائرا، أرتاد حلا لشكوكي وافيا، حتى بلغت مرحلة انحلت فيها جميع عرى القيود التي كبلتني بها الأسرة والتربية التقليدية. وألفيت نفسي حرا من جميع العوائق التقليدية، فصممت على أن أرسم لنفسي طريقا خاصا. وكان هذا حول هذه الفترة أن اتخذت لنفسي لقب «آزاد» (الحر). وذلك رمزا إلى أني لم أعد مقيدا بالمعتقدات الموروثة. وفي نيتي أن أفصل الكلام على هذه التغيرات في الجزء الأول من سيرتي.

وكانت هي، كذلك، نفس الفترة التي أخذت فيها أفكاري السياسية في التغير. وكان «اللورد كرزن» إذ ذاك حاكما عاما على الهند. وضاعفت نزعاته السياسية والاجراءات الادارية اضطرابا سياسيا في الهند. وكانت الاضطرابات الحادثة

فى ولاية بنغال عوامل ممتازة لهذا الاضطراب، فان «اللورد كرزن» خص هذه الولاية باهتمامه، نظرا إلى أنها كانت منطقة أكثر تقدما سياسيا من المناطق الهندية الأخرى. وقد لعب الهندوس فى الوعى السياسى الهندى دورا رئيسيا. وقرر اللورد كرزن سنة ١٩٠٥ تقسيم الولاية، مطمئنا إلى أن تقسيمها سيضعف من شأن الهندوس، ويخلق الانقسام الدائم بين سكان الولاية المسلمين والهندوس، بيد أن ولاية بنغال لم تتجاهل هذه السياسة، وانفجرت فيها ثورة سياسية مع حماس غير مسبوق، وغادر «شرى أرابندو غوش» مدينة برودا إلى مدينة كلكتا ليجعلها مركزا لنشاطه، وأصبحت جريدته (كرم يوجيه) رمزا لليقظة والثورة الوطنية. وتعرفت خلال هذه الفترة على «شرى شيام سندر شكرورتى»، وكان أحد أركان الثورة البارزين لذاك اليوم. وقابلت بواسطته الثوار الآخرين. وأتذكر اجتماعى مع «شرى أرابندو غوش» مرتين أوثلاث مرات، وكان نتاجه أن تأثرت به وانجذبت إلى السياسة الثورية ودخلت فى إحدى الجماعات الثورية.

وكانت الطوائف الثوار قاطبة — فى هذه الأيام — من الطبقة المتوسطة الهندوسية. والحقيقة أن جماعات الثوار كانوا جميعا إذ ذاك من مخالفى المسلمين. ورأوا أن الحكومة البريطانية تستغل المسلمين ضد الكفاح السياسى، ويلعب المسلمون أنفسهم دوراً تختار لهم الحكومة. وأصبحت ولاية بنغال الشرقية ولاية مستقلة، وكان «بام فيلد فلر» (Bamfield Fuller) نائب الحاكم قد صرح بأن الحكومة تنظر إلى الطائفة المسلمة نظرتها إلى الزوجة المحبة، فأحس الثوار بأن المسلمين عرقلة فى سبيل الحرية الهندية، وأنه لا مناص من إزاحتهم عن الطريق كالعراقيل الأخرى.

وكان للثوار عامل آخر يبرر مقتهم المسلمين، وهو أن الوعى السياسى بين هندوس البنغال قد بلغ إلى حد أن شعرت الحكومة بأنه من العسير أن تعتمد

كليا على موظف هنـــدوسى فى قمع النشاط الثورى، فاستوردت من الولايات المتحدة عددا من الموظفين المسلمين، لاستخدامهم فى المخابرات السرية للبوليس. وأسفرت هذه العملية عن شعور هندوس البنغال بأن المسلمين كانوا ضد الحرية السياسية والطائفة الهندوسية.

وعندما عرفنى «شيام سندر شكرورتى» بالثوار الآخرين واطلع أصدقائى على أنى راغب فى الانضمام إليهم. نال منهم الاستعجاب والحيرة، وما كادوا يثقون بى فى بداية الأمر، وحاولوا لابعادى عن مجالسهم الداخلية. على أنهم أدركوا على مر الزمن بأنهم كانوا على خطأ. وظفرت أنا بنيل ثقتهم، وأخذت أبرهن لهم بأنهم مخطئون فى مزاعمهم نحو المسلمين. فهم ليسوا من حيث الجماعة أعداء لهم. وقلت لهم بأنه لا ينبغى أن يطبقوا على جميع المسلمين ما جربوه من بعض الموظفين منهم. إذ المسلمون فى مصر، وإيران، وتركيا، عاكفون على نشاط ثورى لنيل الحرية والجمهورية. ولا شك أن مسلمى الهند سيساهمون فى الكفاح السياسى، إذا وسعنا النشاط بينهم وحاولنا لاستمالتهم ومصادقتهم. وأوضحت لهم — هكذا — أن عداء المسلمين أو عدم اكتراثهم لهم — على الأقل — سيزيد الكفاح لأجل الحرية السياسية صعوبة، فلا مناص لنا إلا أن نبذل كل جهودنا لمصادقة المسلمين ولنيل الانتصار.

ولم أتمكن — أولا — من إقناع أصدقائى الثوار، بصحة تبرهنى، لكن بعضهم صدقوا وجهـــة نظرى فيما بعد. وبدأت — أثناء ذلك — نشاطى بين المسلمين، ووجدت فيهم طائفة للشباب مستعدة لاحتمال مسئولية الأعمال السياسية الجديدة. ووجـــدت الثوار، أول ما انضممت إليهم، أن نشاطهم لا يعدو ولا يتى بنغال وبهار. وينبغى لى أن أضيف هنا ان تالية الذكر كانت إذ ذاك جزءا من الأولى. فأشرت على أصدقائى بأن يوسعوا نشاطهم إلى المناطق الأخرى من

الهند. وتفادوا منه فى بداية الأمر محتجين بأن أعمالهم كانت فى طبيعتها سرية فلا يخلو من المخاطرة لو نمتد فى صلاتنا إلى الولايات الأخرى. فانه لو أنشأنا فروعا لجمعيتنا فى الولايات الأخرى ليصعب علينا أن نحتفظ بالسرية التى لا بد لنا منها للنجاح. أللهم إلا أنى ظفرت باقناعهم واسترضائهم. فنى خلال العامين منذ انضمامى إليهم أنشئت الجمعيات السرية فى عدة المدن الهامة فى الهند الشمالية وبومباى. ويمكننى هنا أن أقص على القراء قصصا كثيرة جاذبة ومدهشة تحدث عن الطريق المتخـذة لانشاء المؤسسات الجديدة، ولقبول الأعضاء الجدد فيها بيد أنى أرجو القراء أن ينتظروا ريثما يكتمل الجزء الأول من سيرتى، فيجدو فيها كل شىء باسهاب.

وتيسر لى خلال هـذه الفترة أن أقوم بجولة خارج الهند، فزرت عراق وسوريا وتركيا. ووجدت فى هذه البلاد رغبة عامة فى اللغة الفرنسية، فأنا بدورى كذلك تذوقتها وأخذت فى تعلمها، لكنى ألفيت أن اللغة الانجليزية تنتشر بسرعة هائلة وستصبح لغة دولية تسد معظم الاحتياجات.

وبودى أن أنتهز هذه الفرصة لتصحيح الخطأ الذى بدر من الفقيد «مها دبو ديسائى» ثم انتشر انتشارا، فانه وضع على أسئلة عديدة عندما ألف سيرة حياتى وطلب إلى أن أجيب على هـذه الأسئلة. فاجابة على إحداها قلت بأنى قمت بجولة فى الشرق الأوسط، وأنا عندئذ فى العشرين من سنى، ومكثت فى مصر وقتا غير قليل، على نحوما قلت، ردا على سوال آخر، بأن منهاج التعليم التقليدى لا يفى بالمقصود، لا فى الهنـد فحسب، بل فى جامعة الأزهر الشهيرة أيضا فاستنتج المؤلف بأنى سافرت إلى مصر لأدرس فى الأزهر، لكن الحقيقة الواقعية أنى لم أزد عـلى زيارة جامعة الأزهر ولم أدرس شيئا هناك. وعل السبب فى هـذا الخطأ يكون أن الرجل إذا حصل على معلومات، فلا بد من أنه التحق

بجامعة ما. ولما أدرك «مها ديو ديساى» أننى لم أنتسب أبدا إلى أية جامعة هندية، استنبط بأنى نلت – طبعا – شهادة ما من جامعة الأزهر.

وكان النظام السائد فى الأزهر عندما زرت القاهرة سنة ١٩٠٨ ناقصا غير واف، فلم يكن يثقف العقول أو يساعد على حصول معلومات وافية عن اللغة العربية الكلاسيكية القديمة. وحاول الشيخ محمد عبده لاصلاح النظام، لكن العلماء المحافظين أحبطوا جميع جهوده، وعندما قنط الشيخ من إصلاح جامعة الأزهر، أسس مدرسة جديدة فى القاهرة وسماها «دار العلوم»، وهى باقية إلى يومنا هذا. وإذا كانت الأمور فى الأزهر تجرى هذا المجرى، فما بالى أذهب إليه للدارسة.

وتوجهت من مصر إلى فرنسا وأنا عازم على الوصول إلى لندن، لكن لم يتيسر لى ذلك، إذ تلقيت نبأ مرض والدى فرجعت من باريس، ولم أتمكن من زيارة لندن إلا بعد سنوات كثيرة.

وسبق أن قلت إن نظرياتى السياسية كانت قد اتجهت إلى النشاط الثورى قبل أن أغادر كلكتا فى سنة ١٩٠٨م. وعندما وصلت إلى العراق اجتمعت مع بعض الثوار الايرانيين، على نحوما اتصلت فى مصر بأتباع «مصطفى كامل باشا»، وإلى جانب ذلك تيسر لى لقاء جماعة من الشباب الأتراك الذين أسسوا فى القاهرة مركزا، وكانوا يصدرون منها جريدة أسبوعية. وأثر قدومى إلى تركيا صادقت بعض زعماء الحركة التركية الجديدة، وواظبت على المراسلة معهم إلى عدة سنوات بعد عودتى إلى الهند.

وكانت نتيجة هذه الاتصالات بالثوار الأتراك والعرب، أن زدت تمسكا بمعتقداتى السياسية. وكانوا يستغربون المسلمين الهنود فى إهمالهم المطالبات الوطنية أو معارضتهم إياها، و رأوا أن واجب مسلمى الهند هو قيادة الكفاح الوطنى فى

سبيل الحرية، فكانوا عاجزين عن إدراك الأسباب التى تخلق من مسلمى الهند عملاء للبريطانيا. وأنا شخصيا اقتنعت أكثر من ذى قبل بأن مسلمى الهند يجب عليهم التعاون فى حرية البلاد السياسية، فلا بد من خطوات لازمة فى هذا السبيل مخافة أن تستغلهم الحكومة البريطانية. ورأيت من الواجب اللازم إنشاء حركة جديدة بين المسلمين الهنود، فزدت حماسا وقررت عزمى على الاعتناء بالأعمال السياسية بعد عودتى إلى الهند. وبعد رجوعى إلى الهند فكرت بعض الوقت فى ما يكون منهاجى للعمل فى المستقبل. وانتهيت إلى ضرورة تربية الرأى العام وتحقيقا لهذه البغية لم يكن بد من إصدار مجلة. ولا مراء فى أنه كان هناك عدد كبير من الجرائد اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية التى تصدر من الولايات المتحدة والبنجاب باللغة الأردوية، لكنها كلها منحطة المستوى لا تملك قيمة ما ولم تكن فى مظهرها أقل سخافة من محتوياتها. وتطبع كلها على المطابع الحجرية ومن أجل هذا كانت محرومة من ميزات الصحافة الحديثة. وقاصرة عن طباعة الصور. فصممت على أن مجلتى ستكون أنيقة الطباعة قوية الدعوة، وستطبع على الآلات الكاتبة منزهة عن الطباعة الحجرية. ونتيجة لهذا أسست مطبع «الهلال». وصدر منها العدد الأول فى شهر يونيو سنة ١٩١٢.

وكان صدور مجلة «الهلال» نقطة تحول فى تاريخ الصحافة الأردوية. إذ نالت فى أقل وقت إقبالا غير مسبوق. وأعجب بها الشعب، لا من ناحية طباعتها الراقية والأوراق الجيدة فحسب، بل تأثروا بدروسها الوطنية القوية التى نثرتها على صفحاتها. وخلقت «الهلال» بين عامة المسلمين حركة ثورية، وبلغ من تلهفهم عليها أن اضطررنا خلال الأشهر الثلاثة الأولى إلى طبع الأعداد السابقة مرة ثانية، فان كل مشترك رغب فى الاحتفاظ بمجلدها الكامل.

وكانت الزعامة السياسة للسلمين إذ ذاك فى أيدى جماعة «على كده»،

وكان أعضاؤها يعتبرون أنفسهم من أتباع «السير سيد أحمد خان» ويقتدونه فى سياسته. وكانت عقيدتهم الأساسية بوجوب ولاء المسلمين للتاج البريطانى، وبوجوب الحياد عن الحركة الوطنية. وما إن وجهت «الهلال» دعوة جديدة وضاعفت شهرة وانتشارا حتى شعروا بأن زعامتهم فى خطر. فقاموا يعارضون «الهلال» حتى لم يحتشم بعضهم من تهديد رئيسها بالاغتيال. وكلما خالفت «الهلال» الزعامة القديمة ازداد المسلمون إقبالا عليها. وفى خلال العامين بلغ انتشارها إلى ٢٦٠٠٠ عدداً فى كل أسبوع، الرقم الذى لم يكن به عهد للصحافة الأردوية.

واضطربت الحكومة بدورها لأجل هذا النجاح الباهر الذى ظفرت به الهلال. فطلبت ضمان ٢٠٠٠ روبية تحت قانون المطابع زاعمة أنها تضعف من لهجتها. على أنى لم أسمح لنفسى الاستسلام لمثل هذه التحرشات. وسرعان ما التهمت الحكومة الضمان، وطالبت بضمان جديد، مقداره عشرة آلاف روبية. ولم يكن أمر من سابقه. وأثناء ذلك نشبت الحرب سنة ١٩١٤ وصودرت مطبعة «الهلال» فى سنة ١٩١٥. وبعد أربعة أشهر منذ ذاك الحين أنشأت مطبعة أخرى المشتهرة باسم «مطبعة البلاغ» وأصدرت مجلة أخرى بنفس الاسم. فأيقنت الحكومة بأنها لن تتمكن من إيقاف نشاطى باستعانة قانون المطابع فقط. فالتجأت إلى قوانين الدفاع الهندية، وأجلتنى فى إبريل سنة ١٩١٦ من كلكتا. ومما يذكر أن حكومات البنجاب و دلهى والولايات المتحدة وبومباى كانت قد حظرت سابقا على الدخول فى حدودها، وذلك تحت نفس القوانين. فلم يبق لى مأوى إلا ولاية بهار، فقصدت «رانشى». وبعد ستة أشهر قبض على فى «رانشى». وما زلت معتقلا حتى اليوم الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٩١٩ حين أطلق سراح المعتقلين والمسجونين، امتثالا لامر الملك فى اليوم الأول من شهر يناير سنة ١٩٢٠، وكنت أنا أيضا أحدهم.

وكان مهاتما غاندى إذ ذاك قد ظهر على المنصة السياسية الهندية، وقدم إلى «رانشى»، وأنا يومئذ معتقل، وكانت رحلته هذه خلال أعماله التى قام بها بين فلاحى «شمبارن». فأعرب عن رغبته فى مقابلتى، بيد أن حكومة بهار لم تسمح له، ومن أجل هذا لم يتيسر لنا اللقاء قبل أن أطلق سراحى فى يناير سنة ١٩٢٠، فقابلته لأول مرة فى دلهى. وكان من المقترح أن يذهب وفد إلى نائب الملك فى الهند ليعرفه بما يضمره مسلمو الهند من إحساسات نحو الخلافة ومستقبل تركيا. واشترك غاندى فى المباحثة وأعرب عن اهتمامه وتائيده التام للمقترح، وأعلن بأنه مستعد للاشتراك مع المسلمين فى هذه القضية. فعقد فى ٢٠ من يناير سنة ١٩٢٠ اجتماع فى دلهى. وعلاوة على «غاندى» كان المستر «لكمان تلك» (Lokmanya Tilak) وغيره من زعماء المؤتمر الوطنى الذين أيدوا موقف المسلمين الهنود فى مسئلة الخلافة.

واجتمع الوفد مع النائب، وأنا أيضا وقعت على المذكرة. لكننى لم أصطحب الوفد كأحد أركانه، فانى كنت مقتنعا بأن الأوضاع قد تجاوزت نطاق المذكرات أو الوفود. وردا على المذكرة، صرح النائب بأن الحكومة ستوفر التسهيلات اللازمة إذا بعث بوفد إلى لندن لتقديم وجهة نظر المسلمين أمام الحكومة البريطانية. واعتذر النائب بوضوح أنه لا يقدر شخصيا على شىء ما بهذا الشأن.

فواجهتنا الآن مسئلة خطوة تالية، وعقد اجتماع حضره «المولوى محمد على» والمستر «شوكت على» والحكيم «أجمل خان» والمولوى «عبد البارى» من علماء الفرنجى محل (لكهنؤ). وقدم غاندى برنامجه لعدم التعاون، وقال إنه لم تعد الآن أيام الوفود والمذكرات. فلا بد لنا أن نسحب كل تائيد الحكومة، وهو طريق وحيد لاستمالة الحكومة وإرضائه للتصالح. واقترح بأن يرد جميع الألقاب الحكومية، وتقاطع المصالح القضائية والمعاهد التعليمية عن آخرها، ويستقيل

الهنود من الوظائف ويرفضوا أية مساهمة فى المجالس التشريعية الجديدة.

وبمجرد أن عرض غاندى هذا الاقتراح تذكرت أنه نفس البرنامج الذى وضعه «تالستوى» منذ سنين كثيرة. فى العام ١٩٠١ هاجم فوضوى ملك إيطاليا، فبعث «تالستوى» برسالة إلى الفوضوى كتب فيها أن طريقة العدوان لا تبيحها الأخلاق، ولا تجدى من الناحية السياسية جدوى ما. فلو قتل رجل فسيأخذ غيره محله. والحقيقة أن العنف يخلق عنفا أكبر، كما تقول أسطورة يونانية إن ٩٩٩ محاربا يتولد من دماء محارب واحد حين يقتل. فالانهماك فى الاغتيال السياسى عبارة عن غرس بذور المصائب. وأوصى تالستوى بأن خير طريق لاشلال حكومة جائرة هو رفض دفع الضرائب، والاستقالة من الوظائف، ومقاطعة المعاهد المساعدة للحكومة. وأعتقد بأن برنامجا كهذا سيرغم كل حكومة على المصالحة. وخطر ببالى أنى الآخر اقترحت برنامجا مماثلا فى مقالات الهلال.

وأعرب الآخرون عن آرائهم طبقا لبيئاتهم. فقال الحكيم أجمل خان إنه يريد وقتا لدراسة المشروع، وإنه لا يرى أن يشير على الآخرين بشىء إلا إذا اطمأن هو نفسه إلى قبول البرنامج. وقال المولوى عبد البارى إن مقترحات غاندى أثارت القضايا الأساسية، وإنه لن يظهر برأى إلا بعد التدقق والتمعن والاستخارة من الله تعالى. وقال محمد على وشوكت على إنهما يتوقفان ريثما يعلن المولوى عبدالبارى قراره. وعدئذ التفت غاندى إلى، فقلت دون احتشام وتريث بأنى قبلت البرنامج كل القبول، وإذا كان الجمهور يرغبون فى مساعدة تركيا فلا بد لهم من قبول برنامج رسمه غاندى.

وبعد بضعة أسابيع، انعقد مؤتمر الخلافة فى مدينة «ميرتهـ» وكانت هذه أول مرة أن دعا مهاتما غاندى من منصة عامة إلى برنامج عدم التعاون. ولما انتهى غاندى من خطابه، قمت أنا أخاطب الجمهور وأؤيد غاندى فى مشروعه

تأييدا مطلقا.

وفى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٠ عقد «حزب المؤتمر الوطنى» دورته الخاصة كلكتا، لينظر فى تنفيذ البرنامج الذى أعده غاندى. وقال غاندى فيه إنه مناص لنا من قبول برامج عدم التعاون إذا حرصنا على نيل «السوراج (الحرية) أو ابتغينا حل مشكلة الخلافة حلا مرضيا. وترأس الدورة «لا لاجپت راى». وكان من أهم شخصياتها المستر «سى. آر. داس». ولم يوا أحدهما على رأى الزعيم غاندى. وقام «بيبن شندر بال» (Bibin Chandra Pal) يجهر بحماس «إن مقاطعة السلع البريطانية لمن أنفذ الأسلحة لمكافحة الحكو البريطانية. على أنه لم يقتنع بالمواد الأخرى من البرنامج. لكن ووفق ع مشروع عدم التعاون بأغلبية ساحقة، وذلك رغم معارضة الزعيمين الكبيرين لاله لاجپت راى و سى. آر. داس.

وكانت الآن فترة كانت فيها جولات واسعة النطاق بغية إعداد البلاد لبرنا عدم التعاون. وقام غاندى بنفسه بجولة واسعة، وأنا كنت معه فى معظم رحلاته وكثيرا ما اصطحبنا محمدعلى وشوكت‌على فى هذه الجولات.

وعقد حزب المؤتمر الوطنى اجتماعه السنوى فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٠ ف مدينة «ناچپور» وكانت طبيعة البلاد قد تغيرت إلى ذلك الحين. فوافق المستر سى. آر. داس على برنامج عدم التعاون علنا. ومال «لاله لاجپت راى» أولا إلى المعارضة بعض الميل، لكنه ما لبث أن انضم إلينا، حينما وجد جميع مندوبى ولاية «بنجاب» يؤيدون برنامج الغاندى. وهذه الدورة التى غادر فيها المستر «جناح» الحزب نهائيا.

وقامت الحكومة تأخذ ثارها باعتقال الزعماء من أقاصى البلاد. وكنت أنا والمستر سى. آر. داس أول من ألقى القبض عليهم فى «بنغال» وسرعان ما

شاركنا المستر «سهاس شندر بوس» و «بريندر ناتير ساسمالى» معتقلين. وزج بنا فى الجناح الأوربى من المعتقل المركزى فى «على بور» الذى أصبح — طبعا — مركزا للباحثات السياسية.

وحكم على المستر سى. آر. داس بالحبس لمدة ستة أشهر. وأما أنا فامتدت محاكمتى لمـــدة طويلة، وقدر لى أخيرا جائزة الحبس لسنة كاملة. والحقيقة أنه لم يطلق سراحى حتى اليوم الأول من يناير سنة ١٩٢٣، وكان المستر «سى. آر. داس» من السابقين فى التحرر، فانتهز فرصـــة ترأس فيها المؤتمر الوطنى فى دورته المنعقدة بـ «جيا». وظهرت فى هذه الدورة اختلافات شديدة بين زعماء المؤتمر فى آرائهم. فأسس المستر «سى. آر. داس» والمستر «موتى لال نهرو» والحكيم أجمل خان «حزب سوراج» (الحرية) وجاؤا ببرنامج لدخول المجـالس الذى عارضه المتعصبون من أتباع غاندى. ومن هنا انقسم الحزب إلى الفريقين، فريق يشايع القديم بما فيـــه وفريق يشائع الحديث، ولما خرجت من السجن حاولت لمصالحة الفريقين بإجماعها على نقطة واحدة. واتهينا فى دورة خاصة للمؤتمر انعقدت فى سبتمبر سنة ١٩٢٣م إلى عقد اتفاقيـــة. وكنت إذ ذاك فى ٣٥ من عمرى، وطلب منى أن أتولى رئاسة الدورة، ويروى أنى أصغر الرجال سنا ممن انتخبوا رؤساء المؤتمر.

وبقى نشـاط المؤتمر بعد سنة ١٩٢٣ منحصرا فى أيدى «حزب السوراج» فنال أغلبية كبيرة فى جميع المجالس التشريعية تقريبا، يواصل كفاحها على الجبهة البرلمـانية. وأما رجال المؤتمر الذين لم ينضموا إلى «حزب السوراج» فواظبوا عـــلى تنفيذ برامجهم التعميرية، لكن لم يتمكنوا من نيل التائيد العام أو التفات الشعب مثل ما فاز به «حزب السوراج»، وحدث عدة أحداث لها أثر فى تطور السياسية الهندية فيما بعد، لكنى أرى أن أطلب إلى القراء أن يمكثوا للبيان المفصل

حتى يطبع الجزء الأول من سيرتى.

وفى العام ١٩٢٨ ثار حماس سياسى نتيجة لتعيين «سايمن» (Simon Commission) وقدومها إلى الهند. واتخذ المؤتمر فى ١٩٢٩ «قرار الاستقلال»، وحذر الحكومة البريطانية بأنه سيقوم بحركة شعبية إذا لم تحقق مطالباته خلال سنة واحـــدة، ورفضت بريطانيا قبـــول مطالباتنا. فأعلن المؤتمر فى ١٩٣٠ بخرق قوانين الملح، وكان كثير من الناس مرتابين فى حركة «ستيا جره»[1] المتعلقة بقوانين الملح، عند بدايتهـا. لكن ما أدهش الحكومة والشعب عندما تقوت الحركة وتوسعت، وقامت الحكومة باجراءات شديدة، وأعلنت أنها لم تعد تعترف بحزب المؤتمر الوطنى. وأمرت باعتقال رئيس المؤتمر ولجنته العاملة، فتلقينا هـذا التحدى بأن أخذ كل رئيس الحزب يعين من يخلفه حين اعتقاله. وأنا انتخبت بدورى رئيسا للحزب وانتخبت أعضاء اللجنة العاملة، وعينت قبل اعتقالى الدكتور «أنصارى» ليخلفنى. ولم يكن فى أول الأمر مستعدا لمساهمة الحركة، لكننى استطعت استرضائه وإقناعه. وتمكنا بهذا الطريق من مقاومة الحكومة ومواصلة نشاط الحركة.

وكان اعتقالى مؤسسا على خطاب ألقيته فى «ميرتہ» فظللت سجينا فى المدينة نفسها لنحو سنة ونصفها.

واستمر الكفاح لأكثر من عام فاضطر اللورد إرون (Lord Irwin) إلى إطلاق سراح «غاندى» وغيره من أعضاء اللجنـــة العاملة. واجتمعنا أولا فى إله‌آباد، ثم فى دلهى، ووقعت المعاهدة الموسومة بـ «معـاهـدة غاندى وإرون» وأعقبت المعاهدة إطلاق رجال الحزب على وجه عام، ومساهمة الحزب فى مؤتمر المائدة المستديرة، وانتدبنا المهاتما غاندى ليمثلنا كممثل وحيد، على أن المفاوضات لم تثمر شيئا، وعاد غاندى خاوى الوفاض.

[1] — كلمة هندية مصطلحة عليها الجهاد الهندى بلا سيف والاستقامة بالحق لا بالأسلحة.

وألقى القبض على غاندى مرة أخرى بعد عودته من لندن، وفاجئتنا سياسة الكبت الجديدة، وكان اللورد ولنكدن (Willingdon) نائبا جديدا للملك، وقام باجراءات شديدة ضد رجال الحزب، وأنا إذ ذاك فى دلهى وقبض على، وزج بى فى السجن لأكثر من سنة. وحدثت فى هذه الفترة أحداث كثيرة تحمل مزاياها فى تاريخ الهند السياسى، لكن أتوقع من القراء أن يتريثوا لمعرفة هذه الأحداث حتى يصدر الجزء الأول من حياتى. واتخذ فى سنة ١٩٣٥ قانون حكومة الهند (Govt. of India Act) بشأن الحكم الذاتى للولايات وحكومة فيدرالية المركز. ومن هنا تبدأ القصة التى أريد أن أقصها عليكم فى هذا الجزء.

المؤتمر الوطنى يتولى الحكم

انتصر المؤتمر الوطنى انتصارا ساحقا فى الانتخابات الأولى التى أجريت وفق لقانون الحكومة الهندية لعام ١٩٣٥ ، وحصل على أغلبية مطلقة فى خمس من الولايات الرئيسية، بينما صار أكبر حزب فى الولايات الاربعة الأخرى. ولم تبق إلا ولايتان: سنده وبنجاب، حيث لم يتيسر له من النجاح ما يستحق المقارنة.

وتظهر عظمة نجاح المؤتمر عندما نقارنه مع احتشامه الذى أبداه سابقا من اشتراكه فى الانتخابات. واستحقت الولايات الحكم الذاتى طبقا لقانون الحكومة الهندية الصادر عام ١٩٣٥ ، إلا أن هذا القانون مازال حقيقة خضراء الدمن. إذ بقيت السلطات الخاصة لاعلان حالة الطوارئ فى أيدى الحكام ، فاذا استغلها حاكم فله أن يلغى الدستور ويستعيد السيطرة كلها إلى يده.

ومن ثمة كان للديموقراطية أن تسود الولايات مادام الحكام يسمحون لها. وأما الحكومة المركزية فكان الموقف فيها أسوأ ، وكانت المساعى جارية لاحياء المبدأ الديارکی (Diarchy) أى مبدأ الحكم ذى السلطتين، وذلك بعد أن أصبح مستكرها فى الولايات، وليس أن الحكومة المركزية كانت ضعيفة الفيدرالية فحسب، وإنما كانت تسرف فى مساندة الأمراء والمصالح المعينة الأخرى، وكان المتوقع منهم على وجه العموم أن يعاضدوا الحكام البريطانيين. فلم يكن من الغرابة فى شئ إذا استنكر المؤتمر الوطنى قبول هذا النظام، ولا سيما وهو يكافح لنيل الحرية التامة لبلاده ، ومن أجل هذا رفض المؤتمر الوطنى الوضع الفيدرالى الذى اقترح به الحكومة المركزية.

ولفترة طويلة قامت اللجنة العاملة للمؤتمر الوطنى بمعارضة المشروع المقترح للولايات، وكان فيها عنصر آخر قوى المعارضة لا يوافق على الاشتراك فى الانتخابات، لكنى رأيت رأيا غير ذلك، ووثقت بأنه سيكون من الخطأ، لو قاطعنا الانتخابات، فان المؤتمر الوطنى إذا تنحى عنها فسيتسيطر على المجالس التشريعية فى المركز والولايات عناصر غير مرغوب فيها، وهم سيتحدثون باسم الشعب الهندى. وبجانب ذلك رأيت فى الانتخابات فرصة عظيمة لتربية الجمهور فى أمور أساسية من السياسة الهندية. وأخيرا اقتنعت الافكار بوجهة نظرى، وساهم المؤتمر الوطنى فى معركة الانتخابات، وكانت النتائج كما ذكرتها فى السطور السالفة.

وبرزت الآن اختلافات جديدة فى زعامة المؤتمر نفسها، وظهرت ممن اشتركوا فى الانتخابات شرذمة تعارض مرشحى الحزب ولا توافقهم على تولى زمام الحكم، واحتجوا بأن السلطات الخاصة ما دامت فى أيدى الحاكم، لن يكون الحكم الذاتى غير صورية، فان الوزارات ستطاوع الحكام فى الحكم. وإذا حاولت إنجاز الوعود التى ناشد بها المؤتمر فى الانتخابات سيحدث صراع مع الحاكم. واعتقدت هذه الشرذمة بأن واجب الحزب يقضى باجتياح الدستور من أصوله من داخل المجالس التشريعية. وأنا كنت من المعارضين فى هذه القضية الخاصة، واحتججت بأن السلطات المفوضة إلى الولايات لابد أن نفيد منها كامل الافادة، فان أدى ذلك إلى نزاع مع الحاكم فسنعالجه حسبما تقتضيه الظروف والمصالح، وأكدت بأنه لا سبيل لنا إلى إنجاز برامج المؤتمر، اللهم إلا أن نستخدم السلطة الحقيقية. فان اضطرت الوزارات لأجل قضية هامة إلى التخلى عن مناصبها فسيزيد هذا من قوة الحزب ونفوذه إلى العقول.

ولم ينتظر الحكام حتى تنتهى من المناقشة وتصل إلى قرار، فلما وجدوا المؤتمر مترددا فى تأليف الوزارة، بشوا إلى الأحزاب الاخرى التى أحرزت أكثر تأييد

فى المجالس التشريعية بعد المؤتمر، وإن لم تظفر بأغلبية. وألفت الوزارة الموقتة من خارج المؤتمر، وفى بعض الحالات دخلت فيها عناصر كانت تخالف المؤتمر. وكان المؤتمر قد عجز عن اتخاذ قرار حول قبول الحكم، فظهر فى صفوفه اختلاف الآراء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد وإنما حدث شىء أسوأ من ذلك، وهو أن وجدت العناصر الرجعية فرصة لتلافى فيها ما عانته من هزيمة فى الانتخابات العامة، وتستعيد مكانتها المركزية. ودامت مفاوضات طويلة مع نائب الملك واستمرت خلالها محاولات للتأكد من أن الحكام لا يتدخلون فى أعمال الوزارات. ولما أوضح النائب الموقف، مال نفر من أعضاء اللجنة العاملة إلى قبول المناصب، على أن المؤتمر الوطنى قد مضى فى معارضته لقانون الحكومة الهندية، وأصر على المعارضة إلى حد بعيد حتى لم يجرؤ أحد باقتراح تغيير فى السياسة، وهذا كله برغم الحاجة المتزايدة إلى اعترافه، وكان رئيس المؤتمر حينئذ المستر «جواهرلال نهرو»، وقد جهر بموقفه المعارض فتعسر عليه الآن أن يتقدم بأى اقتراح لقبول الحكم. وعند اجتماع اللجنة العاملة فى قرية «واردها» لمست فى الأعضاء إحجاما غريبا عن مواجهة الحقائق، فاقترحت بكلمات صريحة أن واجب المؤتمر أن يتقبل مقاليد الحكم. وجرت المناقشة، و وافق غاندى بعد برهة من الزمن على وجهة نظرى، و وافق المؤتمر على تاليف وزاراتها فى الولايات. ويعتبر هذا القرار حدثا تاريخيا هاما، فان المؤتمر انتهج — إلى ذلك الحين — سياسة سلبية، يرفض قبول مسئولية الحكم، فها هو المؤتمر يتخذ — لأول مرة — سياسة إيجابية نحو الادارة، ويستعد لتحمل أعباء الحكومة.

وعندئذ حدث حادث خلف أثرا سيئا بالنسبة للموقف الذى اختارته لجان الحزب فى الولايات. وهو أن المؤتمر الوطنى ترعرع كهيئة قومية تهيىء فرصة الزعامة لجميع الطوائف، فالمستر نريمن (Nariman) — مثلا — اعتبروه فى «بومباى»

زعيما لحزب المؤتمر المحلي، وكان المتوقع حين تاليف الوزارات في الولايات، أن سيطلب إلى المستر نريمن القيادة في هذا الشأن نظراً لمركزه وأعماله، لكن لم يحدث شيء مثل هذا، ولم يستحسنه «السردار بتيل وزملاءه». وكانت النتيجة أن صار المستر «بي جي خير» أول رئيس الوزراء في «بومباي». وكان المستر «نريمن» بجوسيا، والمستر «خير» هندوسيا. فشاعت بين الشعب أن التغاضي عن الاول كان مؤسسا على النزعات الطائفية. وإنه لمن العسير أن تكذب هذا الاتهام ولو لم يكن له أساس صدق. ومن الطبيعي أن اضطرب المستر نريمن لهذا القرار، ورفع المسئلة إلى لجنة الحزب العاملة، وكان المستر جواهرلال نهرو للآن رئيسة، فتوقع الكثيرون أن الرئيس سيقوم بالقسط في قضية المستر نريمن، إذ كان يعتبر منطهرا من التحيز الطائفي. وإنه لمن سوء الحظ أن النتيجة لم تظهر كالمتوقع، ومع أن المستر نهرو لم يتفق مع «السردار بتيل» في كثير من الأمور، لم يخطر بباله أن «السردار بتيل» سيتخذ قرارا على أساس الاعتبارات الطائفية. فعامل الرئيس المستر «نريمن» معاملة تكاد تخلو من العطوفة إلى حد. ورفض طلب المستر «نريمن». واستغرب المستر نريمن موقف «جواهرلال نهرو»، والتجأ إلى غاندى الذي أصغى واستمع إلى القضية بعناية. وأمر بأن يفتش شخص محائد عن اتهام «السردار بتيل»، وكان المستر نريمن بجوسيا — كما قلت — فاقترح «السردار بتيل» وأصدقائه بتفويض التفتيش إلى رجل من الطائفة المجوسية، وقد دبروا خطتهم بمزيد الحدس، وأعدوا القضية إعدادا غم الحقائق، مضافا إلى ذلك أنهم استغلوا نفوذهم بطريق مختلفة، لخاب المستر نريمن في قضيته حتى قبل أن يبدأ التفتيش.

ومهما يكون الواقع، لا يمكن القطع بأن المستر نريمن أهمل شانه، بمجرد أنه كان من الطائفة المجوسية. فشاعت أنه لم يتحقق شيء ضد «السردار بتيل» وكان كل ذلك ضربة مؤلمة للمستر «نريمن» فانخذل وانتهت منذ ذاك الحين حياته من المجتمع.

وحينما أتذكر ما عومل به المستر «نريمن» تعود بى ذاكرتى إلى المستر «سى. آر. داس» إحدى الشخصيات القوية التى أسفرت عنها حركة عدم التعاون، وتحتل شخصيته مكانة خاصة فى تاريخ كفاحنا الوطنى، وكان المستر «سى. آر. داس» رجلا نافذ البصيرة عميق الفكر، وله — فى نفس الوقت — عقل ملىء بالعمل، ينظر فى كل مسئلة نظرة رجل يدرك الحقائق، يستمد قوته من منبع إيمانه، ويصمد غير خاشع فى موقف يطمئن إلى صداقته.

وعندما بدأ غاندى حركة عدم التعاون عارض المستر «سى. آر. داس». البرنامج فى بداية الأمر. وكانت معارضته أحد العوامل التى عاقت الزعماء دون وصولهم إلى قرار نهائى فى الدورة الخاصة للمؤتمر المنعقدة فى كلكتا عام ١٩٢٠، لكنه عدل عن فكرته وانضم إلى صفوفنا بعد سنة واحدة، حينما اجتمع المؤتمر فى «ناجبور» فقبل برنامج عدم التعاون.

وكان المستر «سى. آر. داس» يمارس المحاماة فى كلكتا أربح ممارسة. وكان يعد من أنجح المحامين فى البلاد وممتازا بولعه بالتنعم، إلا أنه هجر محاماته دون تردد ما ولبس الثياب المنسوجة بالأيدى، وخاض غمار حركة المؤتمر الوطنى بكل رغبة، وخلفت شخصيته فى نفسى أثرا بالغا.

وكان المستر «سى. آر. داس» — كما قلت لكم — حظى بعقل عملى، ينظر إلى المسائل السياسية كلها نظرة عملية ومن ناحية الجدارة واللياقة، ويثق بأن الهند إن نالت حريتها عن طريق المفاوضات فمن الواجب علينا أن نستعد لاحتضانها خطوة بعد خطوة، فان الحرية لن تتحقق بغتة وفجأة حين يكون الطريق المتبع إليها هو طريق المفاوضات والمراودات، وتنبأ «المستر داس»، معتمدا على معتقده، بأن أول خطوة فى إدراك الحرية ستكون الحكم الذاتى فى الولايات، وكان مطمئنا إلى أن ممارسة السلطة — ولو كانت محدودة — ستتقدم بالهند إلى غايتها «الحرية»، وستؤهل الهنود

لاحتمال مسئوليات أكبر عندما يحين حينها، ويكفينا شاهدا على بصيرة المستر داس وحذاقة ذهنه بقانون الحكومة الهندية، فانه صدر فى سنة ١٩٣٥ بعد نحو عشر سنين كما تبصر به الفقيد.

وفى العام ١٩٢١ قام ولى عهد بريطانيا Prince of Wales بزيارة الهند، بمناسبة افتتاح مشروع الاصلاحات الذى أعده المستر مونتيجو جيمسفورد Montague Chelmsford، وقرر المؤتمر بمقاطعة جميع حفلات تقام بمناسبة استقباله. وضاق القرار — طبعا — بموقف حكومة الهند، فان نائب الملك سبق أن وثق الحكومة البريطانية بأن ولى العهد سيلقى فى الهند استقبالا حارا، فعندما بلغه قرار المؤتمر قام بكل إجراء ممكن لاحباط المقاطعة. لكن الحكومة لم تكن متنصرة فى تحقيق أهدافها، وشاهد ولى العهد الاهمال الكبير من شأنه فى كل بلدة زارها، وكان منزله الأخير مدينة «كلكتا» التى كانت إذ ذاك أهم المدن الهندية، ومع أن قاعدة الحكومة كانت انتقلت إلى دلهى لكن نائب الملك كان يقضى كل عيد الميلاد فى «كلكتا»، فأقيمت فيها حفلة خاصة ليتولى ولى العهد تدشين قاعة وكتوريا التذكارية، وأقيمت استعدادات واسعة رائعة لاستقبال ولى العهد ولم تدخر الحكومة وسعا حتى بذلك سعيا منها لانجاح زيارته «كلكتا» كل النجاح.

وكنا نحن جميعا فى المعتقل المركزى لـ «على بور»، وكان «البندت مدن موهن مالويه» يسعى وراء تحقيق تصالح بين الحكومة والمؤتمر الوطنى. فاجتمع بنائب الملك وعاد وهو مؤمن بأن الحكومة ستتنازل إلى مصالحة، لو أجمعنا على عدم مقاطعة ولى العهد فى «كلكتا»، وقدم «البندت مالويه» إلى معتقل «على بور» ليناقش المشروع معى ومع المستر «داس»، وكان المشروع مؤسسا على أن يعقد مؤتمر المائدة المستديرة لتسوية مسئلة مستقبل الهند السياسى. ولم نرد على «البندت مالويه» ردا نهائيا، إذ كنا نريد مناقشة الموضوع بيننا أولا. وانتهينا أنا والمستر «داس» إلى أنه لم تكن إلا مقاطعتنا

ولى العهد، التى ترغم الحكومة على ارتياد تسوية. فما بالنا لا نفيد من الموقف ونجتمع فى مؤتمر المائدة المستديرة. وكان من الجلى أن هذا العمل لايقودنا إلى هدفنا، لكنه سيكون — على أقل تقـدير — خطوة كبيرة ممتازة فى كفاحنا السياسى. وكان زعماء المؤتمر فى هذا الوقت قاطبة فى المعتقل، واقترحنا أنه من الواجب أن نقبل ما تعرضه علينا البريطانيا، لكننا اشترطنا فى نفس الوقت باطلاق زعماء المؤتمر عن آخرهم قبل انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة.

ولما كان من الغد وزارنا «البندت مالويه» مرة أخرى، أطلعناه على وجهة نظرنا، وطلبنا إليه كذلك أن يقابل الزعيم غاندى ويكسب موافقته، وعاد «البندت مالويه» إلى نائب الملك يخبره بكل شىء، ثم زارنا مرة أخرى فى المعتقل بعد يومين، وأنبأنا بأن حكومة الهند مستعدة لاطلاق الزعماء السياسيين عن آخرهم الذين يشتركون فى المباحثات، وهذا بشمول الأخوين (محمد على وشوكت على) وغيرهما من زعماء المؤتمر الآخرين. فأعددنا بيانا فصلنا فيه وجهات نظرنا بصراحة تامة. وأخذ «البندت مالويه» الوثيقة وتوجه إلى بومباى ليجتمع بغاندى.

وما أعجبنا وأحزننا حين بلغنا أن غاندى لم يقبل مقترحاتنا. وأصر على إطلاق جميع الزعماء السياسيين ولا سيما الأخوين أولا وبدون شرط ما. وصرح بأننا لا نستطيع النظر فى مشروع عقد مؤتمر المائدة المستديرة إلا أن يطلق سراح جميع الزعماء. ورأينا أنا والمستر «داس» أن هذه المطالبة كانت خطأ، فان الحكومة إذا وافقت على تحرير جميع زعماء المؤتمر قبل انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة فلم يكن هنا أى داع لمثل هذا الاشتراط الخاص. وعاد «البندت مالويه» إلى غاندى ينبئه بملاحظاتنا لكنه لم يوافق عليها. فكانت النتيجة أن أضرب النائب عن اقتراحه بتاتا. فان هدفه الرئيسى وراء هذه العرض لم يكن إلا أن نمتنع من مقاطعة ولى العهد فى «كلكتا»؛ وبما أنه لم يصدر بيان بشأن المحادثات أحرزت المقاطعة نجاحا

باهرا، ألهم إلا أننا فقدنا فرصة ذهبية سنحت لنا لتسوية المشاكل السياسية. ولم يحاول المستر «داس» أن يكتم عدم موافقته وما شعر به من خيبة الأمل.

ثم عقد غاندى مؤتمرا برئاسة المستر «سى سكارن» فى بومباى. وقدم فيه بنفسه اقتراحا لعقد مؤتمر المائدة المستديرة. ولم يختلف شروطه كثيرا مما سبق إلى وضعها «البندت مالويه». وكان ولى العهد قد غادر الهند فلم تعد الحكومة تعنى بالاقتراح عناية ما، أو توجه أى اهتمام إلى المقترحات الغاندية، بل رفضها رفضا باتا، مما أغضب المستر «داس» وقال إن خطأ كبيرا بدر من غاندى. ولم أتمالك أنا الآخر إلا أن أصدق قوله.

ومضى غاندى فى طريقه حتى عطل حركة عدم التعاون أثر الحادث الذى حدث فى «شورى شوراء Chouri Chaura»، وقد سبب ذلك رد الفعل الشديد فى الدوائر السياسية وأوهن عزائم البلاد. ولم تتريث الحكومة فى الافادة من الموقف، فألقت القبض على غاندى وحكمت عليه بالسجن لستة سنوات. وأفلت حركة عدم التعاون تدريجيا.

واعتاد المستر «سى. آر. داس» على مناقشة الموقف معى كل يوم تقريبا. وكان مقتنعا بأن الزعيم غاندى أخطأ خطأ جسيما فى إيقاف حركة عدم التعاون فأن إيقافها أوهن من عزائم المجاهدين السياسيين إلى حد أن سنحتاج إلى سنوات كثيرة لاثارة هذا الحماس الشعبى مرة أخرى. وبجانب ذلك، اعتقد المستر «سى. آر. داس» بأن الوسائل المباشرة التى اختارها غاندى قد باءت بالفشل ومن أجل هذا رأى المستر «داس» بوجوب اتخاذ الوسائل الأخرى لاعادة القوة المعنوية الشعبية، ولم يوافق على الترقب والتريث ريثما يتحسن الموقف مرة ثانية ومال إلى برنامج مبادل وقال إن العمل المباشر يجب أن نكف عنه فى الوقت الراهن، ونأخذ فى النضال السياسى فى داخل المجالس التشريعية.

وقاطع المؤتمر الوطنى الانتخابات الجارية سنة ١٩٢١ وذلك تحت نفوذ غاندى. وأعلن المستر «داس» بأنه يجب على المؤتمر أن يستعد للتسيطر على المجالس التشريعية فى العام ١٩٢٤، حتى يستخدمها فى تحقيق أهدافها السياسية. وكان المستر «داس» آملا فى موافقة جميع زعماء المؤتمر النشطاء على تحليله ومعالجته المشاكل. وظننت أنا أنه يسرف فى التفاؤل. اللهم إلا أنى وافقتـــه على أنه يجب عليه التشاور مع الأصدقاء بعد تحرره من الحبس فيعد برنامجا جديدا للبلاد.

وخرج المستر «داس» حين انعقاد المؤتمر فى «جيا» فانتخبته لجنة الاستقبال رئيسا، وأحس المستر داس بأنه فى وسعه الآن أن يقود البلاد وفق برنامجه. ومما شجعه كثيرا أن «الحكيم أجمل خان»، «والبنديت موتى لال نهرو»، «والسردار وتهل بهائى بتيل» اتفقوا معه فى فكرته. واقترح المستر داس فى كلمة رئاسته بأنه يرى من الواجب أن يقبل المؤتمر الوطنى برنامج دخول المجالس التشريعية، فيمضى فى كفاحه السياسى داخل المجالس. وكان الزعيم غاندى فى ذلك الوقت محبوسا، لكن قامت طائفة من المؤتمر على رأسها «شرى راج جوبال أشارى»، تعارض المستر داس، ورأت أننا إذا عدلنا عن العمل المباشر (Direct Action) وتبعنا برنامج داس، فلا بد أن تعتبره الحكومة إنكار زعامة غاندى. ولا أرى أن «راج جوبال آشارى» كان صائبا فى تعبيره، فان المستر داس لم يكن يبتغى تصالحا ما مع الحكومة، وإنما كان يستهدف توسيع الكفاح السياسى إلى حقل آخر. وأطنب الكلام شارحا غرضه، على أنه لم يظفر باقناع جميع صفوف الحزب. وخالفه «سرى راج جوبال آشارى»، والدكتور راجندر برشاد وغيرهما حتى حبط اقتراحه. وأسفرت دورة «جيا» عن الانشقاق وقدم المستر داس استقالته، وأخذت كفاءة رجال المؤتمر بأسرها تستهلك فى الكفاح الداخلى المشتعل بين الفريقين، فريق المحافظين على القديم بما فيه، وفريق يرحب بالتغيير.

وبعـــد ستة أشهر أخرى، خرجت أنا الآخر من السجن، وألفيت المؤتمر
اجـــه أزمة خطرة. وكانت النتيجة أن كل كفاءة رجال المؤتمر كانت تضيع فى
راع الداخلى بدل أن تستخدم فى الكفاح ضد بريطانيا. وقاد «المستر داس»،
والبندت موتى لال»، «والحكيم أجمل خان»، جماعة المشائعين بالحديث بينما كان
راجاجى»، «والسردار پتيل»، والدكتور «راجندر برشاد» متحدثين عن
لمحافظين. وحاول كلا الفريقين لاستمالتى إليه على أنى رفضت التحيز إلى أى معسكر.
أدركت أن الخلافات الداخلية هذه خطرة، وتكاد تؤول إلى تشتيت شمل المؤتمر
ذا لم نراقبها فى أقرب فرصة. فصممت على الابتعاد من كلا الفريقين، وحاولت
وجيه جميع اهتمام الأعضاء إلى الكفاح السياسى. ويسرنى حين أقول بأنى كنت
جحا فى مساعى، فعقدت دورة خاصة للمؤتمر فى دلهى وانتخبت أنا رئيسا بموافقة
فريقين.

وألقيت خطابى كرئيس للاجتماع وأكدت فيـــه بأن هدفنـا الحقيقى هو تحرير
بــلاد، ولا يخفى فى أننـا نواصل برنامجـا للعمل المباشر منذ ١٩١٩، وجاء هـذا
برنامج بنتائج لا يمكن التغاضى عنهـا، فاذا رأى بعضنـا الآن أن نستمر فى كفاحنا
اخل المجالس التشريعية فما بالنا نسرف فى التمسك بقرارنا السابق. ومادام الهدف
و هو فالواجب أن يبقى كل فريق حرا فى تنفيذ البرامج التى يفضلها.

وكان القرار الذى وافق عليـــه المؤتمر فى اجتماعه المعقود بدلهى، كما توقعتـــه،
تحقق أن يبقى الداعين إلى التغيير والمحافظين على القديم أحرارا فى تنفيـذ برامجهم.
بع الدكتور «راجنـــدر برشاد» و «سرى راج جوبال آشارى» وزمـلاءهما،
برامج التعميرية، بينما أسس «المستر سى. آر. داس» «والبنــدت موتى لال»
والحكيم أجمل خان» «حزب السوراج» (الحرية) وصمموا على الخوض فى معركة
لانتخابات، وخلقت حركتهم حماسا شديدا فى طول البلاد وعرضها. وانتصر

« حزب السوراج » (الحرية) فى مجالس الولايات والمركز انتصاراً كبيرا . وكا
إحدى الموانع الرئيسية للمحافظين زعمهم بأن زعامة غاندى ستضعف إذا اتبعنا براء
دخول المجالس التشريعية . وأثبتت الأحداث التالية أنهم كانوا على خطأ . واقتر
« حزب السوراج » فى المجلس المركزى مشروعا مؤداه إطلاق سراح غاندى بدو
تريث ما . لكنه تحرر قبل أن يوافق على القرار .

وسبق أن قلت أن « حزب السوراج » حصل على أتباع كثيرين فى المجالس
المركزية والولايات . ولعل أهم ما أحرزه من النجاح هو أنه ظفر بالحصول ع
مقاعد مختصة بالمسلمين . وكان العامل الكبير لهذا الانتصار تبصر « المستر داس
بالحقيقة فى السياسة كما أشرت إليه سابقا . وكان الناخبون طائفيين ، وانتخ
المصوتون المسلمون المسلمين فى المجالس . ومكن ذلك الرابطة الاسلامية uslim
League والأحزاب الطائفية الأخرى من استغلال مخاوف المسلمين ، فانتخبت — بو
عام — المرشحين المتعصبين إلى حد ما . واستطاع المستر « داس » التغلب على المخاوف
والريب التى كان مسلمو بنغال ، يشعرون بها . وأنتج ذلك أنه صار زعيما لهم
ولا شك فى أن الطريقة التى حل بها مشكلة الطائفية فى « بنغال » لما يذكر دائم
وينبغى لنا أن نتخذ منها أسوة حتى فى أيامنا هذه .

وكان المسلمون فى ولاية « بنغال » فى أكثرية ، على أنهم ، مازالوا — لأسبا
عديدة — متخلفين فى الحقول التعليمية والسياسية . فبرغم كونهم ستين فى المائة «
سكان « بنغال » لا يكادون يشغلون الوظائف الحكومية بنسبة ثلاثين فى المائة . وكا
« المستر داس » يدرك الحقائق إدراكا كبيرا . فسرعان ما أنتهى إلى أن المشكا
لم تكن إلا اقتصادية . وأدرك أن المسلمين ماداموا غير مطمئنين من مستقبل
الاقتصادى ، لن يتوقع منهم الانضمام إلى المؤتمر الوطنى طائعين . فبادر المس
« داس » إلى تصريح كان له أثر لا فى بنغال بل فى الهند بأسرها . فأعلن أن

المؤتمر بمجرد أن يتقلد زمام الحكم فى «بنغال» سيخصص للسلمين ستين فى المائة من الوظائف الجديدة، وسيواظب على ذلك حتى يفوز المسلمون بما يناسبهم من التمثيل. ووعد أكثر من هذا بالنسبة إلى بلدية «كلكتا» (Corporation)، إذ عرض تخصيص ثمانين فى المائة من الوظائف للسلمين على شروط مماثلة. وجهر بأن المسلمين ماداموا لا يتمثلون فى الحياة الشعبية وفى الوظائف تمثيلا مناسبا، لا تتحقق الديموقراطية الحقيقية فى «بنغال»، وأن المسلمين سيتمكنون من مسابقة الطوائف الأخرى على أسس مساوية، بمجرد أن تنقضى عدم المساواة مرة، ولن تبقى أية حاجة إلى تخصيص الوظائف وغيرها.

وهز هذا الاعلان الجرىء المؤتمر فى «بنغال» من دعائمه. وقام كثير من رجال الحزب يعارضونه معارضة عنيفة، وبدأوا بحملة ضد المستر «داس» فاتهموه بالانحيازية والتحيز إلى المسلمين لكنه صمد فى وجوههم كصخرة راسخة. وقام فى جميع الولاية بجولة يوضح وجهة نظره، وخلف اتجاهه هذا بين مسلمى «بنغال» وخارجها أثرا كبيرا، وإنى لواثق بأنه لكان قد خلق جوا جديدا فى البلاد لو لا أن فاجأته المنية قبل أوانها. وإنه لمن المؤسف أن بعض أتباعه هاجموا موقفه بعد موته، وجحدوا بدعوته وكانت نتيجته أن انسل المسلمون من المؤتمر وغرست البذور الأولى لانقسام البلاد.

وأرى من الواجب أن أوضح هنا حقيقة، وهى أن لجنة المؤتمر فى بومباى كانت مخطئة فى سلب الزعامة المحلية من «نريمن»، وبجانب ذلك لم تكن اللجنة العاملة من قوتها بحيث أن تلافى هذه البادرة. على أن المؤتمر — بصرف النظر عن هذا التسامح الوحيد — بذلت جميع جهودها للتمسك بمبادئها، وعندما تمكن مرة من تأليف الوزارات بذل كل ما وسعه لضمان العدل بين جميع الطوائف. وكانت هذه أول مرة يحمل فيها المؤتمر الوطنى مسئولية الادارة، فكانت له فترة اختبار، وراقب

الشعب هــل تواصل المؤسسة الاحتفـاظ بوضعها الوطنى. وكانت الدعاية الرئيسية للرابطة الاسلاميـة ضد المؤتمر الوطنى أنه وطنى فى الاسم لا غير. ولم تقف عند افضاح المؤتمر بوجه عام، وإنما صدعت بأن وزاراته تقوم بالفظائع ضد المسلمين وعينت الرابطة الاسلامية لجنـــة أعدت تقريرا اتهمت فيـــه الحزب الحاكم بسائر أنواع الاتهامات من سوء معاملته نحو المسلمين وغيرهم من الأقليـات الأخرى ويمكن أن أصرح، معتمدا على معلوماتى الخاصة، بأن هـذه الاتهامات عن آخرها كانت غير مؤسسة. ورأى نفس هذا الرأى نائب الملك وحكام الولايات المختلفة ومن هنـا لم يعتن أصحاب الفهم والادراك بتقرير أعدته الرابطة الاسلاميـــة اعتناء خاصا.

وعندما قبل المؤتمر الحكم، شكل مجلس برلمانى يشرف عـلى أعمال الوزارات ويرشدها فى السياسة إرشاداً عاما. وكان المجلس متكونا من «السردار بتيـــل» و الدكتور «راجندر برشاد»، وأنا أيضا أحد أعضائه. وهكذا أصبحت مسئولا عن الشؤون البرلمانية فى عـدة الولايات مثلا «بنغال»، و «بهـار»، و «الولايات المتحـدة» و «بنجاب»، و «سنده» وولاية الحـدود. وكل حادثة تتعلق بالقضايا الطائفية رفعت إلى، ومن أجل هذا يمكننى أن أقول، معتمدا على معلوماتى الخاصة وشاعرا بالمسئولية، إن الاتهامات التى وجهها المستر «جنـاح» والرابطـة الاسلامية من التظلم على المسلمين والأقليـات الأخرى، كانت كاذبة. وإن لمست فى إحداها شائبـة من الصدق لأمعنت فى إصلاحها وإزاحـة الجور، وكنت أنا مستعدا لتقديم استقالتى لأجل قضية واحدة إذا أدت الظروف إلى ذلك.

ودامت وزارات المؤتمر فى الحكم لأقل من سنتين، على أنها تمكنت فى هذه الفترة القصيرة من تسوية كثير من القضايا الهـامة مبدئيا، ولى أن أخص بالذكر قانون الاقطاعيات وملكيـة الأراضى، وقانون بشأن الديون الزراعية، وبرنامج

توسيع التعليم للأطفال والشباب.

ولم تكن المشاكل كالغاء الاقطاعية والقضاء على الديون الزراعيــة خالية من الصعوبة، فكانت هذه القوانين تحديا كبيرا للأرباح الطويلة، فلا غرابة إذا عارضت المصالح الخاصة المؤتمر فى كل خطوة. فكانت فى ولاية بهار معارضة عنيفــة لاجراءات رامية إلى الاصلاح الأراضى. مما اضطرنى إلى التدخل بنفسى فى تسوية القضايا، وعقب مشاورات طويلة مع ملاك الأراضى استطعنا إلى وضع خطــة لازاحة مخاوفهم وضمان الفلاحين حقوقهم.

ولم نستطع حل هذه القضايا العويصة إلا لحقيقــة واحدة، وهى أنى تفاديت دائما من التحيز إلى فريق من فريقى المؤتمر، وسبق أن قلت كيف ساعدت عــلى التقريب بين المحافظين على القديم والداعين الى التغيير خلال الفترة الأولى، فانقضى النزاع، بيــد أن المؤتمر سرعان ما انقسم إلى الفريقين اللذين اشتهرا باليساريين واليمينيين، وكان اليمينيون يعتبرون أبطالا لمصالح خاصة، بينما كان اليساريون — على عكس ذلك — ينفذون على حماسهم الثورى. ووجهت إلى مخاوف اليمينيين اهتماما مناسبا، لكن كنت فى نفس الوقت متحمسا لليساريين فى الشؤون التى تتعلق بالاصلاحات، ومن أجل هذا قدرت على التوافق بين وجهتى النظر النهايتين ورجوت أن المؤتمر الوطنى سينفذ برامجه بسرعة وبدون نزاع. بيد أن جميع ما رسمه الحزب من برامج الانتخابات والعمل بها تدريجيا، تعطلت فى سنة ١٩٣٩ نتيجة للدور الذى لعبته القوات الدولية.

جواهر لال نهرو يكتب عن:

رامـــاين

تعريب: محى الدين الألوائى

حياة «راما» الخالدة

إن النطق الصحيح للفظ «راما» هو بفتح الميم بدون مدها (أى رام)

لا يوجد بين أعيادنا الشعبية التى تحتفل بها الهند بكل حفاوة وسرور، وفى جومليْ بالمحبة المتبادلة والزمالة الكاملة، خصوصا فى الهند الشمالية، عيد شعبى أكثر شيوعا من الاحتفالات باحياء ذكرى قصة راما (Rama) و سيتا (Sita). وإن هذه القصة الشعرية التى كتبها وال ميكى (Valmiki) ثم نقلها تلسى داس إلى اللغة البسيطة الدارجة، قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من حياة الشعب الهندوسى. إن تمتع كتاب أو أسطورة بهذه الفاعلية النفاذة أو بهذا الأثر البالغ على ملايين الناس، طوال آلاف السنين المديدة فى التاريخ التطور للهنـــد العظيمة، لدليل ساطع على أن يكون ذاك أو تلك ذات ميزات فعالة وقوة خارقة وخصوصيات جذابة، حيث تبهر العقول وتخلب القلوب.

ومنذ أيام طفولتى قد أخذت هندنا العظيمة بمجامع قلبى. فاذا كانت الهند القديمة من الأسرار الغامضة أحيانا، فكانت ثورة عجيبة أحيانا أخرى. وكلما أحاول لتفهمها وإدراك كنهها، قد ازداد انطباعى وتأثرى بشخصيتها القوية التى مرت بها طوال العصور البالغة فى القـدم. وبمنى آخر كانت حياتى حياة طلب وبحث، وحياة محاولة وسعى لتفهم هذا الوطن العظيم الذى هو مسقط رأسى. ومن ميزات

هذا الوطن أنه مع تنوعه غير المتناه يحتفظ بتوحده الأصلي. ولا يستطيع أحد أن يأخذ صورة كاملة صحيحة للهند بمجرد أن يزور ناحية واحدة منها دون أخرى، كما لا يستطيع أحد أن يفهمها كاحقه بمجرد أن ينظر إلى حاضرها بدون أن يدرك ماضيها الحافل المديد. لأن جذورنا يرجع أصلها إلى عهود بالغة فى القدم. وقد نبتت أعشاب ضارة لا تحصى خلال زرعنا النافع حينا فآخر، ولكنها لم تفلح أبدا فى اقتلاع جذورنا العميقة الثابتة التى قد كيفت بختنا وشكل حظنا سواء كان للخير أو للشر. إن مستقبل الهند يتكيف ويتشكل شيئا فشيئا من ذلك الماضى العريق الذى هو التاريخ، وهذا الحاضر الذى هو عبء اليوم على عواتقنا وحمله على اكتافنا. وعلينا أن نحاول لتفهم النواحى القيمة والتطورات الصحيحة للتاريخ بكل تعقل وإدراك كاملين. وفوق هذا وذاك يجب علينا أن ندرك الشبه البالغ حول ماضينا وحاضرنا، لأن يكون عونا على توجيه مستقبلنا نحو هدف قويم مثمر لا عوج فيه ولا خلل. فلا أظن أن أحدا يستطيع أن يفهم الهند أو شعوبها فهما شاملا صحيحا بدون أن يلم بمعلومات كافية عن الملحمتين الهنديتين اللتين هما من أعظم الملاحم الهندية الكبرى كما أنهما فخر الهند ونخرها. أولاهما «راماين» وثانيتهما «مهابهارت».

تعريف راماين

إن «راماين» لأسطورة تحتوى على أهمية بالغة دائمة. وقد أثرت على قلوب ملايين الهندوس وأذهانهم لقرون عديدة. وهذه الأسطورة قد ساعدتهم كثيرا على الفكر العالى، والمساعى النبيلة والتمسك بالقيم الأخلاقية السامية. وحتى إلى يومنا هذا لا نجد قرية من القرى الهندية أو ناحية من ضواحيها إلا وتفسر فيها أسطورة راماين فى اللغة السنسكرتية أو غيرها من اللغات المحلية الرائجة فى تلك البقعة، أمام آلاف الناس رجالا ونساء وصغارا وكبارا يستمعون إليها

وإلى شروحها وبيانها باهتمام كبير وتأثر بالغ. ولا يكون من المبالغـة فى شىء إذا قلنا إن الأطفال الصغار يتغـذون بأخبار الحوادث الرئيسية الواردة فى راماين منـذ أيام الرضاع بواسطة أمهاتهم وهم فى أحضانها. وقـد أصاب «روميش جندرا» حيث قال:

« لا توجد فى الهند امرأة هندوكية لم تحط معلوماتها الأولية ودراساتها الابتدائية فى المحيط العائلى عن مقاسات «سيتا» ومعاناتها وعن إخلاصها وإيمانها. وكما أن المرأة الهندوكية تحفظ تلك المعلومات وتعتز بها مدى حياتها».

ويقول جواهرلال نهرو فى معرض الكلام عن الملحمتين العظيمتين ــ راماين، ومها بهارت ــ فى كتابه «اكتشاف الهند» (Discovery of India):

« إننى لا أعرف كتابا فى أى مكان له مثل هـذا النفوذ المستمر والأثر النفاذ على أذهان عامة الناس وقلوبهم مثل ما لهاتين الملحمتين. وعلى رغم أن تاريخهما يرجع إلى عهود بالغة فى القـدم مازالتا قوة حية فى حياة الشعوب الهندية».

وهناك مؤلفات عديدة فى مختلف اللغات نظما ونثرا، تبحث فى حياة راما وسيتا. وعندنا كتاب «راگوامشا» لكالى داس يتنـاول حياة راما وأعماله بطريقـة منظمة منسقة. وإن التمثيليات السنسكرتية التى كتبها الأدباء الممتازون مثل «بهاوا بهودى» وموراری تعالج نواحى مختلفـة من حياة راما. ويمكن أن يقال إن راماين لـ «والميكى» يقف فى مقدمة صفوف هـذه المؤلفات باعتبار البحث الدقيق المستوعب فى حياة راما وسيتا. وتعتبر راماين من إحدى الملاحم الكبرى المعروفة فى العـالم أجمع. وتعرف راماين فى اللغـة السنسكرتية باسم: «آدى كاويا» لكونها أولى الملاحم تكتب فى الأشعار السنسكرتية.

وتشتمل راماين على أربعة وعشرين ألف (٢٤٠٠٠) شعر فى ست قصائد. وأسلوبها سهل وبسيط، ولا توجد فيها ألفاظ يمجها السماع وتثقل على الآذان. والقصة تسير قدما بكل هدء ونسق كما يجرى الماء الجارى فى نهر واسع. وأما نغمة الأشعار وبحورها محببة على الآذان ومقبولة لدى الأذهان. وتأليف القصة وترتيبها نموذج عال للبيان الشافى والايضاح الجميل للحوادث والوقائع بدون تعقيد ولا تطويل ممل. وأن التصورات التسعة من «شرينجار» Shrinjara إلى «شانت» Shanta قد صورت وشبهت بشكل واضح جميل فى طول القصة. وان والميكى لمعروف لتشبيهاته. وكاليداس يعتبر إلى حدما من أتباع والميكى فى هذا المضمار. وحتى أولئك الذين لا يعرفون اللغة السنسكرتية يحبون الاستماع إلى القراءة من راماين فى نصها الأصلى فى اللغة السنسكرتية نفسها، وكما أن نغماتها تقع على الأسماع بسهولة وبداعة فايقاعها يثلج الصدور ويبهر العقول. وإن راماين لنموذج حى للأدب الهندى ودليل ساطع على القمة العليا التى وصلت إليها الحضارة الهندوسية فى العصور القديمة. وبصرف النظر عن أساليبها وعباراتها من النواحى الأدبية واللغوية فانها تعتبر نصا مقدسا لدى الهندوس. وأنهم يقدسونه ويتعبدون به، ويعتقدون أن اسم راما من أفضل الأسماء وأشرفها، وأنه حماية من البليات وطلسم من الشرور والآفات. وتجلت قداسة هذا الاسم وعظمته بكل وضوح فى التمثيلية المشهورة «هانومان ناتكا». وإن راماين لتصور للاذهان، نظريات عالية وفلسفة راقية وحكما غالية بطريقة جذابة مشرقة، فتأمر بالأخلاق الفاضلة وتحث على الآداب السامية الفردية والاجتماعية، وفيها قوانين وأنظمة خاصة تعرف بـ «الأنظمة الأزلية» أو «القوانين السرمدية» فى العرف العام. ويرتل المعتقدون هذه القصائد كأناشيد دينية فى مناسبات عدة لأغراض تحصيل السعادة والرفاهية فى شتى مرافق الحياة البشرية. ولهذه الأسباب كلها تدعى هذه القصة — أو الملحمة، إذا صح هذا التعبير، باسم

«أنوجرها جارتيها» أى كتاب الرحة. ويقال إن وال ميكى كان ناسكا أميا، ولكنه استطاع لأن يكتب راماين بفضل نعمة من الاله «براهما». وإذ أنعم عليه من رحمته الخاصة، تمكن بفضلها أن يرى كل شعبة من شعب حياة راما وحوادثها كشاهد عيان. وكما أن براهما قد منح لـ «وال ميكى» قدرة خارقة لابداء آرائه ووجهات نظرياته بشكل قصة شعرية حسب إرادته، باركه الاله براهما بقوله: «إن راماين ستبقى فى الأرض مألوفة شائعة ما دامت الجبال والأنهار باقية فيها». وقد صرح وال ميكى من دوره عدة مرات بأن الذى يقرأ راماين سيحظى دائما برحمة من الاله ونعمته. وأخيراً — وليس آخرا — فان هناك اختلافا شديدا فى الآراء بين المؤرخين وأهل الأساطير حول حقيقة راما.

من هو «راما»؟

إن المدرسة الأرستقراطية المحافظة تعتقد وتتمسك بالرأى القائل بأن «راما» مجسم إلهى. بينما تتمسك المدرسة الحديثة بوجهة النظر القائلة بأنه كان إنسانا عاديا، ولد أميرا فى العائلة الملكية فى مدينة أيودهيا. ثم جاهد واجتهد لنيل السعادة والحصول على حظ وافر من الفضل والتقى والمعرفة. ويصرح بهذا الرأى الأخير الفيلسوف الكبير وى. ايس. سرى نواسا شاسترى.

وفى رأيى المتواضع أن هذا النزاع من العبث العقيم. وإن المهم فى هذه المسألة هو البحث عن اعتقاد وال ميكى فى راما حينما عقد عزمه لكتابة تاريخ حياته وكيف كان يتمنى أن يفهمه القراء. والذى يظهر بدون شك من رأى وال ميكى وكتاباته أنه كان يعتقد أن راما كان مجسما إلهيا. وهو المعروف فى الاصطلاح الهندوسى باسم «أوتار». ونجد فى بداية راماين إشارات وتلميحات إلى أن الالهة قد احتشدوا فى مكان ما، فطلبوا من شرى مهاوشنو لأن يلد

فى الأرض كابن للملك «دشارتا» للقضاء على المارد الجبار «راونا» وانقاذ الأرض من مضاره وأشراره. ولا نستطيع أن نتغاضى أو نتجاهل عن هذه الفكرة التى جاءت إشارات واضحة عنها فى صفحات رامايَن لـ «وال‌ميكى» نفسها. وفى المعركة المعروفة التى وقعت بين راما وبين پرشوراما، يعلن الناسك البرهمى المقهور أن راما لابد أن يكون «نارايانا» الذى قتل «مادهو». وأن «يدها كندا» (أى القسم الخاص من رامايَن حول الحروب) يصرح بهذا الرأى بكل وضوح وتأكد. وجاء فى الباب الخامس والثلاثين منه أن «مليا وان» جد «راونا» من جانب الأم، يقول له بأنه يظن أن راما هو الاله «وشنو». ونجد نصوصا فى الباب الثانى والسبعين منه أن «راونا» بنفسه يعترف بهذا الرأى. ومما هو جدير بالذكر وخليق بالاعتبار، ما جاء فى الباب الرابع والتسعين من «يدها كندا» بلسان راما بنفسه، بعد أن أثبت مهارة فائقة منقطعة النظير فى الرماية وحرب السهام ضد «راكتشاس»، حيث قال للذين تجمعوا هناك للتفرج على المعركة الحامية بالسهام:

«إن مثل هذه الجرأة والبسالة لا تأتيان إلا منه (أى راما)، أو من «شيوا».

وبعد أن قتل «راونا» وخرج راما ظافرا مظفرا من المعركة تجمع الآلهة كلهم فى ميدان واحد، وعلى رأسهم «براهما»، ليمنحوا التبرك للفاتح الأعظم وليبلغوه التهانى والتحيات. وصرحوا جميعا بأن راما هو «نارايانا» الذى ظهر فى هذا العالم ليخلصه من «راونا» الشرير وينقذه من مضاره. ولكنه من الصحيح أن راما قال بنفسه ردا لتهانى الآلهة وبركاتهم، بأنه يعتبر نفسه كانسان عادى، ولد كابن للملك «دشارتا». ولكن هذا الجواب المتواضع الذى قاله راما لايكفى وحده حجة على الحكم بأنه كان إنسانا عاديا محضا. ويصرح مؤلف كتاب

«أرانيا كندا» (الذى قام برحلة طويلة استطلاعيـــة فى عدة أماكن مقدسة، سيما إلى «أترى» و «أكاستيا») أن راما كان مجسما إلهيا وكان معبودا للنساك والكهنة فى كل مكان زاره. ونجـــد دلائل واضحة لاثبات الرأى القائل بأن راما كان مجسما إلهيا من التراتيل والأوراد الواردة فى الباب الرابع من الكتاب المقدس الهندوسى المشهور «باج وت جيتا».

وجاء تعضيـد آخر لهذا الرأى فى الأناشيد الدينية التى تعتبر من القصائد الابتدائية لدراسة «رامايَن»، حيث جاء فيها:

« إن الاله الذى لا يمكن معرفتـه والتقرب إليه إلا بطريق «ويداس» (اى الكتب المقدسة الدينية الهندوسيـة) قد ولد كابن لدشارتا».

وإن ويداس أيضا لا تختلف فى كثير عن «رامايَن» لـ وال‌ميكى روحا ومعنى. وأما الكاتب «جيا ديوا» فيثبت فى كتابه «غيتا غووند» أن راما كان مجسما للاله «وشنو». ويتجلى ذلك من الأمثلة الواردة فيـه عند ذكر التجسيمات العشرة المعروفة. وعلى فرض أننا قد اعترفنا بالرأى الذى يريده منا وال‌ميكى من تجسم راما وتألهه، فنستطيع أن نقول «رامايَن» طبقا للانتقادات الحديثـــة القائلة بأنه كان إنسانا عاديا. وهذا الاعتقاد الأخير لا يناقض مع فكرة كونه معبودا وشخصية مقـدسة، بناء عـلى أنه كان رجلا عاديا، قد ربى نفسه على التنسك والربانية، حتى جعل من نفسه رمزا حيا للربانية واللاهوتية. وخلاف ذلك أن هذا الاعتقاد الأخير يساعدنا على استخلاص الاعذار لراما فى بعض الاخطاء والسقطات، التى صدرت منه فى حياته ومعاملاته الشخصيـة، كما يصدر من أى إنسان عادى بصفة كونه إنسانا ليس إلا. وإن الانسان الكامل هو الشخص الذى يمتاز بشخصيته وقيمه الأخلاقيـــة عن بنى جنسه

وفى الوقت نفسه لا يكون خاليا من المشاعر الانسانية العامة والطبائع البشرية الخاصة. فليس من المستغرب فى شيء أن تأخذه الدهشة والتعجب تجاه ضعف والده حيث استسلم للاستعطاف من «كاى كائى» الفاتنة. ومن الطبيعى أيضا أن يرتبك الذهن ويتضعضع العقل عند فقدان العزيز الذى يعتز به ويحبه. وإن حكاية قتل «والى» من وراء المخبي. فتبرره وطأة الظروف القاهرة حيث لا مفر منها مع أنه كان حليفا لعدوه «سوكديوا» وأن الشكوك والريبة التى اختلجت فى خاطر راما بأن «بهارت» يريد أن يحتفظ بالمملكة لنفسه فقط فلا يحب عودة راما إلى مملكة «أيودهيا» فهى شكوك طبيعية لا مفر منها فى الظروف التى كانت تحيط بـ «راما» حينذاك.

وبالجملة أن بعض الاخطاء والسقطات التى وقعت فى حياة راما لا يناقض — إذا نظرنا بعين التحقيق والانصاف — مع نظرية التجسم الالهى. وعندما ينزل إله إلى الأرض ليلعب دور انسان خاص، فعليه أن يلعبه كما يصدر هو من طبيعة إنسان آلى إليـه أو تجسم به، ويؤدى بنفسه أولا المهمة التى جاء إلى الارض لأجلها، من الاصلاح والتطهير، بشرط أن يكون خاضعا للفطرة الانسانيـة التى لا مفر منها، من التحلى بالمشاعر الانسانيـة وارتكاب الاخطاء البشرية العادية. هذا عندما يفرغ من مهمته الأصلية التى جاء لأجلها، وانسحب من فطرته السماوية، وكما أنه سيعود إلى الطبيعـة الأولى عند الفراغ من أداء واجباته ومهماته على وجه الأرض. وأحيانا يضطر إلى إعادة فترة تجسمه مرة أخرى، كما فعل راما بعد مقتل «راونا».

مهابهارت

إن الملحمه الهندية الأخرى المشهورة مهابهارت تقال عنها بأنها الخامسة من سلسلة «ويداس» أى الكتب المقدسة الهندوسية. ومن الواضح أن الفلاسفة

لهندوس الكبار يعتبرون مهابهارت كذخيرة للافكار القيمة وخزينة للحوادث والوقائع العظيمة النادرة. ولكنها لا تتمتع بالدرجة والشيوع الذى نالته راماين. لماذا؟ وما هو السر الخفى وراء تفوق راماين على جميع ما عداها من الملاحم والكتب المقدسة؟ هل هو الأسلوب الجذاب الذى اختاره مؤلفه، أو هو ذخر القيم الأخلاقية التى تنطوى عليه؟ أو هو راجع إلى تمسك الناس بإيمانهم بمبادئها ودروسها، أم هو يعود إلى مجرد اسم راما المظيم؟ وهل يرجع ذلك السر إلى مقدرتها الفائقة كأداة فعالة تؤدى إلى حياة سعيدة، وفكر عال، ونهضة روحية خالدة؟ ربما تكون راماين ذخرا يحتوى على هذه الميزات كلها وتلك الحقائق بأجمعها، مع أن كل واحدة منها لتكفى لاثبات قيمته العالية فى أذهاننا والأخذ بمجاميع قلوبنا. وأن مجرد قراءة راماين من أولها إلى آخرها تقنع القارئ بحلاوتها وروعتها وأثرها الفعال على العقول. ومن الصعب جدا أن نرجح جزءا منها على الآخر. ولكن إذا أراد أحد أن يقوم بمخاطرة انتخاب نخب منها ونبذ ممتازة من فصولها فيستطيع أن يختار المواضيع الآتية:—

الاجتماع بين راما وپرشوراما،

وأحزان «دشارتا» ويأسه عندما طلبت منه «كاى كاى» الايفاء بالوعد الذى أعطاها من قبل،

وسخط «لكتشمان» على فعل والده،

والمحادثات التى جرت بين سيتا وبين «اناسويا»،

ووصف «هانومان» للاخوة،

ونواح «تارا» على موت «والى»،

وتحذير سيتا لراونا، ومقاساتها فى العزلة فى حدائق أشوكا مع «راكتشاس» الذين أحاطوا بها هناك،

ورسالة «هانومان» إلى «راون».

وإن الأسلوب الذى اتخذه «يدها كندا» أى قسم المعارك فى راماين (فى وصف المعارك التى وقعت بين راما وراون من جهة، والقتال العنيف الذى نشب بين لكشمان واندراجيت من جهة أخرى)، لأسلوب يفوق الوصف فى تصوير الوقائع ووضعها موضع العيان. كأن القارئ سيخيل إليه أنها وقائع تجرى أمامه الآن فعلا. وأن وال ميكى قد ابتكر أعلى درجات البراعة والجودة فى تصوير الغابات والادغال وصوامع النساك ومشاهد الحرب. وأن وصفه للأشجار والجبال والأنهار والسحاب والهلال وغروب الشمس، وصف يدهش العقول ويخلب الأذهان. وأن وصفه لبعض النساك والكهنة لقطعة من المهارة الفائقة والمقدرة النادرة فى قوة البيان ودقة التعبير. وأطال فى تصوير عظمتهم فى التزهد وتزكية النفوس بطريقة تأخذ بلب القارئ وتعود به إلى مرحلة العليا التى تصل إليها الحياة الروحية. ولا يمكن تخصيص جزء من راماين عن آخر، بسبب الابهام أو التعقيد اللفظى أو المعنوى؛ بل وكل جزء منها قابل للاعتزاز بعظمته والاعتراف بجلاله. سواء كان من الناحية المعنوية أو من ناحية الأسلوب الشعرى الذى اختاره واضعها. ولكن البعض يرى أن الجزء الذى جاء فيه وصف لشجاعة «هانومان» وبسالته الفائقتين لهو أحسن الفصول وأروعها فى راماين. وعلى رغم صحة هذا الرأى يمكن أن يقال أيضا إن جزء «يدها كندا» منها (الذى يصف العواطف الانسانية والمشاعير البشرية والتصادم الفكرى والانطباعات الذهنية بأسلوب رائع عال)، ليعتبر من أحسن أجزائه وأجودها دقة وجمالا. ويشتمل هذا الجزء بصفة خاصة على صور حية للمكانة العليا النادرة لراما، وضعف دشارتا، ودها، كاى كائى، واستياء لكشمان حول المصير المحتوم، وإخلاص سيتا وولائها، وعزة النفس لـ «كوساليا» وذكاء «سومترا» وصداقة «جوها» وكرم بهارت ونبله.

حكى أن الناسك المعروف «سرى نراسمها بهارتى سوامى» قد خصص معظم أوقاته بعد الظهر لقراءة رامابن من أولها إلى آخرها. ومرة قد تأثر بجمالها وقوة تأثيرها، ونسى كل شيء عن حواليه، حتى أتباعه النساك الذين يجلسون حوله. وقد جلس بدون حراك وعيناه تدمعان من الفرح أحيانا ومن الحزن أخرى، كلما يمر بالمراحل المختلفة من الحوادث والوقائع، كأنها تمر أمامه وتجرى بين يديه. وإذا كان هذا ما قد يحدث مع حكيم «يوغى» قادر على السيطرة على ذهنه وانطباعه. فما بال هؤلاء الذين ليست لهم سيطرة على أذهانهم وأفكارهم؟ وهم دائما عرضة للعواطف البشرية من الخوف والرجاء والحزن والفرح والحقد والبغض وما إلى ذلك من المشاعير الانسانية العادية؟

قصة رامابن كاملة

إن رامابن لأقدم القصص الشعرية الهندية، وإن تاريخها ليرجع إلى عصور قديمة. ومعناها: حياة راما. واسم الشاعر الحكيم الذى وضع رامابن هو وال ميكى. وكيف أصبح وال ميكى شاعرا معروفا؟ وهاكم القصة بالتفصيل:

ذات يوم ذهب وال ميكى للاستحمام فى النهر المقدس «غنغا» المعروف. فرأى زوجين من الحمام يحومان ويتبادلان القبلات حينا فآخر. ففرح وال ميكى بهذا المنظر الجميل. ولم تمض إلا لحظة أن أتى سهم حاذق نحوهما وقتل الحمام الفحل، فخر ميتة على الأرض. وعلى إثرها بدأت الحمام الأنثى تحوم حول جثة زوجها فى منتهى الحزن والأسى. وبعد مهلة قصيرة من الدهشة والحزن رأى وال ميكى الصياد واقفا أمامه. فقال له بلسان طلق ذلق: هل أصبحت شقيا بهذا الحد؟ ألم تشعر بأدنى درجة من الرأفة والشفقة؟ ألم يكونا يحومان ويعيشان فى محبة وهناء؟ ألم تكن تعترف بأقل درجة من الحب بين الحبيبين؟

وبعد أن فرغ من كلامه مع الصياد تحدث فى نفسه مستغربا بأنه لم يتكلم من قبل كلاما فى مثل هذه الدرجة من الفصاحة والطريقة المنسقة! فسمع نداء من هاتف يقول: «لا تخف ولا تفكر. وإن الذى خرج من فمك هو الشعر، فاكتب حياة راما فى الأشعار لينتفع بها العالم بأجمعه». هذا هو أول شعر صدر من فم والميكى. وهذه هى القصة التى تسببت لكتابة راماين فى الشعر.

توجد فى الهند مدينة قديمة العهد تعرف باسم أيودهيا، ولا تزال آثارها موجودة إلى يومنا هذا. وكان يحكمها فى غابر الأزمان ملك يدعى «دشارتا»، وكانت فى ذمته ثلاث ملكات، ولكن لم يكن له منهن أحد من الأولاد. وانهمك الملك والملكات فى أدعية وتضرع وصيام بصفة مستمرة داعين إلى الإله لمنحهم الأولاد. وبعد مدة من الزمن رزق الملك أربعة من الأبناء، أكبرهم كان اسمه راما. وأتم كل واحد منهم الدراسة الكافية فى شتى العلوم والفنون. وساعدتهم على ذلك مكانة والدهم الملك العظيم.

وفى نفس الوقت كان ملك آخر يدعى باسم «جناكا» يحكم بعض المدن الأخرى. وكانت له بنت جميلة تدعى سيتا. وتقول الأساطير الهندوسية إن سيتا كانت ابنة الأرض ولدت بدون أبوين، والتقطها الملك «جناكا» حينما كانت فى سن الزواج. وأراد أن يبحث لها زوجا مناسبا. وتقدم عدد كثير من الأمراء يطلبون يد سيتا. وكانت من العادات المتبعة إذ ذاك لاختيار واحد منهم إجراء مسابقة اختبارية فى كسر قوس قوى عظيم. ويقال لها فى عرفهم «هرادهنو» لحاول كل منهم بكل ما أوتى من قوة للنجاح فى المسابقة الاختبارية ليظفر بسيتا، ولكنهم فشلوا جميعا. وأخيرا أخذ راما القوس الغليظ فى يده وكسره بكل سرعة وسهولة. وهكذا اختارت سيتا راما ابن الملك

دشارتا زوجا لها. وتمت مراسيم الزواج فى حفل بهيج. وبعد أن انتهت مراسيم الفرح والقران أخذها راما إلى منزله.

ولم تمض مدة طويلة لزواج راما أن فكر الملك العجوز والد راما فى التنازل عن العرش، وتعيين راما أكبر أبنائه وليا للعهد. وتمت الاجراءات اللازمة كلها للاحتفال بتتويج راما، واستعدت البلاد كلها من أولها إلى آخرها للاشتراك فى هذا الاحتفال بكل أبهة وسرور. ولكن سرعان ما انقلبت الأحوال، وهى أن مرة كان الملك قد سر كثيرا بالملكة الصغرى وتوطد الاعتماد عليها، فوعدها حينذاك بكلمة حاسمة: «اطلبى منى أى أمر تريدينه فأعطيه لك أيتها الحبيبة مهما كان فى استطاعتى». ولكنها لم تطلب شيئا من الملك وقتئذ. ونسيت كل شىء عن ذلك الوعد، ولكن خادمة شريرة قد ذكرتها وألحت عليها لتطلب من الملك لأن يوفى بعهده السابق. وبدأت الخادمة تعمل وتفسد ضد تعيين راما وارثا للعرش، وقالت للملكة: ما أحسن لها إذ عين ابنه الخاص وارثا للعرش بدل راما! وكانت الخادمة تشجعها وترغبها فيه حتى أن استقرت فى ذهنها تلك الفكرة. واقترحت الخادمة على الملكة أن تسأل الملك بايفاء وعده الذى أعطاه إياها من قبل حول تحقيق أى شىء تريده منه فى دائرة حدود مقدرته. فالأمر الأول الذى تطلبه منه هو تعيين ابنها «بهارت» وارثا للعرش فى مملكته، والثانى إرسال راما إلى الغابات لمدة أربعة عشر عاما يقضيها فى المنفى. وأن راما قد احتل محل الحياة والروح للملك العجوز. وعندما سمع الملك هذا الطلب القاسى من الملكة فكر أنه لا يمكن له كملك عادل أن ينقض بوعده، وتحير فى المسألة. ولم يكن يدرى ماذا يفعل؟ ولكن راما فور ما علم بالمأزق الذى وقع فيه والده قد عرض عليه استعداده التام للتضحية بنفسه ونفيسه فى سبيل انقاذ والده العجوز من تهمة نقض العهد، وأبلغه عزمه لترك العرش والذهاب إلى المنفى. فذهب

راما إلى المنفى فى الغابات ليقضى فيه فترة أربعة عشرة عاما مع زوجته المحبوبة سيتا، وأخيه «لكشمان» الذى ما كان يفارقه فى حال من الأحوال. وفى تلك الأيام كانت القبائل التى تقيم فى الغابات تدعى باسم «القردة» وإذا كان بعض منهم أشداء أقوياء من الآخرين يدعون باسم «العفاريت». وإن الغابة كانت تابعة للعفاريت والقردة كلتيهما. وعندما أبدت سيتا استعدادها لمصاحبة راما إلى الغابة سألها راما: كيف تستطيع أنت يا سيتا كامرأة أن تتحمل المشاق والمتاعب لأجل صحبتك معى إلى الغابات التى تحيط بها أنواع من المخاطر والمصائب من كل الجوانب؟ فأجابت سيتا فورا: «حيثما يذهب راما تذهب معه سيتا، ولا تستطيع أن تتحدث معى كأميرة أو بالنظر إلى أنى ولدت فى عائلة ملكية وإنى أذهب قبلك إلى المنفى. ولن أفارقك أبدا».

وهكذا ذهبت سيتا مع راما إلى الغابات وكما أن ذهب معه إليها أخوه الصغير. وتغلغلوا إلى داخل الغابات حتى وصلوا إلى ضفة نهر جوداورى وبنوا لهم كوخا على شاطئ النهر. ويذهب راما ولكشمان لصيد الغزال وجمع الثمار.

وبعد أن أقاموا هناك لمدة قصيرة وصلت ماردة جارة إلى مقربة من كوخهم، وهى أخت الملك المارد الذى كان يحكم على سيلان. وأثناء تجوالها فى الغابات، وقع نظرها على راما ووجدته شابا بسيما جميلا. فوقعت فى حب شديد فيه. ولكن راما لم يكن يستطيع أن يتبادل الحب معها، لأنه كان رجلا متزوجا وفيا نقيا. وعلا رأس الماردة حب الانتقام والثار. فذهبت إلى أخيه الملك المارد وقصت عليه عن سيتا وعن جمالها الفتان وحسنها الخلاب. وكان راما أقوى الأبطال وأشدهم بأسا حيث لا يستطيع أحد من القردة أو العفاريت أن يتغلب عليه. وكان على مارد سيلان أن يلجأ إلى حيلة أخرى إذا أراد التغلب على راما. فحصل على مساعدة مارد آخر من السحرة المهرة. فحول الساحر

نفسه إلى شكل غزال جميل بدأ يرتعى حوالى كوخ راما، حتى رأته سيتا ورغبت فيه، وقالت لراما لصيده لها. فذهب راما وترك أخاه لكتشمان عند سيتا. وإن لكتشمان قد وضع خطا سحريا حول كوخ سيتا، فقال لها إنى أرى أن بعض الحوادث المؤلمة قد تحدث لك اليوم. لهذا أرجو أن لا تجتازى هذا الخط، ولا تخرجى من البيت إلى خارج هـذا الخط السحرى. وفى نفس الوقت رمى راما سهما إلى الغزال المذكور، فأصابه فانقلب فورا إلى شكل مارد جبار وخر ميتا. وعلى إثر ذلك سمع لكتشمان صوت راما فى الكوخ ينادى لمساعدته. فقالت له سيتا إذهب فورا إلى الغابة لمساعدة راما، فانه يناديك. فاحتج لكتشمان قائلا إن هذا ليس بصوت راما. ولكنه اضطر أخيرا للذهاب إلى الغابة بالحاح من سيتا.

وفور خروج لكتشمان من الكوخ إلى الغابة، قام الملك المارد الذى قد تحول إلى صورة ناسك متسول بباب كوخ سيتا، سائلا الخيرات. فقالت سيتا: «إنتظر قليلا حتى يرجع زوجى، فأعطيك خيرات كثيرة». فقال الناسك المتسول: إنى لا أستطيع الانتظار يا سيدتى الطيبة، فانى جائع جـدا، أعطينى ما عندك بدون تأخير». فعندئذ جمعت سيتا ما كان عندها من بعض الثمار، ومدتها بيدها إلى الناسك الذى كان واقفا خارج الكوخ. ولكن الناسك طلب منها أن تأتى بها إلى الخارج بلا خوف، لأنه رجل متدين قـديس فلا داعى إلى الشك والريبة. وعقب أن اجتازت سيتا الخط السحرى الذى وضعه لكتشمان انقلب الناسك المتصنع إلى صورته الأصلية كمارد عملاق، وأخـذ سيتا بيده. ثم دعى براقه السحرى ووضعها فيه، فطار بها إلى مملكته وهى تبكى وتصرخ بدون جدوى، وليس هناك أحد للوصول إلى نجدتها. وبينما كان المارد يطير بها فى براقه أخذت سيتا بعض الحلى من يديها وألقتها فى مسافات متقطعة إلى الأرض.

وهكذا أخذها المارد «راون» إلى مملكته فى سيلان. وطلب منها الموافقة

على كونها ملكا له، واستخدم عدة وسائل لاجبارها على الموافقة على طلبه، ولكنها رفضت رفضا باتا بل وقد امتنعت سيتا التى كانت صورة حية للعفة والطهارة حتى من مجرد التكلم معه أو الاستماع إليه. وأخيرا عزم المارد على استخدام وسائل الضغط والتعذيب معها، فوضع سيتا تحت شجرة عزلاء ليلا ونهارا، تقاسى الحر والبرد الشديدين، لكى تقبل هى لأن تكون زوجة له.

ولما عاد راما ولكشمان إلى الكوخ ولم يجدا فيه سيتا، غرقا فى أسى وحزن بالغين. وما كانا يعرفان شيئاً عما حدث لها. وخرج الاخوان فى البحث عنها فى كل مكان، ولكنهما لم يجدا أى أثر لها. وبعد بحث طويل وصلا إلى مجموعة من القردة، وفى وسطهم القرد القديس «هانومان». وأخيرا توثقت العلاقات ونوطد التعارف بين راما وبين هؤلاء القردة. وأبلغوا راما أنهم رأوا براقا سحريا يطير فوق رؤوسهم وفيه مارد جبار وبيده فتاة جميلة تبكى وتصرخ، وعندما طار البراق فوق رؤوسنا ألقت علينا بعض الحلى للفت أنظارنا إليها. فقدموا إلى راما بعض الحلى منها. فتعارف راما فورا على أنه لسيتا. فقال هؤلاء القردة لراما عن شخصية ذلك الملك المارد وعن مقره. ووعدوه بمساعدته فى العثور عليها.

هذا، وفى ذلك الوقت كانت تجرى حرب شعواء بين ملك القردة «والى» وبين أخيه الصغير «سوكديوا». وقرر راما لمساعدة سوكديوا فى الحرب فساعده. وبعد أن انتصر الأخ الصغير سوكديوا وطرد «والى» من العرش، وعد لراما لمساعدته فى البحث عن سيتا مكافأة لمساعدته أيام الحرب ضد والى. فبحثوا فى طول البلاد وعرضها عن سيتا ولكنهم لم يجدوها فيها. وأخيرا قفز هانومان من شاطئ الهند إلى شاطئ جزيرة سيلان. فبدأ فى البحث عن سيتا فى كل مكان فى الجزيرة ولكنه أيضاً لم يتمكن العثور عليها بعد بحث طويل.

ومما هو جدير بالذكر أن الملك المارد قد تغلب على الآلهة وعلى الناس، بل وتسيطر على العالم كله، وجمع جميع النساء الحسناوات فى قصوره. وجعلهن حظيات له. وفكر هانومان بنفسه بأنه لا يمكن أن تكون سيتا من ضمنهن فى القصور. وهى تختار الموت من أن تبقى فى مثل هذا المكان. وقرر هانومان للبحث عنها فى مكان آخر. وأخيرا وجدها جالسة تحت شجرة بعيدة عن القصور، وقد نحفت وتغير لونها حزنا وأسى، وأصبحت كالهلال الرقيق الذى يطلع فى الأفق فى الليالى الأولى من الشهور. وتحول هانومان إلى شكل قرد صغير واستقر فوق الشجرة المذكورة لمتابعة أنواع الضغط على سيتا، ترهيبا وترغيبا فى حين وآخر، ولكنها لم ترض حتى بسماع اسم المارد، راون. وكان المارد يرسل الماردات والحظيات الأخرى إلى سيتا لاقناعها على قبول طلب راون، ولكنهن يرجعن دائما مع خيبة الأمل. ثم نزل هانومان إلى سيتا فقص عليها قصة وصوله إليها كمبعوث خاص من راما للبحث عنها، وعرض عليها الخاتم الذى فيه ختم راما الشخصى أعطاه لهانومان كبينة لاثبات شخصيته. وأبلغها أيضا أن راما بمجرد أن يعلم بمكان سيتا سيأتى مع جيش للتغلب على المارد وإنقاذ سيتا من سيطرته الغاشمة. واقترح أيضا بأنه مستعد — إذا أرادت — لأن يحملها على كتفيه، فيوصلها إلى راما بنط واحد من شاطئ جزيرة إلى الشاطئ الآخر. ولكن سيتا التى آلت على نفسها بأنها لا تمس بدن شخص غير زوجها لم توافق على هذا الرأى عفة وطهرا، وأعطت لهانومان حلية من شعره ليبلغها إلى راما، فعاد بها هانومان. وبقيت هى فى نفس المكان فى الجزيرة.

وبعد أن علم راما جميع الأحوال عن سيتا من هانومان جمع جيشا، فسار به نحو الشاطئ الجنوبى للهند. وشيد القردة فى جيش راما جسرا يوصل بين شاطئ الهند وشاطئ جزيرة سيلان.

وبهذا كله أثبتت الأساطير الهندوسية بأن راما كان مجسما إلهيا وإلا كيف يستطيع أن يفعل كل هذه الأعمال الخارقة. ويعتقد الهندوس بأنه كان هو السابع من سلسلة التجسم الالهي في الأرض.

وحمل القردة بأنفسهم الجبال والصخور والأشجار والأحجار اللازمة لبناء الجسر. وتقول الأسطورة إن سنجابا صغيرا كان يشترك بنفسه في بناء ذلك الجسر، حيث كان السنجاب يحرك الجسر من كلا الجانبين ليثبته في الرمال جيدا. وكان القردة يضحكون من فعلة السنجاب، لأنهم كانوا يحملون الجبال والأخشاب الثقيلة وكميات من الرمال لجعل الجسر قويا متينا. وهم يرون الآن سنجابا صغيرا يحاول لاثبات الجسر في الرمال بتحريكه بنفسه! ولكن راما قد لاحظ ذلك فقال: «بورك فيك أيها السنجاب الصغير!، إنه يؤدى مهمته بقدر استطاعته، وعلى هذا فهو كبير مع صغر حجمه كأكبر واحد منكم. ثم ضرب على ظهر السنجاب بيده مع شفقة وحنان. وأن الخطوط الممتدة على ظهر السنجاب إلى يومنا هذا هي آثار الأصابع الخمس لراما التي بدت على ظهره نتيجة لذلك الضرب.

وبعد الانتهاء من بناء الجسر دخل راما وأخوه لكتشمان جزيرة سيلان مع جيشهما. واشتبكوا في قتال عنيف مع الملك المارد الجبار راون. ودامت المعارك لمدة بضعة أشهر. وأخيرا انتصر راما وقتل راون وتسيطر على العاصمة بكل ما فيها من القصور والآثار القيمة وما إلى ذلك. ثم سلمها راما إلى «ودهشانا» الأخ الصغير لراونا، مكافأة لمساعدته في الحرب ضد راون، وأجلسه على عرش أخيه. وبعد ذلك غادر راما جزيرة سيلان مع سيتا وصحبه.

ولكن نشأ هناك تذمر وهمس بين أتباع راما حول عفة سيتا وطهارتها أثناء إقامتها في مملكة راون. وطالبوا باجراء اختبار التطهير المعروف. فقال راما

فورا: إنها هى عين العفة. ولكن الناس أصروا قائلين: لابأس، ولكننا نريد الاختبار على سبيل الإحتياط. فأشعلوا نارا موقدة. وكان على سيتا أن تنط إليها بنفسها — كما هو العادة المتبعة فى اختبار التطهير— ففعلت كذلك. وظن راما أنها قد ضاعت. ولكن لم تمض إلا لحظات أن ظهر إله النار إلى ميدان الاختبار وعلى رأسه تاج وعليه تجلس سيتا باسمة مبتهجة. وفرح الجميع وارتضوا بنتيجة الاختبار العظيم.

بهارت

حينما كان راما يقيم فى المنفى جاء إليه أخوه الصغير بهارت وأخبره بموت والدهما، وطلب منه العودة إلى المملكة والجلوس على العرش. وأثناء إقامة راما فى الغابات لم يجرأ بهارت أن يجلس على عرش أبيه بل كان يضع زوجا من النعال القديمة لراما على العرش بدل أخيه الذى يعيش فى المنفى. وفى الأخير عاد راما إلى العاصمة وأصبح ملك أيودهيا باتفاق آراء الأمة. وحلف راما بعد اعتلاء العرش على أن يعمل لصالح الشعب والوطن وطبقا للرأى العام، كما نراه فى العصر الحديث. وعاش راما وسيتا فى حياة سعيدة هانئة لمدة سنين عديدة والرعايا عنهما راضون.

ولكن بعد مدة من الزمن الطويل قد ابتدأ تذمر وهمس بين أوساط الشعب حول سيتا. فقالوا إنها كانت قد اختطفها العفريت راون وأنهم ليسوا براضين بالاختبار الأول حول عفتها وطهرها. ولذا يجب أن يجرى اختبار آخر حولها أو تطرد من المملكة. وبغية لارضاء الرعايا أرسلها راما إلى إحدى الغابات لتعيش فيها حيث كانت هناك صومعة الناسك الحكيم «وال ميكى». فرآها الناسك يوما تبكى وسمع منها القصة كاملة. وقرر أن يعطى لها ملاذا فى صومعته. وكانت سيتا حاملة، وبعد مدة وجيزة وضعت توأمين من الذكور. وأخذهما

الناسك فعاشا فى صومعته عيشة رهبنة خالصة. وهنا أنشأ «وال ميكى» القصة الشعرية، سماها رامايَن، أى حياة راما. وعلم الولدين إلقاءها بطريقة موسيقية جذابة، لحفظاها من أولها إلى آخرها على ظهر قلب.

وجاء موعد قيام الملك راما بالقربان العظيم المعروف بـ «ياجنا» كما جرى التقليد فى العصور القديمة أن يقوم به الملوك فى أوقات متقطعة.

ولكن من التقاليد المتبعة عندهم أنه لا يجوز لشخص متزوج أن يقوم بمثل هذه المراسيم إلا ومعه «سهادهرمينى» أى زوجته أو شريكة الحياة. ونجد فى التعليمات الهندوسية آلاف القرابين والمراسيم الدينية لا يصح أداؤها للرجل إلا وبصحبته شريكة حياته. ووقع راما فى المأزق بفراق زوجته وطلب الناس منه أن يتزوج بامرأة أخرى. وهنا لأول مرة قام راما ضد الرأى العام لرعاياه وأعلن: «إن هذا أمر محال وإن حياته لسيتا لا لغيرها». وحينئذ بنوا تمثالا لسيتا من الذهب الخالص ووضعوه بجوار راما حتى يتمكن القيام بأداء مراسيم القربان المذكور طبقا لطريقة تقليدية.

وحضر الاحتفال المقام بهذه المناسبة الناسك وال ميكى أيضا مع تلميذيه «لاوا» و «كوشا» نجلى راما من سيتا. وكانت منصة كبيرة عالية قد شيدت فى مكان الاحتفال بالقربان التقليدى. ووصل راما وإخوته مع أعيان مملكته وجموع حاشدة من رعيته. فقام الطفلان بإلقاء القصيدة التى وضعها وال ميكى عن حياة راما، بطريقة قد أخذت بمجامع قلوب الحاضرين، وامتلأ قلب راما حزنا ويأسا عندما جاء قصة حياة سيتا فى المنفى، ولكنه لا يدرى ماذا يفعل؟ فقال له الناسك: «لا تحزن إنى أوريك سيتا» وظهرت سيتا فجأة على المنصة ونظر راما إلى زوجته، واندهش الجمع، وتذكروا بالهمس القديم وهتفوا: الاختبار! الاختبار!

وتعبت سيتا المسكينة من تحمل المشقات وأنواع من المتاعب، وسماع تهم الناس. فطلبت فورا من الآلهة لاثبات براءتها وعفتها. فتفتحت لها الأرض، وقالت سيتا بصوت عال: هذا هو الاختبار! ثم اختفت فى جوف الأرض. وأسف الناس على هذه النهاية المؤلمة. وأصبح راما حزينا بائسا.

وبعد بضعة أيام من اختفاء سيتا، جاء إلى راما مبعوث من الآلهة يبلغه بأن مهمته فى الأرض قد انتهت، وقد حان له الأوان للعودة إلى الجنة. وظن راما أنه الفراق ورضى به. وغاص فى مياه النهر الكبير «سرايو» الذى كان يجرى فى عاصمته والتحق بسيتا فى العالم الأخروى.

هذه هى خلاصة قصة «راماين». وعندما ندرس هذه القيم الأخلاقية والنظريات العالية نجد بسهولة البون البعيد والفرق الشاسع بين النظرية الهندية وبين النظرية الغربية. إن النظرية الغربية تقول: «إعمل! وأبد قوتك بالأعمال» — بينما تقول النظرية الهندية: «أبد قوتك بالتحمل والتضحيات». وحل الغرب مشكلة أقصى ما يمكن أن يكسبه الانسان، وأما الهند فحلت مشكلة أدنى ما يكتفى به الانسان. وهما نظريتان متباعدتان ولا قاسم مشتركا بينهما.

وإن سيتا رمز الهند — الهند المثالية. وليست المسألة هل كانت سيتا امرأة واقعية أم خيالية خرافية، وهل الأسطورة حقيقية أو وهمية تصورية. ولكن الأهم بالاعتبار أن النظرية كانت حقيقة ثابتة. ولا نجد أسطورة من الأساطير لها هذه المكانة العليا فى قلوب الملايين، واندمجت نظرياتها مع دماء جنس خاص مثل ما لنظرية سيتا فى «راماين». وطوال هذه المدد الطويلة المليئة من المتاعب والمشاق لم تصدر من فم سيتا كلمة واحدة ضد راما أو تجرح قلبه. وتلقت هذه المحن كلها كأنها من الواجبات الملقاة على عاتقها، ويجب أن تقوم بها بقلب راض مطمئن. ألا ترى تلك الخطة الجارئة لطردها من البلاد إلى

المنفى فى الغابات! ولكن سيتا لم تشعر بالمرارة ولم تضمر الحقد أو البغض والكراهية تجاه أحد. وهذه هى النظرية الهندية ومثالها الحى.

ويقول القديس القديم بوذا العظيم: «إذا بادلت الأذى الذى أصابك من الآخر بأذى مثله فانه لا يضمد الأذى الأول، بل وأنه يضيف شرا آخر فى العالم».

وكانت «سيتا» هندية خالصة محضة بطبيعتها، ولم تبادل أبدا الأذى بالأذى والشر بالشر.

(Acknowledged with thanks from "Indian Literature", Bharatiy Vidya Bhavan Bombay)

الموسيقى

عند الملوك الأتراك والأفاغنة فى الهند

إن الموسيقى ألحانها أصوات ونغمات، ولها فى النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعات الصناع. فمن تلك النغمات والأصوات ما يحرك النفوس نحو الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة، وينشطها ويقوى عزماتها على الأفعال الصعبة المتعبة للأبدان التى تبذل فيها مهج النفوس وذخائر الأموال. وهى الألحان المشجعة التى تستعمل فى الحروب وعند القتال فى الهيجاء، ولا سيما إذا غنى معها أبيات موزونة فى وصف الحروب ومديح الشجعان، مثل قول البوس.

لعمرى لو أصبحت فى دار منقذ ٭ لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار غربة ٭ متى يعد فيها الذئب يعد على شاتى
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل ٭ فانك فى قوم عن الجار أموات

فان هذه الأبيات وأخواتها يقال أنها كانت سببا لاثارة أقوام إلى الحرب والقتال بين قبيلتين من قبائل العرب سنين متواترة.

ومن الأبيات الموزونة أيضا ما يثير الأحقاد الكامنة ويحرك النفوس الساكنة ويلهب نيران الغضب، مثل قول القائل:

واذكروا مصرع الحسين وزيد ٭ وقتيلا بجانب المهراس

فان هذه الأبيات وأخواتها أيضا أثارت أحقادا بين أقوام وحركت نفوسهم والتهبت فيها نيران الغضب وحثتهم على قتل أبناء الأعمام والأقرباء والعشائر، حتى قتلوهم بذنوب آبائهم ووزر أجدادهم ولم يرحموا منهم أحدا.



الامبراطور المغول جهانكير

ومن الألحان والنغمات أيضا ما يسكن سورة الغضب ويحل الأحقاد ويوقع الصلح ويكسب الألفة والمحبة. فمن ذلك ما يحكى أن فى بعض مجالس الشراب اجتمع رجلان متغاضبان، وكان بينهما ضغن قديم وحقد كامن، كلما دار الشراب بينهما ثار الحقد والتهبت نيران الغضب، وهم كل واحد منهما بقتل صاحبه. فلما أحس الموسيقار بذلك منهما غير نغمات الأوتار، وضرب اللحن الملين المسكن وأسمعهما، وداوم حتى سكن سورة الغضب عنهما، وقاما فتعانقا وتصالحا.

فلا خفاء فى أن لصناعة الموسيقى تأثيرات فى نفوس المستمعين، مختلفة كاختلاف تأثيرات صناعات الصناع فى الهيوليات الموضوعة فى صناعاتهم. فمن أجلها يستعملها كل الأمم من بنى آدم وكثير من الحيوانات أيضا، والدليل على تأثيراتها استعمال الناس لها، تارة عند الفرح والسرور فى الأعراس والولائم والدعوات، وتارة عند الحزن والغم والمصائب وفى المآتم، وتارة فى بيوت العبادات وفى الأعياد، وتارة فى الأسواق والمنازل، وفى الأسفار والحضر، وعند الراحة والتعب، وفى مجالس الملوك ومنازل السوقة. ويستعملها الرجال والنساء والصبيان، والمشائخ والعلماء والجهال، والصناع والتجار وجميع طبقات الناس. فكانوا يستعملون عند الدعاء والتسبيح والقراءة ألحانا من الموسيقى تسمى المحزن، وهى التى ترقق القلوب إذا سمعت، وتبكى العيون، وتكسب النفوس الندامة على سالف الذنوب، وإخلاص السرائر، وإصلاح الضمائر. وكانوا أيضا استخرجوا لحنا آخر يقال له «المشجع» كانت تستعمله قادة الجيوش فى الحروب والهيجاء، يكسب النفس شجاعة وإقداما. واستخرجوا أيضا لحنا آخر كانوا يستعملونه فى المارستانات وقت الأسحار، يخفف ألم الأسقام والأمراض عن المريض ويكسر سورتها ويشفى من كثير من الأمراض والأعلال. واستخرجوا أيضا ألحانا أخرى تستعمل عند الآلام والفرح، وكل ذلك لأن كل صوت له نغمة وصيغة وهيئة روحانية خلاف صوت آخر، وإن الهواء من شرف جوهره ولطافة

عنصره يحمل كل صوت بهيأته وصفته، ويحفظها إلى أن يبلغها إلى أقصى غاياتها عند القوة السامعة.

وتختلف أمم العالم وشعوبه فى ألحانها وأصواتها. فلكل واحدة منها نغمات لا يشبه بعضها بعضا، ولا يحصى عددها كثرة، وصنعت كل واحدة منها آلات وأدوات كثيرة لنغمات الموسيقى وألحان الغناء، مفننة الأشكال، كثيرة الأنواع، مثل الطبول والدفوف والنايات وما شاكلها من الآلات المصوتة.

وما زالت مسئلة الموسيقى عند العلماء المسلمين مختلفا فيها، وموضوع مباحثات ومناقشات. قال صاحب العقد الفريد: إن عامة أهل الحجاز أجاز الغناء وكرهه عامة أهل العراق. وأيا كان الأمر لم يحظر الولاة الاسلاميون الموسيقى حظرا باتا فى عصر من العصور. وقيل إنه كان أيام الخليفة عثمان رض مطرب شهير اسمه أبو عبدالنعيم، وعرف أهل المدينة بكثير من الألحان الجديدة.

وأما الخلفاء الأمويون فقد أخذوا — كما أخذ العباسيون من بعدهم — نظام مجالسهم عن الفرس، ويحدثنا التاريخ عن طويس، مولى بنى مخزوم، وأبى مروان الغريض وغيرهم ممن اشتهروا فى الغناء والموسيقى.

ولا يخفى على أحد ما كان للخليفة هارون الرشيد من ولع بالموسيقى والغناء. فكان له جماعة من المغنيين، منهم إبراهيم الموصلى وابن جامع السهمى ومخارق؛ وطبقة أخرى دونهم، منهم زلزل وعمر والغزال وعلوية، وكان له زامر يقال له برصوما.

وما من شك فى أن كل فن يترقى ويتقدم بسرعة ويزدهر ازدهارا عندما يعنى به رئيس الأمر ويشجع على ترويجه. ومن أجل هذا كان المسلمون قد خطوا خطوات كبيرة فى حقول الفن قبل وصولهم إلى الهند وتسيطرهم عليها،

ولا سيما الأتراك الذين لا نكاد نسرف لو قلنا إن الغناء كان يصحبهم من المهد إلى اللحد. وهكذا لم تبق الثقافة الايرانية متخلفة فى الفنون الجميلة، بل ضاعفت عن قيمتها وخلعت على الموسيقى الاسلامى حلة قشيبة، واكسبته بهاء وزينة أكثر من قبل. وليس أن الغناء والموسيقى كان شيئا مستحدثا للهند عند دخول المسلمين إليها، وإنما كان لها موسيقى تحمل مزاياها وتدور فى ألحانها الهندية الرائعة، وعل السبب فى ذلك يرجع إلى العائلة المورية التى اعتنت بالفنون الجميلة واهتمت بالموسيقى بصفة خاصة، فازدهرت هـــذه الفنون فى الأراضى الهندية. ووجد الفاتح محمد قاسم حين نزوله على شواطئ الهند أن الغناء شائع بين الهنود، وللفن بينهم مكانة سامية، وأن المولعين به يدرسونه دراسة وافية، ويؤلفون فيه كتبا، فمنها كتاب «ناتيا شاستر» ألفه الأستاذ «باهراموني» فى القرن الثالث الميلادى. وهذا الكتاب. وإن كان موضوعه «الدراما»، تناول التقاليد المحلية، وشرحها شرحا وافيا. ووضع أسسا للموسيقى والرقص.

وهنا كتاب آخر أقدم من الأول، «سلبا ديكرام» تناول فيه المؤلف الموسيقى الكلاسيكية والرقص، وعالجها معالجة مسهبة. ويعود تاريخ تأليفه إلى القرن الثانى الميلادى. وظل المعتنون بالموسيقى يؤلفون الكتب. ويعد كتاب «راج ترنجنى» (Rag Tirangini) من أهم ما كتب فى الموسيقى، ألفه الأستاذ «لوشناكوى» (Loshna Kavi) فى القرن الثانى عشر من الميلاد. ولا مراء فى أنه كتاب له قيمة فنية وتاريخية.

وهنا عامل آخر لانتشار الموسيقى فى الهنـــد فى القرون التالية. وهو ظهور المشائخ، الذين رحبوا بالموسيقى. فان الشيخ معين الدين الچشتى كان محترما لدى المسلمين والهندوس كليهما سواء بسواء. والمشائخ من هـــذه السلسلة —كما هو معروف— لا يحظرون الموسيقى. وإنما يستخدمونه كوسيلة من وسائل التزكية

والتطهير، ويولون إليه عناية خاصة. فأخذ الموسيقى منذ ظهورهم فى الهند، تتحول إلى طابع خاص مولد من الأسلوب الهندى والأسلوب الايرانى. وظل المتصوفون يهتمون بالموسيقى حتى اتخذوا منه أساسا لسلسلتهم وطريقا إلى تزكية نفوسهم، وحتموا على كل من ينسلك بسلكهم أن يستمع إلى الغناء. فيعقد لهم مجالس الغناء والطرب، كما هو شائع فى الهند إلى أيامنا هـــذه وشهيرة باسم «قوالى» يتذوقه معظم الشعب الهندى أيا كان دينهم ومسلكهم.

وتبدأ العصور الوسطى منذ ظهور العبيد فى الهند، وذلك من نحو سنة ١٢٠٦. وكان العلماء المتمسكون بالقديم أيام الملك قطب الدين أيبك (١٢١٠—١٢٠٦م) مقسيطرين عـــلى زمام الحكم، وداموا فى سلطتهم فى الأيام الأولى للملك شمس الدين الالتمش (١٢٣٦—١٢١١م). فكانوا يعارضون الغناء والموسيقى معارضة عنيفة، حتى اضطر الالتمش إلى أقامة رقابة شديدة على الموسيقى، وأصدر قرارا بحرمة الغناء، عـلى أن المشائخ لم يكونوا أن يتركوه، ولا سيما حينما جعلوه أقرب طريق إلى تزكية الروح. فوجه القاضى حميد الدين الناجورى اهتمامه الخاص إلى الموسيقى، وعقد له المجالس حينا بعد حين، ونفخ الروح فى هـذا الفن من جديد. فاعتنى الناس فى دلهى بالموسيقى يتذوقونها ويعملون على إحيائها. وطالب القاضى حميد الدين إلى الالتمش بأن يستثنى المشائخ ويتركهم وشأنهم فى الموسيقى، إذ لا مناص لهم منه، وذلك وإن بقيت محظورة على الشعب. وتأثر الالتمش بالقاضى وشخصيته تأثرا كبيرا، وسحب قراره السابق وأباح الموسيقى. وكانت نتيجته أن تسرب الموسيقى إلى البلاط الملكى وخلقت لها فيه محلا لائقا.

ركن الدين فيروز — ١٢٣٦

وتولى ركن الدين فيروز الحكم بعد الالتمش، وكان رجلا مغرما بالتنعم ومولعا بملذات العيش، فشجع على نشر الملاهى بأنواعها. وكان الموسيقى والغناء بصفة

خاصة مما شغلت معظم أوقاته، فكان الموسيقيون والمطربون يصحبونه ليل نهار وبجانب ذلك لم يحتشم من الاستمتاع بالرقص، فوجد الراقصون فى عصره أحسن عون، وجمع منهم عدد كبير حوله. ولم يعجب العلماء والفقهاء المعاصرين سلوكه، فقاموا يعارضونه ويحرضون الشعب على عزله، حتى اعتزل الملك وترك أريكة الحكم للسلطانة رضيه بنت الألتمش.

بهاء الدين البلبن

وكان هذا الملك أيضا من المعجبين بالموسيقى يهتم بترقيته وترويجه. وأصابه مرة مرض خطير، فلما تماثل منه أقيمت حفلات الفرح حضرها المغنون والفنانون، فغنت البلاد كلها بألحان الموسيقى وأصوات الغناء الرائعة. واجتمع فى بلاطه عدد غير قليل من الموسيقيين والمطربين يتعاطون مرتباتهم من خزينة الحكومة، وأصبحت مدينتا «ملتان ودلهى» مركزين شهيرين للموسيقى، وامتازت «ملتان» بصفة خاصة لأجل الموسيقيين البارعين فى «القوالى». وإنما كان هذا عصره حينما التفت عبدالله المطرب التركى إلى الشيخ بهاؤالدين وتلمذ له، وأقام لديه ما تيسر له.

كيقباد — ٨٩–١٢٨٧

وهو الملك الثانى من نفس الأسرة، وكان لين الجانب لا يكترث لأمور المملكة اكتراثا خاصا، واشتهر بولعه بالفنون الموسيقية وميله إلى التنعم. فكان عصره خير عون للموسيقى والغناء، فانتشرا أوسع انتشار، وأخذ الشعب عامة يتذوق الفن ويعجب بالفنانين، وتشجعهم على ذلك السياسة الملكية.

جلال الدين الخلجى ٩٦ — ١٢٩٠

تولى الحكم بعد كيقباد، وكان مولعا بالموسيقى والغناء مشرفا على تقدمها.

فاجتمع فى بلاطه جماعة من المغنيين يجزل العطاء لهم . ومن بين من ذاع صيتهم فى عصره محمد شاه تشنجى (Chungi) والست «فتوحه نصرت خاتون» و «مهر أفروز نون» . ولم يعجب العلماء بسياسته وميله إلى ترقية الفنون، فقاموا يجهرون بحرمة الغناء ويطالبون بمنعه . وأشاد الأمير خسرو بذكر جلال الدين الخلجى ويقول «إنه لم يستطع الفراق عن الموسيقى، فكان يستمع تارة إلى زملائى ينشدون له أناشيد . وينصت أخرى إلى المغنيين ويستلذ بأنغامهم . وبجانب ذلك كنت أنشد له القصائد» .

ولم يكد القرن الثالث عشر الميلادى ينتهى حتى ظهر كتاب هام فى فن الموسيقى . ألفه «شرنجاديوا» الكاشميرى . وسماه «سنجيت رتن كارا» . ويعد هذا الكتاب من أهم ما كتب فى الموسيقى الهندية على نحو ما يعتبر من أبهر التاجات التى تنور السبل للطالبة فى هذا الميدان .

علاؤالدين الخلجى — ١٢٩٦ م

كان هذا الملك حاكما قويا . ويدخل فى زمرة من قدر الموسيقى تقديرا فنيا . واعتنى به اعتناءا . وإن ملوك دلهى السابقين يفضلون الأغانى الرخيصة والقصائد العادية .

وكان الأمير خسرو شاعرا من الطبقة الأولى فى الفارسية وموسيقيا بارعا، يجيد السنسكريتية . ولد فى ١٢٥٢ م . وأصبح فيما بعد أحد أصدقاء محمود بن الملك بهاؤالدين، فوجد فى البلاط له محلا . واستمتع برعاية شتى ملوك دلهى، وتوفى سنة ١٣٢٥، وهى العالم الذى تسنم محمد تغلق أريكة الحكم . وأدخل على الموسيقى الهندية ألوانا مختلفة من الفنون وابتدع فى هذا الميدان ابتداعا حسنا، وخلق من الموسيقى الهندية والايرانية طابعا جديدا . وقال عن الموسيقى الهندوسية :

« الموسيقى الهندية هى النار التى تحرق القلب والروح وهى لا تماثلها موسيقى البلاد الأخرى، وما من أجنبى مهما طال مكوثه فى الهند، أن يعزف ولو لحنا واحدا من الألحان الهندية، وليس أن الموسيقى تسحر الناس وإنما تستأسر البهائم، فقد اصطيدت الغزلان بعد أن أخذت الموسيقى بألبابها. »

وذكر خسرو قائمة تحوى على أسماء الموسيقيين ذائعى الصيت فى ذاك العصر، وخص بالذكر محمد شاه تشنجى، وحسينى أخلاق. وكنجشك، والسيدة ترمتى خاتون. وأسهب كذلك ببيان الأدوات الموسيقية المستعملة حينذاك، فوصف الدف والطنبور وشهناى ورباب والطبل والعود وغيرها. ومن ميزات خسرو أنه أخرج من «ميردنج» الطبل الحديث. وروى أن اختراع الآلة الموسيقية الهندية الشهيرة سيتار (Sitar) يرجع إليه، وقد استخرجه من «وينا» الهندوسية والطنبورة الايرانية، ويقال إن سيتار (سه تار) كانت فى بدايتها ذات ثلاثة أوتار فقط، وأضيفت إليه أوتار غيرها فيما بعد.

ولم يكتف خسرو باختراع سيتار، بل له مساهمة كبرى فى اختراع الألحان الجديدة، فتدين له ألحان «ساز جارى ومجير وأيمن وأشك»، مضافا إلى ذلك أنه صاغ لحن «دوربد» القديم إلى قالب لحن «الخيال». وأتى فى «القوالى» بتقدم مرموق، فاتخذ له ألحانا تصلح لأن تعزف على الأدوات. وهكذا يرجع إليه الفضل فى ألحان «شارتال وأداتال وسلفك». وكان مرشد خسرو الشيخ نظام الدين المشهور بسلطان الأولياء وهو أحد الزهاد والنساك الكبار فى العصور الخلجية، وكان له ولوع بالموسيقى. وبما أنه كان مقبولا محترما بين الشعب يجله كل فرد صغيرا كان أو كبيرا، شاعت الموسيقى بين الشعب، وعلى أقل تقدير بين أتباعه. وحدثنا التاريخ أن معظم سكان العاصمة اعتبروا من واجباتهم الدينية

أن يذهبوا إليه حينا بعد حين ويجالسوه فى الحفلات الغنائية. وكان الملك علاؤالدين بدوره معجبا بالشيخ، ويتهز فرصة الحضور إليه والمشاركة فى الحفلة.

ويروى عن الخلجى. أن «كافور» أخذ من معبد هندوسى بعض الأصنام المقدسة لدى الهندوس وحمله إلى الخزينة الملكية، ففكر نساك المعبد فى حيلة لاستعادة معبودهم. وأجمعوا بعد لأى. على أن يذهبوا إلى الخلجى، ومعهم الفنانون الحذاق. ويسروا الملك أولا بالألحان الموسيقية الرائعة حتى يتأثر ويعطف عليهم، ثم يطلبوا إليه إعادة صنمهم. فيلبى طلبهم. فمثلوا بين أيديه وغنوا وعزفوا، حتى تأثر الملك وأمرلهم بعطاء جزيل. لكنهم رفضوا قبول العطاء الملكى والتمسوا إليه أن يعيد إليهم صنمهم. فقبل الملك رجاءهم وآتاهم سؤلهم.

وكانت المناطق الجنوبية الهندية إلى ذاك الحين تحتفظ بالموسيقى الهندوسية الكلاسيكية القديمة، وذلك أن الغزاة الأتراك الوافدين فى المناطق الشمالية لم يؤثروا فى الموسيقى الهندوسية الجنوبية. وأمر الملك الخلجى باستدعاء الفنانين من الجنوب، وإعداد التسهيلات اللازمة لاستقرارهم فى المناطق الشمالية. وكان الفنان الشهير «جوبال نائك» ممن اغتنموا دعوة الملك وبادروا إلى العاصمة، واستوطنوا فى دلهى، وهو من الشخصيات البارزة لهذا العصر. وله مكانة ممتازة فى فن الموسيقى.

وأراد الملك مرة أن يوازن بين فنى جوبال و خسرو، فأمر الأول بالغناء. وكان خسرو عندئذ مستترا وراء حجاب، وامتثل جوبال الأمر الملكى، وغنى أحسن ما عنده من الألحان الهندوسية مما أخذ بمجامع قلوب الحضور، وخسرو يستمع إلى اللحن ويحفظه بذكائه الخارق. فلما كان من الغد طلع على الحضور وغنى «القوالى» و «ترانه» يحاكى فيهما اللحن الذى سمعه أمس من جوبال الذى أعجب بهذه المعجزة التى أتى بها خسرو، إذ لم يخطر على باله أن أحدا من فنانى الشمال يقدر على إدراك الفن الجنوبى واكتناه غوامضه.

قطب الدين مبارك الخلجى - ١٣٣٠–١٣١٦

لم يكن هذا الملك متخلفا فى ذوقه الفنى، فكان حفيا بالفنانين ومساندا لهم، وعندما أنجب الملك نجلا أقيمت فى طول البلاد وعرضها حفلات، وأعدت حفلة خاصة رقصت فيها الفنانات الهنديات والايرانيات، وأظهر فيها الموسيقيون براعتهم وحذقهم فى فنونهم. واهتم خسرو بوصف هذه الاحتفالات فى كتابه «نوح سبهر».

غياث الدين تغلق

كان هذا الملك ممن يميلون إلى التشبث بالتقاليد القديمة. وقام لنيل السيطرة بدعاية مؤداها أن الاسلام فى خطر تهدده سياسة ناصرالدين خسرو شاه، فلو دامت السلطة فى يده لن يبق للاسلام أثر فى البلاد الهندية. وكان خسرو — على عكس ذلك — مسلما هنديا غيورا لوطنه مفتخرا بجنسيته، فلم تعجبه السلطة التركية الأفغانية، وطمح إلى تخليص موطنه منها. وانتهز العلماء الفرصة السانحة فطالبوا الملك بأن يحرم الموسيقى. واستسلم الملك لمطالباتهم، ومنع الموسيقى وبالغ فى حظره حتى لم يشجع على المحافل المنعقدة عند الشيخ نظام الدين وساعده على ذلك فتوى الفقهاء بحرمة هذه المجالس. وأكدوا بأنها مفسدة عظيمة تكاد تأتى على الدين. وكان الشيخ، محببا ومحترما عند الشعب — كما قلنا — فخاف الملك على سلطته فى معارضة الشيخ، فارتأى أن يجمع بينه وبين الفقهاء. فطلب الفقهاء من الشيخ أن يتقدم بما لديه من مبررات ومبيحات لهذه المجالس. وناظر الشيخ مناظرة مبرهنة ناجحة، حتى أقنعهم. واضطر الملك إلى أن لا يتعرض الشيخ فى أعماله ويتركه وشأنه ليتخذ لنشر طريقته ما يروقه من الوسائل. هذا، ولكن لم يقتنع الملك بأعمال الشيخ اقتناعا تاما، وبحث عن أسباب أخرى لينقم منه. فظل الخلاف بينه وبين الشيخ يستفحل، وا

تله حتى توفى فى «أفغان بور» سنة ١٣٢٥ م.

وكان محمد تغلق بصيرا بأمور الدين إلى حد. فلم يطمئن إلى حرمة الموسيقى، بل رحب بها إلى بلاطه. وألغى القرار السابق الذى نص على حرمتها، وعين الأمير شمس الدين، مشرفا على «أرباب النشاط». ومهمته أن يعتنى بالحفلات الغنائية المعقودة فى البلاط. فاجتمعت فى بلاطه جماعة من الموسيقيين والمغنيين ما بين ذكر وأنثى. وتمتع منهم اثنا عشر مكانة ممتازة.

وما زالت الموسيقى فى ازدهارها أيام الملك فيروز تغلق، وذلك مع كونه رجلا متقشفا زاهدا إلى حدما. فأقيمت حفلة موسيقية بمناسبة تتويج الملك، ودامت لاحد وعشرين يوما، اشترك فيها خاصة الملك وندمائه. ولم يخالف الملك هذا الفن وإنما شغل كفاءته لترقيته، وشجع على تدوينه تدوينا فنيا. وألفى فى مهمته إلى مدينة «كانجرا» بعض الكتب بالسنكرتية كانت محفوظة فى «جوالامكهى»، بعض هذه المؤلفات كانت فى الموسيقى والرقص. فأمر الملك بترجمتها إلى اللغة الفارسية ليعم نفعها.

وأما الملوك الذين ارتقوا بعده العرش من الأسرة التغلقية فكانوا ضعفاء، لم يتمكنوا من استحكام سيطرتهم فضلا عن فرص للعناية بالفنون. وهذا بخلاف الملوك السادة، فكانوا ذوى ذوق سليم، لم يهملوا الفنون. واشتهر منهم مبارك شاه بولعه بهذا الفن وتشجيعه على رفع مستواه.

وأما الملوك من الأسرة اللودهية فكانوا مضطرين بالظروف السائدة إلى إهمال الفنون الجميلة. فظهور الطائفة المهدوية — مثلا — كان لهم عائقا كبيرا. فنجد لكل فن من فنون هذا العصر طابعا خاصا. ولا مراء فى أن الفنون كلها تحتاج لازدهارها إلى جو يسوده السلام. هذا من ناحية، ومن ناحية

أخرى عناية العاهل وإشرافه عليها. فان عدمت هذه العوامل لا نجد تقدما ملموسا فى الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، أو الثقافية والفنية. وكان نفس العامل الذى حال دون تقدم الفنون الجميلة فى العصور الخلجية المتأخرة، اللهم إلا فى الهند الشمالية والوسطى، حتى اعتنى بها بعض الأمراء الهندوس. أخص بالذكر منهم ولاة «جواليار» و «وجى نجر». فساعدوا على بقاء الفن والموسيقى، وذلك فى حين كادت الهند تفقد فنانيها. ويعد «مان سنجه» من رواد ومؤسسى «المكتب الجواليارى الموسيقى»، وكان بنفسه مغنيا ومعنيا برجالات الفن. وقيل إنه هو الذى ابتكر الأسلوب الحديد (دهورپد). وكان فى جواليار فنان شهير يسمى «نائك بهكشو»، الذى أقام فى «جواليار»، ثم توجه إلى «جحرات»، حيث رحب به «بهادر شاه». وممن اشتهروا فى ذلك العصر «بندارى» «ولاهنج».

الملوك المغول

يمتاز الملوك المغول فى التاريخ الهندى بعنايتهم الخاصة بالفنون، واهتمامهم بالموسيقى، فكانوا يوظفون شخصيات بارزة فى الفن، يبذلون عليهم ببذخ وترف، وحاولوا لأن يجتمع فى بلاطهم أكبر عدد ممكن من أبناء الفن. وهم الذين جاؤا بموسيقى ملكية شهيرة باسم «نوبت»، وكان لها محل خاص يسمى «نقارخانه». وكانت رمزا للملكية والسيادة. والأدوات المستخدمة فيها كانت الطبل، والنفير وغيرهما. ومركزها الطابق الأعلى على الباب الرئيسى للقصر. وهكذا كانت الموسيقى العسكرية تلعب دورا هاما فى الاستعراض العسكرى المغولى. ولم يخالف العلماء المتشددون «نوبت»، وإنما أفتوا بجوازها. حتى الامبراطور أورنج زيب، رغم اعتيافه الموسيقى وحظرها فى البلاط، لم يعارض «نوبت» والموسيقى العسكرية.

ولنا شواهد تدل على أن الغناء كان منتشراً أيام الامبراطورين همايون و بابر

إلى حد كانت الحفلات الغنائية تقام فى داخل القصور الملكية أيضا. ويقول المؤرخ «الدايونى» إن الشيخ «خوران» أشهر الموسيقيين تمتع بعناية الامبراطور بابر، ومكث فى بلاطه، فان الامبراطور كان حفيا بضيافة الفنانين ومعجبا بهم.

وقال مؤرخ آخر «لين بول» إن الامبراطور نفسه كان عارفا بالغناء، وألف مجلداً ضخما باللغة التركية فى هذا الفن.

وكان همايون ممن امتازوا بذوقهم ومعرفتهم بالفن، كما يقول مؤرخه «خواندمير» إن مصاحبة المغنيين سرت الامبراطور، وكان يستمع إليهم كل يوم الاثنين والأربعاء. ونديمه الخاص «بيرم خان» كان مغنيا يدرك غوامض الغناء، وبلغ من عناية الامبراطور بالفن والفنانين أن قسم شعبه إلى ثلث طبقات: أهل السعادة، أهل الدولة، وأهل المراد. ولم تكن الطبقة الثالثة إلا عبارة عن شباب حسان، أذكياء، وبالخصوص موسيقيين ومغنيين وفنانين، وحظوا كلهم بالعناية الملكية، يعيشون على المنحات الملكية، ومن أهم هولاء «حيدر تنيانى».

وظهر «شيرشاه السورى» على منصة الهند، وهزم همايون، وكان شيرشاه عميق الفكر، صائب الرأى، قويا، غير متقيد بالتقاليد، غير مهتم بتوافه القول وسفاسف الأمور، بيد أن الظروف السائدة لم تسمح له أن ينفذ سياسته الدينية بتمامها. ومن أجل هذا لم يجرؤ على مساعدة الفنون الجميلة علنا، بل أصدر قرارا بحظر الموسيقى، لكنه وابنه عادل شاه واصلا تشجيعها. قال البدايونى «إن مخدوم الملك كان من المولعين بالموسيقى، ويعقد له مجالس سرية وراء الأبواب المغلقة». وأدرك إسلام شاه وعادل شاه قيمة الموسيقى، وكان الأخير من مهرة الفن حتى اندهش الحذقة والبرعة حينما شاهدوه يعزف على الآلات. وورد أن فنانا من فنانى الجنوب أتى بالآلة «بكهوج» إلى البلاط، وكان أطول من أن يمد أحد يديه إلى طرفيه، وحاول كل فنان حاضر أن يعزف لكنه فشل،

مما أثار اهتمام الملك فقام وتعاطى الأداة يعزف عليها بيديه ورجليه معاً، وكان المنظر مدهشاً.

ولمس الملك مرة فى غلام يدعى «بهجت» (Bhagat) أمارات النجابة ومخائل الذكاء، وأحس بأنه يميل إلى الموسيقى، وسيصبح أحد البرعة فيها لو اعتنى به. فأشرف عليه ورباه أحسن تربية وخصص له محلا لائقا. وتقول الروايات إن المغنيين البارزين «تان سين» و «باز بهادر» كانا تلميذين للسلطان، وتلقيا منه فنهما الخالد. وبلغ من إعتنائه بالموسيقى أن اتهمه بعض المؤرخين بالاهمال فى الشؤون الادارية وإيثاره الغناء والرقص. ولا نسرف فى القول بأن عصر عادل شاه كان — رغم قصره — أحسن عصر للموسيقى وأسعد وقت لترقيته.

أكبر

ارتقى هذا الامبراطور العرش سنة ١٥٥٦م، ويمتاز بشعوره العميق بهنديته، وأحدث تغييرات هامة فى جميع الدوائر الحكومية، ووضع أسسا جديدة لادارات الدخل وغيرها. ولم يقيد نفسه بتقاليد الدين المتوارثة. وكان قلبه يفيض بشعور التقدير والاجلال لجميع الديانات، وحاول لنهج سياسة اجتماعية دينية جديدة.

ولم يستر ما استهدفه، بل قام بتنفيذ سياسته علنا. وأكبر من شأن الموسيقى، وأغدق على المغنيين والموسيقيين بالنعم، ودرس بنفسه الغناء دراسة وافية، ونال مكانة فنية ممتازة. وينوه المؤرخ الشهير أبوالفضل باهتمامه بالفن وإشرافه على القائمين بشؤونه. واجتمع فى بلاطه عدد كبير من المغنيين والمغنيات، ممن قصدوا إلى العاصمة من شتى أنحاء البلاد، بل أحيانا من خارجها. فكان فيهم من جاؤا من إيران وتوران وكاشمير. وقسم الامبراطور مغنى البلاط إلى

سبع طوائف، تختص كل طائفــة بنوع خاص من الفن، وتعرض فنها على الامبراطور فى يوم مختص لها.

وكان «هرى داس سوامى» أكبر أستاذ ومعلم الموسيقى الهندوسية فى عصر الامبراطور أكبر. واستوطن «ورنداون» عــلى شواطىء نهر جمنا، ولا تزال الأساطير متداولة بين الناس حول فنه المعجز. وهو الذى اكتسب منه «تان سين» الفنان الشهير.

ويجدر بنا أن نذكر هنا نبذة من سيرة هذا الفنان. ولد تان سين فى قرية من القرى القريبة من جواليار سنة ١٥٤٤، وسماه الأبوان تنّا (Tanna). ودخل فى أتباع الناسك هرى داس، على نحوما تأثر بالشيخ محمـــد غوث الجواليارى. واشتغل فى بداية عهده بخدمة رام سنجه، والى ريوا، وأصبح مغنيا ملكيا. وسرعان ما ذاع صيته حتى بلغ الامبراطور المغولى «أكبر»، فبعث إلى رام سنجه يطلب إليه إرسال تان سين إلى العاصمة المغولية. واستسلم رام سنجه لرغبة الملك كرها. فبلغ الفنان البلاط المغولى، واستقر فيه، وعاشر زملاءه المسلمين ليلا ونهارا. واتصل بالنساك المسلمين، وتأثر بالدين الاسلامى ودان به. فمنحه الامبراطور لقب «ميرزا» وخصص له محلا عاليا فى البلاط. وغنى ميرزا بلحن «دهرپد» بصفة خاصة. ويعود إليه الفضل فى اختراع لحن «سر بهار»، وابتكر ألحانا جديدة، منها «درباری كنهادا» و «ميان كى سارنك» و «ميان كى ملهار» وما إلى ذلك. وتقول أسطورة إن تان سين كان يوقف مياه «نهر جمنا» بأغانيه الحلوة على نحوما كان فى وسعه أن يخلق نارا، أو يجعل الوحش ترقص عــلى ألحانه. وتأثر الامبراطور مرة بفنه تأثرا بالغا، فأمر له بثلث مليون روبية.

وقال الشاعر «سيرابتى» ما مغزاه:

« إن الامبراطور أكبر ملك الناس جميعا، وملك تان سين الألحان والأنغام، ولا مراء فى أن التسيطر عليها أصعب منه على البشر. »

ويقول بعض المؤرخين إنه مات فى ابريل سنة ١٥٨٩م فى لاهور، ونقلت جثته إلى جواليار حيث دفنت، وضريحه الآن كعبة القصاد، يؤمه المولعون بالموسيقى، ويستظلون بشجرة «نيب» التى تظلل ضريحه. والشائع بين الناس أن من أكل أوراق هذه الشجرة زالت من صوته البحة والأمراض الأخرى.

ونقده بعض النقادين بأنه غير من بعض الألحان السنسكريتية الكلاسيكية القديمة حتى لم يبق لها أثر، ولا نعرف الآن منها إلا أسماءها الواردة فى الكتب القديمة. وأيا كان الأمر، لا نجد مجالا للشك فى عبقريته الفذه، ولا يزال اسمه وألحانه مقبولة متداولة بين الفنانين.

وهنا فنان آخر «بيجو باورا»، عاش أيام الامبراطور أكبر، وهو من منافسى تان سين، ولعل هذا التنافس هو العامل الأساسى الذى دفع أباالفضل إلى الاعراض عن ذكر «بيجو باورا». فان أباالفضل كان من المعجبين بـ «تان سين». ولا تقل الأساطير حول بيجو باورا منها حول معاصره تان سين، فوردت أن الحيوانات كانت تجمع حوله حين تغنيه الألحان الحلوة، كما وردت أنه شق صخرة صماء بقوة لحنه الذى ابتكره لهذا الغرض خاصة.

وعاش فى نفس العصر فنان آخر «باز بهادر»، وكان فى اوائل أيامه حاكما على «مالوا» ثم حصل على «منصب هزارى» فى البلاط المغولى، وكان من أبرع المغنيين. ولا ينبغى لنا أن نعرض هنا عن ذكر «بابارام» أحد رجالات الفن فى هذا العصر. ذكره أبو الفضل معجبا بفنه وبراعته، ومنحه الامير خانخانان مرة مائة ألف روبية.

وبجانب ذلك كان فى البلاط فنانون آخرون، منهم سبحان خان و شاند خان و داؤد و ديوان دهـارى. وممن اشتهروا بالعزف عـلى الأدوات الموسيقية «شهاب خان». و معظمهم كانوا مسلمين. وعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن الهندوس مازالوا متشبثين بفنهم الكلاسيكى القديم متعصبين له ومدافعين عنه، بينما تقدم المسلمون خطوة أخرى، وخلقوا من الفنون الهندوسية والايرانية أساليب مبتكرة مما راقت الملوك الأفاغنة والأتراك وروت غلتهم الفنية.

ولا نرى من اللائق أن نغمض فى هـذا المقال عن الفنان «بنداريكا وتهالا الـكرناتكى»، يخدم فى بدأ الأمر «برهان خان» فى خانديش، ثم توجه إلى الهند الشمالية، وعندما أخضعت قوات «أكبر» مدينة برهانبور دخل فى خدمته. وكان له إلمام تام بالفن، وألف أربعة كتب فى الموسيقى. وهى «صدراج شندر ودياء (Sudrag Chandr Vadaya) و راج مالا (Raga mala) و راج منجرى (Raga Manjari) و ورتنا نرنايا (Nauratna Nirnaya).

ولم ينهر الذوق الفنى عند الامبراطور، وإنما كانت جماعة كثيرة العدد تعرف الفن وتتذوقه وتحاول لترقيته. وكفانا مثالا «راجه بهجوان داس و راجه مان سنجهه و بازبهادر و عبدالرحيم خانخانان»، فهم كانوا مغرمين بالموسيقى والغناء، فبادر الشعب وتقبلها قبولا حسنا. ومن أجل هـذا نقول إن عصر الامبراطور أكبر كان أزهى عصور للفنون الموسيقية والغنائية، فبلغت مكانة عالية، وخلق لها طابع جديد هندى يعد من روادها تانسين و بيجو باورا و بازبهادر و رام داس.

وربما يصدق أن تانسين أهمل عدة ألحان السنسكرية القديمة، لكنه لا مراء فى أنه ابتكر ألحانا جديدة راقت الشعب ووجدت انتشارا. ومن العوامل التى خلقت من تانسين عبقريا وحيدا، البيئة الحرة التى وجدها عند هرى داس و محمد غوث الجواليارى، والأبوة الهندوسية، والأساتذه المسلمون والهندوس

ومشرف مسلم مضافا إلى ذلك الدين الاسلامى الذى اعتنقه بعد تأثره به. ومن البديهى الجلى أنه إذا اجتمعت مثل هذه العوامل فى شخصية وتمر عقليته بهذه المراحل، أن يشرب أسلوبين ويتولد منهما فى فكره أسلوب مبتكر.

وروى عن الفنان بيجوباورا أنه وجد فى رحى الأحجار منبعا للاستلهام، فاستنبط من صوتها الألحان الخفيفة، وعلى عكس ذلك ألفى الفنان بازبهادر فى «روب متى» خزينة فنية يستمد منه عواطفه الفنية، وكان ملما بالألحان الهندوسية والنظام الموسيقى الهندوسى القديم.

جهانجير

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الامبراطور كان رئيس الفنانين. وهو الرابع من الأسرة المغولية، وخلف أباه، وورث من جده الذوق الأدبى، فكان يكتب يومياته، وكان مغرما بالتصاوير وولوعا بالموسيقى ومعاضدا للقائمين بها. أكب على دراسة الموسيقى، ونال منها حظا وافرا. لكن هوايته الخاصة كانت التصاوير والحدائق. وتعود على سماع الأغانى فى الحفلات الملكية وأغدق على الفنانين بالنعم وأجزل لهم العطاء. ويمكن إدراك ما كان له من الذوق بما ورد فى «تزك جهانجيرى» و «إقبال نامه جهانجيرى»، إذ نجد فى الأخير ستة أسماء لمن اختصوا بفن الموسيقى والغناء وبرعوا فيهما، فاشتهر جهانجير داد، وبروير داد، وخرم داد، وماكهو، وهمزان، وشترخان. وقال «فش» إنه الآخر قسم الفنانين على سبع طبقات، وخص لكل واحدة منها يوما خاصا. وبما أنه كان يبذل على المطربين ببذخ، اجتمع فى بلاطه منهم عدد كثير، ليسروا الامبراطور، ويظفروا بالعناية الملكية، وكانت فى البلاط — بجانب المطربين — مطربات غانيات.

وتيسر فى عصر هذا الامبراطور للكاتب «سومناتهر» كتابه الهام «راج وبوده»

الذى يعالج الفن أوفى معالجـة ، وانتهى «سومنانهر» من تاليفه سنة ١٦١٠م . وظهر فى نفس العصر مؤلف آخر سنجيت دربن (Sangit Darpana) ألفه دامودر ابن لكشمى دهاراى ١٦٢٥ ، اللهم إلا أن الباحثين يزعمون أن دامودر لم يأت فى نتاجه بشىء جديد ، بل اعتمد على سنجيت رتن كارا ، لـ شرنجاديوا ، على نحوما عثر على المراجع الأخرى التى أخذ منها فى كتابه بلا احتشام . ولعل اعتماده على الكتب الأخرى كان سببا رئيسيا فى عدم انتشاره .

شاهجهان

لم يكن هذا الامبراطور أيضا متخلفا فى ميدان مساعدة الموسيقى ، ودأب على أن يستمع إلى بعض الألحان قبل أن يستريح كل يوم . ويتشدق التاريخ بذكر الحفلات التى كانت تقام فى «ديوان خاص» من القلعـة الحمراء بدلهى ، حيث حضر الفنانون من الدرجة الأولى وقدموا فنونهم المدهشة وفازوا بالجوائز الثمينة . وشاع إلى حـد حضور الغانيات الشابات فى الحفلات الملكية لمناسبة الأعياد الدينية والوطنيـة ، فيعزفن على الدفوف وغيرها . ومما يذكر الحفلة التى أقيمت بمناسبة اقتران أورنج زيب مع كريمة شاه نواز خان ، فالفرح لم يكن فارغا من الغناء .

وكان الامبراطور نفسه يعزف أحيانا على الأدوات الموسيقية ، وقـد حظى بصوت جذاب رائع ، وأما من اشتهروا فى عصره فمنهم ججن ناتهر و رام داس و مهابتر و سكهر سين و سرسين و درنج خان و لال خان . وخلع الامبراطور على ججن ناتهر لقب «كوى راج» ، وهو أحب معاصريه عند الملك ، كما لقب لال خان لقبا آخر .

وامتاز الفنان سرسين بعزف «الرباب» ، ولال خان بعزف «بين» . وأحسن المؤلفات الموسيقية لهـذا العصر «سنجيت برى جت» ، ألفه «أهوبالا» . وأخذ

المؤلف معظم المواد من «راج ترنجنى» و «راج وبوده». ويشهد الكتاب بأن المؤلف كان عارفا بمائة واثنين وعشرين لحنا، ويعد مؤلفه من أروع ما كتب فى الفن، وله مكانة عليا بين الفنانين.

أورنج زيب (عالمجير)

تولى الحكم وكان متقشفا إلى حد كبير، لم ترقه الغناء أو الموسيقى، ولو نجد شواهد على استخدامه الموسيقى فى أوائل عهده. ويوبده وجود «هرى ديانارائن» فقد كان إخصائيا بعزف «وينا». وظهر فى أوائل عصره الكتابان الشهيران «هرى دياكوتكا» و هرى ديابركاش، وذلك عندما كان شاهجهان معتقلا فى قلعة آجره، وهى نفس الفترة التى يدور حولها تاريخ تأليف «شتردانذى بركاشكا» لـ ويانكا تهمكى». بيد أن السياسة العالمجيرية كانت فيما بعد ضربة قاصمة للموسيقى وعاقت دون تقدمها، ولا سيما عندما طرد من بلاطه جميع المغنيين والمطربين، وأهمل من شأن القائمين بالفن، وشدد سياسته عندما أصر عليه العلماء، فأصدرا قرارا بحرمة الموسيقى فى طول البلاد وعرضها. وأنشأ مصلحة خاصة لمراقبة الغناء والرقص، فكان المراقبون يتجولون فى الزقاق والشوارع يتوغلون فى الحارات باحثين عن أصوات الغناء. وخول الامبراطور سلطة تامة لمنع الموسيقى، فما من دار سمعوا أصوات الغناء تنبعث منها إلا وقد دخلوها وكسروا الأدوات، وعزروا العازفين والمستمعين كلهم. وقيل إن الموسيقيين لما وجدوا أراضى العاصمة تضيق بهم بعد أن رحبت وسعت لهم، تشاوروا فيما بينهم، وبلغوا بعد حل وعقد إلى أن اجتمعوا يوم الجمعة على مقربة من الطريق الذى كان يمر به الامبراطور، ورفعوا أصواتهم بالنحيب والبكاء، وأظهروا منهم كأنهم اجتمعوا على جنازة شخصية هامة ويشيعون نعشه ليدفنوه، وخرج الامبراطور كالمعتاد، فوقع بصره عليهم، ولما عجز عن فهم الحقيقة بعث بخدمه ليعرفوا ويخبروه. فرجعوا وقالوا إنهم الموسيقيون، يزعمون

أن فن الموسيقى قد مات فى عهد هذا الامبراطور، فهم يحملون جنازته ليدفنوها فى داخل الأرض، وكانوا يبغون وراء ذلك أن يترحم الامبراطور ويسحب قراره بشأن الموسيقى. بيد أن شخصية عالمجير لم تكن تلين لمثل هذا، فتبسم وقال: اطلبوا إليهم أن يمعنوا فى دفنها، عسى أن تخرج من جدثها.

وبما أن الولاة السابقين قاطبــة ساعدوا على الفن وعملوا على ازدهاره انتشرت الموسيقى بين الشعب. فلم يحتمل حرمتها، وقام المدافعون عنها يكافحون لاحيائها قولا وكفاءة. لكن الموسيقى لم تتمكن من أن تعيش عيشة حرة فى العصر العالمجيرى فضلا عن أن تتسرب إلى البلاط الملكى. وبالخصوص عندما كان الامبراطور يغدق بالنعم على من يتوبون.

وعندما حرم الموسيقيون المنكبون من العناية الملكية، التجأوا إلى الأمراء والولاة سعيا منهم وراء رزقهم. فهاجروا إلى شتى أنحاء الهند. وممن هاجروا كان الفنان «بهوابهتا ابن ججن ناتهر». فاشتغل بخدمة راجه «أنوب سنجه» والى «بيكانير». وكان راجه نفسه مغنيا بارعا، فأصبح موسيقيا ملكيا، واغتنم الفرصة فكتب «أنوب سنجيت» فى فن الموسيقى.

وبما أن الشعب لم يستطع أن يتعود السياسة العالمجيرية لم يحاول الخالفون الاحتفاظ بها. وكان المغول المتأخرون: جهاندار شاه، وبهادر شاه، وفرخ سيار ومحمــد شاه، كلهم يتذوقون الفن وساعدوا على تقدمه. وكان «سيف الدين البرهانبورى» زعيم المغنيين فى بلاط بهادر شاه، على نحوما كان عبدالله خان وزير فرخ سيار مولعا بالغناء والرقص ومساعدا على نشرهما. وكان الشيوخ المسلمون يساندون الموسيقى أقوى مساندة. واشتهرت الفنانة «لال كنور» برقصها الرائع فى بلاط جهاندار شاه، الذى منح المناصب العليا للفنانين.

ومازال الغناء شائعا فى أيام محمد شاه، وكان من أخص مغنيه «سدارنج»

و «أدا رنج». وضاعف الطلب إلى المغنيين والمغنيات البرعة. وامتهن كثير من الناس إعداد الفنانين والفنانات، فكانوا يدربونهم. وأحد هؤلاء الشخصيات كان الأستاذ «لال ميان» رئيس المكتب الكاشميرى للموسيقى، ووظيفته أن يعد حذقة الفن للأمراء والأعيان، وكانت الأثمان باهظة جدا. وعندما كان نادر شاه مقيما بدلهى أقيمت له حفلة الرقص والغناء، فأعجب بها كثير الاعجاب، ومال إلى مطربة شابة «نور بائى»، فأمرلها بأربعة آلاف روبية، وأمر خدمه أن يأخذوها مع الركب الملكى إلى إيران، لكن خافت الفنانة على نفسها لما لمست عن نادر شاه قسوة، فتخلصت منه بحيل وتدابير. ومن البديهى الجلى أن السلطة كلما تؤول إلى الزوال يقل إشرافها على مثل هذه الفنون[١]،

وسنحدثكم عن الموسيقى الحالية فى مقال آخر.

١— معظم المادة ماخوذة من مقال البروفيسور «هرم جانو» نشرته مجلة الثقافة الاسلامية الصادرة من حيدرآباد.



صورة ملونة على جدار كهف من كهوف اجنتا (حيدرآباد)

الاكاديمية الوطنيـــة
للموسيقى والرقص والتمثيل
Sangit Natak Acadami

كانت مسئلة إحياء النشاط الثقافى فى البلاد، أهم مسئلة أثارت اهتمام الهنـــد بعد استقلالها حكومة وشعبا، فقاموا بالبحث عن أحسن طرق وأقربها إلى هذا الهدف، وكانت نتيجـــة البحث أن تقرر إنشاء ثلاث أكاديميات:

أكاديمية للرقص والتمثيل والموسيقى
أكاديمية للآداب
أكاديمية للفنون

وبادرت وزارة المعارف إلى تأسيس أولى الأكاديميات فى سنة ١٩٥٣ لتشجيع البحث فى ميادين الموسيقى والرقص والتمثيل، وأهم أهداف الأكاديميـــة تتلخص فيما يلى:

إفساح المجال للأبحاث فى حقول الرقص والتمثيل والموسيقى،
إنشاء مكتبة ومتحف،

التشجيع على تبادل الآراء وتحسين التكنيك الفنى فى الفنون السالفة الذكر،
" على إنشاء مراكز مسرحية فى الولايات،
" على إقامة معاهد التربية فى الفن المسرحى،
" على إخراج التمثيليات،

نشر المواد الخاصة بالرقص والتمثيل والموسيقى الهندية،
تشجيع النشاط التمثيلي،
إحياء الرقص والموسيقى الشعبية،
إقامة مهرجانات للرقص والتمثيل والموسيقى،
منح الجوائز والامتيازات،
تعزيز التبادل الثقافي في فنون الرقص والتمثيل والموسيقى.

وتقوم الحكومة بتحمل معظم تكاليف الأكاديمية لكنها تعتبر هيئة مستقلة. وما زالت الأكاديمية منذ نشأتها تعمل على تحقيق أهدافها وتكللت جهودها بالنجاح فأقامت عدة احتفالات تذكارية وشجعت في كل ميادين الفنون المستهدفة. وسنواصل في الأعداد القادمة أخبارا ثقافية عن أهم أعمال الأكاديمية.

الاكاديمية الوطنية للاداب

Sahitya Akadami

تأسست هذه الأكاديمية فى ١٢ مارس ١٩٥٤، وينص دستورها على أنها منظمة وطنية. ومهمتها الرئيسية أن تعمل على تقدم الآداب الهندية. وتخلق لها مستوى أرفع وأعلى. ولا يقتصر نشاطها عند لغة دون لغة وإنما يستوعب جميع اللغات الهندية المعترف بها. وتجاهد لاحياء آدابها، ولتعزيز الوحدة الثقافية بواسطة هذه اللغات.

والأكاديمية أنشأتها الحكومة الهندية، لكنها هيئة مستقلة مختارة فى أعمالها، وتتبع مبادئها الأدبية. ولها مجلس عام يعين لها السياسة العامة التى ينفذها لجنة تنفيذية، وتشرف على كل لغة، لجنة استشارية خاصة، تتكون من الشخصيات البارزة ذوى المكانة الممتازة فى آداب اللغة نفسها. وعلاوة على ذلك، تكونت لجنة أخرى عهد إليها أن تجمع مؤلفات الشاعر الشهير كاليداس وتشرف على إحيائها.

ويسع دستور الأكاديمية اعتراف الشخصيات البارزة فى الميادين الادبية. لكنها لا تقتصر نشاطها عند هذا الحد مثل الأكاديميات المماثلة فى البلاد الأجنبية الأخرى. بل تساعد المصنفين على نشر وطبع مؤلفاتهم التى لها أهمية وقيمة أدبية، ولا يستطيع مؤلفوها أن يتحملوا تكاليف الطبع والنشر. فساعفت الشاعر «والا تهول»، على إخراج ترجمة لـ «رج ويد» إلى اللغة الملايالمية.

وإنه لا يخفى على أبناء الأدب أن الهند بلاد يقطنها طوائف مختلفة. يستخدمون لغات مختلفة يتباين بعضها عن بعض. ولا يستطيع أديب لغة أن ينقل شعوره إلى

تاج محل بناء ضخم مرمرى

مقبرة «ممتاز محل» زوجة الامبراطور شاهجهان، إحدى عجائبات العالم السبع

أديب لغة أخرى بسهولة، مما أدى إلى خلق تباعد بين الكتاب الهنود، فلا يتوصل أحـــدهم إلى معرفة أفكار غيره، وذلك رغم كونهم من بلاد واحدة وأفراد أمة واحدة. فترى الأكاديمية من نشاطها الرئيسي أن تزيح هذا التباعد وتنقل آداب لغة هندية إلى لغات هندية أخرى، حتى يتخطى الأدب الهندى الدوائر اللغوية ويتعرف رجالاته بعضها على بعض، ويتقاربوا فيما بينهم فكريا، ويساعدوا على توحيد ثقافتهم. فأصدرت الأكاديمية عدة كتب مترجمة إلى عدة لغات.

وتصدر الأكاديمية مجلة باسم «الأدب الهندى» وتقيم معارض الكتب فى جميع اللغات الهندية.

وعلاوة عـلى ذلك كله أخذت الأكاديمـية مسئولية ترجمة الكتب من اللغات الأجنبيه إلى اللغات الهندية المختلفة. ومجموع الكتب التى نشرتها الأكاديمية إلى الآن يزيد على ثلاثين كتابا.

الاكاديمية الوطنية لفنون النحت والرسم

Lalit Kala Akadami

افتتحت هذه الأكاديمية فى اليوم الخامس من شهر أغسطس سنة ١٩٥٤ وكان الفقيد المغفور له مولانا أبوالكلام آزاد وزير المعارف للحكومة الهندية، تولى تدشينها، وألقى بهذه المناسبة خطابا قيما، أكد فيها ضرورة انعاش الفنون، وأوضح ما لها من فوائد اجتماعية، وكيف تساعد على خلق الأفكار المتبادلة والمشاعر الانسانية. وقال:

« إن التعليم لايمكن أن يحقق الأغراض المنشودة ما لم يعتن بترقية وتزكية العواطف. وخير طريق لها إنما هو التدريب العملى فى الفنون الجميلة إذ يكسب البشر — صغيراً كان او كبيرا — شعورا وذوقا ».

وقال الفقيد:

« إن الفن لايتقدم ما لم يظفر بمساعدة رجالاته غير الحكوميين، فعلى كل عضو من أعضاء الأكاديمية أن يبذل جهوده فى هذا السبيل. ويمكن الأكاديمية من الاحتفاظ بتراث الهند القديم وإزادتها ثروة وغنى باستعانة الفنانين الحاليين ».

وهذه الأكاديمية أحدث الأكاديميات الثلث التى قامت الحكومة الهندية بانشائها، لترقية الموسيقى والرقص والتمثيل والآداب والفنون الجميلة. والمعهود إلى هذه الأكاديمية بصفة خاصة هى العمل على ازدهار فنون النحت والرسم، وهى هيئة مستقلة يدير شؤونها مجلس عام يتكون من الأعضاء المرشحين من الحكومة المركزية وحكومات الولايات، وهم الذين لهم مكانة ممتازة فى ناحية من نواحى الفنون.

وينتخب المجلس العام لجنة تنفيذية تشرف وتراقب على أعمال الأكاديمية.

ويتشعب نشاط الأكاديمية إلى عدة أقسام فنيـــة، منها برامجها لنشر الكتب. فان الأكاديميـــة تبغى وراء هذا البرنامج أن تنشر كتبا ونشرات فى الفنون الهندية الرائعة، وتقوم بنشرها حتى تعجب الشعب ويفيد منها رجالات الفن سواء بسواء. ومن ما نشرتها الأكاديمية:

1 Portfolio of Contemporary Paintings
2 Set of 12 Picture Postcards of Indian Paintings
3 Mughal Miniatures
4 Krishna Legend
5 Mewar Painting

ويشرف على سلسلة المنشورات «شرى كارل ج خندلوالا». وهنا كتابان تاليان على وشك الصدور:

1 Kishangarh Painting, by Late Eric Dickenson & Karl J. Khandalvala
2 Bundi Painting, by Pramodh Chandra

وأصدرت الأكاديميـــة عشرين صورة من «غار أجنتا» بمناسبـــة التذكار البوذى سنة ١٩٥٦، وتصدر مجلة فنية باسم Lalit Kala مرتين فى السنة، وتحتوى المجلة طبعا على مقالات وصور فنية ذات قيمة بالغة.

وسنواصل الأخبار عن نشاط الأكاديمية فى الأعداد القادمة من المجلة.

المؤتمر العالمى للاديان

عقد فى دلهى المؤتمر العالمى لجميع الأديان، وتفضل رئيس الجمهورية الهندية بتدشينه، وألقى فيه خطابا قال فيه ما ملخصه:

إن أديان العالم كلها ترمى إلى هدف واحد وهو أن تدرك الروح البشرية ما يمكن من أقصى درجات الارتقاء والكمال. حتى يحظى الانسان بالسلام الحقيقى، الذى اصطلح البشر على تسميته بـ «موكشا» أو «نيروان» أى النجاة، وبعبارة أخرى أن تتفانى شخصية البشر فى القوة العليا وتتحد معها اتحادا. وبلغ البشر فى طموحه هذا إلى درجة لم يعد له من الممكن أن يستبدله معتقد آخر يجعله مصدرا للاسترشاد.

ولا تكاد الأوهام الباطلة تمكث للحظة عندما تستنير قلوبنا بنورالدين الحقيق، وينتهى البشر إلى مرحلة تظهر له أفراد البشرية سواسية لا فضل لأحد على الآخر.

ويمكن تعبير هذا الشعور بالوجهة الروحية للحياة، ولا يخفى على أحد أن السكينة والسرور بمعناهما الحقيقيين مرتبطان بهذه الوجهة الروحية ارتباطاً ملاصقا. ولا يعنى ذلك أنه يجب علينا الاعراض عن كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، والورع عن الترف المادى تماما، اللهم إلا من اتخذ هذا الترف والرخاء المادى هدفا حقيقيا للحياة. ولا ضير فى أن نستخدم أسباب الترف المادى كوسيلة من الوسائل للوصول إلى أسمى هدف للحياة،

ونرى أن الأديان المختلفة ما زالت منذ عصور قديمة منتشرة فى العالم ومتأثرة بالظروف السائدة. فكانت الأوضاع الدينية تتطور وتتحول من شكل إلى شكل آخر، ويختلف أفراد البشر باختلاف معتقداتهم الدينية، وتتغلب على الأديان شتى التقاليد

والبدع مما لا علاقة لها بحقيقة الدين، وكم من مرة استغل البشر الأديان، فتعد أيديه على بنى نوعه، تبيد أخاه وتسفك دماءه باسم الدين. وتتحدث كتب التار عن كثير من الحروب الدينية وعن عواقبها الوخيمة. ونرى البشر يبادر إلى الس والنهب، ويتلهف على العدوان ويستغل اسم الدين. لكننا نجد — بجانب آخر طائفة من البشر تفهموا روح الدين، وعمرت قلوبهم بنوره، وحافظوا عليه وأ بلاء حسنا، ولم يحفلوا فى ذلك بعقبة أو عرقلة، وجادوا فى بعض الأحيان بأنفسهم

ومما يؤلمنا أن الانسان — رغم تقدمه المرقوق فى نواحى الحياة المختلفة — لم يست التغلب على النزعة التى تحدوه إلى الاعتقاد بأنه هو المصاب، وله كل الحق استيلاف الآخرين إلى تلبية دعوته طوعا أو كرها.

وأسفر تقدمنا العلمى عن عدة مشاكل أخرى أكثر صعوبة وتعقيدا من ذى ق وأخذ المرء يزعم بفضل تقدمه العلمى وسيطرته على القوى الكونية أنه بكل شيء : وجعل أسباب الترف والنعم المادية الهدف الأسمى لحياته. فلا يكون من الغرابة زعم البشر فى وقت ما — أنه على كل شيء قدير.

إن الأساس لفكرة الدين هو الروح لا المادة، وإن فكرة الديانة قديمة الكون نفسه، لكنها لم تزل — لسوء الحظ — متعطلة غير ظافرة بما كان ي لها أن تظفر به، وعل السبب فى هــذا الاهمال هو أن المادية نالت من ا وتغلبت عليه.

ولا شك فى أن البشر استطاع اليوم بتقدمه العلمى أن يستولى على القوى الط ويكتنها إلى حد، لكن هذا التقدم أغوى لبه، وألقى به فى غمامة الأوهام، ولم ي للآن من أن يتخلص من نفوذ المادية أو يتحرر من مكايدها. ومما يذكر ب المناسبة أن الاكتشافات العلمية الحديثة تنبئنا بأن العلم بلغ فى ارتقاءه إلى درجة

يتجاوز حدود المادية ويعترف بوجود القوى الروحية. وجعلتنا الظروف الراهنة الناجمة عن اختراع الأسلحة المهلكة نحنح إلى القوى الروحية بحثا عن سلامتنا وصياننا. ويسرنا أن التقدم الذى أحرزه الانسان فى النواحى العلمية واختراع الآلات المهلكة يكشف له عما تكتسب أيديه من الدمار، فبدأ يتخبط متفحصا عن ملجأ يعتصم به ويخرج نفسه من هذا المأزق الحرج. ولا ماوى له إلا أن يتمسك بالصدق ويلتجىء إلى الحق.

وإنى لعلى يقين بأن الانسان لن يستطيع أن يتمتع أو يستفيد بتقدمه العلمى وينقذ نفسه من عاقبته الوخيمة القطيعة إلا إذا أعد فى حياته للمبادى الدينية أو القيم الروحية مكانا مرموقا تجدر به.

ولا تخلو حياة البشر عن أشياء تتراآى لعين البشر جد بسيطة. وداخلة تحت نطاق القوة البشرية نحن نرى هذه الأشياء ونثق بوجودها، لكننا نصفح عنها الوجوه، أو — على الأقل — نستطيع لسبب ما أن نقبلها ونعد لها مكانا فى حياتنا العملية. ويتعسر علينا القطع بأن الخطائر فى ذلك يرجع إلى البيئة أو الطبيعة البشرية نفسها.

وإن انغمسنا فى المبادئ الملتوية الفلسفية أو الميتافيزية، يتعسر علينا شرح معنى الدين بجميع نواحيه، وكذلك يتعذر علينا أن نسترشد بهديه فى حياتنا اليومية. ويسهل لنا ذلك إذا عبرنا الدين بأنه فكرة أو اعتقاد أو تجربة داخلية للمرء فى حياته اليومة.

وأحسن الدين ما يتعلق بتجارب المرء الداخلية، ومما يذكر أن هذه هى التى تأسست عليها عقيدة الدين. وأما المظهر الخارجى للدين فهو ما نشاهده من أعمال وأفعال المرء فى حياته اليومية.

ولنا أن نقول — بمعنى أوسع — إن الدين هو ما اشتمل على عقائد ومبادئ مما

تكفل لنا الوصول إلى الأسرار الكامنة للحياة، والصلات الزكية بين البشر وبارئه. فهذا هو الدين الذى هو أساس حقيق للسكينة والسلام.

وهو الغرض الاسمى الذى يجرى وراءه كل متعبد ومتورع، وعالم. ولا مراء فى أن الدين ليس من الأمور الضرورية فحسب، بل هو من الأشياء التى لا معدى عنها للانسان، لا فى حياته الفردية ولا فى حياته الاجتماعية. وإنه لجدير كل الجدارة أن ينعقد هذا المؤتمر لأديان العالم فى الهند، فانها بلاد تضم بين جوانحها أناسا يعيشون معا ويسيرون جنبا إلى جنب متحابين متوادين فيما بينهم مع أنهم ينتمون إلى طوائف مختلفة ويدينون بشتى الاديان. ولو لم يكن هذا التصادق والتعاون السائد بين أهالى الهند لضاقت عليهم الأراضى الهندية بما رحبت. والفضل فى ذلك يرجع إلى آبائنا وأسلافنا من مرشدى الدين والصوفية وأولياء الله الآخرين الذين لم يزالوا منذ فجر التاريخ، يلقنوننا دروسا فى التحمل والايمان والتكريم للاديان جميعا.

وينص دستور الحكومة الهندية على حرية العقيدة والعمل على نشرها، بشرط أن لا يؤذى الآخرين. وقد يخيل إلى بعض الناس أننا نحن الهنود لا نؤمن بالدين أو القيم الروحية لان الهند حكومة لادينية. وأين هذا الزعم من الواقع؟ بل المعنى الحقيق أن كل هندى حر فى أن يعتنق أى دين يشاء وينشر مبادئه وعقائده بين الناس ويدعوهم إلى اتباعه. ونتمنى الفوز والنجاح لجميع الأديان ونرغب فى ارتقاء كل دين وتقدمه ما لم يعرقل سبيل الآخرين.

لكن لا تعنى هذه الحرية بأن الانسان برىء من جميع الروابط والتحفظات الاجتماعية التى لم تزل منذ أقدم العهود تحافظ على كيان الحياة المنظمة والتى تعتبر أساسا لتقدم حياة الفرد الشخصية والاجتماعية المثالية. وإنما نعنى بذلك أن محظور على كل فرد ومجتمع أن يتغلب عنوة على غيره ويرغمه على تلبية دعوته. فالجميع — مهما كانت معتقداتهم — أحرار يتمتعون بحقوق سواسية، ويتسابقون فى التقدم

متحابين متعاونين دون إكراه وإجبار. ومن البديهى أن البشر لا يتوصل إلى هذا التعايش السلمى إلا إذا احترم الأفراد والمجتمعات الأخرى، و واجبنا أن لا نكتفى باعتبار الأرغام شيئا مضارا للعدل والمساواة، بل ندعن بأنه يضر البشر فى كيانه وشخصه. وإذا تأكدنا من ذلك فسنعمل على بث روح الصداقة والتعاطف فى قلوب البشر أجمعين، وسيفوز الأفراد والمجتمعات بالسلام المنشود.

وقبل أن أختتم كلتى هذه يودى أن أقول: تعالوا نتصفح صفحات التاريخ ونغربل ما ادخرته هذه الأوراق منذ آلاف السنين، ونرى إذا حصل البشر على خير وفلاح باستخدام العنف والعدوان، أو تمكن من سد أبواب الحروب بالحروب، لن نجد مثالا لهذا، وإنما نلقى — على العكس — أن الحروب كثيرا ما قضت رجاء القضاء على العدوان والعنف، لكنها أنتجت إلى عواقب أوخم من ذى قبل.

أ فلم يأن لنا إذن أن نتورع عن العدوان والظلم، ونتبنى مبادئ عدم العنف، ونتعود الاحتمال. وإنه لحقيقة لا مراء فيها أن كل ما نعمله لتحقيق الأهداف السامية فسيعود على العالم كله بخير وسلام.

الأخبار الثقافية

التفاهم بين الديانات

ألقى الدكتور «رادهاكرشنن» نائب رئيس الجمهورية الهندية، فى الولايات المتحدة خطابا على الجمهور، وأصر فيه على ضرورة التفاهم بين الديانات المختلفة،

وقال الدكتور:

« إن جميع الديانات تتضمن حقا، ومن المرجو أن يعرفنا هذا الحق على حل واف لمشاكل الحضارة الحاضرة، والبشر يحتاج إلى توجيه يكون أكثر سدادا وصوابا، وذلك أن الأزمة التى يواجهها العالم فى الآونة الحاضرة ليست أزمة مادية أو عقلية بتمامها، وإنما هى أزمة تتعلق بالروح.»

وأضاف الدكتور قائلا:

« إن مغزى الديانة أن يحدث فى البشر تحول يمكنه من تفهم واحتمال الأنظمة السياسية والاجتماعية، ولا يمكننا أن تبقى ديانة من الديانات منفردة منعزلة عن غيرها، ومن أجل هذا يتحتم على الديانات العالمية المختلفة أن تنظر بعضها إلى بعض نظرة ود وصداقة، لا نظرة عداء ومعارضة، وتدرك أنها كلها تتطلع إلى غاية واحدة.»

واستطرد الدكتور فقال:

« لا خفاء فى أن كل ديانة تستكره وتستنكر أشياء، وتحاول تجنبها والتطهر منها، على نحو ما ترحب بأشياء وتقبلها. لكن لا تبغى ديانة وراء تعليماتها إلا ترقية البشر من المستوى العقلى إلى المستوى الروحى. »

وقال الدكتور:

إذا كان الأمر كما قلت، فمن المؤسف المؤلم أن نرى الزعماء الدينيين يسرفون فى التعصب لأوطانهم، ويتمسكون بمواقفهم سواء كانت حقا أو باطلا، مع أن المرجو منهم أن يقفوا من الحق والصداقة العالمية — المغزى الحقيقى لكل ديانة — موقف المدافع والمحامى، ولا يحفلوا فى هذا السبيل بعرقلة أو عقبة. ولا شك أن العالم يجتاز الأزمنة العصيبة المضنية، وأهم واجبنا فى الظروف الراهنة أن لا نجعل من الديانات مصدرا للمعتقدات فحسب، بل نستمد منها قوى تمكننا من التحرر من الطابع الاجتماعى والسياسى السائد الذى تسيطر علينا تدريجيا خلال قرون كثيرة. »

° ° ° °

معاهدة ثقافية بين الهند وإندونيسا

تم التوقيع بين الهند وإندونيسا على معاهدة ثقافية. تعرب عن رغبتهما فى التشجيع وتوسيع نطاق التعاون فى جميع ميادين العلم والأدب والفنون وفى توطيد الروابط الثقافية وتعزيزها بين البلدين، كما تنص الاتفاقية على إمكان تبادل أساتذة الجامعات وأعضاء المعاهد العلمية والثقافية بالاضافة إعطاء منح دراسية

لیتمکن الطلاب من إتمام دراساتهم فی مختلف معاهد البلدین .

* * * *

التعايش السلمى

ألقى المستر نهرو فى الاجتماع السنوى لجامعة «وشوا بهارتى» خطابا قال فيه :

نحن نعيش فى زمن يسمى عصر الحرب الباردة. والحرب الباردة مؤسسة بعض الشيء على البغضاء والشحناء. وإنه لمظهر غريب أن أولى العلم والنهى أنفسهم يساعدون الحروب الباردة على استمرارها، ونرى الزعماء الكبار ينتقد بعضهم بعضا ويستخدمون لهذا الغرض لغة تخلو من العطوفة والصداقة فتثير رد الفعل المماثل فى البلاد الأخرى أيضا. ولا أجد مجالا للشك فى أن الحب والصداقة فى جانب يجلبان الحب والصداقة من جانب آخر.

ونحن نجد اليوم الدول الكبرى تتوقع من غيرها أن تقفو آثارها وتتقدم طبقا لطرقهم، ونحمل نحن كثيرا من النقائص التى أنتجت لنا الفقر والعبودية، إلا أننا لا نخلو عن محاسن وميزات لم تزل ترشدنا إلى الطريق، رغم العقبات والعراقيل. وأهم هذه الميزات احتمال برأى الآخرين، وإن لم نكن نوافقهم عليه.

وأوكد لكم أنه سيأتى يوم يضطر فيه مختلف النظم الاقتصادية والحكومية أن تقبل مبدأ التعايش السلمى بقبول حسن حيث لا يجدون عنه سوى الحرب والدمار سبيلا.

* * * *

معهد التمثيل الآسيوى

تولى الدكتور راجندرا برشاد رئيس الجمهورية الهندية افتتاح معهد التمثيل الآسيوى الذى أقيم فى دلهى الجديدة بمساعدة اليونسكو والحكومة الهندية معا. وسيدرس الطلبة فى المعهد الدراسات العليا فى الفن التمثيلى.

ويشرف المستر اے. أيلمور (A. Ellemore) على القسم الريقى على نحوما يشرف المستر ايم. لى (M. Lee) على قسم الأطفال. ويشغل الدكتور نهار رنجن، البروفيسور للفنون الجميلة فى جامعة كلكتا، منصب مدير عام لهذا المعهد.

وقال الدكتور راجندر برشاد وهو يلقى كلمته الافتتاحية فى المعهد:

« وعلاوة على ما تشتمل عليه حياتنا من أمور متنازعة فيها كالسياسة — وهى تحظى بأكبر عنايتنا — يوجد لحياتنا عدة نواح لا تتوسع لاختلاف فى الآراء أو نزاع من أى نوع كان، ومن بينها الشؤون التى تحمل أهمية من الناحية الثقافية. فمن الأيسر أن نتعاون فى الميادين الثقافية لا فى بلادنا فحسب بل فى البلاد الأخرى أيضا. وإنى لعلى يقين بأن التعاون فى هذا الميدان ليورث فوائد جمة للعالم كله. »

° ° ° °

شكنتلا لكاليداس

لا يخفى على المولعين بالآداب ما لـ «شكنتلا» مكانة ممتازة بين الآداب الكلاسيكية القديمة، ألف هذه التمثيلة الشاعر الهندى الشهير كاليداس باللغة

السنسكريتية، وما زالت تنقل إلى عدة لغات.

ولعل جوتے (Goethe) كان أول أديب عرف أوربا بهذه التمثيلية، ثم أصبحت أكثر تداولا فى قارة أوربا. ونقلها الأدباء إلى لغات مختلفة. فمنها ترجمتها إلى اللغة البولاندية، التى قام بنشرها البروفيسور «ستانس لاسنحاير» وقدمها البروفيسور ايوجينوسز سزكيوز (Eugeniusz Siuszkiewicz) أستاذ اللغة السنسكرتية بجامعة وارسا، ورئيس معهد «وارسا» للدراسات الشرقية.

ومنها ترجمتها باللغة الهولاندية التى أنتجها فى العالم ١٨٦٢ م البروفيسور كرن، وراجع هذه الترجمة حاليا الشاعر الشهير برت ويتن، وأعدها للاخراج على المسرح، ثم عرضت فى هذا العام بمناسبة احتفال هولندا، ومثلها الممثلون الهولنديون، وأحرزت نجاحا باهرا.

* * * *

زيارة هالدر

قام المستر هالدر المتخصص فى الآداب فى آئس لیند بزيارة دلهى الجديدة على دعوة وجهت إليه من وزارة المعارف الهندية. وألقى المستر هالدر فى مختلف الاجتماعات عدة محاضرات عن الآداب والفنون فى بلاده. ومنها المحاضرة التى ألقاها فى اجتماع عقد تحت إشراف مجلس الهند للروابط الثقافية. وأيضا اجتمع المستر هالدر بالمغفور له مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف الهندى، وقدم إليه نسخة من كتاب الانجيل الذى طبع فى سنة ١٥٨٤ نيابة عن وزير المعارف لحكومة آئس لیند.

* * * *

حفلة استقبال

أقامت بلدية دلهى حفلة استقبال للطربة الحبشية الشهيرة الآنسه مارين اندرسن التى غنيت أمام تمثال غاندى أغانيها المحببة إلى المهاتما غاندى.

° ° ° °

بعثة رومانيا الثقافية

أقامت بعثة ثقافية من رومانيا حفلة الرقص فى دلهى.

° ° ° °

معرض للفنون والحرف

أقام مجلس الهند للروابط الثقافية معرضا للفنون والحرف المنغولية، افتتحه البروفيسور همايون كبير وزير الطيران المدنى إذ ذاك لحكومة الهند. وتحدث البروفيسور فى خطاب ألقاه فى هذا المعرض عما يوجد بين الهند ورومانيا من علاقات ثقافية قديمة العهد، بينما أعرب فخامة السفير المنغولى فى الهند عن أمله بأن العلاقات بين الهند ورومانيا ستزداد توطدا وتعززا يوما فيوما.

وقامت الآنسة هنالدوك المطربة الشهيرة لأوبيرا الألمانية بغناء نبذة من أغانيها الحلوة.

° ° ° °

معرض الصور

أقيم معرض لنتاجات الرسام الألمانى المستر هورست جبرت. وقد رسم هذا

الفنان عدة صور لرؤوس القبائل السكيمية والتبتية والقاطنة فى جبال هملايا. وافتتح المعرض الدكتور «كيسكر» وزير الاستعلامات الهندى، كما افتتح هو معرضا آخر فى دلهى الجديدة للصور والمطبوعات، عقد لابداء ما تبديه تشيكوسلوفاكيا من عناية واهتمام نحو الثقافة الهندية.

* * * *

هدية إلى الدكتور هوتشى مينه

أهدى الدكتور راجندر پرشاد غرسة «شجرة پيپل» إلى الدكتور «هوتشى مينه» رئيس الجمهورية الشعبية لويت نام، عند قدومه لزيارة الهند.

* * * *

هدية إلى متحف تشيكوسلوفاكيا

أهدت الحكومة الهندية إلى المتحف الوطنى لتشيكوسلوفاكيا فى «براها» نبذة من منتجات الحرف الهندية، وقد جمعها هيئة الحرف اليدوية لعموم الهند من شتى أرجاء البلاد.

* * * *

جائزة لينن الدولية للسلام

حصل الدكتور الهندى ايس. وى. رامن فى «ماسكو» على جائزة لينن الدولية للسلام، المخصصة لسنة ١٩٥٦م، وذلك اعترافا بخدماته الجليلة فى استحكام والاحتفاظ بالسلام.

* * * *

بعثة إلى روسيا

قامت بعثة من العلماء الهنود بزيارة روسيا تلبية لدعوة الأكاديمية العلمية السوفيتية. وكانت متكونة من خمسة عشر عضوا، ورئيسها البروفيسور ايم. ايس تهيكر مدير المجلس الهندى للتحقيقات العلمية والصناعية. ومكثت البعثة فى روسيا ثلاثة أسابيع من شهر مايو الماضى، وزارت أثناء إقامتها عدة معاهد سوفيتية للتحقيقات العلمية. واجتمعت بالعلماء السوفيتية الممتازين. وبادلت النظريات والأفكار معهم.

وعندما رجعت البعثة إلى بلادها تحدث المستر تهيكر بحماس عن الجو الودى الذى وجده فى روسيا، وأشاد بذكر التقديم السوفيتى فى حقول العلم والصناعة وأهاب الهنود إلى إسراع خطاهم فى هذه الميادين.

• • • •

الهند و افريقيا الشرقية

ألقى الدكتور وان دير سلين مدير المعهد الملكى للتاريخ الطبيعى للأجناس البشرية فى هولندا، كلمته فى متحف الهآباد، قال فيها: وجدت على شاطئ مر فى زنجبار فى شرقى افريقيا حبات زجاجية يرجع تاريخها إلى ماقبل ألفى سـ وهى هندية الأصل، ذهب بها الملاحون من الهند إلى سواحل أفريقيا الشرق

• • • •

مخطوطات عن بوذا

أرسل الدكتور راجندرا برشاد رئيس الجمهورية الهندية نبـذة من مخطوه

اللغة التبتية إلى قسم الدراسات البوذية فى جامعة دلهى. وقد أهـدى المستر دلائى‌لاما هذه المخطوطات إليه عند ما احتفلت الهند بعيد ذكرى بوذا. والجدير بالذكر أن هذه المخطوطات قد نقلت إلى اللغة التبتية من اللغة السنسكرتية فى بعض العهود الغابرة.

* * * *

آثار تاريخية فى حفريات هارابا

أسفرت الحفريات الجارية فى مواقع هارابا فى لوتهال من أعمال ججرات، عن عدة هياكل بشرية وآثار أخر عن الشوارع والخنادق لتصريف المياه والمغاسل وغيرها.

وتفيد الأنباء بأنه عثر على عدد كبير من آثار قصر ومدينة، وغرف واسعة التى وضعت أسسها عـلى الأحجار، فبنيت بالطوب الأخضر.

وكذلك عثر فى مدينة هارابا عـلى بقايا مخازن الحبوب وغيرها من آثار تنطق بأنها تراث لثقافة متقدمة وجـدت قبل مائتى عام قبل مدينة هارابا. وذلك نتيجة للاحصاء الذى قامت محكمة الآثار القديمة الباكستانيـة فى قرية كوٹ ڈجى الواقعة على بعد خمسة ميلا فى جنوب كهرى‌پور بغربى باكستان.

* * * *

الوفيـات

— ١ —

فى اليوم التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٩٥٨م توفى الدكتور «جادوناتھ

سركار، بكلكتا، وكان عمره ٨٨ سنة . ويعتبر الدكتور من أهم الشخصيات البارزة الهنود . وكان متخصصا فى تاريخ المغول .

— ٢ —

توفى البروفيسور ج . ووجل (Vogel) فى ١٠ أبريل سنة ١٩٥٨م عن ٨٨ سنة ، وكان حين وفاته فى هولندا ، وكان البروفيسور متخصصا فى التاريخ والثقافة الهندية ، وشغل بجامعة ليدن وظيفة بروفيسور امريتس (Emeritus) ، ومن ميزاته أنه كان فى السابق مديرا لمعهد الاشراف على الآثار القديمة الهندية (Archeological Survey of India) ، وهو الذى أسس معهد «كرن» فى ليدن للعلوم الهندية . وله مؤلفات فى الفنون الهندية تحمل قيمتها التاريخية والفنية .

أنباء مجلس الهند للروابط الثقافية

جلالة الملك ظاهر شاه

أقام المجلس مائدة غداء تكريما لجلالة الملك ظاهرشاه ملك أفغانستان، عندما قام بزيارة ودية للبلاد الهندية فى شهر فبراير لهذا العام، وكان المغفور له مولانا أبو الكلام آزاد إلى ذلك الحين حيا، فأشرف بنفسه على الحفلة.

* * * *

طلبة النيباليين

عقد المجلس حفلة رائعة لاستقبال بعثة الطلبة النيباليين، الذين قاموا بجولة ودية فى بلاد الهند، ومما زادت الحفلة نجاحا هو اشتراك الطلاب الذين حضروا إلى العاصمة بمناسبة مهرجان الشباب.

* * * *

اللغة والثقافة الفارسيه

نظم قسم المجلس المشرف على اللغة والثقافة الفارسية، عدة اجتماعات عامة، دعا إليها الأساتذة الكبار ليلقوا محاضراتهم فى مواضيع مختلفة. فألقى البروفيسور ضياء أحمد من جامعة «على جره» محاضرة عن شخصية «قاسم أرسلان»، والبروفيسور عابدى عن «أثر اللغة الهندية فى الآداب الهندية الفارسية فى عصر الامبراطور شاهجهان». والمستر مالك رام عن «نل دمن لفيضى».

وبجانب هؤلاء ألقى المستر حبيب الرحمن شاستري والمستر محمد أجمل خان والمستر إقبال علي شاه عدة محاضرات، وتكرم الأخير بالقاء سلسلة من المحاضرات التي كانت عن الروابط الثقافية الأفغانية والهندية. والهندية والعربية، والهندية والايرانية، والهندية والتركية، والهندية والأميركية.

° ° ° °

المجلس البريطاني

ونظم مجلس الهند مع تعاون المجلس البريطاني عدة اجتماعات شرف فيها الأساتذه الزائرون من بريطانيا، الجماهير بمحاضراتهم، فنهم البروفيسور ووين دى سولا بنتو، من جامعة «نوتنجهام» الذي ألقى محاضرة على «وليم بليك». والبروفيسور جوفرى أستاذ اللغة الانجليزية بكلية لندن عن المسرحية الشعرية العصرية. وأفاد الجماهير من كلماتهم وأعجبوا بهذه الاجتماعات أشد الاعجاب.

° ° ° °

اهداء الكتب عن الثقافة الهندية

عقد المجلس في سبرو هاوس اجتماعا تحت رئاسة المستر ك. م. منشى رئيس «بهارتيا وديا بهون»، تحدث فيه المستر هالدر ليكسنس المتخصص في الآداب في آنس لندا عن قبائل ساجا في آئسليند. وقدم المجلس عند نهاية هذا الاجتماع عدة كتب عن الثقافة الهندية إلى المستر هالدار.

° ° ° °

أهدى المجلس كتبا عن الهند إلى دور الكتب والمعاهد التعليمية وإلى رجالات الأدب في كل من كمبوديا، والصين، وألمانيا، واليابان، ولبنان، وباكستان،

وتركيا، والجمهورية العربية المتحدة، وروسيا، وويت نام، والجزائر البريطانية الغربية، وإندونيسيا.

* * * *

﴿ هدية اللعب الهندى ﴾

قدم المجلس لعبا هنــدية إلى أطفال المدارس فى الولايات المتحدة وذلك هدية من أطفال المدارس فى الهند.

* * * *

﴿ مستر سيرنك وزوجه ﴾

قام المجلس بمساعدة المستر سيرنك وزوجــه الكاتبين الألمانيين الشهيرين، مساعدة مالية ليتمكنا من إتمام جولتهما فى الهند. وكانت جولتهما هذه لجمع المواد المحتاجة إليها لبعض كتبهم.

* * * *

قام آشاريا كاكا كليلكر نائب رئيس المجلس بجولة ودية إلى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية والمناطق الكاريبيان، نيابة عن المجلس

* * * *

﴿ منحة لتعليم اللغة الهندية ﴾

منح المجلس منحتين للطالبين اليابانيين المستر «كاتسو هوريوشى»، والمستر «كاكى ناجا»، لتعلم اللغة الهندية فى الهند.

* * * *

قدم المجلس مساعدة مالية للمستر «تشارين تومس» بمناسبة رحلته إلى الصين.

° ° ° °

﴿ معرض للصور والحرف المنغولية ﴾

عقد المجلس الهندى بتعاون الوزارة الهندية للمعارف العلمية، والسفارة المنغولية، معرضا للصور والحرف المنغولية، وافتتحه المستر همايون كبير وزير الحكومة الهندية. واستمر المعرض لثمانية أيام حضره ألوف الزوار. وتفضل فخامة السفير المنغولى بكلمة ودية ثقافية فى هذا المعرض. وأشادت الصحف والجماهير بذكر المعرض.

° ° ° °

﴿ جمعية العامة الجديدة للمجلس ﴾

انعقد بـ «وجيان بهون» فى نيو دلهى فى فبراير أول دورة للجمعية العامة الجديدة للمجلس. وتولى افتتاح الدورة المغفور له مولانا أبوالكلام آزاد، وأكد فى كلمته الرئيسية على ضرورة توطيد الروابط الثقافية بين الهند والبلاد الأخرى. حضرها المندوبون من الجامعات والهيئات الثقافية وسفارات البلاد المختلفة، وتفاوضوا بشأن برامج المجلس للمستقبل حول تعزيز علاقات الهند مع بلاد العالم.

وأقيمت خلال الدورة حلقتان: إحداهما على «التفاهم الدولى» وترأسها الخواجه غلام السيدين رئيس المجلس بالنيابة، وتكلم فيها الدكتور «راما سوامى آير» والمادام «سوفيا واديا» والمستر «بى. اين. كرپال». وكانت الحلقة الثانية على «الهند والعالم» وترأسها البروفيسور همايون كبير الذى كان حينذاك نائب رئيس المجلس. وخاطب فيها الدكتور «سونيتى كمار چترجى» والبروفيسور «نهار رنجن ليله» والدكتور «سين».

وأقيم فى نهاية هذه الدورة حفلة ثقافية قدمت فيها السيدة «إندرانى رحمن» الرقص الكلاسيكى الهندى فى أنواعها المختلفة على طريق «بهارت ناتيا» وعرضت السيدة «دمايتى جوشى» فنونا من «كاتهك» الرقص الهندى الشهير. وكذلك قام الفنان الشهير «حافظ على خان» بالعزف على آلة «سرود» الذى شرفه فخامة الرئيس الهندى الدكتور «راجندر پرشاد بوسام «پدم شرى» لبراعته فى فنون الموسيقى الهندية.

* * * *

﴿ قرار المجلس على وفاة مولانا آزاد ﴾

نعيناكم فى العدد السابق، الفقيد العزيز مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف للحكومة الهندية ورئيس مجلس الهند للروابط الثقافية، وكانت وفاته غير متوقعة ومذهلة، فاجتمعت الهيئة الحاكمة للمجلس فى مارس واتخذت القرار ملخصه.

> «يسجل هذه الاجتماع لمجلس الهند للروابط الثقافية أحزانه العميقة التى فاجأته نتيجة وفات مبكر لرئيسه السابق مولانا أبو الكلام آزاد، وكان المغفور له رئيسه منذ أن تأسس المجلس، وأشرف بنشاط دائم على أعماله، وساهم فى تكوين سياسته وتشكيل برامجه مساهمة مباشرة، ومما يذكر أن كلماته الأخيرة التى وجهها إلى الجمهور كانت كلمته التى ألقاها فى الاجتماع العام لهذه المجلس، حيث تحدث بحماس عن الأهداف التى يرمى المجلس إلى تحقيقها، وأهاب جميع أعضائه إلى مواصلة أعمالهم للاحتفاظ وتمويل تراث المجلس، ومضاعفة تقديره فى الخارج. وإن آخر ما يستطيع المجلس أن يقدم فى ذكرى الفقيد هو أن يواظب على تنفيذ سياسته وبرامجه، وبالخصوص على تحقيق أهدافه التى أوضحها الفقيد

وأوصى بها فى كلمته الاخيرة فى الاجتماع العام للمجلس».[١]

وبعد أن أمعنت الهيئـــة الحاكمة النظر فى عدة مقترحات لتخليد ذكرى الفقيد، قررت:

١ أن ينشىء مقاعد للدراسات الهندية، والمفضل إنشاؤها فى غربى آسيا.

٢ أن يعد سلسلة عن المحاضرات التى ستدعى «محاضرات أبى الكلام التذكارية»، ويقوم المجلس بتنظيم هذه المحاضرات بدلهى سنويا.

٣ سيسمى دار المجلس الجديدة أثر بنائها «آزاد بهون».

وتقـــدم البروفيسور همايون كبير رئيس المجلس الحالى بنصف الأرباح التى سيجلبها الكتاب الذى انتهى الفقيـــد من تأليفه قبيل وفاته، ويطبع باسم الهند تفوز بالحرية، تقدم بها لينشىء المجلس صندوقا للجوائز التذكارية «جوائز مولانا أبوالكلام آزاد». وهى جائزتان تمنحان فى كل سنة، إحداهما لهندى من غير المسلمين يكتب أحسن رسالة فى «الاسلام» باللغة الانجليزية، وأخراهما لمسلم هندى يؤلف أحسن رسالة فى «الهندوسيـــة». ومن المسموح للباكستانيين أن يشتركوا فى المسابقة.

* * * *

﴿ مجلة هندية لطلاب الأجنبية ﴾

اجتمعت الهيئـــة الحاكمة للمجلس فى إبريل وقررت أن يصدر المجلس مجلة باللغة الهندية ستنشر بالحروف الانجليزية، والغاية منها أن يتعلم الطلاب الأجنبية اللغة الهندية.

١ — نشرنا ترجمة هذه الكلمة فى العدد السابق.

رئيس المجلس بعد مولانا آزاد

عينت الحكومة البروفيسور همايون كبير رئيسا لمجلس الهند للروابط الثقافية بعد وفاة رئيسه السابق المتوفى مولانا أبوالكلام آزاد.

* * * *

مخيمة صيفية

أقام قسم المجلس المشرف على شؤون الطلبة مخيمتين صيفيتين فى كاشمير فى هذا العام. وتمتع المشتركون فيها بالجو المنشط للنطقة، وزاروا الأماكن القريبة التى تستحق الزيارة.

وتولى تدشينهما المستر آصف على أصغر فيضى نائب مدير جامعة جمون وكاشمير، والمستر «يوراج كرن سنجه» رئيس ولاية جمون وكاشمير. وحضرهما الضيوف الكبار. منهم المستر «كرشنا مينن» وزير الدفاع، وبخشى غلام محمد رئيس وزراء كاشمير، وخواجه غلام السيدين سكرتير التعليم للحكومة الهندية، والسيد «ريكوو» المستشار الثقافى للسفارة السوفيتية فى الهند. والدكتور دى رام نائب مدير جامعة بهار، والدكتور «روزاريو» مستشار الوزارة الهندية للابحاث العلمية والشؤون الثقافية، وبلغ عدد المشتركين فى المخيمتين نحو ١٠٨ طالبا و ٢٦ طالبة، وهم الذين وفدوا من دول العالم المختلفة ليدرسوا فى الهند.

وقام القسم نفسه بترتيب الحلقات للدراسات الشرقية فى «بومباى» و «دلهى» ودعا رجالات الأدب الممتازين ليلقوا محاضرات مليئة بالمواد عن تاريخ البلاد الهندية وجغرافيتها واقتصادياتها وفلسفتها وما على شاكلتها، وكانت الغاية المنشودة باقامة هذه الحلقات أن يتعرف الطلبة الجدد على الهند ويفهموا طرق الحياة السائدة، فلا يتعسر عليهم الانسجام مع بيئتهم الجديدة.

استلم المجلس عدة هدايا الكتب من معهد الروابط الثقافية لرومانيا والسفارة الايرانية ودنمارك والمملكة السعودية العربيـــة ووزارتى الخارجية والمعارف الحكومة الهندية وقنصلية أوراجى (Uraguay) ،أضيفت جميع هذه الكتب فى مكتبة المجلس.

// THAQAFAT-'UL-HIND
(INDIAN CULTURE)

PUBLISHED QUARTERLY
in
MARCH, JUNE, SEPTEMBER and DECEMBER

CONTENTS

ANNUAL SUBSCRIPTION: Inland Rs. 8. Abroad Sh. 8. **SINGLE COPY**: Rs. 2.

INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS
PATAUDI HOUSE, NEW DELHI 1

PRINTED AT Q PRESS BY
Khaleel Sharafuddin, 46a Memonwada Road, Bombay 3, and Published by
Mr. I. R. Khan
Secretary Indian Council for Cultural Relations, Pataudi House, New Delhi 1

ثقافة الهند

مدير الشرف : محمد اجمل خان

تصدر أربع مرات فى السنة: مارس، و يونيو، و سبتمبر، و ديسمبر

مجلس الهند للروابط الثقافية

الرئيس: البروفيسور همايون كبير

يهدف المجلس — كما ينص دستورها — إلى إنشاء وإحياء وتعزيز الروابط الثقافية بين الهند والبلاد الأخرى بالوسائل التالية :

(١) التوسع فى معرفة وتقدير لغاتها وآدابها وفنونها

(٢) إنشاء الروابط الوثيقة بين الجامعات والمعاهد الثقافية

(٣) اتخاذ جميع التدابير الأخرى لتنمية الروابط الثقافية

الاشتراك للسنة: فى الهند : ثمانى روبيات. فى الخارج : ثمانى شلنات

ثمن العدد الواحد : روبيتان

تطلب من

مجلس الهند للروابط الثقافية، پتودى هاؤس، دلهى الجديدة نمرة ١

مطبعة «ق» بالهند

لصاحبها خليل شرف الدين، ٤٦ شارع ميمنوارا، بمباى ٣

طبعت بأمر مجلس الهند للروابط الثقافية

ثقافة الهند

فصلية

يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية

المجلد التاسع | ديسمبر سنة ١٩٥٨ | العدد الرابع

محتويات هذا العدد

الهنــــد

مابين سبتمبر و ديسمبر سنة ١٩٥٨

إن اليوم الواحد والعشرين من شهر سبتمبر هو يوم الاعتدال الخريفى فى شمالى الكرة، فيتساوى فيه الليل والنهار. وتأخذ الليالى منذ ٢٢ من سبتمبر. فى الطول ولا تزال تطول حتى الليلة الواحـــدة والعشرين من شهر ديسمبر، فتكون أطول الليالى، وعندئذ يبدأ النهار فى الطول، ولعل هذا هو السبب الذى يسمى الهنود لأجله يوم ميلاد المسيح باليوم الطويل أو الكبير، وإنه ليوم مقدس لدى عبدة الشمس ووقت خاص بعبادة الشمس عند كثير من الديانات القديمة.

ويتلطف الجو فى الهند بعد الاعتدال الخريفى، إذ تهبط درجة الحرارة، وتسفر شدة القيظ عن حلول الشتاء تدريجا، وهو فصل لأعياد كثيرة.



إلهة «سرسوتى» فى معبد مهنا كشى، مدوراى فى شمال الهند. (القرن السادس عشر بعد الميلاد)

وبما أن السنة الهجرة ليست شمسية اتفق أن طابق اليوم ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٥٨ م، اليوم الثانى عشر من ربيع الأول من السنة الجارية، وهو يوم يسميه الهنود يوم ميلاد النبى عليه الصلاة والتسليم

ويوم وفاته. ويحتفل معظم الشعب بعيد الميلاد، فيقيم بهذه المناسبة حفلات رائعة يخطب فيها الخطباء وينشد فيها الشعراء، يذكرون اليوم الوحيد الذى طلع فيه نجم العرفان وكوكب الكرامة والسعادة والحرية والاستقلال وقضى على الاستعمار والاستبداد.

ويحتفل الهندوس كذلك فى هذه الأيام بأعياد دينية كثيرة، أهمها «ديوالى» يعبدون فيه إلهة المال. وبما أنه هو اليوم الذى عاد فيه «رام» بعد قضاء أربعة عشر عاما فى المنفى، يوجـــه اهتمام خاص إلى الأنوار، فتتلألأ جميع البـــلاد بالأنوار المضاءة، حتى يهرب شياطين الظلام.

فتاة شابة تعبد إلهة «لكشمى» فى «ديوالى»

وأما المناطق فى شمالى البلاد فيهتم فيها بالسحر المولعون به ويحيى الساحرون سحرهم ويقومون بما يرونه واجبا للاحتفاظ بأعمالهم السحرية. ويعبد أهل بنغال إلهة القوة «كالى» وتذبح الشياه للتقرب إليها ويباع اللحوم المقدسة، وهى عبادة أصحاب الشمال.

والحقيقة أنه بداية للعام الجديد بعد الخريف. وكان العام الجديد يبدأ فى نفس الشهر عند أهل الحبش ويسمون الشهر مكرم، كما كانت طائفة من اليهود تبدأ عامها الجديد فى نفس الوقت، ويسمى الايرانيون هذا الشهر «المشرف على الموت» على نحوما سماه أعراب الجاهلية بشهر «رجب». ولعله كان هذا عندهم شهراً خاصا بالأعمال السحرية، وهو موسم للحج الأصغر، وكانوا يعبدون أصنامهم: اللاة والعزى ومناة.

يقدم الدكتور راجندر برشاد رئيس الجمهورية الهندية باقات الزهور على أقدام الهة «درجا»

عيد «دسهره» وعبادة «درجا»



«راون» ملك سيلان، و «كبا كرن» و «ميغ»

وفى هذه الأيام انتصر «رام» وتغلب على «راون» وبعبارة أخرى انتصرت قوى الخير على قوى الشر، فيحتفل بذكرى هذه الحرب فى الأيام العشر الأولى من الشهر، ويعبد جميع الآلهة ما بين ذكر وأنثى ولا سيما إلهة «درجا» التى نالت الانتصار ضد الشيطان، وهى إلهة معبودة لأصحاب اليمين. وكانت أيام هذه الاحتفالات فى هذا العام من ١٨ إلى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٥٨.

مولد غاندى



ولد الزعيم غاندى فى ٢ من أكتوبر، فيقوم الشعب بذكرى هذا اليوم العظيم، ويستعيد رسالته الرامية إلى الحلم والاحتمال، ويدعو إلى الحياة البسيطة والدفاع عن الحق، مما دعا إليه الزعيم الفقيد.

مولد «نانك»

يعد هذا الهندى من أعظم رجالات الهند، ولد فى ٢٦ من نوفمبر فى ليلة مقمرة، ويحتفل الشعب فى هذا اليوم بمولده، وكان نانك رجلا متصوفا يحب الانسانية. ولد فى مقاطعة بنجاب (باكستان حاليا)، وكان يدعو إلى توحيد الاله والصلوات الخمس، وكان مؤمنا بتعليمات جميع الأديان وكبار رجالها.

البلاد العربيـــة

للدكتور سيد محمود

منذ آلاف السنين حتى حينما كانت ثقافة مصر فى أوج ازدهارها، وكانت هذه البلاد تعد من أقوى بلاد العالم وأرقاها حضارة، لم تتيسر لدول آسيا الشرقية أن تساهم فى السياسة العالمية مساهمتها الكبيرة فى الأيام الحاضرة، لكنها مازالت هـــذه الدول ذات أهمية خاصة. وذلك أنها ملتقى الشرق والغرب وتتلاقى هنا أوربا وأفريقيا وآسيا، قارات الثلاثة العظمى، وتندمج ثقافاتها بعضها ببعض.

ولهـذه البلاد شرف آخر وهو أنها مهبط الأديان العالميـة الكبيرة فولد فيها زرتشت مؤسس الديانة الزردشتيـة، كما ولد فيها موسىع المبعوث بالديانة اليهودية وعيسىع المبعوث بالديانة المسيحية فى فلسطين، وكان للجزيرة العربية شرف أسمى من كل ذلك حيث ولد وبعث فيها النبى الكريم محمـد صلى الله عليه وسلم وكانت هى هـذه البلاد العربية التى عاش فيها هولاء الأبطال المقدسون وحيوا حياتهم وعلموا الناس دروسا لتوجيه حياتهم إلى الطريق المستقيم.

والدين السائد فى هذه المنطقة هو الاسلام، بيد أنه لا يعنى أن الدول العربية كلها مسلمة، ولا مراء فى أن سكانها مسلمون، لكن يتعايش معهم فيها عدد كثير من المسيحيين وهم بدورهم ذوو نفوذ وفيها كذلك جماعة من اليهود.

ويتعايش أهل البلاد العربية، مهما كانت أديانهم، تعايشا لا يشك أحد فى قوميتهم الواحـــدة، فجميعهم يسمون أنفسهم العرب، وتزداد بينهم فكرة وحـدة القومية العربية يوما فيوما.

وزرت هذه الدول من آسيا الشرقية فى ١٩٥٤، وكانت فكرة القومية العربية المتحدة حينئذ تنتشر بينهم انتشارا سريعا. كما كان لانشاء جامعة الدول العربية المختلفة أثر بعيد المدى.

ولا أقصد بذلك أن طرق الحياة فى البلاد العربية كلها واحدة أو أفكارهم متحدة من جميع النواحى، لكن فكرة القومية المتحدة لها تاثير سحرى فى قلوبهم فتتغلب على جميع نزعاتهم وميولهم.

وعندما تيسرت لى زيارة هـــذه البلاد مرة أخرى أيقنت بأن هذا القوم العربى لا يلبث أن سيساهم فى السياسة العالمية بأكبر نصيب. ولاحظت فى مصر وسوريا من تقارب ودى حتى كانت سياستهما الخارجيـة والعسكرية تكاد تتحـد عمـا قريب، ولمست منهما ومن المملكة العربية السعودية ولبنان والأردن أمنية للتعاون فى سبيل التقدم تزداد يوما فيوما. ولا شك فى أنه لايزال بين العراق وبين هـذه الدول نوع من الاختلاف لكن التعاون والاتصال تتضاعف بينهما ساعة فساعة.

وإن ما تأثرت به كثيرا هو أن الشعوب العربية تعتمد عـلى قوتها اعتمادا كثيرا وإنها لواثقة بصدق أهـــدافها وأمانيها، ولم يمض كثير من الوقت على تحرر هذه البلاد من الاستعمار الأوربى لكنها سرعان ما تقوت ونالت حياة جديدة، وشغلت كفاءاتها فى إصلاحها من الناحيـة الاقتصادية والسياسية، وعكفت عـلى ترقية مستواها. وإنها تحاول لأن تشارك الآخرين على أسس مساوية فى الدفاع عن الصدق والعـدل والسلام، وإنها لاتزال تذكر أيام رقها وما يأتى بهـا الرق من المحن والشدائد، ومن أجل هذا تؤيد حرية جميع الشعوب.

وإنه لحقيقة صادقـــة، نحن كلنا حديثوا العهد بالحرية، وعانينا محنا وشدائد

متشابهة، فكلنا نسير سيرا واحدا وأن أثمن شيء لنا الآن هو الصداقة المتبادلة والتعاطف ونحن نسير جنبا إلى جنب ولا نزال نسير هكذا، إذ هي الطريق الوحيدة إلى صالح العالم.

— من مجلة «نيا هند»

تعريب عامر الأنصاري ملخصا

ثورة الهند لعام ١٨٥٧ م

للأستاذ همايون كبير

نحتفل فى العاشر من مايو سنة ١٩٥٧ بمرور قرن على الكفاح الذى قام به الشعب الهندى فى سنة ١٨٥٧، وكما أن كل تحديد للوقت مبنى على التحكيم فكذلك اختيار هـذا التاريخ أيضاً أمر تحكيمى، وليس ذلك أن أهالى الهنـد استيقظوا فى صباح العاشر السعيد من مايو سنة ١٨٥٧ م وقرروا فجأة بالقيام ضد البريطانيين، كما أن الهنـد لم تأت تحت سيطرة الانكليز فى يوم واحد، فعمليات الثورة والتحرير أيضا لم تزل جارية فى عدد من الأعوام، والحقيقة أن الكفاح لتحرير الهند بدأ مذ يوم صار البريطانيون حاكمى البلاد الأقوياء.

تمت سيطرة البريطانيين على الهنـد فى عشرات من السنين، وما فعلوا شيئاً يعد من إجراءات الفتح أو الاستعباد إلى مدة طويلة، والبرتغاليون لعلما فكروا فى إقامة مملكة فى الهند فى أول نزولهم، لكن البريطانيين لم يقصدوا ذلك فى البدء، وكان ذلك عمل الفرنسيين الذى هيج البريطانيين على امتثالهم، وكل من الفرنسيين والبريطانيين جاءوا إلى الهنـد تجارا وكانوا لايتوجهون إلا إلى نفعهم وحفظهم أولا، لكنهم أدركوا بالسرعة أن أميرا مواليا لا يحرسهم فقط بل يعاونهم فى المسابقة ضد التجار المنافسين، ومضى وقت طويل فى تحقيق هذا الاكتشاف بأجمعه، ولو أن الانكليز صاروا حاكمى بنغال بالفعل بعد معركة بلاسى لكن الشركة الهندية الشرقية (East India Company) مازالت منهمكة فى منافع التجارة أكثر من مصالح الحكومة عدة سنين.

أدرك سراج الدولة من المبدأ مع زلاته أن الانكليز كانوا خطراً لاستقلال الهند. لكن إدراكه السياسى كان لا يماثل جودة التنظيم وبسالة الجيوش ففشل وخاب كما خاب ميرقاسم فى جهده لمنع موظفى الشركة من الاستحصال، وبقيت المخالفة للاجانب فى نواح أخرى بغير نظم، واستعمل الانكليز دسائسهم ومكائدهم فى التفريق بين قوة وأخرى، ولا شك أن حيدرعلى لشتت الانكليز فى الجنوب لولا أغاثهم نظام ومراهتة وكذلك وجد الانكليز القتال بمراهتة صعبا بدون معاونة نظام، وكادت الفرقة (مراهتة) أن تسيطر على جميع البلاد لكن أبناءها كانوا فرسانا أكثر من السياسيين وهزموا، وكان من أهم أسباب هزيمتهم أن قوتهم العسكرية قد كانت مزقت قبل فى معركة «بانى‌پت» الثالثة.

حصلت للبريطانيين الى نهاية القرن قوة متصرفة فى الهند لكنهم مازالوا مدعيين بطاعة الامبراطورية المغولية، وبدأ الجنود الأهليون الذين استخدمهم الانكليز يشعرون بأنهم آلة فى أيدى الأجانب، وعندئذ لا يوجد شعور القومية، أما الجنود فانهم شعروا بأن قوة خارجية بدأت تملك أزمة الحكومة. وحدثت ثورات صغيرة فى بداية القرن التاسع عشر فى بنغال ومدراس كما تقول السجلات العسكرية المحلية إلا أن القلق لم يتشكل فى الثورة القومية إلا فى سنة ١٨٥٧م

ولا يتفق المؤرخون حول أسباب أدت إلى ثورة ١٨٥٧، فالمؤرخون البريطانيون يسمونها ثورة جندية خاصة وهم يدعون أيضا بانها كانت محلية لأن الجيش الثائر من الجيوش الثلاثة (بنغال، مدراس، بومبائى) كان جيش بنغال فقط، ويقال إن الطبقة الوسطى أيضا لم تؤيد الثائرين على العموم فى شمال الهند، وكان بنجاب وطبقات كثيرة أيضا فى بنغال وبهار على مساعدة الانكليز، وكان ذلك فى بعض مناطق أوده وروهيلكند أن الثائرين فازوا بنيل العون من الأهالى العامة. ويوجد مؤرخون من الهنود والانكليز الذين يرون أن الثورة كانت نتيجة

لأسباب دينية، ولا نزاع فى أن الداعية الدينية كانت من أهم أسباب الثورة. وتيقن كل من الهنود والمسلمين أن الشركة الهندية الشرقية (East India Company) كانت تجاهد لردهم إلى الديانة المسيحية، وبالغوا فى ذلك حتى أن الاجراءات الاصلاحية كمنع «ستى» ونشر الدراسات الغربية اتهمت كذلك بالدعاية المسيحية

ويرى المؤرخون الآخرون أن الفقر كان سببا مؤثراً للثورة، والحقيقة أن الولاة الأجانب كانوا لا يوجدون فى الهند قبل ورود الشركة الهندية الشرقية. وجاء آريون (Aryans) إلى الهند لفتح البلاد لكنهم استوطنوها، ويصدق هذا أيضا على الهاجين الآخرين والأمراء التابعين. وإن محمد غورى ولو كان أجنبيا لكنه لم يحكم على الهند. أما قطب الدين فانه كان أول أمير الهند من جيل الأفاغنة وصار هنديا كاملا وما كان له صلة بخارج الهند، لكن خلفائه ولدوا فى الهند، ومصالحهم كانت محدودة بالهند بأجمعها، وكذلك نقل بابر أسرته من كابل إلى دلهى بعد غلبته على الهند، وصار المغول فيما بعد معروفين باسم الملوك الهنود، أما البريطانيون فانهم كانوا أول حاكمى الهند الذين لم يقطعوا صلتهم بمبدئهم وما زالوا خارجين.

وكان احتلال البريطانيين موجبا حقيقيا لفقر البلاد، لأنهم كانوا أول حاكمى الهند الذين شرعوا بارسال الأموال من الهند إلى وطنهم، وأما الملوك الذين قبلهم وإن كانوا يغتصبون الأموال من رعيتهم لكنهم أنفقوها فى الهند، وكانت هى أول مرة فى تاريخ الهند أن صدرت أموالها إلى خارج البلاد طبقا لسياسة الحكومة. وبما أن الشركة كانت مؤسسة تجارية أصبحت الاحوال أسوأ، إذ كان موظفوها كلهم كانوا يرون كل شىء من الوجهة المالية ويرجحون منافعهم الذاتية والاجتماعية على مصالح الحكومة وهم عاملوا بالصناعات الوطنية معاملة الاهمال، فتدمرت وتضاعفت الاثقال على البلاد. ولاريب أن الفقر المتزائد والعسر

المتضاعف كانا من أهم أسباب الاضطراب التى أدت إلى الثورة الهندية .

وذهب بعض المؤرخين الهنود الى أن الثورة كانت نتيجة أعمال للفيف من الزعماء الذين يتفكرون من الوجهة القومية ، وحجتهم أن الثوار اجتمعوا على قيادة «بهادرشاه» مع اختلاف دينهم ونسلهم ، وهم يستدلون أيضاً بأن وجود الهنود والمسلمين فى الثوار برهان قاطع على أن العواطف الدينية لم تكن عوامل قوية للثورة .

وليس من السهل إيضاح كل ما وقع سنة ١٨٥٧ م ، كما لا يمكن تخصيص سبب محدود لوقعة تتعلق بملائين من الناس ، والحقيقة أن العوامل المختلفة من الخصومة الذاتية والعصبية الدينية والعاطفة الوطنية والداعية الاقتصادية وغيرها كلها ساهمت فى إثارة الثورة ، كما لعب التوهم دورا هاماً فى تعيين وقت للثورة فان الناس كانوا يعتقدون أن عهد البريطانيين لا يتجاوز عن مائة عام ، ولذلك رأوا أنه سينقضى قبل يونيه ١٨٥٧ . والحركة لم تكن مبنية على وحدة الخيال ولم تكن أغراض الزعماء خالصة ، وكما تنشىء عيون كثيرة نهرا عظيما فكذلك عوامل السخط الذاتية والدينية والجنسية والقومية كلها اجتمعت لتشكيل ثورة ١٨٥٧ بصورة خطر عظيم لوجود الشركة الهندية الشرقية .

ولا ينكر أحد أن النظر فى الأسباب التى أدت إلى ثورة ١٨٥٧ أمر هام ، ولكن النظر فى الأسباب التى أدت الهند إلى الفشل فى هذه المعركة العظيمة أكثر أهمية ، وتعود الناس فى الحاضر أنهم يستقبحون أعمال البريطانيين ويتهمونهم بتخلفنا الاقتصادية وبخيبة عزيمتنا ، ولا شك فى أن السلطة الأجنبية جعلت الناس فى أسوإ حال من الفقر والجهالة وأوهنت السجية القومية ، ولكن كان من المستحيل أن يتسلط علينا قوم أجنبي إلا أن نكون ناقصى الأنفس ، وكانت الأجانب فئة قليلة ومع ذلك خضعت لهم البلاد وطالت أيام الاستعباد ، فهذا كله يدل على

عيوب السيرة الهندية.

وانقسام البلاد فى أجزاء كثيرة كان سببا رئيسا لاحتلال البريطانيين، ولم يكن التقسيم مبنيا على الديانة واللغة فحسب، بل على عواطف إقليمية محدودة. ونشاهد أيضا أن الأكثرية فى بلادنا لا تزال تحب إقليمها أكثر من بلادها ولا يوجد فى أكثر اللغات الهندية كلمة بمعنى المقاطعة أو الاقليم. ومن الاقاليم التى اعتبرت قطرا مستقلا كانت مقاطعة بنغال، ومهاراشتر، وبنجاب، وتامل ناد، وأريسه، وأوده، وسكان هذه الأقاليم يدعون بنغاليين ومراهته وبنجابيين وتامليين وأريايين أولا والهنود فى الدرجة الثانوية.

وكانت هذه التقاسيم الملية والاقليمية سيئة جدا، وأسوأ منها كان انقسام القوم فى طبقات وفصول مما حالت دون نشو العاطفة والتقدم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، وأوضحت فى كتابى «التراث الهندى» (Indian Heritage) ما كانت للطبقات الهندية مزايا فى عصور مختلفة، ولم تنحصر أثرات الطائفية المذمومة فى الهندوس بل تعدت إلى المسلمين والمسيحيين أيضاً، وكانت النتيجة أن الهنود لما سعوا بالقيام ضد الحاكمين البريطانيين فى سنة ١٨٥٧ ظهر الفرق بين المتحاربين، فكان البريطانيون رجال الأعمال موقنين بصداقة ملكهم وسلطانتهم، وكان الهنود طوائف مختلفين غير مطمئنين لا يتفقون إلا فى حقد العدو المشترك لجرى ماجرى.

ومن العجب أن ملوك الهند وأهاليها لم يتحدوا أيضا عند تغلب الانكليز على بلادهم، فانهزموا مرة بعد أخرى، ولم يمتنعوا أيضا عن مساعدة الانكليز على إخوانهم، ولا يكذب من يقول إن الانكليز تملكوا البلاد بالجيوش الهندية. أما المخالفة فكانت محدودة فى أمكنة معدودة، وفاز الانكليز فى القضاء عليها واحدة بعد أخرى، ولم تخضع دلهى بهذه السرعة إلا باعانة بنجاب ونشبت الثورة بشدة

فى أوده وروهيلكند، لكن البريطانيين نالوا معونة من الأهالى وقد بينت أن الجنود فى بومباى ومدراس ماداموا مساعدين للانكليز فى الثورة.

ومما يدل على قلة فطانتهم أن المواطنيين قاموا بمنازلة العدو، لكنهم لم يكونوا لهم جبهة متحدة، وكانت الأغراض الاستئثارية موجودة أيضا فى الوحدات المتمردة. وكل ذلك أدى إلى ضعف الحركة، ونازع القائدون فى لكهنو وكانپور، أما فى دلهى فدبر الزعماء دسائسهم ضد الآخرين وكانت الانفرادية قد غلبت على كل شيء ولذلك فضل قائد أن يخضع على أن ينال زميله شرف الانتصار، وسعى بخت للتقدم لكن أصحابه فكروا فى خيبة أمله، ولم توجد حركة متحدة مع أن وحدة الشعور كانت موجودة فى الناس، لكن العمل ما دام منتشرا وضعيفا، وأصبح الالتصاق بالأغراض الطائفية حاجزا من الوجهة العسكرية وأشد مضرة بطرق أخرى، ومن المعلوم أن موالاة أسراب صغيرة قد تكون محدودة وسريعة الاشتعال، إذ كان الهنود منقسمين على أساس اللغة والديانة والجنس، فالنتيجة كانت تعظيم العادات والرسوم والمعتقدات عند كل طائفة، والعصبية لا تكون قوية إذا اجتمعت الطوائف على أساس المساواة، وحينما تقابل العادات والرسوم المتغائرة لتضعف العصبية وتنمو الروح الحرة، وشوهد أن المشتغلين بالملاحة يستعجلون بقبول أفكار جديدة، إذ أنهم يتعارفون بعقائد جديدة ومؤسسات عصرية ويبدأون بمقابلة معتقداتهم الموروثة بأفكار جديدة، وكان الهنود فقدوا تراث الملاحة لهم قبل مئات من السنين، وكانت القدامة ذائعة فى مختلف الطبقات الهندية قبل احتلال البريطانيين، والقدامة تعنى رسوخ العقيدة وضيق النظر، والتصاق الأهالى بهذه الصفة جعلهم خاسرين فى معركتهم ضد البريطانيين.

وكانت روح المحافظة على القديم فى الهند تنمو منذ عدة قرون، ومقاومة الأفكار الجديدة كانت مظهرا من مظاهرها ويعقبها الالتصاق العامى بعقائد قديمة

وعادات سالفة مع أنها فقدت إفاديتها، ولما كان كل واحد من الفرد والجماعة خاضعا لما يعتقد به فصار مشكلا أن يتوقع منه السلوك بالصواب وكانوا يجيبون فى أحوال معتادة لكنهم خسروا حينما تغيرت الأحوال، واستخرج المؤرخون أن الهنود لاقوا الهزيمة فى منازعات القرون الحالية ضد الغزاة الخوارج رغم كثرة جنودهم، وذلك لفقدان البسالة الشخصية، لأننا نجد أمثالا كثيرة للأبطال والبواسل لكن الأوضاع قد تغيرت ولا تنفع فيها الشجاعة الشخصية.

ولم تكن هزيمة الجيوش الهندية الكثيرة فى مقابلة الجنود الخوارج القليلة إلا لرادئة أسلحتهم، وجهلهم بفن الحرب وفقدان الاحتمال فيهم، وتخلفهم فى الأسلحة هذا كان نتيجة محافظتهم وعدم تنورهم. واستخدم الهنود الأسلحة السفلى لحبهم فيها مع أن الأسلحة الجيدة قد كانت اكتشفت واستخدمت فى أقطار أخرى، ويرجع تخلف الهنود فى فن الحرب إلى تخلفهم فى دراسة التاريخ ومن تمسكهم بالعادات الغابرة والموالاة المنقسمة، ولم يكن سبيل غير الانكار أوالطاعة، وكان موت الملك أو أسره وكذا موت القائد أو أسره من علامات الهزيمة والفشل، وكان العمل بالعكس فى أقطار أخرى إذ أن الجيش هناك باع انتصاره بخلاص قائد فى معارك شتى، واتصاف الهنود بالمحافظة وضيق النظر صدهم عن نيل المكارم فى الفنون، وتقول السجلات إن الفلاسفة والمفكرين فى الهند القديمة بحثوا عن تصورات نهائيـــة، وكان الطلاب يسئلون أساتذهم بالحرية ويجعلونهم متحيرين، ونشأة الاسلام كانت أيضا ثورة عقلية وضعت الفكر والبرهان على موضع التبعية العمياء، ومن سوء الحظ فقد الهنود صفة الاستعلام قبل قدوم البريطانيين إلى الهند، وكان بابر عند قدومه إلى الهند تحير بفطانة الأهالى وذكائهم.

ثقلت خسارة الصفة الاستطلاعية الأذهان الهندية، وأسفرت عن الجمود الذهنى والمعنوى والأخلاق، وترك الناس سبيل الرشد لأغراضهم الذاتية فانهم يدعون

عاقلين، وفى هذه الأوضاع تغلب توجهات شخصية على المنافع القومية، ونجد فى تاريخ الكفاح الهندى فى سنة ١٨٥٧ أن الأفراد فكروا لأنفسهم أكثر من تحرير بلادهم وحفظ دياناتهم.

وكان الشقاق الداخلى سببا رئيسيا لهزيمة الهنود فى سنة ١٨٥٧، وكان المحافظة على القديم وفقدان روح المعرفة سببين آخرين، ويساويهما أهمية سقم النظام الاجتماعى الذى أنشأه الطوائف، ومن فاجعات التاريخ أنهم لم يقبلوا مساواة الانسانية حتى الآن، وكان للبراهمة مرتبة عليا فى الهند القديم إذ أن شودر جعلوا محرومين عن حقوقهم الانسانية، ورغم كل حديثنا أن جميع الناس أولاد البراهمة نسلم المدارج والتفاريق فعلا بين الرجال، وكانت أحوال التفاوت فى الهند شائعة بشدة حيث خابت جمهورية الاسلام المرشدة، واختلف المسلمون فى الحقوق السياسية وجحدوا بمنح الامتيازات التى كانوا يستفيدون بها لغيرهم، وكانت فى المسلمين أيضا أفراد العائلة الحاكمة سواء كانوا من الأفاغنه أو المغول الذين يحوزون بامتيازات حرمت لغيرهم، ومن المعلوم أن شقاق الأعيان المسلمين الداخلى كان سببا لتمزق السلطة المغولية وكانت الشيعة أكثر نفوذا وقدرة منذ عهد جهانجير إذ أنهم هاجروا من إيران التى كانت موطنهم، لكن أورنج‌زيب سعى لتغيير الحالة وكان ذلك من أهم أسباب هزيمته.

ولما جاء البريطانيون اشتدت عواطف التفاوت وعدم المساواة، واختار البرهمة لهم مقاما رفيعا على جميع الفرق الهندية، وامتياز النسل وكبر البريطانيين جعلا عددا وافرا من الطبقات الهندية خوارج، ولا ريب أن صلة البريطانيين أفادت الهنود ماديا بصور كثيرة، وأكثرها نفعا كان الهياج الذى أدى إلى النشأة الجديدة وأخيرا إلى حرية الهند، ومع ذلك لم يرض الهنود عنهم ولم يتقبلوهم وكان المرة الأولى أن دستور الجمهورية الهندية احتوى المساواة كاحدى قواعده الأساسية.

وعلينا أن نسلم بأن المساواة ما هى إلا صورة خيالية، والواقعات تدل أن الناس لا يعملون بها كما حقها.

نلخص أسباب الفشل فى سنة ١٨٥٧ عبرة للأهالى لكى لا يخطئون فى المستقبل، فعليهم أولا أن يتخلوا عن الموالاة الطائفية التى أضرتهم فى الماضى، وتضرهم أكثر فى المستقبل وثانيا يلزمهم أن يتركوا المحافظة على القديم والتمسك بالأوهام الشائعة ويفتحوا آذانهم لقبول أفكار جديدة. فانهم لم يماثلوا عدوهم من الوجهة العلمية والحربية، ولذلك فشلوا فى مقابلته. ولا مقام للطائفية فى العصر الحاضر لأن العالم يتحد بسرعة وضيق النظر لا ينفعهم أبداً، وثالثا ليتصفوا بعادة الاستعلام والتفتيش لكى ينهضوا فى ميدان العلم والحكمة، وأخيرا على الهنود أن يعتبروا مضرات التفاوت وعدم المساواة، فاللازم أن يجاهدوا للقضاء على هذا المرض المهلك وليعملوا معاملة المساواة بكل فرد بلا تخصيص الديانة والفرقة والنسل، وإذا اعتبروا من عام ١٨٥٧ فلا نخسر فى مهمتنا بل نستفيد للغاية.

تعريب الأستاذ محمد عبيد عرب

«نحن نقص عليك أحسن القصص»

يوسف و زليخا

للبروفيسور محمد أجمل خان

لعل الفارسية هى اللغة الوحيدة التى ينشد شعراؤها أناشيد الربيع والخمور ومغامرات الحب والشباب أكثر من أية لغة أخرى فى العالم أجمع. ولعله لا يعدو الحقيقة أن اللغة الفارسية تفوق جميع اللغات من هذه الناحية، وساعدت بميزتها هذه — أدبها الشعرى — على نشر عدة أساطير وقصص غرامية وتخليد أسماء أبطالها نشرا وتخليدا لا نجد لها أثرا حتى فى اللغة التى تعود إليها هذه الأسماء والقصص أصلا ومادة.

واشتهرت أسماء الأبطال حتى أصبحت كأنها مترادفة بكلمتى المحب والحبيب، ولاشك فى أن كلمتى «خسرو وشيرين» والأسطورة المنسوبة إليها تعود فى أصلها إلى اللغة الفارسية، لكنه هناك قصص أخرى كقصة «ليلى ومجنون» المنتمية إلى النجد، وقصة «يوسف وزليخا» من كنعان،

بيع يوسف فى كنعان

وقصة «سليمان وبلقيس» من يروشلم، وغيرها من الأساطير الغرامية الأخرى التى اخترعت فى الهند، كقصة «هير ورانجها» من بنجاب، وقصة «پدمنى وعلاؤالدين» من راجستهان، وحكاية «نل ودمن» من دلهى، وكل هـذه الروايات لا تمت إلى اللغة الفارسية بصلة، لكنها ازدهرت فيها ووجدت فى آدابها مكانة خالدة حتى تعسر على شعرائها أن يقولوا بيتا إلا أن يلمحوا إليها، إن لم يذكروها صراحة.

وإليكم نبذة يسيرة عما قال شعراء الفارسية فى قصة «يوسف وزليخا»، قال الشاعر الجليل «حافظ» الشيرازى رح:

يوسف گم گشته باز آيد بكنعان غم مخور
كلبهٔ أحزان شود روزى گلستان غم مخور

(لينقلب يوسف المفقود إلى كنعان مسرورا فلا تحزن، وستتحول الأحزان والآلام بهجة وسرورا فلا تحزن)

وقال «غنى»: غنى روز سياه پير كنعان را تماشا كن
كه نور ديده اش روشن كند چشم زليخا را

(وانظر يا غنى واعتبر، كيف أظلمت الدنيا ليعقوب عندما فقد نور عينه يوسف، بينما رزقت زليخا بنفس النور فنجلت عيناها)

وأنشد «ظهير» الفاريابى:

نگر دزد هوس را باوجود عصمت يوسف
چسان از چهره غارت مى‌كند شرم زليخا را

(أنظروا كيف تذهب الأهواء بالحياء من وجه زليخا رغم استعصام يوسف نفسه عنها)

وقال شاعر الأردوية «غالب»

سب رقيبوں سے هيں ناخوش پر زنان مصر سے
هے زليخا خوش كه محو ماه كنعاں هوگئيں

(إن زليخا ساخطة على الرقباء قاطبة إلا على نساء كنعان اللاتى بهتن عندما رأين يوسف البدر الكنعانى، حتى قطعن أيديهن)

قال «غالب» بالفارسية:

مداح ماست يوسف مصرى بقعر چاه
يونس ببطن حوت بگويد ثناى ما

(ومن مادحينا يوسف من غيابة جب بينما يثنى علينا يونس من بطن الحوت الذى التقمه)

وقال شاعر هندى آخر «فروغ» الاله آبادى:

مه مصر است داغ از رشك مهتابى كه من دارم
زليخا كور شد از حسرت خوابى كه من دارم

(أين يوسف من حبيبي فى الجمال، ولو قورن بحبيبي فيظهر كوصمة العار وأتمتع بالأحلام التى ابيضت عينا زليخا تحسراً وحسداً عليها)

ولا أرى بأسا لو نلقى نظرة خاطفة على قائمة كتب باللغات المختلفة، مما اهتمت فى شتى البلاد بهذا الموضوع فقد استقريت عن ١٩ كتابا كتب باللغات الخارجية إلى جانب ما كتب باللغات الهندية المختلفة. والتفصيل كما يلى.

فى خارج الهند:

١	العبرانية	الكتاب المقدس	التكوين ٤٨-٣٨	نحو ١٧١٦ ق.م
٢	العربية	القرآن الكريم		٦١٧م
٣	الفارسية	ألفها أبو مويد البلخى		٣١٠هـ
٤	«	البختيار أهوزى		٣٦٠هـ

٥	الفارسية	الفردوسى		٤١١ هـ
٦	»	الجامى		٨٧٠ هـ
٧	»	ناظم الهروى		١٠٨٥ هـ
٨	التركية	حيدالله بن آق		٩٠٠ هـ
٩	»	أحمد بن سليمان		٩١٠ هـ
١٠	»	ذهنى البغدادى		١٠٠٠ هـ
١١	»	البهشتى		٩٧٠ هـ
١٢	»	سنان قاضى		
١٣	»	خليفة		٩٧٠ هـ
١٤	»	عماد الله		٩٣٠ هـ
١٥	»	قرمانى		٩٨٠ هـ
١٦	»	الخلوتى وغيره	كشف الظنون	
١٧	الألمانية	روزن ويغ		
١٨	الانجليزية	جريفت		١٨٨١م
١٩	»	روجر		

ويبلغ عدد ما ألف فى هذه القصة باللغات الهندية نحو ستة ، اثنان منها بالأردوية، واثنان آخران بالبنجابية، وكتاب بالهندية وآخر باللغة الججراتية:

فى الهند:

١	اللغة الكجراتية	ألفها محمد أمين الكجراتى	١١٠٩ هـ
٢	» الأردوية	فكار	» ١٢١٢
٣	» »	مجهول	» ١٢٠٠
٤	» البنجابية	عبدالستار	» ١٣١٣

٥	اللغة البنجابية	غلام رسول	١٣٥٨ هج
٦	« الهندية	نصير الغازى‌پورى	١٩١٦ م، ١٣٥٣ «

﴿ القصة باللغات المختلفة ﴾

الرواية الأولى ــ الكتاب المقدس

قد سردت الأسفار الخمسة قصة وجود الحياة البشرية منذ بدايتها إلى وفاة موسى عليه السلام، ومن المعتقد أن موسى عليه السلام جاء بهذه الأسفار. ولا يشك فى أن تاريخ الاسرائيليين بأسره منذ البداية إلى وقعة الجلاء البابلية التى تمت فى عام ٥٨٦ (ق.م) قد اخترعه كتاب القرن الخامس الميلادى. وكانوا يرمون وراءه إلى أغراضهم الخاصة. ومن ثم لا يصدقه النقاد، ولا غرو، فانه لاتمت إلى الحقيقة بصلة ما.

قال روبرتسن «لم يعثر عن اليهود على تاريخ لعهودهم الغابرة، وما عرف من آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب فانهم ممن لا تثبته الموارد الموثوقة بها من التاريخ والحق أنها أسماء أبطال أساطيرية كمثل أسماء يذكرها هوميروس (Homer) الشاعر اليونانى الشهير و (Hesied).

ومهما كان الأمر، فان من المعروف الواضح أن هكسوس (Hyksos) أى الملوك رعاة الشاء الذين حكموا على مصر من سنة ١٧٠٠ (ق.م) إلى سنة ١٥٨٠ (ق.م) كانوا من أولاد سام بن نوح عليه السلام فكانوا طبعا من ذوى القربى لابراهيم ويعقوب (عليهم السلام) فانهما أيضا من المنحدرين من نفس العائلة.

ولا ينكر فضل الساميين بما بذلوا جهودهم للمحافظة على الأنساب، فانهم لم يقتصروا على محافظة أنساب البشر فحسب بل ظلوا محتفظين بأنساب الحيوانات

أيضا . ولا مراء فى أن العرب واليهود كليهما كانوا يعرفون قصة غرام زليخا ويوسف واعتلاءه عرش مصر منذ ألفى عام تقريبا . ويستفاد من التفاصيل الواردة فى الكتاب المقدس أن لم يتمكن يوسف من نيله منصب الحكومة فى مصر إلا بفضل ما رزقه الله من قوة التنبؤ وتاويل الاحلام ، وإنما هو السبب الذى جعله أخيرا حاكما على مصر . ورروى عنه عليه السلام أن كان اشترى جميع المصريين الذين كانوا عبيد الفرعون حينذاك .

الرواية الثانية — القرآن الكريم

أنزلت الآيات التى تحوى تفاصيل هذه القصة على النبى الكريم صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة المنورة بأربعة أعوام أى فى سنة ٦١٧ الميلادية . ولم يأت القرآن الكريم بعدة تفاصيل توجد فى الكتاب المقدس . ونزلت هذه الآيات على النبى صلى الله عليه وسلم وهو محصور فى شعب أبى طالب . وكان عليه السلام إذ ذاك دائما فى عرضة من الخطر وكان الكفار يطمحون إلى قتله أو نفيه من مكة المكرمة . فكان إخباره بهذه القصة بمثابة رسالة أرسلها الله إلى نبيه تاساء وتسلية ليطمئن قلبه ويثبت أقدامه فى تلك الآونة القاسية التى كانت تمر عليه صلى الله عليه وسلم . فكان الله يذكره بأخيه يوسف الذى أوذى بأيدى ذوى قرباه فانهم تآمروا قتله وشروه بثمن بخس ، وألقوه فى غيابت الجب . لكن آبت جميع محاولاتهم بالفشل وحان لهم أن خضعوا له أجمعين . ويالها من كرامة يوسف فلم يحاول الانتقام أو الثار وإنما عفا عنهم دون احتشام . فكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يحيى حينذاك حياة ملؤها البؤس والفقر ، وكان بحينا لا يحصل حتى على أرخص ضرورات الحياة البشرية . وكانت الأعداء له بالمرصاد ليل ونهار . لكن فشلت محاولاتهم جميعا ولم يستطيعوا أن يصيبوه بأذى . واختار عليه الصلوة والسلام أن يهاجر من بلاده إلى المدينة المنورة . وإن اعتبرنا هذه الهجرة نفيا فهو مما اختاره صلى الله عليه

وسلم طوعا لا كرها. ومن أهم ما يجدر بالالتفات أنه عليه السلام عندما دخل مكة المكرمة ظافرا منصورا غفر لأعدائه أجمعين، وأعاد مبتسما نفس الكلمات التى قالها يوسف مخاطباً إخوته «لا تثريب عليكم اليوم».

هذا، وزعم طائفة بجارده من الخوارج أنها قصة غرامية خرافية، وليست من الوحى الالهى فى شىء. ولسنا بصدد البحث عن وجهة رأيهم، إلا أن الحق الجلى أن أوضح القرآن الكريم بجميع نواحى القصة وأجزاءها بحيث لا يشوبه غموض ولا يتطرق إليه شك. وإنما نستوحى بها أن نؤمن بالله ونتوكل عليه فانه يؤيد بنصره الذين يؤمنون به ويتبعون سبيله.

ولد يوسف – كما جاء فى الكتاب المقدس فى سنة ١٧٠٦ ق.م ليعقوب من زوجته الثانية راحيل، وهى صغرى بنات لابان. وكان لابان زوج بنته الكبرى مع يعقوب على غرار من قبل، وكانت ذات بنات وبنين. فكانت راحيل تحسد عليها إذ كانت عاقرا لم ترزق بشىء إلى ذاك الحين.

ثم تاب الله عليها فرزقت بابن ودعت اسمه «يوسف» دعاء وتفاؤلا، لأن معناه فى المراجع اللغوية «الاضافة» وقالت «يزيدنى الرب ابنا آخر» (تكوين ٣٠ الانجيل) وإذا ولد يوسف أكثر أبوه يعقوب سوامه وخدمه وإبله وحميره. ويوما سافر عن بيت صهره «لابان» سرا. وسرقت زوجته راحيل جميع ما كان عند أبيه من تماثيل وأصنام. فسار لابان فى طلبها حتى وجد. وعندئذ تم بينهما ميثاق جديد فى غالية المكان المخصص لعقد العهود والمواثيق. وعهد لابان على يعقوب فى الميثاق الجديد: «لا تذل بناتى ولا تأخذ نساء على بناتى، واذكر أن الله شاهد بينى وبينك». تكوين ٥٠/٣١ ثم أمر الله يعقوب بأن يسافر إلى (Bethel) ويسكن بها. وليقوم هناك بتنظيف الكنيسة، ويبنى فيها محرابا. ومن الله عليه لجاءت راحيل بابن آخر وهما فى السفر إلى

(Bethel)، فسمته ابن ادنى تمنى به ثمرة آلامى، بينما سماه يعقوب ابن يمين متفائلا باليد اليمنى وجاء أجل الله لراحيل فتوفيت ولما بتما سفرهما فدفنوه فى الطريق إلى بيت لحم (Bethlehem).

تبدأ قصة يوسف فى الكتاب المقدس، من التكوين السابع والثلاثين، وقد جاء بها — كما ذكرنا — القرآن الكريم أيضا باضافة عدة تفاصيل أخرى لم تذكر فى الكتاب.

ويظهر بنزول القرآن الكريم بها أن القصة كانت متعارفة بين قبائل العرب. واختار القرآن الكريم لبيانها طراز التقفية والتسجيع مع الصفح عن ذكر أمور ينتبه القارى إليها من تلقاء نفسه بواسطة فحوى الكلام والأمور المذكورة حولها، وقد أوضحها المفسرون أتم الايضاح فى كتب تفاسيرهم.

وإليكم الآن نصوص القصة برواياتها المختلفة.

الكتاب المقدس التكوين ٣٧

وسكن يعقوب فى أرض غربة أبيه كنعان هذه مواليد يعقوب. يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة، كان يرعى مع إخوته الغنم. وهو غلام عند بنى بلهة وبنى زلفة امرأتى أبيه. وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم. وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته (فصنع له قميصا ملونا)، فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه (ولم يكلموه بسلام) وازدادوا بغضا لرؤيا رآها يوسف. ويذكرها الكتاب المقدس: وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته، فازدادوا أيضا بغضا له. فقال اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت، فها نحن حازمون حزما فى الحقل. وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى. فقال له إخوته: «ألعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا. وازدادوا

أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه».

ثم حلم أيضا حلماً آخر وقصه على إخوته فقال: إنى حلمت حلما أيضا وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لى.

وأما القرآن الكريم فلم يذكر فيه عن نسب يوسف شىء. وكذلك لا يوجد فيه حلمه الأول بل يبدأ القرآن قصته بذكر الرؤيا الثانية حيث جاء فيه (الجزء ١٢): «يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين».

وفى الكتاب المقدس أن يعقوب زجر ابنه يوسف عندما ذكر له هذه الرؤيا وقال «أ أنا وأمك وإخوتك سيسجدون لك»؟ ولاكن يعارضه فيما جاء فى القرآن الكريم: «قال (يعقوب) يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين».

وفى الكتاب المقدس إن يعقوب أرسل يوسف إلى شيخيم حيث كان إخوته يرعون الغنم. بينما جاء فى القرآن الكريم أنه لم يكن يأمنهم عليه فى يوسف بل كان يوجس منهم خيفة أن يحاولوا لاغتياله.

وفى الكتاب المقدس «وقصه على أبيه وإخوته، فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذى حلمت، هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟»

وجاء فى القرآن الكريم «يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا».

وفى الكتاب المقدس «وأرسل يعقوب يوسف إلى شكيم حيث كان إخوته يرعون الغنم».

وفى القرآن الكريم أن يعقوب قال لاخوة يوسف: «إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب».

وفى الكتاب المقدس «فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه. ثم قال لهم راؤبين: لا تسفكو دما. اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية، لكى ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه. فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قيصه الملون الذى عليه وأخذوه وطرحوه فى البئر وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء. وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيرا وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر. فقال يهوذا لاخوته تعالوا نبيعه للاسماعيليين. فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر». التكوين ٣٧

ولم يذكر فى القرآن شيء عن شراء إخوته إياه للاسماعيليين بل جل ما جاء فيه «جاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، قال يا بشرى هذا غلام ! فأسروه بضاعة».

وفى الكتاب المقدس «ورجع راؤبين إلى البئر وإذا يوسف ليس فى البئر فمزق ثيابه. وأخذوا قيص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص فى الدم وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم. (وقال يعقوب) قيص ابنى، وحش ردىء أكله. افترس يوسف افتراسا. فناح على ابنه أياما كثيرة.

ولكن هذا لا يوافقه ما فى القرآن الكريم من أنه لم يصدقهم فيما قالوا بل جاء فيه أن قال عندما أتوه بقميص يوسف «بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل».

وفى الكتاب المقدس «وأما المدنيون فباعوه فى مصر لفوطيفار خصى فرعون رئيس الشرط». وهذا كما جاء فى الذكر الحكيم «وشروه بثمن بخس دراهم معدوده».

وفى الكتاب المقدس (التكوين التاسع والثلاثين):

١ - ورأى سيده أن الرب معه وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده. فوجد يوسف فى عينيه وخدمه. فوكله على بيته ورفع إلى يده كل ماكان له. وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ماكان له أن الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف. وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر.

هذا وفق ما جاء فى الذكر الحكيم «وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون»

٢ - وحدث بعد هذه الأمور أن امراة سيده رفعت عينها إلى يوسف وقالت اضطجع معى. فأبى وقال لامراة سيده.... فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله.

وقد زاد عليه القرآن الكريم «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه».

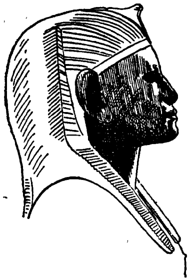
٣ - ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معى. فترك ثوبه فى يدها وهرب وخرج إلى خارج.

وفى القرآن الكريم «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر».

٤ - وكان لما رأت أنه ترك ثوبه فى يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة انظروا قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلى ليضطجع معى فصرخت بصوت عظيم. وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج....(حتى جاء سيده) فكلمته بمثل هذا الكلام....فكان لما سمع سيده كلام امرأته....حمى غضبه فأخذ يوسف فى بيت السجن المكان الذى كان أسرى الملك محبوسين فيه.



فرعون سنوسرت الأول



فرعون عامن حوتب الثالث

ولكن النمط الذى جرى عليه القرآن الكريم تتقبلها الطبيعة البشرية، حيث جاء فى القرآن الكريم أنهما استبقا إلى الباب وقدت قميصه من دبر، وما إن وصلا إليه حتى ألفيا سيدها لدى الباب، واسترعى انتباهه إلى القميص المقدود من الدبر ولا شك فى أن كفى بذلك شاهدا على أن زوجته زليخا كانت مخطئة. فالتمس الزوج إلى يوسف أن أعرض عن هـذا، وأمر زوجته أن استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين، بدلا من أن يسجن يوسف كما يفهم من نص الكتاب المقدس. ثم أخذت نسوة المدينة تعيرن زليخا لحبها قائلات «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا». ففكرت زليخا فى الرد على ذلك وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت ليوسف أن اخرج. فلما خرج ورأينه أكبرنه ومسهن الذهول فقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم. ثم سجنوا يوسف لفترة رغم أن شاهدوا بأعينهم عصمته وطهارة نفسه. فقال يوسف: «رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه».

وجاء فى التكوين ٤: وحدث بعد هذه الأمور أن ساقى ملك مصر والخباز أذنبا إلى سيدهما.... فوضعهما فى بيت السجن المكان الذى كان يوسف محبوسا فيـــه. وحلم كلاهما حلما فى ليلة واحدة.... فقالا (ليوسف) حلمنا حلما وليس من يعبره. فقال لهما يوسف: أليست لله التعابير؟ قصا على (أعبرهما).

فقال يوسف (معبراً لرئيس السقاة حلمه): الثلاثة القضبان (التى رأيتها فى حلمك) هى ثلاثة أيام، فى ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك (يطلق سراحك من السجن ويحررك) ويردك إلى مقـامك فتعطى كأس فرعون فى يده كالعادة الأولى حين كنت ساقيه.

وإنمـا إذا ذكرتنى عنـدك حينما يصير لك خـــير تصنع إلى إحسانا وتذكرنى لفرعون وتخرجنى من هذا البيت لأننى قـد سرقت من أرض العبرانيين وهنا أيضاً لم أفعل شيئا حتى وضعونى فى السجن.

فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبر جيدا، قال ليوسف كنت أنا أيضا فى حلمى وإذا ثلاثة سلال حوارى عـلى رأسى، وفى السل الأعـلى من جميع طعـام فرعون من صنعة الخباز. والطيور تأكله من السل عن رأسى. فأجاب يوسف وقال هذا تعبيره: الثلاثة السلال هى ثلاثة أيام، فى ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة وتأكل الطيور لحمك عنك.

وقد صدق التعبيران حرفا حرفا. ولـكن نسى رئيس السقاة وعده، ولم يذكر يوسف عند فرعون كما وعد.

التكوين ٤١: وحـدث من بعـد سنتين (بعد تحرير رئيس السقاة) أن فرعون رأى حلمين. (أحدهما) وإذا هو واقف عند النهر وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم، فارتعت فى روضة. ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحـــة المنظر ورقيقة اللحم، فوقفت بجانب البقرات الأولى

عـلى شاطىء النهر. فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة (واستيقظ فرعون). ثم نام (فرعون) لحلم ثانية وهو ذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحد سمينة وحسنة. ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها، فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبعة السمينة الممتلئة. (ولم يذكر القرآن الكريم عن الحلم الثانى تفصيلا كهذا) فانزعج فرعون وأرسل إلى جميع السحرة والحكماء فى بلاده ليعبروها فلم يستطع أحد منهم عـلى التعبير. وإذن ذكر رئيس السقاه يوسف لجىء به إلى فرعون وسألوه عن تعبير الأحلام. فأجاب يوسف فرعون قائلا: ليس لى. إنما الله يجيب بسلامة فرعون. ثم قال بعد ما سمع الحلمين: قد أخبر الله فرعون بما هو صانع. البقرات السبع الحسنة هى سبع سنين. والسنابل السبع الحسنة هى سبع سنين (وهو حلم واحد لا اثنان) والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التى طلعت وراءها هى سبع سنين. والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعا. فقد أظهر الله لفرعون ما هو صانع به من أنه هو ذاسبع سنين قادمة شبعا عظيما فى كل أرض مصر ثم تليها سبع سنين جوعا، ونصح يوسف بادخار الطعام والحبوب المنتجـة فى السبع الأول لسبع سنى الجوع القادمة. هذا ما ذكر فى الكتاب المقدس.

وأما ما جاء فى القرآن الكريم، فمغزاه أن رئيس السقاة نفسه ذهب إلى يوسف فى السجن، واستخبره عن تعبير الأحلام ثم أمر بأن يوتى يوسف إلى الملك، فقال يوسف لن أحضر إليه أو تقوموا بتفتيش فى قضيتى. فأرسلت إلى نساء المدينة جمعاء.

كما قال تعالى « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون. يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات. لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون. قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون. ثم يأتى من بعد ذلك سبع

شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون. وقال الملك ائتونى به، فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن، إن ربى بكيدهن عليم. قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين.

وجاء فى الكتاب المقدس «فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله؟ ثم ولاه على مصر وهو ابن ٣٠ سنة (وتوجد فى الكتاب المقدس تفصيلات أخرى لم يذكر فى القرآن الكريم). ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فعنيح وأعطاه أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون. ومعنى صفنات فعنيح من يكشف له الأسرار الكامنة. وولد ليوسف قبل أن يأتى سنة الجوع ابنان عن أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون.

وفى الكتاب المقدس أن نزل السنوات القاحلة واشتد الجوع فى أرض مصر. وجاءت كل الأرض إلى مصر إلى يوسف لتشترى قمحا، وأرسل يعقوب بنيه أيضا إلى مصر ليشتروا منها القمح، فجاءوا إلى يوسف فعرفهم وهم له منكرون، وسأل عن أبيهم، فقالوا لنا شقيق وهو أصغرنا فتركناه عند أبيه ولنا أخ آخر مفقود. وتكلم يوسف معهم بكلام فيه قسوة وجفاء وقال لهم: أنتم جواسيس، لتروا عورة الأرض جئتم، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجىء أخيكم الصغير إلى هنا. أرسلوا منكم واحدا ليجىء بأخيكم وأنتم تحبسون. فحبسهم لثلاثة أيام. ثم قال: وانطلقوا أنتم وخذوا قمحا لمجاعة بيوتكم. فخلى سبيلهم إلا واحدا منهم، وهو شمعون، أخذه منهم وقيده أمام عيونهم حتى يؤتى بأخيهم، ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد إلى عدله.

وأما ما جاء فى القرآن الكريم فيخالفه من بعض النواحى، فإن فيه أنه خلى

سيلهم أجمعين بعد أن وعدوا بأنهم سوف يأتون إليه بأخيهم فى العام القادم. وليس فيه أن حبس أحداً منهم: «فلما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون إنى اوف الكيل وأنا خير المنزلين. فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون. قالوا سنراود عه أباه وإنا لفاعلون». فعادوا إلى بيتهم وبلغوا أباهم بكل ما حدث، فرفض أبوهم أن يرسل بنيامين معهم. وقد زاد القرآن فى قوله «هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل».

والتفاصيل الأخرى لا توجد فى القرآن الكريم. وعندما منع منهم الكيل راود الاخوة أباهم أن يرسل بنيامين معهم وقال يهوذا: أرسل الغلام معى لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعا. فقال لهم إسرائيل أبوهم إن كان هكذا فافعلوا هذا. خذوا من أفخر جنى الأرض فى أوعيتكم وأنزلوا للرجل هدية، قليلا من البلسان وقليلا من العسل وكثيراء ولاذنا وفستقا ولوزا. وخذوا فضة أخرى فى أياديكم. والفضة المردودة فى أفواه عدالكم. فأخذ الرجال هذه الهدية، وأخذوا ضعف الفضة فى أياديهم وبنيامين. وقاموا ونزلوا إلى مصر ووقفوا أمام يوسف. فلما رأى يوسف أخاه بنيامين سأله عن حاله، ودعا له بالبركة والسعادة، وقد امتلأ قلبه حبا وحنانا. فأسرع إلى المخدع، إذ كانت عيناه قد اغرورقت بالدموع، كما ذكر فى الكتاب المقدس: فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه، وقال أ هذا أخوكم الصغير الذى قلتم لى عنه؟ ثم قال: الله ينعم عليك يا ابنى. واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت إلى أخيه وطلب مكانا ليبكى، فدخل المخدع وبكى هناك. ثم غسل وجهه وخرج وتجلد وقال: قدموا طعاما. فقدموا له وحده، ولهم وحدهم، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم، لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين.

والمستفاد من كل ذلك أن رضى يعقوب وأرسل بنيامين معهم بعد أن أخذ منهم ميثاقا على حفظه، وأمرهم أن «لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة»، وأمرهم بأن يتوكلوا على الله. فلما دخلوا على يوسف، عرف يوسف نفسه إلى بنيامين. وقال إنى أنا أخوك فلا تبتئس وآواه إليه. وما جاء فى الباب الرابع والأربعين من الكتاب المقدس فلا تختلف كثيرا عما جاء فى القرآن الكريم بل كأنه هو.

وفى الكتاب المقدس التكوين ٤٤: ثم أمر (يوسف) الذى على بيته قائلا: املأ عدال الرجال طعاما حسب ما يطيقون حمله، وضع فضة كل واحد فى فم عدله، وطاسى طاس الفضة تضع فى فم عدال الصغير وثمن قمحه. ففعل بحسب كلام يوسف الذى تكلم به. ثم أمر يوسف رجاله أن يفتشوهم. واستخرجوا الطاس من وعاء بنيامين. وقالوا ائتونا بأخيكم هذا، نحبسه عندنا. فقال يهوذا لرجال يوسف: إن لنا أبا شيخا كبيرا فخذونى مكانه وأطلقوا سراحه.

وبين ذلك فى الكتاب المقدس بأن (قال الاخوة ليوسف) حاشا لعبيدك أن يفعلوا مثل هذا الأمر، هو ذا الفضة التى وجدنا فى أفواه عدالنا، أوردناها إليك من أرض كنعان، فكيف نسرق من بيت سيدك ذهبا أو فضة. الذى يوجد معه من عبيدك يموت. ونحن أيضا نكون عبيدا لسيدى. فقال نعم، الآن بحسب كلامكم هكذا يكون. الذى يوجد معه يكون لى عبدا، وأما أنتم فيكونوا أبرياء أحرارا. فاستعجلوا وأنزلوا كل واحد عدله إلى الأرض، وفتحوا كل واحد عدله. ففتش مبتدئا من الكبير حتى انتهى إلى الصغير، فوجد الطاس فى عدل بنيامين. فزقوا ثيابهم وحمل كل واحد على حماره، ورجعوا إلى المدينة.

وما اختاره القرآن الكريم فى ذكر عودة الاخوة إلى أبيهم من أساليب البيان

فهو أجزل وأرق تعبيرا وأدق بكثير منه فى الكتاب المقدس، وخصوصا عند ذكر يعقوب ابنه يوسف وأمره إياهم بالعودة إلى مصر والتفحص عن يوسف وبنيامين كليهما، إذ كان أوحى إليه من الله تعالى بذلك. وتأكد لبنيه أن لاتيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. فعادوا جميعا إلى يوسف فى مصر، فعرف يوسف لهم نفسه بطراز أنيق وخاطبهم بقوله «هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ قالوا أ إنك لأنت يوسف؟ قال أنا يوسف وهـذا أخى، قد من الله علينا، إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين. (فأقروا بذنبهم إذ) قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين. قال (يوسف) لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبو بقميصى هـذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً. وكانت عيناه ابيضت من الحزن على يوسف. ولما فصلت هـذه العير عن مصر وعندهم قميص يوسف قال أبوهم وهو فى كنعان: إنى لأجد ريح يوسف، لولا أن تفندون. فلما جاءوه بالقميص ألقوه على وجهه كما أمر به يوسف فارتد بصيرا، وقال إنى أعلم من الله ما لا تعلمون.

وهنا يذكر القرآن أهم أجزاء القصة، وهو ما أجاب به يعقوب بنيه عندما أقروا بذنوبهم، وطلبوا منه أن يستغفر لهم وقالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا، إنا كنا خاطئين. فقال يعقوب: سوف أستغفر لكم ربى، إنه هو الغفور الرحيم.

وفى الكتاب المقدس التكوين ٤٥:

فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده، فصرخ: أخرجوا كل إنسان عنى. فلم يقف أحد عنده حين عرف يوسف إخوته بنفسه، فأطلق صوته بالبكاء. ثم وقع على عنق بنيامين أخيه، وبكى بنيامين على عنقه، وقبل جميع إخوته وبكى عليهم. وسمع الخبر فى بيت فرعون وقيل جاء إخوة يوسف. فحسن فى عينى فرعون وفى عيون عبيده. فقال فرعون ليوسف: قل لاخوتك افعلوا هذا: حملوا

دوابكم وانطلقوا، اذهبوا إلى أرض كنعان وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلى. فجاءوا إلى مصر إلى أبيهم وأخبروه قائلين: يوسف حى بعد، وهو متسلط على كل أرض مصر.

وأما ما جاء فى القرآن الكريم فإنما هو أن ارتحل يعقوب مع أسرته إلى مصر بمجرد ما سمع عن يوسف وتسلطه على مصر. فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا، فقال يوسف يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل، قد جعلها ربى حقا، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو، من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى.

عبادة عامن (شمس)

وفى الكتاب المقدس التكوين ٤٦:

فارتحل اسرائيل وكل ما كان له وأتى إلى بئر سبع، وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله. وأخذوا مواشيهم ومقتناهم وجاءوا إلى أرض جاسان. والتقوا بيوسف، فأمرهم أن يتركوا رعى الغنم. ليسمح لهم العيش فى أرض جاسان. فان المصريين يعدون رعى الغنم رجسا، وإلا غلب أن ذلك من آثار رعاة الغنم الذين حكموا عليهم وكانوا يدعون هكسوس.

فأتى يوسف وأخبر فرعون .... وأخذ من جملة إخوته خمسة رجال وأوقفهم أمام فرعون فكلم فرعون يوسف قائلا .... ليسكنوا فى أرض جاسان، وإن علمت أنه

يوجد بينهم ذوو قدرة فأجعلهم رؤساء مواش على التى لى». وملك يوسف جميع أراضى المصريين ومواشيهم وما امتلكوا من الذهب والفضة ولم يرد أن يشترى من القديسين. ثم باع لهم البذور واشترط أن يكون له خمس ما تنتجه حقولهم. ورضوا أجمعين أن يصبحوا عبيداً ليوسف، لما كان انقذهم من مخالب الموت (ولعل هذا هو البداية لادعاء فرعون بالالوهية، واستعباد الشعب).

ويفهم عما فى الكتاب المقدس أن جلاء الاسرائيليين تم فى عام ١٤٩١ق.م. فأصبحوا يعيشون فى مصر حياة الأجانب أو حياة العبيد لمائتين وخمسة عشر عاما.

وملخص ما جاء به القرآن الكريم إن فى ذلك لذكرى للناس، وإن الله يؤيد بنصره الذين يؤمنون به ويتبعون سبيله، كما هو أيد يوسف، فلا تقنطوا أيها المؤمنون من رحمة الله، فانه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

اللغـة الفارسية

ومما ألف فى الموضوع باللغة الفارسية كتاب «يوسف وزليخا» للشيخ أبى المؤيد البلخى من كتاب القرن الرابع الهجرى، وكتاب آخر بنفس العنوان للاستاذ بختيارى الأهوازى. وهو من شعراء السلطان عز الدولة بختيار الذى حكم على العراق وأهواز وكرمان ٣٥٦-٣٦٧هـ. وقد أشار إلى هذين الكتابين شاعر الفارسية الشهير «الفردوسى» فى كتاب ألفه فى نفس الموضوع بنفس الاسم كما يلى:

يوسف وزليخا للفردوسى

ذهب المستشرق الألمانى الشهير «آتاه» (Atah) إلى أن الفردوسى ألف كتابه هذا ما بين سنة ٤٠٠ و ٤١١ من الهجرة. وقيل إنه ألفه فى سنة ٣٨٤ بعد أن فرغ من تصنيف «شاهنامه» وكان الموفق وزير والى العراق سلطان الدولة أو

عز الدولة أمره بذلك، وكان يوجد عند المؤفق نسخة لكتاب البختيارى. ولا يفوتنى أن أذكر أن هذا الكتاب نشر فى مجلة «مهر» (ص ٥٩٢) التى تصدر فى إيران.

وإليكم الأبيات التى يشير بها الفردوسى إلى هذين الكتابين:

ازين قصه نيكوتر اندر جهان ٭ نرفته است هيچ آشكار و نهان
دو شاعر كه اين قصه را گفته اند ٭ بهر جاى معروف و نهفته اند
يكى بو المؤيد كه از بلخ بود ٭ بدانش همى خويشتن را ستود
پس از وى سخن باف اين داستان ٭ يكى مرد پر خوبرو و جوان
نهاده و را بختيارى لقب ٭ كشاده بر اشعار هر جاى لب

ومغزاها: لم ير العالم فى تاريخه قصة أحسن وأكثر إعجابا بها منها (من قصة يوسف) وممن ذكرها: الشاعران الشهيران أبو المؤيد البلخى والآخر الذى يعرف بـ «بختيارى».

وقال البروفيسور آغا عبدالعظيم قريب، من جامعة تهران، الذى شاهد الكتاب مخطوطا فى المتحف البريطانى، إنه لا يبلغ ما بلغه الشاهنامه من فصاحة اللغة وجزالة الأسلوب ودقة التعبير. ومن ثم لا يستيقن البروفيسور بكونه تصنيف الفردوسى.[1]

هذا، ويوجد فى مقدمة شاهنامه عن الفردوسى أنه سافر إلى تبارستان ومنها إلى بغداد حيث ألف بعض الكتب ابتغاء لوجه الحاكم الخليفة قادر بالله واستمالته إليه. لكننا لا نجد فى كتاب «آناش كاده» لآزار أى إشارة أو تصريح بسفره إلى بغداد. وجل ما يستفاد منه أن الفردوسى كتبه فى آخر عمره:

«حكيم مزبور در أواخر عمر مثنوى يوسف زليخا نيز در بحر متقارب برشته نظم در آورد». (ألف العالم المذكور كتاب يوسف وزليخا شعرا على طراز المثنوى فى البحر المتقارب فى أواخر عمره).

1- Indo Iranic (Calcutta) Dec. 1954

يوسف وزليخا للشيخ جامى

ولد العالم الروحانى الجليل الشيخ نورالدين عبدالرحمن الجامى ببلدة جام عام ٨١٧هـ — ١٤١٠م. وتنحدر أرومته من عائلة فى أصفهان. وأرخ البعض وفاته بـ «كشف أسرار إلهيه» أى سنة ٨١٨هـ (١٤٩٢م). وألف الشيخ الجامى سبعة كتب على طراز المثنوى وديوانا باللغة الفارسية. ويبلغ عدد مجموع كتاباته ٥٤ نظما ونثرا. ومنها شرح كامنيه، وسلسلة الذهب، ولواع، ورباعيات، وسبحة الأبرار، التى أدركت ازدهارا عظيما وتعارفا بالغا فى البلاد الهندية. ويعد كتابه يوسف وزليخا من أبهر أعماله، وهو على طراز ما يعرف فى الآداب الفارسية بالمثنوى، ولم يزل يدرس فى المدارس. وعدا ذلك فلم تزل أبياته (غزل) وقصائده ينشدها الصوفيون فى محافلهم. وإليكم نبذة يسيرة من ترجمة أبياته البديعة التى كفت شاهدا على ما كان الشاعر العظيم أوتى من ميزات الشعر والبيان.

«طهر قلبك يا جامى من أدناس الأنساب ولا تذكرها أبدا، فانك أصبحت صبا مستهاما. وإنها ليست بشىء فى هذا الباب.

«ويل لهذا الحبيب الذى يترك طريقــه لو أمر به ويمر بالطريق الأخرى وذلك ليس إلا ليحرمنى من رؤيته.

«ومهما تعسف بى واعتديت على فكله يذهب هراء من قلبى بمجرد أن أر وجهك المليح».

وبما انتمائه إلى طبقة الصوفيين كان يعتقد بمبدأ وحدة الوجود، كما هو ظاهر من تصانيفه، فثلا: درکون و مکان نیست عیان جز یك نور

ظاهر شده آن هست بأنواع ظهور

(ليس فى العالم أرضه وسمائه إلا النور الواحد، وهو الذى يتجلى فى شتى الصور ويتشكل بمختلف الأشكال).

وقـد أحرز الشيخ الجامى علومه الروحية وقطع مراحل التصوف تحت رعاية أسلافه، ومنهم الشيخ النظامى (المتوفى ١٢٠٤م). وهو النظامى الذى أورث كتابه «خمسة نظامى» حياة خالدة. فما زالت قصص «خسرو وشيرين» و «ليلى ومجنون» بفضل هـذا الكتاب تعد ذخرا ثمينا فى المجامع الأدبية والخزائن العلمية. واشتمل «خمسة نظامى» على «سكندر نامه» و «بهرام نامه» و «مخزن الأسرار» أيضا. ويعد العالم الربانى الشيخ جلال الدين الرومى والحبر الكامل الشيخ مصلح الدين السعدى الشيرازى (المتوفى ١٢٧٣م و ١٢٩١م بالترتيب) من الشعراء المتغزلين مع ميولهم إلى التصوف. وأما الشاعر الهندى الشهير الأمير خسرو (المتوفى ١٣٢٤م) فقد سبق الشيخ الجامى بمائة عام تقريبا.

استهل النظامى كتابه كالمعتاد بحمد الله والصلوة على نبيه الكريم، وأضاف إليهما أن سرد عدة براهين على وجود الخالق وذكر قصة أسراءه صلى الله عليه وسلم إلى السماء ليلة المعراج وتشرفه برؤية البارى عز وجل — مع أنه لم يكن من دأب المصنفين أن يذكروا أمورا كهذه فى مقدمات كتبهم. ثم يأتى على ذكر مرشده الشيخ الخواجه عبيد الله أحرار النقشبند ويذكر فضائله ومناقبه وما كان يملك من عظيم القوة الروحية والدرجة القصوى فى مدارج التصوف. واختتم كلامه بمدح والى العصر السلطان حسين وبسالته وحبه للعدل وشهامة النفس وجلاله.

ومن أنسب ما تستهل به الحكاية هو تفسير الجمال المطلق وتوحده أكمل الوحدة فتجليه معا فى الصور والمظاهر المختلفة الأنواع. وقد شرحه نظامى فى كثير من الأبيات:

وجودى بود از نقش دوئى دور ٭ زگفت وگوى مائى و توئى دور
جمال مطلق از قيد مظاهر ٭ به نور خويشتن به خويش ظاهر

(إنما هو وجود بحت وحيد كامل الوحدة لا يشوبه أى تعدد ولا يقبل كلمات التقييد من أنا وأنت).

ثم يقول ما مغزاه عن الحب: «وكل قلب خال عن الحب ليس إلا جماد لا حياة به، وكن صبا متيما بالحب فتصبح حرا، واحمل من حسراته لتصبح فرحا مسرورا».

ثم يتخلص إلى قصص الحب ويقول «وبما أن أصبحت حكايات «خسرو وشيرين» و «ليلى ومجنون» بالية عتيقة على مر العصور والدهور أرغب فى أن أذكر لكم بدلا عنها قصة عبر عنها القرآن الكريم بـ «أحسن القصص» ثم يبدأ بذكرها ويقول «إنما كان يوسف أجمل حبيب وجد فى العالم الانسانى وكذلك كانت زليخا، منذ شبابها إلى كبرها مستسلمة منقادة، ووفية له أكثر من أى محب أحب حبيبا فى العالم كله. وكان يوسف عليه السلام أوفى من الجمال وحسن المنظر أوفر حظ حتى اندهش النبى آدم عليه السلام عندما رآه عند ربه، فأخبره الله بأنه يوسف بن يعقوب بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وهو مرزوق بثلثى جمال قدره الله للعالم كله».

ويقول عن زليخا: «إنها كانت أميرة، بنت ملك من ملوك المغرب. رأت ذات يوم فى منامها شخصا شغفت به وبلغ غرامها به أعلى ذروته حتى أصبحت كأنما تخبطها الشيطان من المس. وظلت تراه فى منامها حتى استخبرته فى المرة الثالثة عن اسمه وموطنه، فأخبرها أنه وزير حكومة مصر. وما إن سمعت ذلك حتى صحا قلبها وتخفف من لوعة العشق. وكثير من خطبوها من أمراء الدول ورؤسا الأقوام لكن أباها رفضهم جميعا. حتى قدمها لوزير مصر حينذاك، الذى تقبلها بقبول حسن. ولما جيئت بها إليه فى مصر، فوجئت عند رؤيته إذ أنه كان غير من كانت تحلم به. فتحيرت وبدات تفكر فى صيانتها عنه. وقد فازت فى ذلك واستطاعت أن تصون عرضها عنه إلا أن أقضت عليها المضاجع واستحوذ على فكرها هذا الرجل الذى ظلت تحلم به طوال هذه المدة. وأما يوسف، فبما باعه إخوته أصبح عبدا محروما من حريته، ثم بيع فاشترته زليخا بأبهظ ثمن من النقود والجواهر.

وهنا يأخذ الشاعر فى شرح معتقداته من وحدة الوجود والعشق الحقيقى. فقال «اجتمعت بيوسف ذات يوم أميرة فنصحها يوسف باتباع الحق والتخلى عن أسباب الزينة المادية، والتحلى بحلى الخير، والتجمل بالجمال الحقيقى الخالد، الذى لن يمسه زوال أو فناء. فاهتدت الأميرة بنصائحه وتصدقت بجميع أموالها على الفقراء والمساكين، واعتزلت بعد أن أفلست فى كوخ حقير تتعبد الله آناء الليل وأطراف النهار.

ووصف الشاعر عواطف الأميرة فى أبيات ما مغزاها: «جزاك الله يا يوسف. قد فتحت عينى وأوصلت روحى بالروح الحقيقية ونهيتنى عن اتباع سبل الأهواء وأهديتنى إلى معرفة الله جل وعلا وتوحده».

وأما ما سرد الشاعر من سائر أجزاء القصة فهى نفس ما جاء فى القرآن الكريم إلا أنها مزيجة بالمبالغات الشعرية: «لم تدخر زليخا وسعا لمراودة يوسف واستهوائه لكن آبت جميع محاولاته والخطط المدبرة بالفشل، ولم يجنح يوسف إلى ما كانت تدعو إليه. ولم يتمكن ما ملكته من الحدائق الرنانة والقصور المزخرفة وأسباب الترف الأخرى والملذات الجمة، ولا إلتجاآتها المهيجة العواطف من أن يزلزل أقدامه عن صراط الحق. ولم يكد يوسف يخضع لجمالها الفتان ولا لتزينها المغرى المفضى إلى الشهوات. ويا لها من بليغ البيان وجزيل الأسلوب وأحلى العبارات وأنيق الاستعارات التى أتى بها الشاعر فى بيان هذا الموضع.

«وانسل يوسف من يدها وأسرع إلى الباب وأمسكت هى قميصه من دبر فقد قدودا. وكان فوطيفار (زوجها) موجودا خارج الدار، فلما خرج يوسف سأله عما جرى. فابتسم يوسف ولم يجب شيئا واتبعه ساكتا. فدخلا الدار معا. ولما رأتهما زليخا ارتبكت، وظنت أن يوسف قد أخبره بكل ما جرى فى الدار، فبادرت إلى زوجه تشتكى إليه ضد يوسف وقالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا؟ فسخط فوطيفار وأرسل يوسف إلى السجن.

ويظهر من هذا أن الشاعر بصدد أن يبرئ يوسف وزليخا كليهما عن الذنب ومن ثم أسس شكواها إلى زوجه على خطأ فى الظن.

ومما يجب ذكره أن رضيعا ابن ثلاثة أشهر فقط قد شهد على براءة يوسف عليه الصلاة والسلام بأن استلفت أنظارهم إلى قميص يوسف الذى كان مقدودا من دبر لا من قبل — فاطلع الوزير زوجها على حقيقة الواقع، فلام زليخا على افترائها ودهائها، وأمرها بالاستغفار، والتمس من يوسف أن يصفح عن ذنبها. وشاع الخبر فى نساء المدينة فبدأت تلمن زليخا وتعيرنها كما فى الذكر الحكيم: «وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا .... واعتدت (زليخا) لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا». واضطررن إلى أن يررنها فى حبها. ولكنهم سجنوا يوسف رغم عفته وطهارة نفسه. وذلك إرغاما على استسلامه لأوامرهم وأهوائهم. وبعد ما سجن يوسف عضت زليخا على يدها ندامة على ما فعلت به وأخذت تتردد إليه ليلا تستعفيه وتطلب منه الصفح عن خطيئتها. لكن يوسف الذى كان مشتغلا فى عبادة الله آناء الليل وأطراف النهار لم يجد فرصة ليصغى إلى طلبها.

ثم جاء يوم أطلق سراح يوسف وعادت إليه حريته المسلوبة. وفوق ذلك أصبح رئيس الوزراء لتأويله أحلام الفرعون. وكان للفرعون وزير آخر يحسد يوسف حتى أن التقمه الحسد، وذات يوم قضى نحبه وعاد سائر أزمة الأمور إلى يد يوسف عليه السلام.

وأما زليخا فتصدقت بجميع أموالها على الفقراء الذين أبلغوها بشرى بقاء يوسف حيا. فأفلست وقد أصبحت عجوزا عمياء وانعزلت فى كوخ من الحشيش يقع بالقرب من الطريق الذى كان يمر به يوسف فى موكبه مع ما أوتى من الجنود والخدم مع أهبته وعظمته. وكانت تبغى بقرب كوخها من طريقه أن يتشرف بسماع صوت يوسف.

وحدث ذات يوم أن سمع يوسف وكان مارا فى موكبه صوتها، وهى تدعو الله «اللهم إنك تعز من تشاء وأنت الذى جعلت ملكا هماما من كان عبدا مملوكا». فتركزت هذه الكلمات فى قلب يوسف، فتوقف وأمر خادمه أن يقدم هذه المرأة إليها. فجيئت بها. وتوسم يوسف فى وجهها وعرف أن هذه الهرمة العمياء ليست إلا عاشقته المستهامة، وانهمرت عيناه بالدموع لما رآها فى الأحوال البئيسة. ثم سألها يوسف «هل لك أمنية فأنجزها لك؟». فبعد أن عهدت عليه أن لا يخلف عن وعده قالت «ليت الله يعيد إلى شبابى وجمالى وبصارتى». فتاب الله عليها ورزقها جميعا على الفور. ثم التمست منه أن يتقبلها كقرينته. فما أن توقف يوسف عندما سمع ذلك إلا أن نزل عليه جبريل برسالة من الله عز وجل وجاء فيها «إن الله عليم بما تعانيه زليخا من المتاعب وهو خبير بحبها الذى بلغ أوجه منه تقضى بزواجه منه فى السماوات. وكان أمر الله قدرا مقدورا. فتزوج يوسف معها بلا إرتياب.

وعاشا بعد زواجهما أربعين عاما عيشة راضية ملؤها الفرح والبهجة. ثم بلغ يوسف فى منامه من أبويه أنهما يريدان منه أن ينتهى الآن من حياته الدنيوية. فدعا يوسف بذلك دعاء استجابه الله توا. وخلى يوسف وتلتها زليخا بعد أمد قصير.

ثم رثى عليهما الشاعر. والحق أن رثاءه يعد من أروع آيات البداعة فى فن الشعر والأدب. ثم اختتم الشيخ الجامى(٣) كتابه بالنصائح التالية، ينصح بها نجله:

علينا أن نحى أنفسنا بأنفع العلوم، وعلينا أن نقف الحياة لصالح وخير البشرية ولنحيي حياة ساذجة ملؤها حب الجميع وخدمة الناس. وحاشاك من الكبر والخيلاء. وإن استطعت فلا تتزوج بل عش عازبا كحياة عيسى عليه السلام. وابتعد عن المتصوفين الذين لم يؤتوا من التصوف حظا كاملا، ولا تنادم الملوك ولا تخدمهم ولا تمدحهم كثيرا، ولا تكن مشغوفا بالثروات المادية، ولا تبادر إلى الوعد. وإن وعدت فأنجزه فانما أنجز حر ما وعد.

وباللغة الفارسية كتاب آخر بنفس الاسم (يوسف وزليخا) للشيخ ناظم الهروى. وشاهدت له مخطوطا عند صديق الأستاذ راجه سيد حسين مهدى، أحد نواب البرلمان الهندى من ولاية براديش. كتبه الناظم إمتثالا لأمر الرئيس الايرانى عباس قلى فى عهد شاه عباس ملك إيران. ويشتمل الكتاب على ٣٤٢ صفحة ذى خمسة عشر بيتا ونسخ فى العام السادس عشر لمحمد شاه.

وابتيع هذا المخطوط فى عام ١٢٥٢ بثلاث روبيات. والأغلب — كما يفهم من صفحة ٣٣٥ — أنه كتب فى العام ١٠٨٥ الهجرى.

وأما القصة بتفاصيلها فهى نفس ما ذكره الشيخ الجامى فى كتابه. ولغة الكتاب سليمة، والعبارة أنيقه، ولا يعد أنه من حيث أساليب البيان والتعبير من أروع آيات الجزالة والبراعة.

ويجدر بالذكر أن الشاعر أتى فيه فى كثير من المواضع بأمور تختص بمجتمعه وعصره وليس لها علاقة بعصر الفراعنة الذى يرجع إليه تاريخ القصة. كما قال عندما ذكر المتكأ الذى اعتدته زليخا لنساء المدينه:

یکی دیوان حافظ داشت در دست * که از میخانه هم راهی بحق است

فشبههن باللآلى فى أيدهن دواوين الحافظ الشيرازى إيهاما بأنه كان متداولا فى ذاك العصر. وغير خاف الاختلاف بين القصة وديوان الحافظ. وأود لو يقدر الله لنا طباعة هذا الكتاب، فانه حقيق بأن يعتبر من أثمن الذخائر للآداب الفارسية. وإليكم نبذة من ترجمة أبياته المنقطعة النظير:

وكانت حولها إماء كانهن طرر حول خدودها.

أللهم اجعل قلبي كيوسف مصر وارزقنى الشباب فى أمانى كما رزقته لزليخا.

ولو أرسلت متدلة طررها لأطالت أعمار الفتن.

لا يمكن أن يقارن حدة الزمن بحدة العشق ولا غرو، فانه لا يمكن المقارنة بين مجنون وبين يد مجنون (وهو اسم لبعض الخشب).

اللغة التركية

كتب الشيخ حمد الله فى هذا الموضوع كتابا منظوما باللغة التركية. وكان الشيخ حمد الله يعرف فى أشعاره باسم حمدى. توفى سنة ٩٠٩ الهجرية. والكتاب شهير متعارف فى البلاد التركية. ويجدر كتاب يوسف وزليخا للحمدى بأن يقرأه كل نفس كريمة وذى قلب سليم. فانه لاريب ينشئ الذكاء ويزيح الوصمات عن مرآة القلب.

وممن ألف فى الموضوع باللغة التركية الشيخ مولانا أحمد سليمان المتوفى ٩٤٠ الميلادى الذى يعرف بابن كمال وقيل عن هذا الكتاب فى الزبده (Zubdah):

بود رج ايچنده دوج اولان زرو در.
يدى يك يدى يوزيتميش يد يدر.

وبلغ مجموع ما وضع فى هذا الدرج من النقود والجواهر سبعة آلاف وسبعمائة وسبع وسبعين. وهنا كتاب للشيخ ذهنى عبد الدليل البغدادى (المتوفى ١٠٢٣ الهجرى) وروى منه بيتان فى زبده. وللشيخ بهشتى (المتوفى فى عام ٩٧٩ الهجرى)، و «سنان قادى» و «شكارى» و «خليفه» أيضا ممن كتبوا فى قصة يوسف وزليخا باللغة التركية، وانتهى الأخير من كتابه فى السنة ٩٧٠ الهجرية وهو يشتمل على ٧٠٠٠ بيت. وقد كتب الشيخ نعمة الله الحورانى بالبحر السريع والشيخ القرمانى المتوفى فى ٩٥٢ الهجرى أيضا. وروى عن الأخير فى زبده ٢٩ بيتا. وروى ستة أبيات عن الشيخ يحيى بيگ الذى هو أيضا من كتاب هذا الموضوع.

وعلاوة على ذلك فقد نقل الشيخ عمر الخلوتى إلى التركية كتاب الشيخ الجامى المذكور آنفا امتثالا بأمر الملك عثمان فى سنة ١٠٣٠ من الهجرة النبوية. ويوجد باللغة التركية كتب أخرى كما بين فى كشف الظنون فى الصفحة الأخيرة.

وقد نقل المستر روزنويج (Rozenweig) كتاب يوسف وزليخا للجامى إلى اللغة الألمانية بينما المستر ر. ت. ه. جريفيت والمستر روجرس (R. T. H. Griffith & A. Rogers) نقلاه إلى اللغة الانكليزية فى عام ١٨٨١. إلا أن كتاب الأخير يعد أدنى منزلة من كتاب الأول.

تعريب ناصر الأنصارى

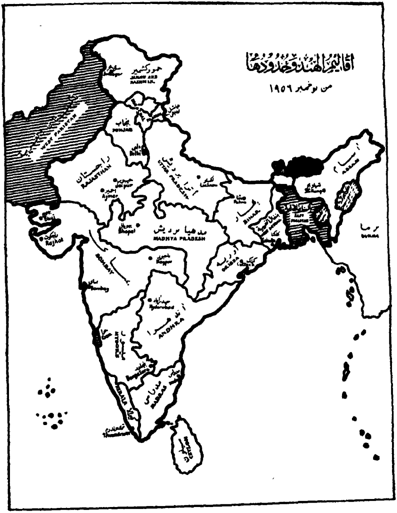
الأدب الهندى المعاصر

تمتاز الهند عن سائر بلدان العالم بكثرة اللغات وتعدد اللهجات حتى لا يوجد لها مثيل فى بقاع الأرض. ومما هو جدير بالذكر أن الدستور الهندى قد اعترف بأربع عشرة لغة من اللغات الهندية المحلية. بينما اللغة الهندية المعروفة لغة رسمية، فتحل محل الانجليزية فى غضون بضعة أعوام طبقا للدستور. ومن اللغات المعترف بها: مليالم، التاملية، وتلغو، والكنارية، والججراتية، والمراتية، والآسامية، والبنغالية، وأوريا، والبنجابية، والكشميرية، والسنسكرتية، والهندية، والأردوية. وكل منها لغة حية غنية بالذخائر العلمية والأدبية. والواقع أن العصر الحاضر هو العصر الذهبى للأدب الهندى. وأن البلاد حكومة وشعبا تهتم كثيرا بالنهضة الأدبية وبتوطيد الروابط الثقافية بين الهند وبين بلدان العالم الأخرى لا سيما مع البلاد الآسيوية والأفريقية.

ومن هنا قررنا أن نقدم سلسلة من المقالات العلمية تتناول مختلف النواحى لآداب اللغات الهندية المعترف بها، ونبدأها بلغة مليالم، وهى لغة مقاطعة كيرله الواقعة بأقصى جنوب الهند، على ساحل بحر العرب.

ملـيالم

إن هذه اللغة يتحدث بها حوالى أربعة عشر مليون نسمة فى مقاطعة كيرله، الواقعة فى ساحل الهند الغربى الممتدة بين شاطئ بحر العرب وبين سلسلة الجبال الغربيـة. وتبلغ مساحتها نحو خمسة عشر ألف وخمسة وثلاثين ميلا مربعا. وتعتبر كيرله أصغر مقاطعات الاتحاد الهندى. وفى الوقت نفسه هى أكبر مساحة


أقاليم الهند وحدودها
من نوفمبر ١٩٥٦
جمو وكشمير
JAMMU AND KASHMIR
WEST PAKISTAN
بنجاب
PUNJAB
دلهي
Delhi
راجستان
RAJASTHAN
Jaipur
Ajmer
أترا پرديش
UTTAR PRADESH
Lucknow
بهار
BIHAR
Patna
آسام
ASSAM
EAST PAKISTAN
برما
BURMA
Rajkot
Bhopal
مدهيا پرديش
MADHYA PRADESH
BOMBAY
Nagpur
Bombay
أوريسا
ORISSA
Cuttack
Hyderabad
أندهرا
ANDHRA
MYSORE
Bangalore
مدراس
MADRAS
KERALA
CEYLON

لغات الهند المحلية وأقاليمها

	اللغات	الأقاليم
١	اللغة الكشميرية	كاشمير
٢	« البنجابية	بنجاب
٣	« الهندية	دهلى، أترا برديش، بهار، مدهيا برديش
٤	« الججراتية	بمبئى
٥	« المراتية	»
٦	« الآسامية	آسام
٧	« البنغالية	بنغال
٨	« الأورية	أوريسه
٩	« تليغو	آندهرا
١٠	« التاملية	مدراس
١١	لغة مليالم	كيرله
١٢	اللغة الكنارية	ميسور
١٣	« السنسكرتية	لغة كلاسيكية قديمة
١٤	« الأردوية	لغة شائعة فى البلاد يفهما كل هندى، وهى لغة الهند الشمالية وحيدرآباد بصفة خاصة.

وأكثر عددا للسكان من بلجيكا أو هولندا، فان تعداد سكان بلجيكا يبلغ حوالى ثمانية ملايين، بينما يبلغ تعداد سكان هولندا نحوا من عشرة ملايين نسمة. وكان العرب يسمون السواحل الغربية فى جنوب الهند باسم مليبار. أما أسماؤها المستعملة فى الكتب القديمة فى الأدب «التاملى» و «الكرناذكى» فهى كيرلم أو مليالم. وإن كلمة «كيرلم» أو «كيرل» فى اللغة الكنارية هى صورة مشوهة لكلمة شيرلم أو شيرل فى اللغة التاملية. ومعناها سلسلة الجبال، لأن كيرله بلاد تحدها سلسلة جبال فى الجهة الشرقية من أولها إلى آخرها. ومن أجل ذلك سميت كيرلم أو چيرلم.[١] وكلمة مالابار تتألف من مجموع كلمتى ملا و بار. وتستعمل كلمة «ملا» أو «ملى» فى لغات درابيداس للجبل. وكذلك تستعمل فى اللغة السنسكرتية أيضا لنفس المعنى. و «بار» كلمة فارسية ومعناها الكثير. فصار معنى المجموع «بلد الجبال» أو «بلد كثير الجبال». وأول من سمى تلك البلاد باسم مليبار أو ملابار، هم الملاحون الذين قدموا إليها من جزيرة العرب أو من بلاد الفرس. وابتدأت هذه التسمية منذ القرن الخامس الهجرى. وأول من استعمل هذا الاسم من الجغرافيين العرب هو «شريف إدريسى» (٥٤٨هـ و١١٥٣م)، واستعمله بعد ذلك ياقوت الحموى (٦٢٦هـ و ١٢٢٨م). والمؤرخ المشهور أبو الفدا فى كتبها.[٢]

وورد ذكر بلاد كيرله فى الكتب العربية القديمة باسم بلاد الفلفل. ولابن بطوطه الرحالة المشهورة وصف رائع للفلفل فى كيرله فيقول:

«وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب، وهم يغرسونها إزاء النارجيل، فتصعد فيها كصعود الدوالى. وأوراق شجره تشبه أوراق الخيل، وبعضها يشبه أوراق العليق (نوع من النبت يتعلق بالشجر) ويثمر عناقيد صغارا» إلخ (مهذب ابن بطوطه).

١ — Tamilion Antiquary. Vol. iv, pp. 69-71

٢ — معجم البلدان جزء ٤، ص ٦٣٩. تقويم البلدان ص ٣٥٣.

وقبل أن نعرج على تفاصيل آداب مليالم وتطوراتها، علينا أن نلقي نظرة خاطفة حول، تاريخ كيرله وعناصر شعوبها وعوامل لغتها. وكانت في جنوب الهند قبل الميلاد ثلاث حكومات محلية: باتا وشولا وشيرا. فأما باتا فكانت في أقصى الجنوب، وكانت الجهات الشرقية من نهر ويلار إلى نهر بلار تحت حكم شولا. وأما شيرا فكانت تسيطر على سواحل كيرله الممتدة من كونكنم شمالا، إلى كنياكاري[1] جنوبا. وترعرعت الحضارات الهندية القديمة في جنوب الهند تحت ظل هذه السلطات الثلاث. وجاء ذكر عائلة شيرا في لوحات أثرية مكتوبة في عهد الامبراطور أشوكا باسم شيرلم بترا، وكانت عاصمتهم مدينة كوشين، ولا تزال آثارها باقية في شاطئ نهر بريار على بعد ثمانية عشر ميلا من كوشين. وبعد ذلك بنوا عاصمتهم في ترونجيكلم الواقعة في فم نهر بريار.

وكان العرب يفدون إلى كيرله قبل عهد الاسكندر الأعظم بقرون عديدة، وكانت محصولاتها تصدر إلى سواحل جنوب جزيرة العرب عبر الخليج الفارسي. ومن هناك كان التجار العرب ينقلونها إلى «تدمر» بسوريا، والاسكندرية بمصر بطريق الحجاز. وأما التجار الغربيون فكانوا يشترون تلك البضائع من هذه المدن ثم يصدرونها إلى أسواق بلادهم. وكان العرب والمصريون في الزمن القديم هم الوسطاء بين الهند وبين الروم واليونان في ميدان العلاقات التجارية. وجاء في العهد القديم من التوراة أن الاسرائيليين كانوا يتاجرون مع كيرله في عهدي داؤد وسليمان عليهما السلام.

ووصل لقديس «توماس» المبشر المسيحي المشهور إلى الهند في عام ٥٢ للميلاد. وكانت كرانغلور أول بلدة نزل فيها. وتقع كرانغلور في جنوب كيرله في الجهة الشمالية لامارة كوشين السابقة. وهي البلدة التي وصل إليها المسلمون أولا، وبنوا

[1] Cap Comrin

فيها أول مسجد فى القارة الهندية كما يتضح من الأدلة التاريخية. وإن الميناء الذى نزل فيه واسكودى غاما وصحبه أولا فى الهند هو قرية بنتلاينى بشمال كيرله. ثم ارتحلوا إلى كاليكت وأقاموا هناك مدة سنة ونصف. فمنذ ذلك التاريخ عرف أهل أوربا الطريق إلى الهند، ووثقوا العلاقات بالهند مباشرة. ووصل واسكودى غاما وبعثته إلى كيرله فى ١١ من شهر مايو سنة ١٤٩٨م، بعد أن قضوا فى الرحلة من ميناء «لسبون» (عاصمة برتغال) إلى ساحل كيرله عشرة أشهر وتسعة أيام. واستمرت الاتصالات التجارية بين كيرله والبلاد الخارجية أكثر من أية ناحية أخرى فى الهند. ولهذه العوامل المتنوعة أثر يذكر فى كيان آداب مليالم وتطوراتها. ونجد فى كيرله أتباع جميع الأديان الرئيسية فى العالم، من الهندوسية، والبوذية، والجينية، واليهودية، والمسيحية والاسلامية وغيرها.

بداية أدب «مليالم»

لم يعرف عن هذا الأدب إلى القرن التاسع الميلادى إلا ضئيلا وبطريقة غامضة. ولكن بدأ أن يكون لها أدب كامل كلغة حية ناهضة منذ القرن الرابع عشر للميلاد. وأول عمل أدبى وصل إلينا من أدب مليالم هو كتاب يعرف باسم ليلا تلاكم، يتناول النحو واللغة. وقد بذلت محاولة فى بعض الدوائر الأدبية لاثبات أن مليالم كانت فرعا للغة التاملية أيام أن كانت الآداب التاملية فى عنفوان شبابها فى العصور الوسطى لنهضتها الأدبية. ولكن لا يوجد دليل مادى يؤيد تلك النظرية. وإذا نظرنا إلى مليالم كلغة ذات آداب وعلوم نرى لها معاجم خاصة وقواعد وأساليب وبحورا قائمة بذاتها. أللهم إلا بعض الألفاظ السنسكريتية التى استخدمت فى الأشعار. وعاشت تلك الألفاظ جنبا بجنب مع الألفاظ الأصلية لملايالم حتى أصبحت جزءا منها حيث يصعب التميز. وفى القرن التاسع

عشر ابتدأ نظام جديد للتعليم يطبق فى كيرله. فكانت النتيجة المباشرة لهذا التحول هى نشاط التأليف والترجمة من الكتب السنسكرتية الكلاسيكية، لسد ما تحتاج إليه المدارس الحديثة من الكتب المقررة فى اللغة المحلية. وتحركت أخيلة الشعراء وتشحذت هممهم. ولكنهم كانوا يقتفون إذ ذاك طريقة الشعر السنسكرتية فى التشبيه والتمثيل. وكان زعيم هذه المدرسة التى أنتجت مكتبة أدبية خالدة رغم قدم أسلوبها واقتفائها بمناهج المدرسة السنسكرتية القديمة، «كيرله ورما» (المتوفى سنة ١٩١٥) صاحب الديوان المشهور «مايورا سنديشم».

المدرسة الحديثة

ونشأت أثناء ذلك مدرسة أخرى قامت بترويج الأساليب البسيطة السهلة فى الكتابات نثرا ونظما. وتزعم هذه الحركة ولاة كدنغلور و نمانى نمبو ترياد. وكان كل من كنجى كتان تمبوران فى كدنغلور، وأخيه متبحرا فى السنسكرتية. لكنهما كانا يتفاديان الألفاظ العويصة فى كتاباتهما كما كان يعمل كيرلا ورما. وأما نمانى فسبقهما بخطوة أخرى فى هذا المضمار، فكتب قصائده فى اللغة الدارجة الشائعة بين أوساط الشعب، وبهذه الطريقة فتح باب جديد فى أدب مليالم، كان طليعة الكتاب المحدثين فى مليالم. وكان الأدب النثرى لمليالم مليئا بالاصطلاحات السنسكرتية النادرة والأساليب الكلاسيكية، فى القرنين الخامس عشر والسادس للميلاد. ولكن كيرلاورما حاول بنفسه لتبسيطها وحل رموزها وتشريح غوامضها. ومع هذا أصبح أسلوبه العالى وتعبيره الدقيق ثقيلا إلا على الذين تبحروا فى السنسكرتية. ولا مراء فى أن استخدام الكلمات الصعبة والأسلوب المعقد لا يتفق ولغة حية ناهضة. وبناء على هذا لم تنل هذه الطريقة شيوعا يذكر بين أوساط الناس، وأدركت الصحف والمجلات صعوبة بالغة فى اقتفاء هذا الأسلوب فى الكتابات اليومية. وفى ذاك الوقت ظهرت على المسرح

مدرسة جديدة فى أدب مليالم، فكتب «جندو مينون» قصته المشهورة «إندولكا» فى لغة دارجة وأسلوب سهل. وكانت هذه القصة تحديا ظاهرا للكتاب الذين كانوا يكتبون فى الكلاسكية، وأثبتت أن ميزة الكاتب القادر تكمن فى إنتاج أفكاره فى لغة شعبية، وفى استخدام الأدب للحياة. ثم جاء أديب آخر إلى الميدان وأنشأ طريقا وسطا بين الكلاسيكية العويصة والدارجة المبتذلة. وهو ا. ر. راجا راجا ورما، وكان نحويا معروفا، وشاعرا كبيرا، وناقدا حرا. فوضع كتابه «كيرلا بانينيام» وهو حجة فى النحو المليالى، ويمكن أن يقال إنه هذب مليالم من الأساليب السنسكرتية القديمة، التى كان يتبعها كيرلا ورما، ومن الأساليب المبتذلة التى كان يتزعمها ونمانى، وانتهى هذا الدور الاعدادى فى عام ١٩١٥.

والجدير بالذكر أن هذا الدور مع غرابة إنتاجه الفكرى والعلمى كان ذا نشاط متنوع النواحى، وزود ذلك الدور بصفة عامة أدب مليالم بذخيرة قيمة من التراجم من السنسكرتية ومن الانجليزية، وتمت فيه ترجمة الملاحم الكبرى والتمثيليات المشهورة وبعض القصائد المعروفة مثل كارا سمبهوا. وفى هذا الدور أخذت الكتب الانجليزية الكلاسيكية نصيبها فى ترجمتها إلى مليالم. وقد تناول كتاب ذلك العصر فى تمثيلياتهم ورواياتهم النظريات الحديثة المتطورة فى الحياة العامة، كما يتجلى ذلك فى «كليانى نادكم» تأليف «كوچنى تهمبورن»، وهو كتاب تتناول الحياة الاجتماعية الشائعة فى ذلك الوقت. وكذلك رواية مريم نادكم من وضع الكاتب الروائى «ماويلكرا تراكان»، تنعكس فيها حياة الطائفة المسيحية. وبالجملة فان ذلك الدور الاعدادى قد جعل مليالم لغة غنية وسهلة المنال. وغذاها بالمكونات اللازمة لنهضتها الحديثة. وبث فيها روح النشاط الأدبى الجديد.

الدور الحديث

أما أدب مليالم فقد دخل فى دور ثوري حديث من يوم أن صدرت فى

مليالم القصة المشهورة نالينى، للكاتب المعروف كاران آشان. وتدور القصة حول حب برئ يتصاعد مع التزام مثل عليا فى أدواره بكل مهارة ودهاء. وكانت نالينى الوثبة الأولى للروح الجديدة فى أدب مليالم. ومن الشخصيات البارزة فى حركة التجديد والاصلاح فى أدب مليالم فى العصر الحديث الشاعر الكبير الراحل ولتول. وحدث تغير مرموق فى تاريخ أدب مليالم منـــذ أن صدرت قصيدته المشهورة أرشيترم (أى صورة) فى عام ١٩١٥. وكان شاعرا اجتمعت فيه مزايا العهد الماضى وصور العهد الحديث. وأما ترجمته الحرفية لـ راماين التى كتبها والميكى فنقطة تحول فى تاريخ مليالم. وأما أقطاب النهضة الحديثة فى الأدب الشعرى لمليالم فهم ولتول، وأوللور، وكاران آشان. وكان أوللور يتبع الطريقة السنسكرتية القديمة وينظر إلى الحياة ويعالج قضاياها بوجهات نظر العهد القديم. فلذا لم تنل أشعاره المكانة المرموقة بين أوساط الشعب، بينما كان كاران آشان يتناول شؤون الحياة الشعبية العـادية فى أشعاره وكتاباته وتأثر بكثير من النهضات الحديثة فى الميـادين العلمية والسياسية والأدبيـة وغيرها. ونالت أشعاره صيتا بعيدا وقبولا حسنا لدى الشعب. فوصل الأدب الشعرى فى مليالم إلى مكانته الحالية.

سردار پانيكار

إن السردار ك. م. پانيكار هو أحد مشاهير الكتاب المحدثين فى لغة مليالم. لكن شهرته فى خارج كيرله كدبلوماسى بارع ومؤرخ معروف وكاتب قـــدير فى الانجليزية، قد أخفت على كثير من الناس أنه كاتب ملهم فى مليالم أيضا، فلا نجد بابا من أبواب الأدب إلا وله فيه تبرعات وهدايا قيمة سواء فى الأدب الشعرى أو الأدب التمثيلى أو القصص أو النقد. ومن قصائده المعروفة شيتا ترنغينى وپنكى پرينايم وأنيا پالى. ومن كتبه تاريخ حياته الذى كتبه بنفسه. وروايته التـاريخية المعروفة كيرلا سمهام. وتبدو من مؤلفاته وكتاباته جليا وفرته

العلمية وسعة آفاقه الثقافية وتعمقه فى التاريخ.

شنكرا كروب

احتل الشاعر الكبير ج. شنكارا كروب مكانا ممتازا فى الأدب الشعرى المعاصر لمليالم. وله أسلوب سهل بسيط فى أشعاره تفهمه عامة الناس وخاصتهم. وهو زعيم الجيل الحاضر ويتغلل إلى أعماق القضايا الراهنة التى يواجهها الشعب. وأشعاره نموذج للدرسة الحديثة. وتأثرت تأملاته وأفكاره بمطالب الشعب الاجتماعية والاقتصادية فى الوقت الحالى. فجاءت أشعاره إنعكاسا لتقدم الجيل الجديد ويتناول مطالب الشعب بطريقة تتقارب مع وجهات النظر اليسارية كما نسميها الآن.

دور المرأة

إن للكاتبات دورا هاما فى ميدان النهضة الأدبية لمليالم. ومن أشهر الكاتبات فى الدور القديم أى فيما قبل عام ١٩١٥ للميلاد أكا وأما التى كتبت روايتها المشهورة «سبها درارجنم» بأسلوب كلاسيكى. وأما العصر الحديث فنجد فيه شاعرات عديدة وأديبات شتى يلعبن دورا حيا فى الأدب. ومنهن «بال منى أما» و«ميرى جون» و«باروتى أما». وكانت «بال منى أما» شاعرة الأمومة بينما كانت «ميرى جون» تغذى كتاباتها وأشعارها بأفكار فلسفية ودينية. ومن المؤسف أنها فى أخريات أيامها أصبحت فى غياهب النسيان. وتمتاز أشعارها برقة الخيال وعلو الأفكار ومتانة الأسلوب.

العصر الحديث

دخل الأدب الملبالى فى دور جديد ثورى منذ عام ١٩٣٦م. حيث ابتدأت الحركة الوطنية ونشأت مدرسة جديدة فى الأدب تستلهم أفكارها من الجناح

اليسارى فى الميدان السياسى. وامتازت هذه المدرسة بالنقد الحر الصريح والمطالب القومية والوطنية واشتهرت باسم «بروجمناؤادم» أى الحركة التقدمية. وفى مقدمة أبطال هذه الحركة فى ميدان النقد الصريح «جوزف مند شيرى» و «أيم بى پول» و «ا-بال كريشنا بلاى». واشتهرت هذه المدرسة فى القصص القصيرة والروايات. ومن الشعراء البارزين لهذا الدور «شرى دهرا ميـنون» و «جو بال كروب» و «بالاى ناراين ناير».

واهتمت المدرسة الحديثة كثيرا بتصوير الوقائع الراهنة بدون الالتجاء إلى التصورات الماضية. وأما رواية «باليا كاليا سكهى» أى «صديق الطفولة» للكاتب المعروف محمد بشير فتعتبر من أحسن الروايات فى هذا المضمار. ومن الكتاب المعروفين الروائيين فى الوقت الحاضر «تكاسى»، وروايته الأخيرة «شمين» أى الأربيان (فى العامية جمبرى) صورة صادقة لحياة الصيادين فى شاطئ أيليبى فى كيرله. وتعد شمين أحسن الروايات المكتوبة فى مليالم إلى يومنا هذا. ومن ضمن الأدباء الذين زودوا المكتبة الأدبية لمليالم بالقصص القصيرة والروايات الحديثة «س. ك. بتكات» و «ك. ت. محمد» و «جوزف مندشيرى» و «وركى».

التمثيليات والدراما

إن للتمثيليات والدراما أيضا مكانة كبرى فى أدب مليالم. ومن التمثيليات المعروفة فى أوساط الشعب الآن فى كيرله تمثيلية ك «روبلا كلرى» أى مدرسة بدون معلم، للكاتب المشهور «سى. وى. رامن بلاى» تتناول الحياة الاجتماعية الرائجة فى طائفة ناير فى كيرله. وكذلك نشط الأدب النقدى فى هذا الدور، وبدأ له دور حديث منذ أن ظهر فى مسرح النقد مشاهير النقاد مثل «مند شيرى» و «بول» و «بال كريشنا بلاى» وأمثالهم. والآن قد أصبح الأدب النقدى فى

مليالم جزءا هاما من آدابها بطريقة تقدمية، حيث تتمشى مع النهج الحديث فى البحث والتنقيد.

تاريخ الآداب

إن هناك نهضة ميمونة فى كتابة تاريخ آداب مليالم من مختلف النواحى. وفى مقدمة الكتب الموضوعة فى هذا المضماركتاب للمؤرخ المشهور «ب كوبند بلاى» صدر فى أواخر القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الحين نشط البحث والتمحيص حول مختلف النواحى لنشاطها الأدبى. وهـذا البحث المتواصل قـد ألقى الضوء على نواح عدة مجهولة أو غامضة لمليالم وآدابها، وقد أسفر ذلك البحث عن اكتشاف رجال بارزين أسدوا خدمات جليلة لأدبها فى مختلف العصور. ويتزعم مدرسة الأدب التاريخى فيها الآن شخصيتان بارزتان هما «ناراين بانيكار» و«ألور برميشور أيار». ويحتوى كتاب تاريخ لغة مليالم وآدابها لناراين بانيكار على سبعة أجزاء. وأما تاريخ مليالم لبرميشور أيار فتحت الطبع وتقوم بنشره جامعة كيرله. وهو ليس بمجرد تاريخ لآدابها بل تاريخ شامل لكيرله كلها. ويبحث عن شعرائها الذين كتبوا فى السنسكرتية وأدبائها وكتابها بصفة عامة.

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر اسم اللغوى الكبير الدكتور «ك. م. جورج»، فمن أهم تبرعاته فى هذا المضمار «راما شريتا». وهو يساعد كثيرا على تفهم التطورات الأولى لمليالم كلغة مستقلة قائمة بذاتها. ومن المؤسف جدا أن التاريخ لم يأخذ مكانته اللائقة فى أدب مليالم إلى مدة طويلة إلا كتاب وضعه «ك. ب. بدمنابها مينون» فى تاريخ كوشين فى مجلدين، وبعض الرسائل والكتيبات ولكنها بطريقة غير منظمة مستوعبة.

الصحافة

ودخل الأدب فى كيرله إلى دور جديد منذ شب نشاط الصحافة فى البلاد.

ونرى الآن فى كيرله الصحف والمجلات تصدر بكثرة فائقة، دليل باهر على الازدياد المرموق فى الصحف والمجلات فى كيرله مع صغر حجمها. ومما يذكر بأن كيرله أكثر مقاطعات الهند نسبة فى التعليم. وأصبح فيها الأدب جزءا لا يتجزأ من حياة الشعب بصفة عامة.

مليالم العربيـــة

منذ أن توافد العرب كيرله (المعروفة فى الكتب التاريخية العربية باسم مالابار) وساهموا مساهمة فعالة فى شتى مرافق الحياة الشعبية فى البلاد، اضطروا إلى تعلم لغة مليالم لغرض أو آخر. واخترعوا فى أول الأمر حروفا خاصة للغة المحلية أى مليالم. وهذه الحروف تكتب فى شكل الحروف العربية بتصرف بسيط فى بعض منها. واشتهرت فيما بعد باسم الحروف العربية لمليـالم. وأصبحت منذ ذلك الحين لغـــة محلية لطائفـة المسلمين (المشهورة باسم: «مابلا») أو حروفا خاصة على أدق التعبير. ومن أهم العوامل التى دعتهم إلى اختراع هذه الحروف هو حرصهم على الاحتفاظ بالنطق الصحيح وبالهيئة الأصلية لبعض الكلمات العربية والمصطلحات الشرعيـة بدون تحريف ولا تبديل، مثل: محمد والرحمن والصلاة والقران، فانه لا توجد فى لغة مليالم حروف ح، و ص، و ق، و ض وغيرها من بعض الحروف المختصة بالعربية. والباعث الآخر لاختراع هذه الحروف هو التسهيل للعرب الوافدين إلى كيرله على تعلم لغتها بواسطـة الحروف المألوفة لديهم، لأنه يصعب عليهم الالمام بلغة غريبة عنهم كتابة وتحدثا فى آن واحد.

ولطائفة مابلا المسلمة فى كيرله آداب خاصة كما أن لهم حروفا خاصة. ومنها الأغانى الشعبية المعروفـة باسم: «مابلا پاٹ» أى أغانى مابـلا. وهذه الأغانى تمثل غالبا الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية الشائعة لدى مابلا. ومن ميزاته

تلك الأغانى أنها تحتوى على كلمات عربية وفارسية وأردوية وتاملية، وسنسكرتية. ولها أوزان وبحور خاصة، وتصوير رائع جميل للوقائع حيث يجذب قلوب السامعين. وكتبت معظم هذه الأغانى خاصة لطائفة مابلا فى مليالم العربية وتعتبر العربية مليالم لغة مستقلة ذات خصائص ومميزات، وهى مظهر عام للعصر الذهبى لطائفة مابلا فى مالابار. ولا تزال تحتفظ بهذه الأغانى الشعبية والأناشيد التقليدية فى بيوتهم ومعاهدهم وأفراحهم واجتماعاتهم جيلا بعد جيل.

أثر اللغات الأخرى فى لغة مليالم

أما مليالم فمن سجيتها أن تقبل الكلمات والمصطلحات الخاصة من لغات حية أخرى. ثم تمزجها معها مزجا حتى لا يعرف منشؤه الأصلى ومصدرها الأول إلا لدى باحث محقق. ومما هو حقيق بالذكر أن الروابط التاريخية والثقافية بين العرب وكيرله ترجع إلى عهود قديمة جدا. فكان التجار العرب يفدون إلى سواحلها جماعات وفرادى ويستوطنون هناك شهورا وأعواما، وكانوا يساهمون مع الأهالى فى نشاطهم الثقافى، ومن الطبيعى أن تبث اللغة العربية نفوذها على مليالم وتؤثر فيها بشكل أو آخر. وأما من الناحية السياسية والادارية والعسكرية فقد كانت الهند كلها أو جلها تحت السلاطين المغول، وكانت فيها جيوش أفغانية وإيرانية وتركية لعدة قرون. وكان لهؤلاء الحكام نشاط كبير فى سبيل النهضات الأدبية والفنية إلى جانب النفوذ السياسى والعسكرى. وكان لغتهم الرسمية، الفارسية أو الأردوية، وكل واحدة منها مليئة بالكلمات العربية، والتركية والكردية وما إلى ذلك. فأصبحت تلك الألفاظ خصوصا فيما يتعلق بالشؤون الادارية والعسكرية متمكنة فى اللغات الهندية المحلية. وبالاختصار أن لغة مليالم تعتبر فى هذه الأيام لغة غنية لها آدابها وفنونها.

قصة شعبية من «كيرله»

الشقيقات السبع

كان فى إحدى ضواحى الهند الواسعة رجل طيب القلب، طاعن فى السن، يقيم فى مكان مظلل بالأشجار. وكان له سبع بنات من زوجه التى توفيت. فتزوج الرجل للمرة الثانية لتعتنى زوجه الجديدة ببناته السبع، وكان الرجل يعانى فقرا شديدا مع كثرة أفراد عائلته. فاضطروا إلى أن يفكروا فى أمر معيشتهم ويبحثوا عن وسائل وأعمال ليجدوا بها طريقة يسدون بها جوعهم، ويملأون بطونهم. وكان الرجل تقيا ورعا على فقره المدقع. فسأل الله أن يعطيهم الرزق والكفاف. وما إن ارتفع إلى الله تعالى دعاؤه المنبعث من أعماق قلبه بكل خشوع وخضوع، حتى أخذوا يجدون كل يوم تسعة أنصبة من المأكولات الشهية فوق سطح بيتهم، نصيب واحد لكل فرد من أفراد العائلة. ويذهبون يوميا هناك فيأتون بطعامهم، ويقسمون ذلك الطعام بالتساوى بينهم. وكانت العائلة كلها صغارا وكبارا تعتمد على هذا فى معاشهم، ولا يعرفون شيئا عن مصدر ذلك الطعام المستمر. وعلى مر الأيام بدأ الحسد والحقد فى قلب الزوج الجديدة تجاه البنات — كما هو العادة الشائعة فى البيوت التى تكون فيها زوج أخرى لأب الأولاد — وتسربت إلى قلبها فكرة شيطانية. وهى: لو أنها استطاعت أن تحفظ لنفسها هذه الكمية من الأنصبة التسعة من الطعام التى يجدونها يوميا. وتحقيقا لهدفها الدنىء، بدأت تدبر الدسائس والمؤامرات ضد البنات. وأرادت أن تضع خطة للتخلص من البنات السبع والاحتفاظ بالأطعمة كلها لنفسها ولزوجها.

وفى يوم من الأيام أبدت الزوجة رغبتها فى أن تأخذ البنات إلى جولة فى الغابات الممتدة بجوار الجدول. ووافق الأب على ذلك فذهبت هى والفتيات

إلى الجدول. ولما وصلن إلى هناك قالت لهن باهتمام بالغ:

« يا بناتى! إنه يوجد فى قرب هذا المكان كهف مظلم، يقوم بحراسة أبوابه عفريت من الجان، وفى داخله كنوز ثمينة. وأفكر الآن لو استطعت أن أقتل ذلك العفريت وأدخل إلى داخله لنعيش كل منا بعد ذلك ثريا موسرا. ويستطيع كل منكم أن يلبس الحلى من الذهب والفضة والجواهر الغالية لم تظفر بها حتى الملكات. فها أنا ذاهب بنفسى إلى مكان الكهف وأقتل العفريت الحارس. وأنتن تنتظرن هنا فى شاطئ الجدول، فاذا رأيتن الماء الجارى فيه قد تغير لونه إلى الحمرة فيكون ذلك دليلا على أن العفريت قد تغلب على، وأن دمى قد امتزج بالماء الذى يجرى فى الجدول. ولكن لا تخشون منه شيئا فعليكن أن تدعون الله لمغفرتى، والآن أذهب توا للقيام بهذه المخاطرة ».

وفى أول الأمر منعتها الفتيات من مزاولة هذه المخاطرة. ولكنها ألحت على ذلك، وكانت الفتيات البريئات يخفن عليها وينظرن بقلق شديد فى ماء الجدول. ولم تمض إلا بضعة دقائق حتى رأين الماء قد تغير لونه إلى الحمرة الخالصة واضطربن جزعا وفزعا. أما الزوج الماكرة فذهبت إلى جهة بعيدة فى شاطئ الجدول، ووضعت فى جانب المجرى مسحوقا أحمر حمله التيار المائى. وتوهمت الفتيات أن زوج والدهن قد قتلها العفريت. ثم عادت الزوج، بعد أن فعلت هذا، إلى بيتها. وأما الفتيات البائسات فقد بقين فى المكان ولا حول لهن ولا قوة، وشعرن بالحزن والأسى العميقين. وكن باكيات مولولات ليلا ونهارا، وتحملن الجوع والخوف والوحشة فى مكان قفر بعيد. وعادت الزوج إلى بيتها لتوهم الرجل أن البنات قد وقعن فريسة لأسد هائج.

(تتفق هذه الفكرة أو الحكاية تماما مع قصة يوسف عليه السلام حيث ادعى إخوته أمام أبيهم بنفس الفكرة بعد أن ألقوه فى غيابة الجب).

ومضى الليل والأب باك وحزين. وفى الصباح ذهب الرجل وامرأته الخائنة إلى سطح البيت فلم يجدا الأنصبة التسعة من الطعام الذى كان يأتى إليهم يوميا. وتفهم الرجل وربط بين هذا وبين الحادثة التى وقعت عن طريق امرأته الماكرة. فقام للبحث عن بناته ولكن لم يستطع أن يخرج من البيت لكبر سنه وضعف جسمه. وبعد زمن مات الأب بسبب الحزن والأسف، وماتت الزوج من تبكيت الضمير على فرط ذنبها وشدة حمقها.

وكانت الفتيات يتضورن جوعا وعطشا، ويفكرن دائما فى مستقبلهن المجهول. وكانت صغراهن مرة تعبث فى التراب بيديها كطفل برىء لعوب، فوجدت فى داخله أثناء اللعب قطعة من الفضة لا تساوى قيمتها أكثر من آنه واحدة، وأخبرت أختها الكبرى. فقالت بدورها للأخت الصغرى: «يا أختى احرصى على هذه القطعة فانها مبروكة وربما تساعدك على أن تجد زوجا مرضيا». وداومت الفتاة على البحث والتنقيب على أشياء عديدة مدفوعة بحب الاستطلاع. وعثرت مرة على مطواة صغيرة. وأخبرت أختها الكبرى عنها. فقالت فورا: حافظى عليها لعلها تنفعنا فى هذه الظروف الحرجة المحيطة بنا الآن. وبعد أيام حفرت البنت الأرض نحو قدمين فظهرت هناك قبرا مفتوحا. وتجمعت الفتيات كلهن ينظرن إلى الكشف الجديد العجيب، ونزلن إلى القبر ونظفنه من الأقذار والتراب المتجمد فيه، ففيه طريق يقود إلى دهليز طويل يوصل إلى غرفة واسعة الأرجاء، مزينة من التحف النادرة ومؤثثة بالأثاث الفاخرة. ووجدنها مناسبة للسكنى، ونظرن فى جميع أرجاء القصر المتألف من عدة حجرات واسعة فاخرة. واستمرت الفتيات يتحدثن فى الموضوع.

وكانت صاحبة القصر ساحرة قبيحة المنظر ووصلت إليها رائحة البشر. فراحت تبحث عنها حجرة لحجرة. حتى وصلت إلى الحجرة التى تتحدث فيها الفتيات،

وأصبحت الساحرة مسرورة بهذا الحادث الغريب، وظنت أنها تستطيع أن تأكل من هذه الضحايا الدسمة وتمص من دمائها. ولتحقيق هدفها بدأت تحتال عليهن، وتعرض عليهن أن يقمن فى القصر بكل طمأنينة وهدوء، وتتحدث معهن بعبارات معسولة حتى يغتررن بوعودها. ولكن الفتيات السبع قد تنبهن إلى مؤامرة الساحرة وحيلتها، وقررن فيما بينهن بأنه من الأنفع أن لا يهربن منها، بل عليهن أن يقتلنها بالحيلة ويستولين بأنفسهن على القصر وما فيه من الأثاث الفاخر والأمتعة الثمينة. وبدأن يتملقن الساحرة العجوز ويظفرن بحبها وثقتها، حتى استطعن بهذه الطريقة الوصول إلى عدة أمور من أسرارها وخفاياها. وأطلعت الساحرة الفتيات على كل شىء فى القصر ما عدا غرفة خاصة مقفلة. وأبت أن يدخلن إليها. ولكنهن استطعن بالمجاملة والتلاطف أن يقنعن الساحرة على فتحها أيضا. فاذا هى مليئة من أنواع الأدوية والأثريات التاريخية والمواد الكيماوية، مما لا يوجد لها مثيل فى الاختراع الحديث. وفى ضمن محتويات تلك الغرفة كانت قارورة مليئة بالسم القاتل. وصرحت الساحرة هذه الحقيقة إلى الفتيات حين وصلت ثقتها بهن إلى القمة. وهكذا عرفت الفتيات كل شىء فى القصر ومحتوياته.

وقررن أن يقمن مأدبة عشاء كبرى تكريما للساحرة الصديقة، وقلن لها بذلك فقبلتها فرحة مستبشرة. وذات مساء عند ما كان كل شىء على ما يرام لاقامة الحفلة قدمن أنواعا من الحلوى والأطعمة إلى الساحرة الطاعمة، وخلطن فى إحدى الأطباق من السم القاتل الشديد المحفوظ فى غرفة الأسرار العجيبة. فماتت العجوز فور أن تناولته. وهكذا نجحت الخطة التى دبرنها ضد الساحرة وأصبحن صاحبات الأمور بكل ما فى القصر من الكنوز والأطعمة والأشربة والكساء.

وذات يوم جرى بحث طويل فيما بينهن حول الزواج. وأبدى كل واحدة منهن نوع الزوج الذى ترغب فيه. قالت إحداهن إنها تتمنى أن تحصل على

زوج خباز لتستطيع أن تجد الخبز والفطائر وغيرهما من المأكولات اللذيذة دائما. وقالت الأخرى إنها ترجو أن تتزوج لبانا. لأنها مولعة بشرب اللبن وأكل الزبد والجبن، بينما أبدت الثالثة أملها فى التزوج بالترزى لكى تستطيع أن تلبس الملابس الفاخرة الجديدة طول عمرها. وقالت كبراهن إنها تريد أن تتزوج أميرا أو ملكا لتصبح ملكة صاحبة الجلالة. ورجت بنت أخرى أن تجد زوجاً يكون وزيرا ذا سلطة لاسداء النصح للملوك، فضلا عن مكانته الممتازة فى المجتمع.

وبينما كانت الفتيات منهمكات فى هذا البحث كان ملك البلد يتجول متنكرا للوقوف على حالة رعاياه فى كل أرجاء مملكته. فسمع تلك المحادثات التى كانت تجرى بينهن فى جوف الأرض. ولما عاد الملك إلى قصره أرسل أحد وزرائه للبحث عن الفتيات وأسرتهن وكيفية وصولهن إلى هناك. فعاد الوزير بعد ساعات ليخبر الملك عن كل ما يدور فى القصر الذى تحت الأرض، وخصوصا عن جمال البنت الكبرى وحسنها الفتان. وتوجه الملك الشاب فورا إلى قصرهن فوجد البنات، وأخذ بجمال فتاة كانت تتمنى بنفسها أن تكون زوجا لملك من الملوك. وتم الزواج بكل حفاوة وسرور، وكذلك زوج الملك كل البنات بالأزواج المرغوب فيهم إليهن من لبان، وخباز، وخياط، وما إلى ذلك.

وقضى الملك مع الملكة أعواما سعيدة هانئة، لم يحدث فيها شىء يكدر عيشهما الهانىء. ولكن الحسد والحقد يتسربان إلى قلوب الشقيقات الأخرى حول أختهن الكبرى. لأنها تزوجت ملكا وأصبحت ملكة، وكان ذلك أمنية تتمناها، لكنها أصبحت الآن حقيقة واقعة. وكن يفكرن من ناحية شيطانية أخرى، فانهن وأزواجهن كانوا مجرد رعايا للملكة ليس لهن مكان مرموق مثل ما لأختهن الملكة فى شؤون الدولة. مع أنها واحدة مثلهن دما وطبقة! وعند ما انتشر نبأ قرب موعد لوضع الملكة مولودا سعيدا ساد الفرح والسرور فى أرجاء البلاد

كلها، لأن الملك كاد يظفر بولى عهد مبارك، ولكن الشقيقات قد اشتد بين الحسد إذ فكرن بأن المولود يصبح وليا للعهد ويحكم عليهن وعلى أزواجهن.

ووضعن الشقيقات خطة مدبرة لتذليل أختهن الملكة. فتوجهن يوما إلى القصر الملكى للاجتماع مع الملكة. ولما وصلن إليه فى الموعد المضروب رحبت بهن الملكة بكل تكريم وحفاوة، وقدمت إليهن أنواعا من الأطعمة الملكية اللذيذة. ولما دار الحديث بينهن قلن للملكة: يا أختنا إننا نحبك أكثر مما نحب نفوسنا وأنت عزيزة علينا، ونحن فى أتم الاستعداد للقيام بأية خدمة تريدينها منا فى أى وقت. ونحن نهتم بصحتك ولراحتك فى هذه الأيام. وعند ما يشرف وقت الولادة ترسل إلينا فى طلبنا فنقوم بمهمة الخدمات اللازمة فى جميع الشؤون. ووافقت الملكة شاكرة على اقتراحهن الجميل. وأخذت الشقيقات ينتظرن وقت الولادة الموعود بقلق، أن لا تضيع الفرصة من أيديهن إن تحمل الآخرون مهمة القيام بتكفيل الطفل المولود. وأخيرا دعيت الشقيقات إلى القصر الملكى حينما اقترب موعد الولادة. ووضعت الملكة طفلا جميلا مليحا فى خده الأيمن شامة سوداء. وتلقين المولود بأيديهن واخفينه بسرعة فى صندوق خشبى وفق الخطة السابقة. ووضعن جروا حديث الولادة محل الطفل فى فراش الملكة، وألقين الصندوق المقفل فى النهر. وأبلغن الملك أنها لم تلد آدميا عاديا بل وضعت هذا الجرو. فاشتد غيظ الملكة وصاحت بأنها ولدت طفلاً مليحا وفى خده الأيمن شامة سوداء. ولكن لم يصدقها إذ لم يجد ثبوتا لقولها. وعزاها الملك وأسدى إليها العظات لئلا تغيظ وتحزن. واتفق أن بستانيا يقيم بشاطئ النهر المذكور تلق الصندوق الجارى على سطح الماء فأخذه وفتحه ووجد فيه طفلا جميلا. وأتى به إلى زوجته، ففرحا به أى فرح لأن كلا منهما كان تواقا إلى طفل ولا ينجبان الأولاد. وتربى الطفل فى أحضانهما وأصبح الطفل يكبر فى

غاية الذكاء والفطانة يوما فيوما.

وبعد أعوام قليلة حان موعد وضع الملكة مولودا آخر. ووصلت الشقيقات الشريرات إلى القصر الملكى، وتلقين بأيديهن الموضوع. وكان طفلة جميلة. وفعلن بها مثل الفعلة البشعة السابقة. وقذفن بها فى داخل صندوق إلى نفس النهر، ووضعن فى هذه المرة هرة صغيرة بجوار الملكة، وكن يهدفن وراء هـــذه المؤامرة إلى أمرين: أولا، فقدان ولى عهـــد للملك من أختهن حتى لا يتمكن الحكم عليهن وعلى أزواجهن. ثانيا: ليطرد الملك الأخت من القصر بتهمة عدم الانجاب للآدميين، ويظن أنها ليست من السيدات العاديات بل وجدها فى قصر سحرى تحت الأرض. ونجحت خطة الشقيقات ضـد الملكة فطردها من القصر وزجها فى إحدى السجون بعد أن طلقها. وأما الطفلة الثانية فوجدهـا البستانى المذكور من النهر وألحقها بلقيطه الأول فى منزله.

وسمعت الشقيقات نبأ التقاط البستانى الطفلين وترعرعهما فى بيته. فخفن أن تظهر دسائسهن يوما من الأيام عنـــدما يكبر الولدان، ودبرن مؤامرة أخرى للتخلص منهما. وهيأن امرأة شريرة خبيثة لتذهب إلى بيت البستانى ولتحيك الحيلة. فبدأت تحوم حول البيت حتى رأت الطفلة البريئة تلعب فى فناء الدار. تقربت إليها وتصنعت المودة وقالت لها: «إنى أدلك على طريقة تكون بها أسعد طفلة فى المرح واللعب وستجدين جدولا من الماء فى جوانبه الأشجار وفوقها البلابل والطيور والأناشيد تلعبين فيها صباحا ومساء». فقالت الطفلة إننا نعيش فى مكان قفر لا ماء فيه ولا نبات ولا طيور. فأجابت العجوز إنى أصف لك طريقة خاصة للحصول على الجميع، وهى أن تطلبى من أخيك أن يأخذك إلى سفح الجبل الذى تراه أمامك إلى الناحية الشرقية فتجد أنت وأخوك الجداول والحدائق والطيور وكل ما تشتهيه الأنفس. وعادت الامرأة الماكرة إلى بيتها.

ولما جاء الأخ طلبت إليه الأخت بالحاح لتحقيق مطالبها المنشودة. وكان مسكن العفاريت والجان على الجبل. ولا ذاهب يستطيع أن يعود منه. ولكن الطفلين لا يعرفان شيئا عن هذه الحقائق. فقررا الذهاب إلى قمة الجبل وقت المساء. ولما وصلا إلى منتصف الطريق وجدا هناك ناسكا فى صومعته. فمنع الطفلين من الصعود إلى قمة الجبل، وقص عليهما قصة العفاريت والمارد فعادا مقتنعين بقول الناسك وتنبها إلى خداع العجوز الماكرة، فلم تنجح فى خطتها وخابت أمام الشقيقات الست أيضا.

وذات يوم كان الملك يتجول متنكرا كعادته فى المدن والقرى ووجد الطفلين يلعبان أمام البيت البستانى المذكور فشعر بدافع الحب إليهما، ودعاهما إلى الاجتماع به فى قصره. ففرحا بالدعوة الملكية وذهبا إليه. وبعد توطيد التعارف والارتباط الودى بين الملك والطفلين اشتد إعجابه بذكائهما، وأخلاقهما السامية، وشجاعتهما ونبلهما. وكان كل منهما فى غاية الشبه والتقارب فى الطبائع والأخلاق مع طبائع الملك وأخلاقه. وهكذا تكررت زيارات الطفلين للقصر الملكى، والجلوس مع الملك ولا يعرف أحد منهم ما قدره القدر لهم. وكان الملك أحيانا يخرج إلى السجن الذى وضعت فيه زوجه السابقة المسكينة. وذهب يوما من الأيام كعادته إلى السجن فسمع الزوج الحزينة تتضرع إلى الله وتدعو رافعة يديها بقولها: إن الأخوات الشريرات قد أخفين طفلى وطفلتى! وإن الطفل كانت على خده الأيمن شامة سوداء، وأما الطفلة فكانت جميلة مليحة، ولا يدرى أحد إلا الله عن مصيرهما، وإنى الآن هنا وحيدة كئيبة. واللهم هيىء لى فرجا من هذا الضيق المفجع!

ولما سمع الملك هذا الدعاء المؤثر فكر فى الأمر قليلا ودعا البستانى المذكور واستفسره عن حقيقة هذين الولدين. فقص عليه بحذافيرها بكل أمانة وإخلاص.

وأما الملك فأصدر أمره عاجلا باطلاق سراح الملكة السابقة، وجيء بأخواتها. وبعد تعذيب شديد اعترفن بكل الجرائم التي ارتكبنها. فوضعن في السجن المؤبد، وعادت الملكة الأم معززة إلى مجدها السابق، وعاشت عيشة سعيدة هانئة مع الملك وولديها الكريمين بكل أبهة وسرور.

الأدب التـاملي

إن « تامل » لغة يتحدث بها أكثر من ثلاثين مليون نسمة فى مقاطعة مدراس بجنوب الهند. وهى لغة غنية بأفكار جديدة، وحية بآداب ناهضة حديثة. وتبلغ مساحة مدراس حوالى ٥٠١١٠ ميل مربع، تعادل مساحة « ملايو » بأجمعها. ولكن عدد سكانها يزيد ستة مرات من سكان ملايو. ويتشكل الأدب التاملى من أفكار الآداب الحديثة ويستلهم مواده من حياة الشعب الواقعية. وأما القرن العشرون فهو قرن النهضة الآسيوية بوجه عام، ويمتاز بالحركات التحريرية والكفاح الوطنى. ويقال بأن الانتاج الممتاز فى هذا الأدب ينعكس فى الأغانى الوطنية القائلة « لا نقبل عبودية أحد، ولا نخاف الموت فى سبيل العزة والكرامة » وهكذا كان يهتف متطوع قديم من جنوب الهند إذ كان يكافح فى سبيل الحرية والسيادة ضد ملوك « بلاواس » فى الزمن القديم.

فلا عجب فى أن يعتنق لتامليون مبدأ غاندى منذ أن بدأ حياته الشعبية فى جنوب أفريقيا. ووجدوا فى تعاليمه وآرائه تقاربا قويا للتراث التاريخى الذى ورثه لتامليون جيلا بعد جيل. وكان « بهارتى » من أشهر الشعراء فى تامل الذين يمجدون الوطنية والايمان بقوة تهيمن على العالم كله. وكان بهارتى يدعو إلى فكرة وحدة الوجود. وهو يربط برباط وثيق بين الوطنية والدين، ويقول بأن الوطنية يجب أن ترقص بنغمة الموسيقى الالهى. وإن محبة أهالى الجنوب لوطنهم وإخلاصهم نحو لغتهم قد ساعد كثيرا على تقدم الأدب واتصافه بأفكار متطورة جديدة، حتى أصبح الآن صورة حية ينعكس فيها جميع مرافق الحياة البشرية من الدين والمجتمع والسياسة والاقتصاد والعادات والطقوس الرائجة بين أوساط

الشعب قديما وحديثا. ولا ينبغى أن يكون الأدب وقفا على طبقة معينة، بل يجب أن يكون مشاعا بين طبقات الشعب كلها. ولا يتأتى ذلك إلا بطريق رفع مستوى التعليم، وقراءة الصحف والمجلات، ونشر السنيما والراديو وتوزيع الكتب والرسائل بأثمان رخيصة. وهذا هو الطريق الوحيد لنشر الأدب وتعميم الثقافة فى البلاد. ولا يحسن بنا أن نتجاهل الأدب القديم على حساب إحياء الأدب الحديث. فنعيد الآن — مثلا — قراءة القصص القديمة ونستمع إلى تعاليم «بوذا» و«رام» للاستعادة إلى الأذهان ذكريات النظريات القديمة والاستلهام منها العبر، لتساعد على تكوين شخصية النظريات الحديثة. وكان «كالكى» روائيا مشهورا يكتب فى مواضيع شتى حيث توقظ الضمائر لعامة الناس وتشحذ هممهم. بينما كان «ث. و. كليانا سندرام مدليار» صحفيا ماهرا فى ميدان الوطنية، يحيى الأدب التاملى فى نمط حديث، بعيد عن تقاليده السنسكرتية. ويذكر بصفة خاصة من مشاهير الكتاب المحدثين فى تامل اسم السياسى الكبير والفيلسوف المعروف «سرى راج جوبالاشارى».

ميزات «تامل»

إن «تامل» لغة ذات قابلية عجيبة لاقتباس الألفاظ والاصطلاحات الأجنبية وإدماجها فيها بطريقة لا يرى لها أثر يذكر فى ممر الأيام. وأكبر دليل على ذلك «دائرة معارف التاملية» المحتوية على جميع الاصطلاحات العلمية الحديثة أو — على الأقل — على معظمها. وهذا التحول العلمى هو سبب رئيسى للنهضة الأدبية فى الدور الحديث. وللأدب النقدى أيضا مكانة عظمى فى تامل، ومن النقاد المعروفين فيها «كليان سندرم مدليار» الذى يعتبر أبا الأدب النثرى فى لغة تامل. ويليه «ث. ك. شتامبارا نادا مدليار». وتعد قصيدة «مارای ملای آدجل» من الأشعار الكلاسيكية التى تعطينا فكرة عامة عن الأشعار القديمة، بينما تحتل الموسيقى والأغانى الشعبية مكانة ممتازة فى أدب تامل. فتعقد المجالس والندوات الشعرية وحفلات الرقص

والغناء فى عدة مناسبات. وتعقد حلقات خاصة للمسابقة الموسيقية والغنائية. وكل هـذا وذاك ليلعب دورا هاما فى ميدان النهوض بالأدب ونشره بين الطبقات المختلفة. وأما الأغانى الشعبية الشائعة فى اللغة الدارجة فلها أثر بالغ فى نشر الأدب بين الأهالى الريفيين. والفنان الشعبى يأخذ الآن بزمام الأدب الشعبى فى طول البلاد وعرضها.

التمثيلية

تعرف التمثيلية فى لغة تامل باسم «درشيا كاويا» ويقول التامليون إنها قديمة قدم الانسان على وجه الأرض. والتمثيلية فى تامل تنطوى على الموسيقى والرقص والغناء. والتمثيلية الشعرية «منون منيم لسندرم پلاى» تعتبر أروع التمثيليات الشعرية التى كتبت إلى الآن، مع أن عددا من الكتاب المهرة لا يزالون يكتبون تمثيليات تتناول مختلف شعب الحياة اليومية فى المدن والقرى. ولكنها لم تنل من الشيوع ما نالته «منون منيم» على المسارح.

وللكاتب الكبير «سمباندا مدليار» يوجد حوالى خمسين تمثيلية، وإن لم يكن معظمها فى غاية الجودة من الناحية الأدبية. ويدور كلها حول تصوير الوقائع الجارية فى الحياة العامة، وأساليبها حرة وفصولها غنية بالأفكار الحديثة. ومما هو جدير بالذكر أن المؤتمرات السياسية والحفلات الاجتماعية والمجالس الدينية تهتم بالتمثيليات والروايات أو الرقص والغناء. وإن السينما مع ذيوعه البالغ فى البلاد لم يؤثر كثيرا فى التمثيليات التقليدية، ولم يحط من قدرها.

وأثرت النهضة الجديدة فى أدب تامل تأثيرا كبيرا. ودخلت الموسيقى التاملية فى دور هام منذ بضع سنين، وقامت حركة خاصة لاحياء الطرق الموسيقية ونغماتها الخاصة بعد موتها، حتى أصبحت لها مكانة مرموقة مرة أخرى فى البلاد. والآن

يستطيع الأدب التاملى أن يزودنا بأحسن أنواع الموسيقى القديمة والحديثة معا. ومن النغمات التاملية المشهورة «دا دا دا» و«أديا ديا». ونشطت فى السنين الأخيرة حركة الترجمة من القصص والروايات الأجنبية. ومنها روايات غربية مثل روايات «تولستوى» و«هاردى» وغيرهما. ومنها روايات كتبت فى لغات هندية أخرى. وفى «تامل» روايات عديدة تتناول أهم الحوادث التاريخية مثل روايات «كالكى» عن ملوك «پلاوا» و«چولا» ورعاياهم، وكذلك نجد فيها روايات أخرى سيكولوجية.

التحول الجديد

إن بداية حركة التحرير الوطنى فى الهند قد شحذت العقول وأيقظت الكتاب السياسيين، وحركت أخيلة الشعراء. فدبت حياة جديدة فى الأدب التاملى أيضا. وصدرت قصص وروايات عديدة تناسب الجو السياسى السائد فى البلاد، ويحاول البعض لترجمة مؤلفات طاغور وغيره من الكتاب الهنود، وبالجملة أن التمثيليات والروايات والقصص لهى الثالوث الذى يتزعم النهضة الأدبية التاملية فى العصر الحديث.

مكافأة الاعمال

(قصة شعبية من «تامل» — مدراس)

كان ملك يعيش مع ولدين له توفيت والدتهما وهما صغيران. وكان الملك مدة حياته كلها هائما سعيدا لزوجه التى يحبها من كل قلبه. ولما مرضت وساءت صحتها كثيرا، دعا الملك جميع الأطباء فى مملكته ولكنهم عجزوا أمام مرضها. لحزن الملك كثيرا ولازم جوارها ليلا ونهارا فى غاية الحزن. ومرة طلبت ولديها إلى سريرها وبدأت تقبلهما وتحنو عليهما، وقالت للملك الذى امتلأ قلبه حبا وحنانا: إنى أطلب منك أيها العزيز أن لا تتزوج بعد موتى فانى أخاف أنك لا تعامل بعد زواجك معاملة طيبة مع ولدى هذين. فوعد الملك به وأقسم بالله على ذلك.

وبعد زمن من وفاة الملكة خطر ببال بعض وزراء الملك ومستشاريه أن يطلبوا إلى الملك أن يتزوج مرة أخرى. وتقدموا إليه بهذه الفكرة. فقال له الوفد المؤلف من الوزراء والمستشارين «إن الشعب فى طول البلاد وعرضها يرغب فى الاحتفاء بملكة جديدة إذ لا يجوز لملك يحكم مملكة واسعة كهذه أن يعيش زمنا كثيرا بدون ملكة. وبعد إلحاح شديد من الشعب وافق الملك على ذلك، فتزوج من ابنة أحد أعيان البلاد كانت فى غاية من الجمال وكمال الصحة لكنها غير مثقفة. وغمر الملك متع الدنيا وزخارفها حتى نسى الوعد الذى أعطاه للملكة السابقة.

وشب الأميران (ابنا الملك) وبلغا رشدهما وكانا على جانب من الجمال. فاذا بزوجة أبيهما الملكة الشابة تحبهما ومرة فاتحتهما فى الأمر بكل دناءة وخبث.

ولكن الأميران الصغيران لم يلبيا لرغبتها الدنيئة، ونصحاها للابتعاد عن مثل هذه الرغبات الدنيئة، وقالا إنك زوج أبينا الملك فنحن أولادك وأنت أمنا. وراحت الملكة تحاول وتسعى لاستهواء الأميرين الوسيمين. وكلما اشتد إعراضهما اشتد حبها الجارم. وأخيرا يئست منهما وبدأت تدبر المؤامرات لهما بكل صمت ومكر. وأخيرا قررت أن تنتقم منهما. فأضمرت فى قلبه أن توقع الأميرين فى كمين.

ويوما من الأيام تظاهرت بالغضب والحزن أمام الملك، وأبدت له فى دلال وأسف بالغ بأن ولديها الأميرين يسيئان المعاملة معها، وأنهما يتقربان إليها بالأفعال الشنيعة. والتمست من الملك أن ينقذها من أضرارهما ويباعد بينها وبينهما فورا. ولما سمع الملك هذا النبأ العجيب اشتد غضبه. وقرر أن يقتل الأميرين. فأمر الجلاد أن يأخذهما إلى الميدان ويقطع رأسيهما. ولم يكتف على ذلك بل وطلب منه أيضاً أن يأتيه بقلبيهما.

وذهب الجلاد بالولدين إلى الميدان واستفسر منهما فى الطريق عن الأسباب المؤدية إلى هذه الفاجعة العظيمة. فقص عليه الولدان الأميران تفاصيل القصة، وانتبه الجلاد إلى حقيقة الأمر وقرر فى نفسه أن يعمل شيئا يساعد على إنقاذ الولدين وإرضاء الملك. فأطلقهما ليفرا إلى خارج المملكة. وأخذ كلبين من كلاب الطريق وذبحهما وأخرج قلبيهما وأتى بهما إلى الملك. وقال إنى نفذت فى الأميرين حكم جلالتك وهذان قلباهما. أما الولدان الأميران فذهبا إلى مملكة أخرى خارج بلاد أبيهما فرارا من الموت المحقق، يتيهان فى الأرض ويكسبان الرزق بعرق جبينهما. ومرة ذهبا إلى قصر الملك الذى يحكم تلك البلاد وقدما إليه طلبا ليعينهما فى عمل مناسب يكون عونا على أن يعيشا عيشة كريمة هادئة. فعينهما الملك حارسين خاصين لغرفة النوم الملكية. وبهذا أصبح تعداد

الحراس القائمين للخدع الملكى أربعة أشخاص.

وحينما كان الأخ الأكبر يحرس غرفة نوم الملكة ليلة من الليالى رأى على سطح الغرفة ثعبان يتدلى تجاه سرير الملكة، وخاف أن يصيبها بضرر أثناء نومها. فقطع الثعبان بسيفه إربا إربا فرآى الدم يتقاطر على فراش الملكة التى تنام فيه واقترب من السرير ليمسح آثار الدم من الفراش. وبينما كان يمسح الدم جاء الملك بدون توقع، ورأى الحارس بجانب فراش الملكة شاهراً سيفه، وتسربت الشكوك والظنون إلى قلبه. وأمر فوراً بزج الحارس فى السجن بدون أن يتيح له فرصة لبيان حقيقة الواقعة والدفاع عن نفسه.

وفى اليوم التالى جاءت نوبة الحارس الآخر. وسأله الملك ما هى العقوبة التى يستحقها رجل يخون سيده؟ فأجاب الحارس بأن عقوبته يجب أن تكون القتل، ولكنى أريد أن أقص على جلالتكم قصة سمعتها من أهالى المدينة، وتقول الحكاية إن صياداً ذهب للصيد ومعه صقره المدرب، وأثناء تجواله فى الغابات أصابه العطش، فذهب ليشرب الماء من ترعة قريبة من الغابة. وكلما هم ليشرب منها ضربه الصقر على رأسه بجناحه ضربة شديدة، ولما تكررت هذه الحالة غضب الصياد فضرب الصقر ضربة قاسية مات على أثرها. وأخيرا لما أمعن النظر فى الترعة رأى فى شاطئها حية تنفذ سمومها إلى الماء. فعلم الصياد أنه لو شرب منها لمات فى الحال، وكان الطير يعمل لمصلحته، وندم على قتله.

وفى اليوم الثانى سأل الملك حارسا آخر: ما رأيك فى الشخص الذى يغدر مولاه؟ فأجاب الحارس: يجب أن يقطع رأسه ويفصل عن جسده. ثم قص الحارس على الملك قصة مماثلة، فقال: إن رجلا كان يتضايق بكلبه لأن الكلب بدأ أن يمنع بعض أصدقائه عن الدخول عليه، ولما ازدادت معاكسة الكلب معه قتله. ثم أدرك الرجل بأن الكلب كان يفعل ذلك لدفع أضرار عن سيده

فندم على قتله .

وفى اليوم الثالث جاء دور شقيق الحارس المسجون ، وسأله الملك أيضاً كاليومين السابقين عن جزاء خائن يخون مولاه الذى يثق به . وأجاب الحارس الشقيق أن جزاءه ينبغى أن يكون قاسيا، ولكنى أرجو من جلالتكم أن تسمحوا لى فرصة لأبين لكم تفاصيل قصة لعلها تعجب جلالتكم : كانت هناك ملكة لها ولدان صغيران . وكان الملك يحبها حبا جما، وفجأة مرضت الملكة واشتد مرضها ويئست من الحياة، ولما شعرت بدنو أجلها طلبت من الملك بأن لا يتزوج مرة أخرى بعد موتها، بل يكرس أوقاته فى العناية بولديها . ووعدها الملك بذلك وماتت الملكة فرحة مستبشرة . ومضت الأيام ولم يفكر الملك فى اختيار زوج أخرى، وكان منهمكا فى رعاية الولدين الأميرين الصغيرين . وبعد مدة طويلة طلب منه بعض وزرائه وأعيان مملكته أن يتزوج مرة أخرى . وأن البلاد ترغب فى الاحتفاء بملكة جديدة . وعلى إلحاح من هؤلاء . وافق الملك على إختيار شريكة له فى حياته . وتزوج شابة حسناء لأحد أعيان مملكته وكانت ماكرة شريرة وتمايل قلبها إلى الأميرين الشابين، وبدأت تلاطفهما عليهما لتوقعهما فى حبها . ولكن الأميرين امتنع عن هذه الفعلة الشنيعة وقالا لها : إنك زوج أبينا ونحن كأولادك ، فلا ينبغى لنا أن نقف منك هذا الموقف وكلما ازدادت إلحاحا ازدادا امتناعا . وأخيرا قررت الزوج الماكرة أن تنتقم منهما . ولفقت الأقاويل أمام الملك ووشت إليه بهما . فاغتاظ الملك وأمر بقتل الأميرين، وأثناء طريقهما إلى ساحة القتل سألهما الجلاد عن حقيقة القصة التى أدت إلى هذا الحكم الخاص من أب على فلذات كبده . ولما أوضحا له الواقعة رق قلب الجلاد وأفرج عنهما، ففرا هاربين إلى مملكة أخرى . وأخذ الجلاد كلبين وقتلهما فأخرج قلبيهما ثم قدمهما إلى الملك قائلا أنهما قلبا الأميرين . ولما وصل الأميران إلى مملكة أجنبية

بدأا. يبحثان عن عمل يناسبهما فتقدما بطلب إلى ملك تلك البلاد حول هذا الموضوع. فتفضل جلالته بتعيينهما حارسين له. وعندما كان الأكبر يقوم بمهمة الحراسة أثناء الليل رأى حية تتدلى من السقف فوق سرير الملكة. وخاف أن تصيب أذى للملكة النائمة. فأسرع بنفسه وقتل الحية بسيفه حرصا على حياة الملكة المعظمة. ولما رأى الدم يتساقط على فراشها من السطح خف إلى السرير ومسح الدم من فراشها لئلا تلطخ ثوبها وتضر نفسها. و دخل الملك غرفة نوم الملكة فجأة فرأى الحارس يقف بجوار سرير الملكة وفي يده سيف مسلول، فأوجس في نفسه الريبة. فأودع الحارس في السجن لمعاقبته بدون أن يتيح له فرصة لشرح الواقعة وبيان الأسباب التي ألجأته للاقتراب من فراش الملكة أثناء نومها. ثم قال:

أيها الملك المعظم! إن هذا هو الذي حدث لأخي الأكبر في الليلة السابقة، ولا تزال قطع الثعبان المقتول موجودة تحت السرير، والأمر إليك يا صاحب الجلالة. وقصة الأميرين هذه هي قصتنا، والحارس الموضوع الآن في السجن هو أخي الأكبر.

ولما تأكد الملك من صداقته فرح فرحا شديدا، وعين الأميرين الشقيقين الأمينين في وظائف عالية، فعين أحدهما وزير المملكة بينما عين الآخر مستشارا ملكيا. وهكذا كافأ الملك الشابين الوفيين مكافأة حسنة.

من منشورات أكاديمية الآداب الهندية.

تعريب محي الدين الألوئي

الدين والأخلاق وحدة لا تتجزأ

منتخبات من مكتوبات الزعيم الهندى غاندى

قال الزعيم غاندى: إن الدين ومكارم الأخلاق هما شيء واحد لا يقبلان الانفصال ولا يفترقان عن بعضهما، فهما وحـدة لا تتجزأ. إن الدين كالروح للأخلاق والأخلاق كالجو للروح. وبعبارة أخرى، إن الدين يغـذى الأخلاق وينميها وينعشها كما أن الماء يغذى الزرع وينميه. فاذا انفصل الدين عن مكارم الأخلاق ضاع لباب الدين، ولم يبق غير القشور والرسوم التى لا أثر لها فى تهذيب النفس وتصفية الباطن. وكلما تباعد الانسان عن النهج القويم، ولم يكن محبا للعدل والحق وتقيا صالحا مجتنبا للبدع والضلالات، فانه لا يحظى باطمئنان النفس وراحـة البال، مهما حافظ على المراسم والطقوس الدينية وتظاهر به من ضروب التقى والورع. فلنقارن بين شخص يقوم بأداء مراسم الدين دائما، ويحرص عليها فى وقت هو يمعن فى ارتكاب المعاصى والسيئات، ظنا منه أن ذنوبه سيغفر له بمجرد محافظته على هذه الطقوس والمظاهر الدينية وتلاوة الأدعية؛ ورجل آخر غير مدين وغير محافظ على طقوس الدين ومراسمه، ولكنه مع ذلك لا ينافق ولا يغش أحداً فى المعاملات ولا يرتكب المعاصى والآثام صونا لصحته وسمعته، فأيهما أفضل يا ترى؟ كلاهما فى ضلال مبين. ولعل الأول أمعن فى الضلال والغواية، لأنه عرف الهدى لحاد عنه وتمادى فى اقتراف الذنوب والآثام.

وبناء على ذلك فان للدين صلة وثيقة بالأخلاق الحسنة، وهى عماد الدين ودعامته التى تقوم عليها الأديان، كما أن الأمم لا يمكنها أن تحتفظ ببقائها

ونموها إلا بالأخلاق. كما قيل:

«وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ، فان هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا»

إن جسم الانسان بالنسبة إلى روحه ضعيف جداً لأنه سريع العطب، تنتابه الأمراض وتزعجه الآلام وتقلقه تقلبات الدهر. إذ هو مركب من لحم وعظم ودم ومعرض للزوال والاضمحلال. وأما روحه الخالدة لا تؤثر فيها العناصر، ولا يغيرها مرور الأزمنة وتبدل الفصول والمواسم، ولأن الروح قبس من نور الخالق العظيم. ولا تسمو أرواحنا إلا باكتساب الفضائل والأخلاق الكريمة، واتباع طريق الرشد والقيام بأعمال البر. وإن سعادة حياتنا المادية والمعنوية لا تتحقق إلا بمعاملة الناس بالمودة والحسنى، واجتناب التشدد والعنف، والتحرر من قيود الأفكار الباطلة والعادات الضارة، والتفانى فى حب الصدق، واتباع الحق، وتقوية الايمان، وأداء فرائض الدين وواجباته، والسعى لاكتساب الرزق الحلال بعرق الجبين بدون الانغماس فى الترف والنعيم الفانى.

فهذه بعض المطالب التى كان الزعيم غاندى يطبقها فى حياته اليومية حرفيا، لأنه كان رجل عمل وحقائق، لا رجل نظريات. فلأجل ذلك رغب الناس فى درس فلسفة حياته فى الهند وغيرها واقتفى أثره خلق كثير.

إن أسس الديانات العالمية واحدة

إننا إذا تعمقنا فى مطالعة ودرس أسس الديانات العالمية وجدنا جميعها تدعو إلى المعروف وتنهى عن المنكر. ولقد أجمع دعاة الدين فى مختلف العصور والأزمان على أن الحق هو عماد الدين، وأن كل دين لا يشيد أساسه على الحق والصدق والبر والرحمة وعدم التشدد. فانه يتلاشى وينهار ولا يكون له أى أثر فى إسعاد المجتمع الانسانى. ومن أهم مظاهر الدين الأخلاق الفاضلة، ومن

مميزاتها حب الصدق وإحقاق الحق ومقاومة الظلم والتعفف واللاعنف. كما أن أساس الفضائل الانسانيـة هو التفانى فى حب العدل والحق، وأن الحق لأجلى مظهر من مظاهر الله، بل الحق هو الله جل وعز.

قال الزعيم غاندى: لقد دلتنى تجاربى واختباراتى فى حياتى اليوميـة عند البحث عن الطريق الموصلة إلى المثل الأعلى بأن كل من فهم الدين الحق ومارسه فانه لامحالة فائز بسعادة الدارين. ولقد أوصلتنى تجاربى عند البحث عن الحقيقة الأزلية، إلى النتيجة القائلة بأن الدين فى جوهره يتجلى فى أثره الفعال فى رد النفس عن الغواية والضلال وتوجيهها إلى طريق الصلاح والرشد. كما أن العنـاية بالدين الحق والقيام بأداء فرائضه وواجباته يسمو بالنفس إلى المعالى ويغـذى القلوب بلباب الحكمة الالهيـة، فيفوز الانسان عنـد ذلك بحياة طيبة واطمئنان قلبى. وإنى أرى ـ وخاصة فى وقتنا الحاضر ـ أن أغلب الناس يهتمون بالمراسم والمظاهر الدينية ويهملون الحقائق ويعتنون بالقشور دون اللباب. فلذلك لا يشعرون فى نفوسهم بالأثر الروحانى الفعال والاطمئنان القلبى. ولذا ينبغى لنا أن ننظر إلى الدين على أنه دواء لأمراض النفوس، وغذاء للقلوب. فعند ذلك يكون مقام الدين أرفع وأعلى، وأفقه أوسع. ولقد لاحظت دائما بأنى كلما مارست الدين الحق فى حياتى اليومية كنت أشعر بومضة روحانية ونفحة ربانية. وإن هذا الشعور الباطنى لا يمكننا تنميته إلا إذا تحلينا بمكارم الأخلاق. فاذا ارتاضت نفوسنا وصفت سرائرنا فاننا نشعر بارتياح وسرور باطنى عندما نعبد الخالق جل وعز. وبدون ذلك لن نحتفظ بهذا الشعور السامى. وهذا يدل طبعاً بأن اتباع الدين القيم والتحلى بالأخلاق السامية هما جزآن لا يفترقان، إذن فهما وحدة لا تتجزأ.

نحن نعيش فى زمان تدهورت فيـه القيم الأخلاقيـة بسرعة زائدة، وبدأ الناس لا يعنون بالفضائل، ويرغبون فى مظاهر الحياة المـادية، ولا يقنعون بما

لديهم من وسائل التنعم والرفاه، بل يبتغون الزيادة فى كل شىء دون الوقوف عند حد. ولقد غمرتهم موجة التمدن الحديث بما فيه من أسباب الترف واللذة والانغماس فى الشهوات. ولقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأصبحوا يعدون العدة للرحلة إلى عالم الكواكب والنجوم، ولا يكتفون بالاقامة فى أوطانهم بل يودون أن يسافروا إلى جميع أنحاء المعمورة، ليصلوا إلى مآربهم ويقضوا أوطارهم. إن كل هذه التطورات تدل على آثار التجدد والتقدم السريع والعمران فى حياتنا الحاضرة. ولا شك أن فائدتها لرقى الانسانية وسيرها نحو الكمال المنشود لهو أمر عظيم، إذا لم نقتصر على المادة ونتباعد عن الحياة الروحانية.

إن حياتنا من الناحية الروحانية والأخلاقية قد تأخرت كثيراً وانحطت، وسرت فى جسم مجتمعنا الأمراض النفسية القتالة التى هى من آفات التمدن الغربى الحديث. ونحن لا نجد دواء ناجعاً لتلك العلل والأمراض الاخلاقية مهما اجتهدنا وبذلنا الجهود فى سبيل ذلك. فلقد بلغ السيل الربى وطفح الكيل. إن الحياة الانسانية أصبحت اليوم قلقة مضطربة أضاعت رشدها وضلت عن سواء السبيل. وأما سبب وعلة ذلك فى أمم الشرق لأنها أصبحت تقلد الغرب تقليداً أعمى فى جميع أطوارها وتحذو حذو الأفرنج فى الأزياء والعادات وآداب المعاشرة والسلوك. وبدأ المستنيرون منهم ينبذون كل شىء قديم لأنه قديم، ولو كان مفيداً ونافعاً، ويقول شاعرهم فى ذلك:

سئمت كل قديم، رأيته فى حياتى * إن كان عندك شىء، من الجديد فهات

ويظهر أن أجدادنا عندما ازدهرت مدنيتهم وترقت ثقافتهم فى الشرق فى الأزمان الغابرة انقادوا أيضاً إلى هوى النفس كغيرهم من الأمم الراقية، وتمتعوا بلذات الحياة، فأشعلت فيهم الحماسة والجد والنشاط، فانغمسوا فى الترف والنعيم. ولكن فلاسفتهم وعقلاءهم أوقفوا سيل تلك المضار الاجتماعية والأمراض

الأخلاقية بجهودهم الطبية ومعالجاتهم الروحية. فلذلك نرى أن الكثير من بلدان المشرق لا يزال يعيش على الفطرة، ولم تتسرب إليها الأمراض الأخلاقية والمفاسد الغربية، أما وسائل العلاج التى تمكنوا بواسطتها من الابلال والشفاء من أمراضهم وإنقاذ البشر من الهلاك، فهى موجودة حتى الآن، ولا زالت تحتفظ بتلك الوصفات الروحية فى بطون الأسفار القديمة. وفى سعنا أن نفيد منها إذا فهمناها كما يجب، وطبقناها على شؤون حياتنا اليومية. ألا، وإن تلك الأصول الروحية لمن أحسن الوسائل لترويض النفس وتقوية الارادة وتحسين الأخلاق، لأنها أصول قيمة يبقى نفعها على الدوام، حتى ولو تغيرت أساليب المعيشة واتسعت آفاق الحياة الانسانية على وجه يفوق التصور والحسبان، فاذا كنا ننشد السعادة الحقيقية فى الحياة فلا مندوحة لنا من التعرف على الأنظمة الروحية التى تسيطر على جسم الانسان، فتتولى إنماءه وإنعاشه وإبراءه مما يتعرض إليه من أمراض وآلام.

ثم يقول غاندى: إن ما أوردته هنا من الدلائل والبراهين حول ضرورة العناية برياضة النفس ونهيها عن الهوى، وبيان الأصول المفيدة لشفاء العلل الأخلاقية، كلها تستند على الحقيقة والتجربة التى أجريتها.

إن مزايا الأخلاق العالية التى تتجلى لنا عظمتها وسموها عندما نتبع الحق ونقول الصدق ونبذل ما يمكننا بذله من المعاونة والعطف والرحمة لجميع الناس على السواء. وحينما نعمل ذلك نشعر براحة الضمير واطمئنان القلب وانشراح الصدر. وإن هذه الصفات الكريمة لهى مزايا ثمينة، وإنها لترفع قدر الشخص الحائز عليها إلى درجة الانسان الكامل.

إن ممارسة الفضائل لا تختص بطائفة معينة من الناس

إن أكثر الناس يظنون أن ممارسة الفضائل الأخلاقية تختص بطائفة من

الناس كالزهاد وأهل العلم والارشاد، وأما بقيـة الناس فهم فى حل من هذه القيود الأخلاقية وفى وسعهم أن يحيوا ويعيشوا كما يشاؤن. إن هذا الظن باطل، لأن ضبط النفس وقيادتها إلى الخير لا يمكن أن يكون مقصوراً على طبقة معينة من البشر، بل يترتب على كل فرد من أفراد النوع الانسانى أن يتحلى بالفضائل ومحاسن الأخلاق. وإذا شاهدنا أن طائفة من الناس قد انحرفوا عن النهج القـديم وتباعدوا عن الحق والعدل وأخذوا يعاملون الناس بالشدة والعنف ويهضمون حقوقهم، فينبغى لنا ألا نقتفى أثرهم ولا نشترك فى مساوئهم. لأن ابن آدم له مقام ممتاز فى الوجود، إذ هو سيد المخلوقات على هذه الأرض بلا منازع. فعلينا أن نعرف قدرنا ولا ننحط من درجة الانسانية إلى درجة الأنعام بسبب سيئات أعمالنا وسوء أخلاقنا. وإذا رأينا أن معظم الناس يتبعون أهواءهم ويطلقون العنان للنفس وينيلونها ما تشتهى من مطالب البـدن وملاذ الحياة ولا يلبون نداء الضمير الذى ينهاهم عن الغى ويحثهم على أعمال البر والاحسان فيجب علينا أن نعرض عنهم ونلبى نداء الضمير الذى يهدينا إلى الرشد وسواء السبيل.

السمو الروحانى والحياة الفطرية

إذا أردنا أن نحيى حياة طيبة فيجب علينا أن نتبع قوانين الفطرة ونطبقها على حياتنا اليوميـة مع مراعاة أصول الأخلاق الفاضلة. وإن الروحيين لا يحبذون حياة فطرية تخالف مبادئ الأخلاق. إن التمدن الحديث قد باعدنا عن الفطرة السليمة بآداب معاشرتها وسلوكها ورسومها وأزيائها المستحدثة الخلابة. فصرنا تصعب العودة إلى الحياة الفطرية التى فطر الله الناس عليها، لأن الحياة غير الفطرية أصبحت طبيعة ثانية لنا بسبب التعود عليها. وحيث أن الحياة الانسانية وأحوال المعيشة بدأت تتغير فى الغرب والشرق، بدأ المفكرون يقدرون خطورة الحياة الفطرية وفائدتها لنمو الجسم والعقل وإنعاش الروح ونيل الصحة الكاملة.

لذلك أسسوا فى أكثر المدن الراقيـــة جمعيـات ونواد تهتم بنشر فوائد الحياة الفطرية مع مراعات قوانين الأخلاق.

إن الأنظمة الروحية والحياة الفطرية تسيران جنبا إلى جنب فى بنـاء سعادة الانسان المادية والمعنوية. إن الحياة الفطرية بديعـــة المناظر، وجمالهـا الطبيعى يسحر الألباب، وهواؤها الصافى يبرئ الأسقـام ويشرح الصدور. وإن الذين يعرضون أجسامهم على أشعة الشمس فى الصباح الباكر عند بزوغها، ليستفيدون منها فوائد صحية جمة. ولقد بدأ رجال من علماء الغرب يعالجون الأمراض بهذه الطريقـــة الفطرية، ولقـد نجحوا فى شفاء كثير من الأمراض الخطرة، كالدق والسل والقبض وعدم الهضم وغيرها من الأمراض، وإن أهم شيء فى أصول المعيشة الفطرية هو العناية باستنشاق الهواء النقى المتجـــدد على الدوام استنشاقاً عميقاً، وتناول الأطعمة المغـذية المفيدة والفواكه والخضروات والألبان بمقـدار مناسب وفى أوقات معينة. وأن تكون الملابس واسعة فضفاضة.

الانسجام التام رائدنا فى الحياة

قال الزعيم غاندى: ليكن رائدك فى الحياة الانسجام التـام فى أعمالك وأفكارك وأقوالك. واسع دائما للتسامى فى أفكارك، واحرص على تنقيتها من شوائب الأدران، ولا تضيع سلامـة عقلك وتوازنه عند ما يكفهر جو الحياة، ولا تصمم على إنجاز أمر ما آنئذ حتى تكون هادئ البال منشرح الصدر، وعند ما تنتظم حياتك، تسير فى مجراها الطبيعى الجميل. اسع لترقية أفكارك إذ ليس شيء أقوى من الأفكار الناضجة النقية التى تجول فى خواطر الكاملين من البشر. ولها أثر فعال ينفـــذ فى حنايا النفوس وتمنحها هدوءا واطمئنانا، وتسرى فى أعماق القلوب وتملأها حكمة ونورا. إن الكلمة الصادقـة هى وليدة الفكر الناضج، وإذا كان فكرك نقيا فيكون أقوالك عند ذلك صادقة، وأعمالك مفيدة وحياتك منظمة.

إننا نظهر أفكارنا بالبيان ثم نحاول تطبيق ما نقوله فى أعمالنا اليومية. إذن فالأعمال النافعة التى ننجزها فى حياتنا ما هى إلا نتيجة التفكير الناضج وثمرته اليانعة، التى تتغذى بها نفوسنا فتستعد لحمل أعباء الحياة وتسهيل صعوباتها. وعند ذلك يمكننا أن نقوم بأداء واجباتنا الانسانية وتنظيم شؤوننا الذاتية والاجتماعية ونحيى حياة طيبة.

تتائج ممارسة الأعمال النافعة وثمراتها

إن الفكر الثاقب والخلق الكريم والتوجه إلى السمو الروحانى ليصل بالإنسان إلى أرفع الدرجات والمراتب، ويشحذ مواهبه، ويجعلها أشد قوة ومضاء، ويعلى قدره فى المجتمع. ولقد اختبرت بنفسى ما لممارسة الأعمال الاجتماعية للفرد والمجتمع من طيب الثمرات والنتائج فى ترقية قوانا ومواهبنا المكنونة، وخاصة إذا كانت خدمة خالصة لرفع مستوى النوع الانسانى، فانها تجهزنا بقوى روحانية باهرة قد لا يخطر على البال. ومع نجاحى فى هذا الميدان فانى لا أدعى بأنى حائز على قوة خارقة أو مقدرة تفوق الطاقة البشرية، كما أنى لا أرغب فى أن تتوفر لى هذه القوة الخارقة التى يتوق كثير من الناس للحصول عليها. وإنى لا أعتبر نفسى إلا إنسانا كسائر البشر، له ما لهم من ضعف وعجز يتعرض إلى ما يتعرضون إليه من التجارب والخطايا.

تكوين الخلق

إن الشخص الذى يتحلى بمكارم الأخلاق يكون جديرا بالمقام الرفيع الذى يُصعد إليه. وليس تكوين الخلق أمراً سهلا، فاننا لا نصل إلى إحرازه إلا بشق الأنفس، ولا يتكون الخلق إلا بمجاهدة النفس وترويضها وتهذيبها وقيادتها إلى سبيل الهدى والرشاد بعناية وثبات واستمرار، وحينئذ يتكون فينا الخلق السامى ويكون ملكة ثابتة فى قرارة النفس لا تزول ولا تتبدل طول العمر.

إن الخلق الكريم ليؤثر فى شؤون حياتنا المادية والروحية تأثيراً بليغا، أكثر من تأثير سائر مواهبنا وقوانا وأفكارنا وأقوالنا. وإن طهارة القلب وصفاء الباطن ودماثة الأخلاق ليفتح أمام الانسان أبواب النجاح والفوز فى معترك الحياة.

غاندى يبحث عن مثله العليا

وإنى لا أبيح لنفسى أن أعد فى مصاف النساك والقديسين أو الروحانيين، ولكن اهتدائى بالمثل العليا فى إنجاز أعمالى وتصرفاتى قد ساعدنى على تنظيم شؤون حياتى، وأنار أمامى الطريق، فأصبحت أرى الأشياء على حقيقتها وعلاتها، وفى وسع كل إنسان أن يحذو هذا الحذو وينهج على هذا المنهاج، فيتوصل بدوره إلى ما توصلت إليه من النتائج، ولقد وصلت إلى هدفى تدريجياً وعلى مراحل. وكنت كلما أهم بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أهيئ كل الأسباب والوسائل اللازمة للوصول إلى هدفى المنشود، وأفكر فى النجاح فى ذلك تفكيراً عميقاً حتى أوفق إلى بلوغ المثل الأعلى. وإنى قد نجحت فى توجيه وقيادة نفسى نحو الخير، أما شعارى فقد كان العفة ومعاملة الناس بالحسنى والرأفة واللاعنف، ولقد توصلت إلى كل ذلك باختباراتى الشخصية وتجاربى اليومية وجهودى المتواصلة، وشعرت بأنه لا مندوحة لى من أن أوقف نفسى وأكرس حياتى لخدمة المصلحة العامة والعناية باصلاح المجتمع الانسانى.

ولقد بدأت فى نشاطى هذا عند ما كنت فى أفريقية الجنوبية أزاول أعمالا مختلفة فى ميادين الاصلاح الاجتماعى والسياسى والمحاماة وغيرها. ولقد وجدت نفسى فى ذلك الوقت أكثر إكباباً على خدمة الجالية الهندية، وإن ذلك الأمر أخذ يستهوينى على الدوام. أما الدافع الذى دفعنى على أن أحصر همتى فى ذلك، فكان سعيى المستمر أن أحظى بتحقيق ذاتى واستقل بها عن سائر الأشياء والتباعد عن كل الأوهام. وإنى أعتقد بأن الاستفادة من الدين الحقيقى لا يكون

بأداء المراسم المذهبية بل ينحصر فى العمل الصالح، والعمل الصالح عندى هو خدمة الهند (الوطن)، لأن الهند كانت الهدف الذى استهوانى بالفطرة، ومن غير أن أحاول لأوجد فى نفسى ميلا إليها تدفعنى إلى خدمة مصالحها، لأنها وطنى العزيز. وعند ما كرست كل حياتى لخدمة الهند وتحريرها من نير الاستعمار وجدت فى نفسى شوقا عظيما لمعرفة الخالق والتقرب إليه، وكنت مغمورا بحبه (تعالى) فسعيت فى سبيل العثور على معرفته ونيل فيضه وإحسانه، والعمل على تكميل ذاتى والحظوة بمعرفته، والاستقلال بها عن كل ما يحيط بى فى الوجود من الأشياء. وكان هذا جل مقصدى فى الحياة إذ بدون نيل ذلك لا يمكن الوصول إلى الهدف المنشود فى الحياة.

ولقد كنت مغرما فى حياتى بالبحث عن الحق ومعرفته. وإن الجهود التى صرفتها لأجل ذلك أرشدتنى وساقتنى إلى العفة الكاملة (برهماشاريا) واللاعنف (أهنسا)، وهما تولدتا عن طلبى لمعرفة الحق البحت. ولا يمكن للباحث عن الحقيقة أن ينجح بدون التعفف والشفقة.

ويقول غاندى: فاذا أردت أن تصل إلى المثل الأعلى فعليك أن تصدق فى أقوالك وتكون مخلصاً فى أعمالك جميعاً، وتكون صادقا فى معاملتك مع الناس. واجعل صفاء سيرتك يظهر ويشع فى سيرتك وأعمالك. وعند ذلك ستكون مقبولا أينما توجهت وموفقا أينما كنت، وإن كان فيك بعض النقائص والعادات السيئة التى لا يخلو منها معظم البشر، فينبغى لك أن تتحرر من قيودها بتركها فورا أو بالتدريج. فانك تكون رابحاً فى حياتك وناجحا فى أعمالك ومشاريعك. ولا تخف أفكارك وأمانيك التى تخجل من ذكرها عند الناس، وعليك أن تظهرها لمن تثق به من أصدقائك المخلصين، ليرشدوك إلى النهج القويم، لأن إخفاء المقاصد الرديئة وكبتها فى قرارة النفس ستوردك موارد

السوء والهوان عاجلا أو آجلا .

ترويض النفس هو الطريقة الوحيدة الموصلة لترك المآثم

ليس من السهل على الناس أن يتجنبوا الذنوب والمعاصي . أنا بنفسي لم أنج من ويلاتها إلا بكثير جهد وشديد عناء ، فكيف يتسنى للآخرين أن يتفادوا ويجتنبوا الوقوع في هاوية المعاصي دون أن يقوموا بتهذيب أنفسهم وترويضها ، ولكن غاندي الذي كان منغمساً في الشهوات في ريعان شبابه أصبح الآن يحيي حياة ملؤها الطهر والعفاف ، وصار يكبح جماح نفسه ونزوات قلبه عالى الشهوات ويصدها حتى عن زوجته ، فيعاملها معاملة الشقيق لشقيقته ، وإذا ما وقع نظره على غانية كانت نظرته إليها خالية من معاني الشهوة .

كما قال غاندي :

واعلم بأن الخالق (جل وعز) رحيم بعباده ، يغفر ذنوب من أناب إليه . وإني عند ما تبت من ذنوبي وابتهلت إليه راجياً مغفرته وعفوه ، فلقد منحني ذلك ، ووفقني لضبط نفسي وقيادتها إلى الخير ، ومما لا شك فيه أن سائر المذنبين من الخلق يمكنهم أن يصلوا إلى ما وصلت إليه من نيل نعمة الغفران إذا أنابوا إليه مخلصين ، وعزموا أن يعيشوا معيشة طهر وعفاف ، فلا شك أنهم يصلون إلى ما وصلت إليه من النتيجة المنتظرة .

كيف يمكننا أن نفهم نواميس الكون وندرك حقائق الحياة

إن استعمال عامة الناس الألقاب الروحانية في غير محلها سبب لنا الاضرار ، لأن أكثر الناس يسيئون استعمال الألقاب الروحانية فيلقبون بها كل من تزيا بزي المرشدين الروحانيين أو الفقراء السالكين أو الشيوخ المتبتلين ، بصاحب القداسة أو الروح العظمى (المهاتما) أو الولي إلى غير ذلك ، وإن لم يكونوا

هؤلاء فى الحقيقة منهم. فمنذ ذلك يلتبس على الباحثين فى المسائل الروحانية الاستفادة من كنوز معارفها كما ينبغى حتى أنهم يلقبوننى بـ «المهاتما». وإنى لا أستحق أن أدعى بهذا اللقب الروحانى الفخم. وإنى لا أعد نفسى إلا طالب علم يبحث عن الحقيقة ويصبو إلى معرفتها. وإنى أدرك بأن دائرة معلوماتى و وسعة معارفى وملاحظاتى محدودة جداً، وأعترف بدون خجل واضطراب بأنى معرض دائما للخطأ والسهو والنسيان كغيرى من البشر، وبأنى مقصر فى السعى إلى معرفة الحقيقة وكشف غوامضها. ومع قلة وسائلى فى تحقيق المباحث العلمية الروحية أسعى لأن أحذو حذو المحقق الباحث فى العلوم الطبيعية، لاكتشاف مكنونات الحياة ونواميس العالم الروحانى. وعلى هذا المنوال أقوم بتجاربى العلمية لاكتشاف قوانين الحياة الروحانية وإيضاح غوامضها وتسهيل طريقة الاستفادة منها ليستفيد منها الخاص والعام.

ومع شدة حرصى ورغبتى الملحة فى كشف ستار العالم المحجوب وإظهار بدائعه ومكنوناته، فلست أدعى بأنى سأنجح فى بحوثى هذه كما ينجح المحقق الباحث فى علوم الطبيعة، لأنى لا أستطيع إثبات تحقيقاتى الروحية بتجارب مشهودة، كما أنى لا أقدر أن أبرهن على صحة مدعاى ومباحثى بطريقة تستند على الامتحان والبحث والتجربة والمشاهدة. إذ ليست لدى تلك الوسائل لعمل التجارب العلمية التى يجريها العالم الطبيعى فى مختبره المجهز بكل العدد والآلات والوسائل التى اخترعها العلم الحديث. فلذلك يمكنه أن يظهر مباحثه العلمية ومكتشفاته المادية أمام الناس بصورة جلية. وأما المباحث الروحانية فلا تدرك بالأبصار ولا تلمس بالأيدى ولا تختبر ظاهراتها بالآلات. بل هى إحساسات قلبية وشعور باطنى تشعر بها القلوب المستنيرة بنور الحق، وذوق روحانى يدرك بالوجدان الباطنى. ولقد حققت جل مقاصدى وآمالى فى الحياة عندما بدأت أسلك المنهج الروحانى.

ولقد رقيت مواهبي بترويض نفسي وتحسين أخلاقي وترقيـة مواهبي المكنونة ثم توجهت كليـا إلى تكميل حقيقـة ذاتي ، فصرت ألمح فى حياتي بوارق الفو والفلاح . وقـد اخترت المعيشة البسيطة لنفسي ، وتركت الترف والتنعم . ولى الأمل العظيم أن أبلغ أمنيتي ومرامي فى معرفة الحقيقة وتكميل ذاتي إذا ثابرت فى أعمالي ، فأكون عنـدئذ قدوة حسنة لغيري من الرواد المشغوفين بمعرفة الحقائق والسمو الروحاني .

أى أعمالنا تسجل فى اللوح المحفوظ ونجازى عليها الجزاء الأوفى ؟

ضع كل ما درسته من العلوم والفنون وحزمة من المعارف وما قمت به من التحقيقات العلمية فى كفة ميزان ، ثم ضع الحق والعفة والطهر فى الكفة الثانية فان الأخيرة هى التى تكون راجحـة فى الميزان . إن اللوح المحفوظ لا يسجل فيه إلا الأعمال التى أنجزناها فى مرضاة الخالق العظيم باخلاص وحسن نية وأما ما كدسناه من المعلومات وما درسناه من الكتب وألقيناه من المحاضرات والخطب الرنانة ، وما أنجزناه من الأعمال التى لا تفيد المجتمع ، فانها تذهب سدى ولا تكون لها وزنا ولا تسجل فى اللوح المحفوظ .

يجب علينـا أن ننجز أعمالنا بارادتنا الحرة

لا يمكن لأحد أن يحوز على الخلق السامى الممتاز إلا إذا سار على منهج مستقيم ، ولم يقلد عامـة الناس تقليداً أعمى . ويجدر بالعاقل أن ينتخب لنفسه طريقة مثلى ليسير عليها فى حياته ، طريقة تتناسب مع مواهبه العقلية والاستعدادات الروحية . فيكرس وقته لترقية تلك المواهب ، ويسير فى ذلك المنهج القديم وفق ما يملى عليه ضميره ويلهم قلبـه ، وعليه أن يتدرج فى السير بوعى وعلى بصيرة وبجرأة وعلو الهمة والسمو الروحاني وبدون خوف أو وجل ، إلى أن يصل إلا

غايته وعند ذلك يمتاز على غيره فى مكارم الأخلاق.

إن كل عمل لا تنجزه بارادتنا الحرة بل نؤديه بايحاء وترغيب غيرنا وتحت تأثيره، لا يمكننا أن نعد ذلك العمل فضيلة ولو انبعث من صاحب خلق كريم. لأننا إذا لم ننجز الأعمال بارادتنا ورغبتنا فنكون كآلة صماء فى يد غيرنا، فهو يسيرنا ويحكمنا كما يشاء. ولا يمكن لأحد أن يرقى مواهبه المكنونة ويكمل حقيقة الانسانية إلا إذا أنجز أعماله كلها بارادته ورغبته الذاتية، وقاد نفسه إلى طريق الفوز والفلاح. وإذا أردنا أن تكون أعمالنا مثمرة ونافعة فيجب علينا أن نقصد بانجازها الصالح العام.

قال الزعيم غاندى: ويعجبنى رأى مفكر ساكسونى شهير فى هذا الشأن، حيث يقول «إن الانسان إذا عمل خطيئة أو اقترف ذنباً بارادته الحرة وبوعيه وبدون تأثير أحد أو ضغطه عليه خير له من أن يعمل عملا مستحبا تحت تأثير أو إجبار شخص آخر، ليتمكن من ترك الخطايا والتباعد عن الآثام». وإنى أعتقد فى إصابة هذا الرأى والحق ظاهر فيه. لأن الانسان إذا عمل خطيئة أو اقترف إثما بارادته الحرة ووعيه الكامل وبدون تأثير أحد أو ضغطه عليه فذلك خير له من أن يقبل سيطرة غيره عليه ويخضع لارادته ليقوده إلى الخير. لأن الشخص الحر الواعى لا بد أن يعود يوما ما إلى رشده ويصلح نفسه، ولكن الذى لا يستطيع أن يسيطر على نزواته وشهواته، ويلتجئ إلى أخذ المعاونة من غيره لكبح جماح عواطفه الثائرة، فان الأمل فى تحسن حاله ضئيل جداً، لان إرادته الذاتية تزداد ضعفا يوماً بعد يوم، وعند ذلك لا يتسنى له أن يرقى مواهبه المكنونة وقواه العقلية. كما أنه لا يستطيع أن يقى نفسه من عواقب أعماله السيئة. وعندما تزول عنه سيطرة الغير التى كانت تمنعه عن الوقوع فى الآثام فان عيوبه ومساوئه تظهر للعيان بصورة جلية وبمقياس كبير.

لا تكون الأعمال التى ننجزها فى حياتنا مبرورة، إلا إذا كان فيها نفع للناس. إن كل حسنة يعملها الانسان فى حياته للوصول إلى غرض شخصى أو نيل نفع ذاتى لا نعده عملا أخلاقيا إلا إذا قصدنا به النفع العام. وإن معظم الناس يعملون الحسنات لنيل الدرجات فى الآخرة والتمتع بالحور العين فى جنات النعيم. ويتجنبون المعاصى والآثام بغية النجاة من عذاب الجحيم. فهذه الطريقة يسلكها عوام الناس غالباً. وأما الذين يحبون أن يسلكوا الطريقة المثلى فعليهم أن يضعوا نصب عينيهم عند إنجاز صوالح الأعمال نيل رضا البارى (عز وجل) وبدون أن يقصدوا من أعمالهم جزاء ولا شكراً. ألا وإن نيل رضا البارى سبب للنجاح والفوز فى الدارين.

وينبغى لنا جميعاً أن نتجنب الآثام والسيئات لا للنجاة من عذاب الآخرة فحسب، بل علينا أن نتجنبها لأنها بؤرة للشرور والمفاسد وسبب لمعظم مصائب الانسان فى حياته. وكذلك يجب على كل فرد أن يتحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق لأنها منقبة وميزة عالية تجتذب القلوب ببهجتها وتسمو بالانسان إلى أعلى الدرجات، وأما إذا كانت الفضيلة التى نمارسها فى حياتنا لا تجتذب قلوبنا إليها بذاتها ولا تشرح صدورنا، لأننا نمارسها كعادة مرعية فى آداب المعاشرة والسلوك فى المجتمع، فلا تكون لتلك الفضيلة قيمة روحية أو أخلاقية لأنها لا تسمو بنا إلى المعالى، فلذلك لا تستحق العناية والاعتبار، والأولى بنا أن نقذفها فى سلة المهملات.

يقول غاندى، إن اكتساب الفضائل والتحلى بها يجعل الانسان سعيداً فى الدارين. لأن الجنة والنار موجودتان فى أعماق نفوسنا، فاذا مارسنا الفضائل لأنها فضائل، فان قلوبنا تشعر بالاطمئنان الباطنى فلا تتأثر من صعوبات الحياة ونوائبها فتكون حياتنا شبيهة بالحياة الفردوسية. وإذا اجتنبنا السيئات لأنها سيئات،

فانا نق أنفسنا من التدهور إلى الهاوية، فلا تؤثر فى نفوسنا مصائبها وآلامها، ويمكننا أن نتحملها بسهولة.

هل الطبيعة فى حد ذاتها قاسية وعنيفة؟

إن قوانين الطبيعة فى هذا العالم لا تسير حسب عقليتنا ومنطقنا، بل لها نظام خاص تسير عليه فلذلك نظن أنها قاسية. وإنى على يقين كامل بأنها ليست بقاسية أو عنيفة كما يظهر أحيانا من تقلبات الدهر ووقوع الكوارث والنوائب والحوادث الفجائية المؤلمة. وعندما نرى ذلك تمتلىء نفوسنا بالرعب والرهبة فنذم الطبيعة ونخشى شدتها وبأسها. إن الحياة فى بعض نواحيها وحالاتها تشتمل على العنف والشدة فينبغى لنا أن نختار من تلك الحالات أخفها وطأة وأقلها قوة. وإذا نظمنا حياتنا وفقاً لقوانين الطبيعة والعلوم الكونية وعشنا بموجبها فعند ذلك تتبدل قوتها إلى اللين وشدتها إلى السهولة واليسر.

إن خلود النفس حقيقة ثابتة

قال غاندى ولقد قيل «خلق الناس للبقاء وضلت أمة يحسبونها للنفاد» لقد أجمع قادة كل الأديان بأن حياة الانسان لا تنتهى بموته، بل يعيش فى العالم الأخروى، وإن للحياة الأخروية قانون محكم ثابت يخالف قانون عالمنا الفانى المتغير. لأن جل بنوده مأخوذ من حياتنا اليومية. وأكثر الناس يشبهون قضايا الآخرة بقضايا الدنيا فلذلك نرى أن فرائص المذنبين ترتعد إذا ما سمعوا ذكر النار وعذابها الأليم. كما أن قلوب الأتقياء تمتلئ بالفرح والسرور إذا ما ذكروا بالجنة ونعيمها الخالد. وينبغى لنا أن نعلم بأن قوانين عالم البقاء محكمة وثابتة لا تتغير. لا ظلم ولا إجحاف فيها، أساسها العدل والحق والصدق. فيجدر بنا أن ندرس تلك القوانين ونعمل بموجبها فى حياتنا الحاضرة، فعند ذلك ننجو من

مصائب وآفات الدارين ونسير متوجهين نحو الكمال الانسانى الذى هو منية كل
نفس طاهرة ترغب فى السمو الروحانى، وآنئذ لا نترنح بنشوة الأنس والسرور
ولا يؤلمنا وقوع الكوارث والنوائب. لأن المسرات والأحزان لا تؤثر إلا فى
الناقصين من البشر، وأما الكاملون فهم بنجوة من ذلك. لقد حرر فى «جيتا»
(اسم كتاب دينى عند قدماء الهند) بأن الانسان الكامل لا يتأثر بحوادث الموت
والحيـاة، فهما مظهران من مظاهر الوجود الكلى وهما كوجهين للحياة الأبدية كما
أن للعملة وجهان «الطغرى والكتابة» وهى قطعة واحدة.

هل فى مجتمعنا الحاضر قوانين مكملة للأخلاق؟

لا توجد قوانين أخلاقية مكملة يجب اتباعها على كل الشعوب والأمم فى كل
عصر وزمان، ولـكن هنالك قوانين أخلاقية نسبية تعلمنا آداب المعاشرة والسلوك،
تكفى لأجل تنظيم حياة الانسان الذى لم يبلغ بعد درجة الكمال المنشود فى
هـذا العالم الفانى. فمن جملة قوانين الأخلاق المقبولة فى الأقطار الشرقيـة هى
ترك استعمال المسكرات تماما، وقد يستثنى منها ما يستعمل فى الأدوية بمقدار ما
يحتاج إليه المريض، بعد مشورة الطبيب المـاهر. ومنها عدم النظر إلى وجـه
المرأة الأجنبية بشهوة لأن ذلك يسبب فساد الأخلاق. ويستثنى من ذلك النظر
إلى وجه الزوجة. وإذا نظرنا بعين العقل والتدبر إلى الأضرار والمفاسد الاجتماعية
التى تنجم عن استعمال المسكرات واختلاط الرجال بالنساء بدون مراعاة أصول
العفة والطهر، فيتحتم علينا عندئذ أن نترك المسكرات وأن نحافظ على شرف النساء
ونمنع الاختـلاط مع الرجال إذا أردنا إصلاح المجتمع. لأن بذل الجهود
المستمرة لرفع مستوى أخلاق المجتمع الانسانى وصيانتها من التدهور والانحطاط
فريضة عـلى كل إنسان. وإن سبب التدهور الأخلاقى فى عصرنا الحاضر هو
انهماك أغلب الناس فى أشغالهم الدنيوية وانغماسهم فى الملذات والترف والتنعيم

وعدم مبالاتهم بالدين الحق وميلهم إلى البدع والأضاليل. وإن منهم من ينكر وجود الخالق ويسرد الأدلة لاثبات مدعاه، ولا يهتم باتباع آداب المعاشرة النزيه والسلوك المستحسن. ولا يتورع من اقتراف الذنوب والآثام.

قوة الايمان وتأثيرها العظيم فى حل مشكلات الحياة

قال غاندى: إن الايمان الذى يسمو بقوته المعنوية على العقل والمنطق هو ملجؤنا الوحيد الذى نعتصم به فى مدلهات الأمور وحل مشكلات الحياة. إن إيمانى قد نجانى من الأخطار الكثيرة، ولا زال يحفظنى من اليأس والقنوط ويقينى من السقوط والانهيار. إن إيمانى القوى لم يخذلنى ولم يخيب آمالى قط ولم يخيب أمل آمل مخلص أبداً عندما يلتجئ إليه. إن قوى العقل والمنطق تتضاءل أمام قوة الايمان (بالخالق العظيم) ولقد قيل:

قوة لم تتح لقلب جبان ٭ تلك فى المرء قوة الايمان
تتجلى على جميع شؤون الـ ٭ سكون تجلى الأرواح فى الأبدان

إن العقل غير المدرب بالنسبة إلى الايمان ضعيف جداً. لأنه محاط بالاغراء والظنون والقياسات التى لا ترتكز على أساس قويم. وكثيراً ما تغرينا المظاهر فنضل عن سواء السبيل. إن الايمان وحده هو الذى ينقذنا من الأخطار والآفات والنوائب ويرشدنا إلى الصراط الأقوم ويملأ قلوبنا أملا واطمئنانا.

وأما العقل غير السليم فانه يمد المنهمكين فى طغيانهم ويشوقهم لتعاطى المسكرات والتمتع باللذات المحرمة. إن الشواهد والواقعات تؤيدنا بأن سلامة العقل تتزلزل وتضعف أمام الفرص السانحة لاقتناص اللذات الممنوعة، لأن الغريزة البشرية تشوق الناس للتمتع بما لذ وطاب وترغبهم فى الميل إلى الشهوات وتجعلهم أيضاً حريصين على جمع الأموال من حلال وحرام، لأن اكتساب

المال وادخاره هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ المقاصد ونيل المآرب عند أغلب الناس، فانظروا مثلا إلى معظم القضايا القانونيـة كيف تحل فى المحاكم، وذلك أن كل محام يدافع عن قضية موكله سواء أ كان حقا أو باطلا، والحق لا يكون إلا الواحد من الطرفين إما للدعى أو للدعى عليه، والمقصد الأصلى لكل واحد من الفريقين أن ينجح فى المحاكمة ويأخذ الأجرة المقررة فى الدفاع عن القضية، وليس مقصدهما الدفاع عن الحق، بل نيـل الحلوان. ولا يمكن لشخص أن يصون نفسه من هذه الآفات الأخلاقية المهلكة إلا إذا سار على النهج القويم واعتصم بحبل الايمان المتين فانه عندئذ يكون فى مأمن من الأخطار محفوظاً من نزوات النفس وجماح الغرائز، وعند ذلك يشعر باطمئنان القلب وانشراح الصدر فتفتح أمامه أبواب الفوز والفلاح ويكون مستعداً للقيام بأداء واجباته الانسانية على الوجه المطلوب.

القانون الأخلاقى العام

لقد تقرر وسجل فى القانون الأخلاقى العام الذى اتفق عليه قادة كل الأمم والشعوب فى كل العصور بأن أسمى وأعظم عمل ينجزه الانسان فى غضون حياته هو خدمة النوع الانسانى ورفع مستواه. وذلك بتكريس كل ساعة من حياته لهذه الخدمة الشريفة بصورة متوالية وبدون توقف وانقطاع. وبغير أن ينتظر لعمله هـذا أجراً وثناء أو شكراً، وأن الفرد الذى لا يتأهب لانجاز هذا العمل الانسانى الجليل ولا يكون مستعداً للقيام باداء هذا الواجب المحتم ولا يقدم نفسه لخدمة الصالح العام بطاعة كاملة وبلا تردد، فلا يمكننا أن نسميه إنساناً بكل معنى الكلمة بموجب القانون الأخلاقى المقبول لدى جميع قادة الأمم ومرشديهم وزعمائهم.

الاعتراف بالذنوب تخفف وطأتها

إن كل إنسان معرض فى حياته لاقتراف الذنوب والآثام، فاذا بدرت من

شخص هفوة أو إثم فيجب عليه أن يتوب منه ويعترف بما اقترفه من الذنب. يقول غاندى إنى قد اعترفت بكل ذنب اقترفته (فى فتوتى)، وبسبب اعترافى به قد خفت وطأة تلك الذنوب التى كانت تثقل كاهلى.

الأخلاق الفاضلة والعقل السليم

قال غاندى: إن الآراء والأعمال والعادات والرسوم والطقوس الدينية التى تهتم بها الناس كثيرا، إذا كانت تخالف مبادئ الأخلاق الفاضلة وتنافى العقل السليم ولا تسير مع الحقيقة والرأى السديد جنبا إلى جنب، لا نعد اتباعها واجبا شرعياً على أحد ولو مارستها الأمم وأدخلتها فى عاداتها الشعبية أو كانت مسجلة فى أسفار عهدها القديم.

إن الدين لا يأمر أحداً أن يحصر وقتـه كله فى العبادة ويترك أداء سائر واجباته نحو وطنه وشعبه، بل المتدين الحقيقى هو الذى يكرس حياته لخدمة المجتمع الانسانى عموما بدون أن يغفل عن عبادة ربه.

طالما اقترح على خلانى وأصدقائى أن أتباعد عن ضوضاء الحياة وجلبتها، وأعيش فى قرية عيشة هدوء وسكون، كما يعمل ذلك كثير من الناس ولكنى لم أجد لنفسى مفراً من خدمة الصالح العام طوال حياتى. وفى مذهبى واعتقادى أنه لا يمكن لأى فرد مهذب من أفراد المجتمع الانسانى أن يشعر بسعادة النفس ومسرة القلب إلا إذا عاش بين أبناء جلدته وإخوانه فى الانسانية على الدوام، وبذل الجهود المتواصلة فى رفع مستواهم وتحمل المشاق فى أسعافهم ماديا ومعنويا بدون أن ينتظر من أحد منهم مقابلا أو أجراً. وعندى أنه لا توجد فى الحياة أمنية أسمى من وقف الانسان المهذب حياته ووسائله لمثل هذا العمل الجليل. ولقد قيل «وإذا كانت النفوس كباراً، تعبت فى مرادها الأجسام»

مقاصد الناس فى الحياة

قال غاندى: تنقسم مقاصد الناس فى الحياة إلى قسمين. فقسم منهم يكون مقصده فى حياته جلب المنفعة لنفسه، ولا يعمل عملا ما، إلا إذا تحقق أن ذلك العمل سيدر عليه بالخيرات والفوائد. ولا يوجه عناية إلى رقى المجتمع ورفع مستواه. فلا نعد عمله هذا عملا مبروراً يستحق المكافأة عليه ولا يمكننا أن نصفه بالرجل الكريم الأخلاق. لأن فائدة عمله تكون قاصرة عليه ولا تتعدى إلى سواه.

وأما القسم الآخر فلا يعمل عملا فى حياته، إلا إذا كان نافعاً للمجتمع فيكرس حياته لخدمة الشعب وتنوير الأذهان ونشر التعليم وإرشاد الناس إلى المنهج القويم، ويعمل كل ذلك باخلاص وحسن نية، ولا يكون له فى عمله هذا أمنية لوصول إلى مقصد ذاتى أو نفع شخصى. فعلى هؤلاء الرجال العاملين تتوقف حياة الأمة ورقيها فى مدارج الفوز والفلاح. كما أن الذين يجدون ويجتهدون فى تنوير عقولهم بتحصيل العلوم والمعارف وترقية مواهبهم المكنونة، حتى يتسنى لهم أن يؤدوا للشعب خدمات جلى، فلا شك أن أعمالهم هذه تعد مبرورة ومقبولة لدى الجميع.

قال غاندى عندما كان مستغرقا فى تأملاته الروحية

إنى لأشعر الآن بأنى قد بدأت فى السير نحو الخالق الكريم. وإن شعورى إحساسى الباطنى هذا لملأ شغاف قلبى بالاطمئنان والسرور. فأحس بأن شمس هدايته قد أشرقت فى، ونفذت أشعتها فى حنايا نفسى. كما أنى أشعر بشآبيب رحمته بنعمة قربه إلى. وليس شعورى الباطنى هذا حصل لى بسبب عبادتى ونسكى، لأنى لا أتكل على العبادات التى أديتها ولا على صيامى وزهدى وتبتلى، وأعلم

بأن أداء تلك العبادات لن تفيدني في إصلاح حالي وتهذيب نفسي، إذا اتكلت عليها. ولكني أعتقد بأن الفرائض إذا أديناها باخلاص وحسن نية يكون لها تأثير عظيم في ترويض النفوس وتهذيبها وحثها على إنجاز أعمال البر والاحسان، ألا وإن العبادة لخير وسيلة للتقرب الى الخالق العظيم واكتساب رضاه، ولي الأمل أن أفوز بنيل لطفه وعنايته. فان العبادات وصوالح الأعمال هي لخير وسيلة لنيل السمو الروحاني فلذلك لها قيمة عظيمة من هذه الناحية.

ألا وإن الشوق العظيم الذي تصبو إليه النفس المطمئنة، لتتقرب إلى ربه زلفى وتحظى بنيل محبته ورضوانه، لتشتاق ليتضع رأسه المتعب على عتبة حظيرة قدسه (تعالى) راجياً منه أن يغمره بشآبيب رحمته وإحسانه.

نقلها إلى العربية
الأستاذ محمد المأمون عبد الوهاب الأرزنجاني الدمشقي
محاضر اللغة العربية في معهد الدراسات الاسلامية في جامعة عليجره سابقا.

حيـاتى

لفقيد الشرق مولانا أبوالـكلام آزاد

(٢)

الحرب فى أوربا

كانت الأحداث التى سردناها فى الباب السابق تحدث فى جو قاتم كان طليعة الحرب الوشيكة الوقوع. فكانت طول هذه الفترة التى نحن بصددها، أزمة دولية تأصل جذورها فى أوربا، ويزداد فى كل يوم وضوحا أن الحرب أصبحت محتمة مما لا معدى عنها، وانضمت النمسا إلى الدولة الألمانية. وسرعان ما استتبعت المطالبات باسودنت ليند.

وعندما قام المستر شمبرلين بسفره الغريب إلى ميونخ، ظهر أن الحرب لم يعد الآن عنها مفر. ودخل جزء من تشيكوسلوا كيا فى حوزة الاحتلال الألمـانى، وذلك بتفاهم بين بريطانيا وألمانيا، وخيل للحظة كأن الحرب ابتعدت، لكن الأحداث التاليـــة شهدت على أن معاهدة ميونخ لم تساعد على قضية السلام مساعـدة ما، وإنما ساعـدت بعكس ذلك على تقريب الحرب وإمكان نشوبها. واضطرت الحكومة البريطانيـة فى خلال سنة منذ معاهدة ميونخ إلى أن تعلن الحرب ضد ألمانيا.

ولم تكن التطورات الطارئة فى أوربا مما يطمئن إليها المؤتمر الوطنى، ففكر فيها جديا، وأصدر فى دورته المنعقدة فى «ترى پوره» (سنة ١٩٣٩) القرار الآتى:

«إن المؤتمر يسجل غاية الاستنكار السياسية البريطانية الخارجية، التى أدت إلى معاهدة ميونخ، والمعاهدة الانجليزية الايطالية، والاعتراف باسبانيا الباغية. ويرى المؤتمر بأن هذه السياسة لهى خيانة متعمدة للديموقراطية، وتكرار الاخلاف بالوعود، وإنهاء نظام الضمان الاجتماعى. والتعاون مع الحكومات التى تجهر بعدائها، ولا مراء فى أن هذه السياسة تفضى بالعالم إلى حالة فوضى دولية، يتسيطر فيها العنف وتنتصر فيها القسوة، وتقام باسم السلام استعدادات هائلة لما هى أفظع الحروب. وأن الأخلاق الدولية فى أوربا الغربية الجنوبية والوسطى انحطت إلى درجة كبيرة، حتى تسيطر الخوف على العالم الذى يضطر إلى مشاهدة الارهاب الذى تنظمها الحكومة النازية ضد أفراد الجنس الصيهونى، ومواصلة القوات الباغية إطلاق القنابل من الجو على السكان المدنيين واللاجئين البائسين.

وينفصل المؤتمر انفصالا تاما عن السياسة البريطانية الخارجية التى تمد القوات الفاشستية وتساعد على تدمير البلاد الديموقراطية، ويعارض المؤتمر كلا من الاستعمار والفاشستية ويقتنع بأنه لا بد من إنهاءهما لأجل سلام العالم وتقدمه، ويرى المؤتمر أنه من الضرورى العاجل أن تتخذ الهند سياستها الخارجية الخاصة كشعب مستقل، وتبقى محايدة عن الاستعمار والفاشستية، وتسلك مسلكها الخاص فى سبيل السلام والحرية».

وعندما تلبدت الغيوم على السماء الدولية، قلق غاندى قلقا شديدا، وكان طول هذه الفترة مصابا بأزمة عقلية حادة عنيفة، ومما زاده حراجة وكربا كانت الطلبات التى وردت من الأفراد والجميات فى أوربا يلتمسون إليه أن يتقدم بشيء لمنع الحرب المحدقة. وكان المسالمون فى جميع العالم ينظرون إليه نظرتهم إلى زعيمهم الطبيعى للاحتفاظ وإبقاء السلام.

وأنعم غاندى التفكير فى المسئلة، وتقدم أخيرا إلى لجنة المؤتمر الوطنى العاملة

ح مؤداه أنه يجب على الهند أن تجهر بموقفها من هذه الأزمة الدولية.
ن مقتنعا بأن الهند يجب عليها أن لا تشترك فى الحرب المقبلة، مهما كانت
وف، حتى وإن أسفر هذا الاشتراك عن إدراكها الحرية.

ولم أتفق مع غاندى على هذه القضية، ورأيت أن أوربا منقسمة إلى
كرين: معسكر يمثل القوات النازية والفاشستية، ومعسكر يمثل القوات
موقراطية. ففى هذا العراك القائم بين المعسكرين لا بد للهند أن تعاضد
موقراطية بشرط أن تصبح حرة مستقلة. وأما إذا تعترف البريطانيا بحرية
،، فأنى لها أن تكافح من أجل حرية الشعوب الأخرى، وهى بنفسها لا تزال
رمة من حريتها، ففى مثل هذه الحالة يعود على الهند أن لا تتعاون ولا
م إلى الحكومة البريطانية بأية مساعدة على جهودها الرامية إلى الحرب.

وانقسمت اللجنة العاملة للمؤتمر بشأن هذه القضية على نحو ما انقسمت بشأن
القضايا الأخرى، والحقيقة أن بعض الأعضاء لم يوضحوا وجهات نظرهم،
ن جواهرلال نهرو يتفق معى عموما، لكنه كان هنا أعضاء آخرون رأوا
واجبهم الموافقة على الآراء الغاندية. بيد أنهم أدركوا أن السياسة الغاندية —
انتهجناها إلى نتيجتها المنطقية — ستقود إلى مأزق. ومن هنا كانوا فى ورطة
ذبين بين ذلك، وتناولت اللجنة العاملة القضايا تناولا لم ينته إلى قرار.

وبينما كان المؤتمر فى هذا التذبذب أعلنت الحرب ونشأت فى الهند أزمة.
دما أعلنت البريطانيا الحرب ضد ألمانيا فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩، التمست
جميع الدول أعضاء الكومنويلث أن تقوم بعمل مماثل، فاجتمعت البرلمانات
لنت الحرب، وفى الهند كذلك أعلن النائب بدوره الحرب ضد ألمانيا، ولم
ن الضرورى أن يستشير المجالس التشريعية المركزية ولو رسميا.

فكان عمل النائب هذا برهانا جديدا، إن بقيت هناك حاجة إلى مزيد من

البرهان، على أن الحكومة البريطانية تنظر إلى الهند نظرتها إلى مخلوق خاضع مستسلم لارادتها، وعلى أنها لا تجنح إلى الاعتراف بحقوق الهند فى تقرير مصيرها حتى فى قضية مثل قضية الحرب.

وعندما سيقت الهند هكذا إلى الحرب بدون احتفال، بلغ قلق غاندى العقلى إلى درجة قصوى، حتى كاد أن ينشقق كربا، ولم يستطع أن ينسجم مع الهند وهى تساهم فى الحرب، مهما كانت الظروف، ولكن أيا كان إحساسه وشعوره ساق النائب الهند بقراره إلى الحرب دون أى التفات إلى رغبة الشعب الهندى، وأوضحت لجنة المؤتمر العاملة وجهة المؤتمر إيضاحا تاما فى القرار الذى أصدرتها فى اجتماعها المنعقدة بـ «واردها» من الثامن إلى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩، وإليكم هذا القرار بتمامه، فانه من أوضح البيانات التى توضح موقف المؤتمر من الحرب. ومن الدور الذى لعبتها الديموقراطيات فى المجال الدولى، وكان القرار كما يلى:

نظرت اللجنة العاملة جديا فى الأزمة الخطيرة التى تطورت فى أوربا من جراء إعلانات الحرب فى أوربا. وإن المبادئ التى من شأنها أن ترشد الشعب فى حالة الحرب، قد وضعها المؤتمر مرارا، ورددتها هذه اللجنة منذ شهر، وأوضحت استياءها من التهكم على الرأى العام الهندى الذى تقوم بها الحكومة البريطانية فى الهند. وإن الخطوة الأولى التى تخطوها اللجنة للتبرؤ من السياسة الخارجية للحكومة البريطانية، هى أنها طالبت أعضاء المجلس التشريعى المركزى بأن يمتنعوا من الحضور إلى الدورة المقبلة، إذ أعلنت الحكومة البريطانية بأن الهند دولة محاربة، وأصدرت القوانين، وأصدرت (Govt. of India Amending Bill) واتخذت إجراءات بعيدة المدى مما تمس الشعب الهندى فى صميمه، تحدد وتحد من سلطة ونشاط حكومات الولايات، وقامت الحكومة البريطانية بكل ذلك دون استرضاء الشعب الهندى الذى تجاهلت الحكومة

البريطانية عامدة عن رغباته المصرحة فى مثل هذه الأمور، ويقضى واجب اللجنة العاملة بأن يلاحظ هذه التطورات ملاحظة جدية.

وسبق أن صرح المؤتمر مرارا بغاية استنكاره تصور وممارسة النازية والفاشستية وتبجيلها من شان الحرب والعدوان وكبتها الروح البشرية، واستنكر المؤتمر العدوان الذى تلوثت بهما النازية والفاشستية مرارا، على نحو ما استنكر قضاهما على المبادئ الحسنة المستحكمة، ومقاييس السلوك المدنى المعترف بها. وإنهما النازية والفاشستية اللتان يتقوى بهما المبادئ الاستعمارية التى يكافحها الشعب الهندى منذ سنين. من أجل هذا يتحتم على اللجنة العاملة أن لا تحتشم فى استنكار العدوان الأخير الذى قامت بها الحكومة الألمانية النازية ضد بولندا، وأن تؤيد الذين يقاومون هذا العدوان.

« وصرح المؤتمر — أكثر من هذا — بأن الشعب الهندى هو الذى يستحق أن يسوى قضايا الحرب والسلام، وما من سلطة خارجية تستحق أن تفرض هذا القرار على الشعب الهندى، وإن الهنود لن يسمحوا باستغلال مواردهم فى سبيل الأهداف الاستعمارية، ولا بد أن يعارض الشعب الهندى كل قرار يفرض عليه أو كل محاولة تكون لاستغلال موارده لأغراض لا يستصوبها، وإذا أريد على تعاون لأجل قضية عادلة مستحقة فلا يمكن أن يتحقق هذا التعاون بالارغام والفرض، ولن ترضى اللجنة عن أن يمتثل الهنود الأوامر التى تصدرها سلطة خارجية، فان التعاون لا بد أن يكون بين الأكفاء مع تراضيهم فى قضية يقتنع كل منهم بعدلها واستحقاقها، وقد واجه الشعب الهندى فى الماضى القريب الأخطار الكبيرة، وقاموا عن طيب خاطر بتضحيات كبيرة لضمان حريتهم ولانشاء حكومة ديموقراطية فى الهند، وهم يؤيدون الديموقراطية والحرية كل التأييد. لكن الهند لا يمكن أن تنضم إلى الحرب التى يقال عنها أنها لأجل الحرية الديموقراطية مع أن الهند ما زالت محرومة منها، بل تسلب الحرية المحدودة التى كانت لها.

وإن اللجنة عارفة بأن حكومتى بريطانيا العظمى وفرنسا تصرحان بأنهما تحاربان لأجل الديموقراطية والحرية ولأجل القضاء على العدوان، لكن التاريخ فى الماضى القريب ملىء بأمثلة تشهد على الاختلاف بين ما تقولان والأهداف التى تتشدقان بذكرها وبين العوامل والأغراض الحقيقية، وكانت الأهداف المصرحة فى حرب سنة ١٨-١٩١٤، وقاية الديمو قراطية، وحق تقرير المصير، وحرية الأمم الصغيرة، وبرغم ذلك نجد الحكومات التى جهرت بهذه الأهداف برزانة، دخلت فى الاتفاقيات السرية لتقوية الخطط الاستعمارية المستهدفة تقويض دعائم الحكومة العثمانية، وبينما كانت تلك الحكومات تدعى بأنها لا تتطلع إلى إحراز الأقاليم والأصقاع، أضافت الدول المنتصرة إلى مناطقها المستعمرة بكثير. وتشهد الحرب الأوربية الحاضرة على فشل باهر لاتفاقية «ورسيلز»، ومنشئها الذين أخلفوا بأقوالهم المؤكدة وفرضوا سلاما استعماريا على الأمم المغلوبة، وأما «عصبة الأمم» التى كانت نتيجة عن هذه الاتفاقية والتى ربما تعلق بها الآمال، فقد اختنقت منذ بدايتها، وبالتالى قضت عليها نفس الدول التى أنشأتها.

وحقق التاريخ المتعاقب من جديد أنه كيف يمكن لعقيدة مجهورة بها أن تعقبه دمار كريه. وفى «مانشوريا»، تغاضت الحكومة البريطانية عن العدوان وتلوثت به فى أبى سينيا، وهددت الأخطار الديموقراطية فى تشيكوسلوواكيا وإسبانيا لكنها قد غضت النظر عنها، وقامت بتخريب نظام الضمان الاجتماعى بأسره نفس القوات التى سبق أن أعلنت باعتقادها الراسخ وإيمانها به.

ويؤكد مرة ثانية أن الديموقراطية مهددة بالأخطار، ولا بد من صونها، وأن اللجنة العاملة لحزب المؤتمر الوطنى موافقة على هذا القرار موافقة تامة، وتؤمن بأن الشعوب الغربية مدفوعة بهذا التصور وبهذه الأهداف ومستعدة لكل تضحية فى هذا السبيل، بيد أنه حدث مرارا أن غض النظر عن عواطف الجمهور وعواطف

الذين قاموا فى هذا الكفاح بتضحيات وذلك بدون احتفاظ بالعقيدة .

وإذا كانت الغاية وراء الحرب هى الدفاع عن الممتلكات الاستعمارية والمستعمرات والامتيازات والمصالح الخاصة ، فلا علاقة لها بالهند ، وأما إذا كانت القضية قضية الديموقراطية فالهند مهتمة بها كل الاهتمام . وإن اللجنة مقتنعة بأن صالح الديموقراطية الهندية لا يعارض صالح الديموقراطية البريطانية أو الديموقراطية العالمية ، على أنه هناك تناقض بين الديموقراطية للهند أو لغيرها وبين الفاشستية والاستعمار . فان كانت بريطانيا العظمى تكافح لوقاية وتوسيع الديموقراطية فواجبها أن تقضى على الاستعمار فى ممتلكاتها وتنشىء الديموقراطية الكاملة فى الهند ، حتى ينال الشعب الهندى حق تقرير المصير ، فيضع دستوره بواسطة المجالس التشريعية دون أن يكون فيه أى تدخل خارجى وتنتهج سياسته المستقلة ، ويعمل على إحكام نظام عالمى حقيق مؤسس على الحرية والديموقراطية ، مستخدما فى ذلك المعارف والموارد العالمية لأجل تقدم البشرية وترقيته .

وإن الأزمة التى سادت فى أوروبا ليست لأوروبا فحسب بل البشرية جمعاء مصابة بها . وإنها ، على خلاف الأزمات الحربية الأخرى ، سوف لا تنجلى ما لم تورث تبدلا أساسيا فى النظام الذى يجرى عليه العالم اليوم — ولربما يصبغ العالم من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية إما صبغة حسنة أو سيئة — وقد بعث النزاعات والخلافات السياسية والاجتماعية التى ظلت تنمو وتزدهر منذ الحرب العظمى الماضية بحدوث هذه الأزمة ، والتخلص منها عسير ما لم تقوض أسس النزاعات ولم يوطد فى العالم نظام كله العدل والمساواة — ولا يمكن إنشاء نظام مثل هذا النظام العادل إلا إذا قضى على السيطرة الأجنبية وعلى استغلال الدول بعضها بعضا لأغراضهم الخاصة . وكذلك من الضرورى أن تؤسس العلاقات الاقتصادية بين دول العالم على العدل والاخلاص حتى يعم نفعها الجميع ، وإن الهند لها أعظم أهمية فى ذلك .

فانها ظلت فريسة الاستعمار الحاضر أكثر من غيرها. ولا رجاء فى ازدهار أى نظام ما لم نراع هذه المسئلة مراعاة واجبة، فان الهند تملك موارد ثرية واسعة النطاق، فلا بد من أن تلعب دورا هاما فى إنجاز أى مشروع يرمى إلى تنظيم العالم من جديد. وإنما يتسنى لها ذلك بعد أن تنال حرية كاملة تمكنها من استخدام جميع قواها فى تحقيق هذا الهدف الأسمى. فالضرورى اللازم أن تعم الحرية كافة شعوب العالم. فان من محاولة لابقاء السيطرة الاستعمارية حيثما كان، إلا أن تسبب دمارا فظيعا وتلقى بالعالم إلى التهلكة.

وعلمت اللجنة العاملة بأن كثيرا من أمراء المقاطعات فى الهند قدموا خدماتهم وما لديهم من الموارد والوسائل، إلى جانب رغباتهم الملحة للدفاع عن الديموقراطية فى أوروبا، فقررت اللجنة بأنهم لو آزروا الديموقراطية فى البلاد الأخرى فكان عليهم لزاما أن يقيموها أولا فى مقاطعاتهم التى يسودها أقسى نظم الأحكام الفردية. وأما مسئولية هذه الأحكام الفردية فتقود إلى الحكومة البريطانية أكثر منها إلى أمراء المقاطعات، كما شاهدناها مع الأسف فى العام الماضى. ومن الواضح أن هذه السياسة تناقض الديموقراطية ونظام العالم الجديد المزعوم للذين تتظاهر الحكومة البريطانية بالدفاع عنها.

وإن اللجنة العاملة، وإن أمعنت النظر فى الوقائع التى جرت فى أوروبا وفى بلاد آسيا وأفريقيا، ولا سيما ما تناوبت منها الهند فى ماضيها وحاضرها، لم تعثر على أى جهد مبذول لانعاش الديموقراطية وحق تقرير المصير، ولا على بينة تثبت أن الحكومة البريطانية تعمل – أو على الأقل تستعد للعمل – وفق تصريحات أدلتها عن الحرب. وإن أصدق تعبير للديموقراطية أن يقضى على كل من الاستعمار والفاشستية وضعهما على العدوان الذى لم يزل رديفهما.

وإن اللجنة العاملة لتواقة إلى المساعدة بكل نفس ونفيس فى أى حركة ترمى

إلى إنشاء نظام جديد للعالم.

ولكنها تأبى كل الاباء عن القيام بأية مساعدة أو تعاون نحو الحرب التى أقيمت توطيدا لدعائم الاستعمار فى الهند والبلاد الأخرى، ونظرا لخطورة الموقف ولأن الوقائع كانت تحدث بسرعة هائلة ربما يعجز الفكر البشرى عن معالجتها العاجلة، أجلت اللجنة أن تتخذ قرارا نهائيا. والغرض من ذلك أن تتضح لها أتم الوضوح جميع المشاكل المجابهة حينذاك والأهداف المتطلعة إليها وموقف الهند فى الوقت الحاضر والمستقبل، اللهم إلا انه لم يكن من المستطاع تأجيل القرار إلى حد أبعد، لأن الهند كانت فى يومه أكثر من أمسه تساق إلى سياسة لم تكن هى لها فريقا، بل ولم تكن توافق عليها. ومن ثم طلبت اللجنة العاملة إلى الحكومة البريطانية أن تعلن بوضوح ما عسى أن تأتى أغراضها الحربية بها للديمقراطية والملوكية ونظام العالم الجديد المرمى إليه، ولا سيما كيف يتم تطبيقها وتنفيذها على الهند فى الوقت الحاضر وهل كان من بين تلك الأغراض القضاء على الاستعمار وتعامل الهند كدولة ذات سيادة كاملة تحذو سياسة كما شاء شعبها. ولا مشادة فى أن شعب العالم كله سيرحب بأى إعلان تعهد فيه الحكومة بالقضاء على الاستعمار والفاشستية. والأهم فى ذلك كله أن ينفذ مثل هذا الاعلان على أوسع نطاق على الفور فان الشعوب لم تكد تكترث به إلا بعد التنفيذ. فان أصدق المعايير لعهد هو تنفيذه فى الحال فانه الذى يشرف على عمله فى الوقت الحاضر ويصيغ له مستقبلا.

استفحلت الحرب فى أوروبا، وبلغت مظاهرها أقصى درجة الفظاعة والهول. فظلت الدماء تسفك فى الأعوام الحالية فى أبى سينيا والصين واسبانيا، وأصبح عدد كثير من الأذكيا والنساء والأطفال ممن لا ذنب لهم عظاما رفاتا. وذلك نتيجة القنابل المتمطرة من السماء. وتتابعت أعاصير الدمار والسلب والنهب وتدفقت سيول المهج البشرية وجرحت كرامتها مرة بعد مرة خلال هذه السنين الفظيعة، وظلت

القطاعة تشتد وصب البلاء والشدائد تتراكم على سماء العالم وبلغ الدمار أقصى حدوده الذى لو لم يحل دونه ليقضى على تراث القرون الماضية جمعاء. ولا بد من إنهاء هذا الفساد أولا فى الصين وأوروبا. وأما إنقاذ البشرية منه فلا يتم إلا بتقويض أسسها الفاشستية والاستعمارية. وكانت اللجنة العاملة على أتم الاستعداد لمساعدة بكل نفس ونفيس لتحقيق هذا الغرض. ويا لها من شقاء للبشرية لو استمرت هذه الحرب الفظيعة الرامية إلى صيانة الاستعمار وإبقاء النظام الحالى الذى هو نفسه من أعظم أسباب نشوب الحرب وإهانة البشرية. وتود اللجنة العاملة أن تصرح بأنه لا يوجد بين الشعب الهندى والشعوب اليابانية والألمانية أو أى شعب آخر نزاع ما. ولكن الهند تودد أن تعرب عن عدائها المرير لأى نظام يعرقل فى سبيل الحرية مؤسس على العنف والعدوان، ولا يترقبون إنتصار فريق من المحاربين على غيره ولايتمنون أن يفرض عليهم سلام مصصنع، اللهم إلا أنهم تواقون إلى إنتصار الديموقراطية الصالحة لكافة شعوب العالم ويودون أن ينقذ العالم أجمع من أغلال العنف وأهوال العدوان والضغط الاستعمارى، وفى الوقت نفسه التمست اللجنة التنفيذية إلى الشعب الهندى أن يدفنوا جميع نزاعاتهم الداخلية ويأخذوا حذرهم فى هذه الآونة القاسية ويعتصموا مسالمين بحبل الاتحاد عازمين على أن ينالو حريتهم فى نطاق أوسع من حرية جزء كبير من العالم.

الأخبار الثقافية

معرض الهنـــد لعـام ١٩٥٨

افتتح المستر نهرو رئيس وزراء الهند فى نيو دهلى معرض الهند لعام ١٩٥٨م يوم الأربعاء فى ٨ من شهر أكتوبر سنـــة ١٩٥٨م. ويقدم المعرض صورة واضحة للتقدم الاقتصادى والصناعى الذى أحرزته الهند خلال أحد عشر عاما منذ نيلها الاستقلال، ويبلغ عدد المنتوجات الصناعية المعروضة فى هذا المعرض أكثر من مائة وستين مما يتعلق بالمرافق العامة والخاصة، وحضر حفلة الافتتاح جمهور كبير، منهم الدكتور رادها كرشنن نائب رئيس الجمهورية والوزراء الآخرون ووفود الدول الأجنبية.

وقال المستر نهرو رئيس وزراء الهند فى خطبته الافتتاحية: إن شيئا جديدا يدور الآن فى خلد الشعب الهندى الذى يشق طريقه إلى الأمام، وما من شىء يستطيع أن يمنعه من السير فى الطريق التى اختطها لنفسه. وقال إن هذا الازدهار والتقدم يجب أن يكون رائدا لجميع البشر ولا لفئة معينة فحسب.

ومضى المستر نهرو يقول إن زحف الهند الحديثة لهو زحف القرى والقرويين، وإن الهند لعازمة على رفع مستوى المعيشة لشعبها. وإنه يأمل فى أن تتمكن البلاد من المحافظة على بعض قيمها الثقافية، التى ظلت محتفظة بها، رغم الأعاصير التى تعرضت لها خلال العصور وحاولت أن تزعزعها، وإن الهند لن تتوقف عند مصالحها وإنما تخدم مصالح الآخرين حتى يتمكن صوتها الهادئ الصغير من حمل رسالة الصداقة فى عالمنا هذا الذى تتطاحن فيه الأحقاد ويتجاذبه التوتر وتتزاحمه

أعاصير العنف، وحتى تقوم بما تستطيع من تخفيف حدة التوتر فى العالم. وقال المستر نهرو، إن هذا التقدم فى شتى الميادين العلمية والفنية سوف لايلهينا عن شتى نواحى الحياة الانسانية الأخرى التى لا تقل أهمية.

وأعرب رئيس الوزراء الهندى عن ثقته بالقوة التى تكنها الهنود فى نفوسهم، فتطرق إلى الرد على ما شاع فى البلاد الأجنبية من انطباعات خاطئة عن الهند، وقال إن الهنود لهم قوة اعتصموا بها ولم يخلقوا ديباجتهم لأى سلطان جائر خلال العهود. وإن من نفس تعلم ماذا سيكون الهند غدا، إلا أنى لعلى يقين بأن القيم الروحية والثقافية لا تزال تنمو وتتربى فى أحضانها مع القيم المادية جنبا بجنب، وسينتج هذا التقدم إلى حرية الشعب فكرا وتخلصه من الجوع والفقر، وتحرره من كل بؤس وضر.

ثم استطرد المستر نهرو يقول، وقد صرح باعجابه بتسمية المعرض (الهند فى ١٩٥٨) «إن أجل صورة للبلاد هى أن نرى الأمة الهندية العظيمة — الأمة البالغ عددها ٤٠٠ مليون نسمة التى تقطن فى خمسمائة ألف وخمسين ألف قرية من البلاد — نراها تشق طريقها إلى الأمام. وأنه ليس من التقدم الحقيقى أن تسبق فئة قليلة ويتخلف معظم الجماهير. بل التقدم المرغوب فيه هو أن يخطو الشعب البالغ عدده ٤٠٠ مليون نسمة بأجمعه خطوات إلى الأمام سواء بسواء».

واختتم المستر نهرو خطبته قائلا إنى لا أخاف على مستقبل الهند المضىء لأنى خبير بما يملكه الهنود من عظيم القوة، وخاصة، القرويون منهم.

وأرسل رئيس الجمهورية الهندية الدكتور راجندر برساد إلى حفلة الافتتاح هذه برسالة جاء فيها إن معرض «الهند فى عام ١٩٥٨» يعطى الشعب الهندى فكرة عما أحرزه من أبهر التقدم خلال الأعوام الأحد عشر التى خلت بعد استقلال الهند فى ١٩٤٧.

وأتمنى للقائمين بأعمال إنشاء المعرض نجاحا باهرا، وأهنئهم على ما أسدوا من خدمات جليلة وأتوا بعظيم الأعمال فى هـذه الفترة القصيرة وإنى لواثق بأن المعرض ليبث فينا روح العمل والثقة من جديد".

* * *

عقدت هيئـة المراقبة على النشاط الثقافى والدراسى التابعة لاحدى النوادى بنيو دلهى حلقة للتباحث حول موضوع الثقافة. وكان المستر آينجر رئيس البرلمان الهندى ممن تكلموا فى الاجتماع.

وقـد أجمعوا جميعا فى خطبهم على إعرابهم عن الثقافة بأنها ليست مجموعة من العلوم والفنون والتقدم فى الفكر فحسب، وإنما هى طريق الحياة البشرية المستمر التطور.

وأوضح المستر نهارنجن أحد نواب البرلمان الهندى، متحدثا عن الثقافة، عدة المشاكل التى تسربت إلى حياتنا فى العصر الحاضر، وقال المستر گيدگل فى خطابه إن أهم ميزات الثقافة الهندية هى مرونتها وجدارتها.

وقال المستر ايس سى سيثى سكرتير الهيئة، فى خطاب رحب به الحضور، إن هذا أول مرة أتيح للنادى أن يعقد حلقة كهذه.

وقال المستر آينجر رئيس البرلمان الهندى إنما يعود معظم أسباب المشاكل التى تجابهنا اليوم إلى أن المرء بصدد أن يقلب الانسانية ويغير منها كيف يشاء، والحق أنه يجب على المرء أن يغير من نفسه كما تبغية الانسانية. ثم أوضح المستر آينجر عدة تطورات طرأت على الحياة والفكر الهنديين، وأكد أهمية القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية التى هى بمثابة الحجر الأساسى لبناء الثقافة الهندية، وأضاف قائلا: إن عملية التطور مستمرة لتصلح من سيرة الانسان وتهذيب شيمه، ولم يزل المرء يبذل جهوده منذ قرون لقلع جذور العادات الحيوانية من

نفسه. ومن الخطأ أن نطبق المثال الشهير «البقاء للأصلح» على نوع البشر، فانه لا يضرب إلا للحيوانات التى جبلت على أن يفترس كبيرها صغيرها. وأما الجهود التى بذلها المرء لتزكية الأخلاق ومحاسبة نفسه ساعدته على تأسيس دعائم الثقافة. وأريد بالتقاليد القديمة انقسام المجتمع إلى مختلف الطبقات. وإلى هذا الاختلاف فى المراتب وما يترتب عليه من تفاوت فى المسئوليات يعود ما أحرزه المجتمع من التقدم والرقى، وكذلك عرف فى قديم الهند عيش الأسر عيشة مشتركة، وذلك لصيانة نظام المجتمع حتى يقوم الأقوياء من أفراده بكسب العيش ويعولوا الضعفاء والأطفال.

واستطرد المستر آينجر قائلا:

وكان شعار الأسلاف خدمة للناس وكانوا يحتفظون بنظام الاجتماعية، ويخدمونه بطرق مخصوصة أنشأوها من عند أنفسهم.

ونرى الأساطير مليئة بالأوامر التى تؤكد أهمية ما يحمله المرء من واجبات نحو مجتمعه.

وقال الدكتور راى فى خطابه. إنما بدأ عقد المؤتمرات والمحافل فى الآونة الأخيرة، وقال متطرقا إلى كلمة «الثقافة» قد اختلف أهل العلم فى تفسيرها، فذهب البعض منهم إلى أن كلمة «كرشتى» باللغة السنسكرتية أقرب إليها معنى وإفادة، بينما زعم الآخرون أن كلمة «سنسكرتى» أوضح دلالة من الأول، واتفقوا فى نهاية البحث على أن الكلمة الأخيرة أحسن وأوضح. وأما الكلمة فى اللغة الانكليزية فهى مصاغة من «Cult» التى معناها القدود، واستخرج من هذه المادة كلمات عديدة. وليس للانسانية سبيل إلى إصلاح أنواعها إلا أن تقوم بتثقيفها بالاستمرار.

وأشار الدكتور راى إلى كلمة «يونسكو» وقال إنها جمعت بين الدراسة

والثقافة والعلوم وهى كلمات متفاوتة المعانى. والحق أن هذا التفاوت فى مفاهيمها والاعراب عن الثقافة بأنها ما يقوم باصلاح القيم الأخلاقية لحسب، ليس إلا ما جاء به القرن التاسع عشر، والحقيقة أنه جزء من مفهومه العام.

وقال المستر گيدگل إنى أتفق مع الدكتور راى بأن الثقافة فى الواقع ليست إلا طريقا للحياة البشرية بأسرها، وبالاضافة إلى ذلك، هى فلسفة للحياة عسيرة الفهم، وفلسفة ليس من الهين الميسور إنشاؤها فى يوم أو يومين.

وكان لزاما علينا أن نفكر فى هذا الموضوع وخصوصا فى هذه الأيام التى يبدو فيها إعراض الشعب عن كافة التقاليد القديمة، وعبر المستر گيدگل عن معنى الثقافة بأنه علاقة الفرد بالفرد وعلاقته بالمجتمع وعلاقة المجتمع مع سائر العالم، وليس من الحق فى شىء أن نحدد الثقافة لناحية مخصوصة من الحياة، وإنما هى ما تشمل الحياة بجميع نواحيها. ومضى المستر گيدگل يقول «ظلت الثقافة الهندية فى عصورها المختلفة تستند إلى التقاليد والروابط الاجتماعية، ولربما يكفى نظام سناتن دهرم شاهدا على مدى تقدم أحرزه المجتمع فى ثقافته.

واعتقد أسلافنا بأنه على المرء حقوق لثلاثة، حقوق لله، وحقوق لأوليائه، وحقوق للآباء. والجدير بالالتفات أن ثقافة الهند مؤسسة منذ القدم على أسس متينة حيث فضلت صالح البلاد على صالح الفرد.

* * *

افتتح المستر نهرو رئيس وزراء الهند فى نيو دلهى فى ٢٧ من أكتوبر المهرجان السنوى الخامس لشباب الجامعات، واستمر المهرجان عدة أيام واشترك فيه أكثر من ألف وأربعمائة طالب من ٣٤ جامعة.

واشتمل برنامج المهرجان على مسابقات فى الفن والصناعات اليدوية والتمثيل والغناء والرقص الكلاسيكى والموسيقى والخطابة.

أقيمت فى حلب يوم السبت فى ١١ من شهر أكتوبر حفلة جامعة رائعة، أهدت فيها الهند لدار الكتب الوطنية فى المدينة مجموعة من مائتى مجلد، وقد قام باهداء المجلدات المستر ر. ك. نهرو سفير الهند فى الجمهورية العربية المتحدة. وهذه الهدية رمز إلى تعزيز العلاقات الثقافية، الذى تتطلع إليه الحكومة الهندية مع بلدان غربى آسيا.

وحضر الحفلة محافظ مدينة حلب وكبار الموظفين وعدد كبير من علية القوم. والجدير بالذكر أن الهند قد أهدت من قبل مجموعة مماثلة من الكتب لمكتبة الجامعة السورية.

* * *

تبدأ دراسات بلغتى تامل وتلجو فى جامعة على گرهه من العام الدراسى القادم، وقد صرح نائب عميد الجامعة الكولونل بشير حسن زيدى أن حكومة الهند ولجنة المنح الجامعية قد وافقتا على الاقتراح. وأضاف المستر زيدى أن الجامعة تنوى دعوة الأساتذة الأدباء من لغتى تامل وتلجو لالقاء محاضرات حول الثقافة اللغوية فى الجنوب.

* * *

من المتوقع أن ينشأ مركز ثقافى دولى فى دلهى الجديدة على طراز الخطوط التى أنشىء عليها المركز الدولى فى طوكيو.

والهدف الرئيسى من إنشاء هذا المركز هو إنعاش التفاهم والوئام بين مختلف الطوائف. وذلك لتوفير التسهيلات لتبادل المعرفة والتقدير المتبادل لثقافة بعضها البعض.

* * *

وصلت بعثة ودية من أغندا إلى بومباى بطريق الجو فى شهر أكتوبر ١٩٥٨ قادمة من نيروبى. وتتألف البعثة من خمسة أعضاء ويرئسها المستر خليق وزير

المواد الطبيعية، وستقوم بجولة لبلاد الهند.

* * *

تفتح جامعة دلهى كلية للموسيقى فى يوليو من العام القادم. وقد صرح نائب عميد الجامعة للصحفيين بأن كلية الموسيقيين ستعتنى بتدريب الموسيقى الهندية والغربية، ويبلغ تكاليف تأسيس الكلية، حوالى مليونى روبية. وقد وافقت بعض المؤسسات الأجنبية على مساعدة مالية.

* * *

وضع رئيس حزب المؤتمر الوطنى الهندى المستر دهيبر الحجر الأساسى لقاعة تذكارية أسست تخليدا لذكرى غاندى فى شهر أكتوبر ١٩٥٨. وحضر الحفلة عدد كبير من علية القوم، وفى مقدمتهم المستر سر وليم ليوس (Sir William Luce) حاكم عدن. وقدم المستر دهيبر أخلص تهانيه لجمعية الهنود فى منطقة عدن لتصميمهم هذا التذكار. وأعرب عن أمله بأنه سيعود بمنافع جمة لكافة سكان عدن. وأضاف قائلا إن تذكارا كهذا كان محببا إلى نفس غاندى نفسه. ومضى المستر دهيبر يقول: إن مجرد التذكارات لا تكفى لتخليد ذكرى الفقيد العزيز، بل يجب على الشعب أن يقتدوا حذوه فى حياتهم.

وأعرب المستر تاراپوروالا رئيس جمعية الهنود عن امتنانه لحكومة عدن التى منحت قطعة من أراضيها لبناء هذه القاعة التذكارية.

* * *

قال البروفيسور همايون كبير وزير الحكومة الهندية للشؤون الثقافية والأبحاث العلمية، إنه من واجب الكتاب أن يتقاربوا ويتفاهموا فيما بينهم، ويتعرف بعضهم على أفكار بعضهم الآخرين، وإنه لا مجال للحسد أو التنافس القبيح، فإنه من

الممكن أن يزدهروا جميعا جنبا إلى جنب. وأضاف البروفيسور قائلا إن مجال ترجمة اللغات بعضها إلى بعض ما زال محدودا، فانه قلما يوجد كاتب أو أديب له إلمام تام باللغات الاخرى، ومن أجل هذا تكون الترجمة أولا إلى اللغة الانجليزية ثم إلى اللغة الهندية الأخرى. وأعرب البروفيسور عن فرحه بأن أكاديمية الآداب الهندية التابعة لولاية آندهرا پرديش سبقت إلى اعتراف اللغة الأردوية كلغة رسمية كزميلتها تلجو.

وتولى البروفيسور همايون كبير فى شهر أغسطس تدشين أول دائرة المعارف المكتوبة بلغة تلجو، وقدر البروفيسور الجهود المبذولة فى هذا السبيل وأكد بمساعدة تمكن من إتمام المشروع.

° ° °

أعلنت السفارة البولونية بدلهى الجديدة أن سكان «وارسا» عنونوا شارعا باسم شارع رابندرنات طاغور، وذلك فى ٢٣ من شهر أكتوبر سنة ١٩٥٨.

وأهم شخصية فى هذه العملية هو داورا كوسكى، رئيس بلدة وارسا. وكان الوزير الهندى حاضرا عند الاحتفال، وكانت جمعية البولونية الهندية التى تقدمت بهذا الاقتراح.

° ° °

الاذاعة الهندية تقدم برامجها بعدة لغات محلية وأجنبية من بينها اللغة العربية. وتقدم فيها برنامجين للمستمعين العرب فى الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العراقية ولبنان والأردن والمملكة العربية السعودية واليمن وعدن وبلدان الخليج الفارسى، فالاذاعة الصباحية من ١٠،٣٠ لغاية ١١ بتوقيت الهند المحلى. تقدم فيها تلاوة آى من القرآن الكريم ونشرة الأخبار ومجموعة من الأغانى العربية والهندية، وأما الاذاعة المسائية فهى من ١١ لغاية ١٢ مساء بتوقيت الهند المحلى. وتقدم

فيها إلى جانب تلاوة من الذكر الحكيم ونشره الأخبار برامج أخرى مثلا حديث الشؤون الحاضرة (يوم الجمعة) ، واستعراض الصحف الهندية (يوم الاثنين) ، وقصص قصيرة (يوم الخميس) ، وطلبات المستمعين (عربية وهندية ، يوم الاثنين والأربعاء والسبت) .

وسيذاع فى ١١ من شهر يناير سنة ١٩٥٩ حديثة عن المرأة العربية ، وفى ٢٦ من نفس الشهر برنامج خاص بمناسبة عيد الجمهورية الهندية ، وفى ٢٧ من فبراير قصة من الأفلام الهندية .

موجات الاذاعة

الصباحية	١٩٫٨٦	مترا ،	١٥٠١٥	كيلوسائيكل
	١٦٫٩٤	مترا ،	١٧٧٠٥	»
المسائية	٢٥٫١٣	مترا ،	١١٩٤٠	كيلوسائيكل
	١٩٫٨٦	مترا ،	١٥١٠٥	»

ويداتـا (VEDANTA) — تأليف: ش. راج گوپالاجارى

... إن ويداتا هى أصل الفلسفة الهندية وأساس الثقافات الهندوسية. وتحتوى تعاليم «ويدا» على عبادة الآلهة الذين يرجى منهم الاحسان والأفضال. وذلك بتضحيات معلومة. وتشتمل الديانة الويدية على فلسفة عميقة. وهذه الفلسفة تثبت وحدة العالم فى النهاية كمخلوق للخالق الواحد الذى تنتمى إليه المزايا المختلفة. ويوجد فى «ويداتا» قوانين خاصة لجميع شعوب الحياة ومرافق الجنس البشرى تقريباً. وجاء فيها أيضا ترغيب بالغ فى العلم والفنون والفلسفة. والحضارة الويدية مبنية على أسس حياة ساذجة وفكر عال. وتهتم كثيرا بتقدم فكرى روحانى. ويصل بعض الأدعية الواردة فى «ركويدا» مثل «كياترى منترم» إلى أقصى درجة العلم، ويحض روح البشر ويوقظ الهمم وينفخ روح اليقظة فى القلوب، ويشمل على الأناشيد فى مدح الآلهة، وكذلك على قصص شعرية وأناشيد فكرية فلسفية عالية.

وإن أصل «ويداتا» هو الكتب الهندية المقدسة القديمة المعروفة باسم «أوپانيشاد» و «بهكوت كيتا».

وإن الكتاب الذى أمامنا الآن هو عظيم قدره مع صغر حجمه. كتبه فى اللغة الانكليزية الفيلسوف الهندى الكبير «شرى راج گوپالاجارى» (الحاكم العام للهند سابقا) ومحتوياته مليئة بالمعلومات القيمة والبحوث العلمية، ولا يستغنى عنه باحث محقق فى حضارات الهند وثقافاتها القديمة. ويتناول فيه المؤلف المصادر الأصلية

لويدانتا، والخطوة الأولى لتطبيق تعاليمه، والطريق إلى حياة سعيدة، والنفسيات المبنية على أساس «ويدانتا» وما إلى ذلك.

وفى الختام ينقل المؤلف مقتبسات من متون «ويدانتا» فى اللغة السنسكرتية مع ترجمتها إلى الانكليزية.

وحاول فيه المؤلف ليثبت أن الفيلسوف الهندى المشهور «شنكر اجاريا» كان مظهرا من مظاهر الفلسفة الويدية. ومدرسته الفلسفية مبنية على تعاليم «ويدانتا» الأصليه. وفيه نظر، لأننا نجد تعارضا بيناً بين بعض الآراء التى كان يبشر بها «شنكر اجاريا» وبين المدرسة الويدية القديمة، مع أنه كانت هناك تفاسير عديدة وتوضيحات مختلفة حول «ويدانتا». وأن «شنكرا» قد تأثر بعصارة الثقافات الهندية وخلاصة التعاليم السابقة المختلفة، سواء منها الثقافات الهندوسية والجينية والبوذية والاسلامية (ويستطيع الباحث أن يرجع إلى مجلة Vedic Digest، عدد مارس عام ١٩٥٧ إذا أراد التفصيل).

«الدكتور ذى فاجو» — رواية ألفها بورس باسترناك

فى الأسبوع الأخير من أكتوبر سنة ١٩٥٨ م منحت الأكاديمية السويدية جائزة نوبل الأدبية لسنة ١٩٥٨ للكاتب الروسى بورس باسترناك، لكتابه «الدكتور ذى فاجو». وهى رواية مقبولة، تعالج الحياة الروسية خلال ٤٠ سنة، وتنقد النظم الروسية. وعارضت الشخصيات الروسية محتجة بأنها لا تستحق جائزة أدبية مثل ما منحت.

والمؤلف فى ٦٨ من عمره. وهو نجل للرسام الشهير ليوند باسترناك، وكانت أمه من أمهر العازفات على البيانو، وكان المؤلف نفسه يريد أن يكرس عمره للموسيقى. وغادر أبواه روسيا فى سنة ١٩٢٠ واستقرا فى بريطانيا، ولا تزال أختاه فى أكسفورد.

« روح الاسلام » (Spirit of Islam) — للأستاذ السيد أشفاق حسين

من مطبوعات Asia Publishing House, Bombay. الصفحات : ٧٦

الثمن : ٤ روبيات و ٧٥ نئے پیسے (نیا پیسا)

فيما يلى استعراض حول هذ الكتاب كتبه الأستاذ الفاضل آصف على أصغر فيضى فى مجلة « Education » التى تصدر من وزراة المعارف الهندية. ونشر هذا الاستعراض فى العدد الصادر منها ليونيو عام ١٩٥٨.

إن ظهور كتاب جيد يبحث عن الاسلام لمن الظاهرات النادرة، سيما فى هذه الأيام. ويسرنى أن أتقدم بآيات الشكر والتحيات إلى السيد أشفاق حسين على إنتاج هذه الباكورة القيمة. إن العلماء عموما يعتبرون أو يقولون إن سورة الفاتحة بمجمل القرآن الكريم. وإذا نظرنا بعين التحقيق والانصاف لنرى بأن هذا موضوع المناقشة والجدل. وأن الفاحص المدقق يصل إلى رأى غير هذا، وأن المحاولة الاصطناعية لاعتبارها أى فاتحة الكتاب كخلاصة لتعاليم الاسلام بأجمعها لتؤدى إلى نتائج غريبة مضحكة. إن الأصل الذى يمكن الرجوع إليه فى هذا الموضوع هو ما جاء فى تفسير القرآن القيم للمغفور له مولانا آزاد، وأخذ مؤلف الكتاب الذى نحن فى صدده بروح ذلك الأصل ولبه.

يجتاز الآن الاسلام بظروف حرجة وأزمات خاصة سواء فى الميادين السياسية أو الاقتصادية أو المعنوية. وهذه حقيقة واضحة لا يختلف فيها اثنان. وفى رأيى بأن الأزمة الروحية لهى أخطر الأزمات وأشدها لكونها مصدر الشرور والآثام العديدة، بالمقارنة إلى أية أزمة أخرى التى نواجهها اليوم. وهذا يتطلب منا توجها سريعا فى سبيل إعادة النظر لا فى المسائل الفرعية وحدها بل فى الأصول أيضاً. وقد كتب المغفور له مولانا أبو الكلام آزاد تفسيرا قيما للقرآن الكريم باللغة الأردية. وبدأ

تفسيره بتمهيد يعتبر تفسيرا مفصلا وبحثا دقيقا حول فاتحة الكتاب، فحاول المؤلف للأخذ بروح ذلك التفسير بدون أن يظهر استسلاما أدبيا لما جاء فيه.

استخدم المؤلف أسلوبا بسيطا ممتازا فى كتاباته. وأجاد فى ترتيبه وتنسيقه. واستطاع المؤلف الفاضل بهذا المسعى الجليل أن يقدم إلى قراء الانكليزية جوهر تعاليم مولانا آزاد وآرائه القيمة، فى أسلوب رائق متين.

بناء على أن هذا الكتيب لم يؤلف لأجل باحث محقق فليس من المناسب فى شىء أن ينظر إليه بالمجهر لاستخراج نقائصها وخباياها إلى الرأى العام. ولكنه جدير بالذكر ثلاث نقاط وردت فى طيات هذا المؤلف القيم.

أما النقطة الأولى فان التصور الدينى الذى جاء ذكره فى صفحة ١٤ فلا يمكن أن يعد تصورا مستوعبا أو منطقيا كما فعل العالم النفسانى المعروف Descartes بل هو على منوال معظم الكتب فى مقارنة الأديان.

النقطة الثانية هى كلمة «الرحمن» فى صفحة ٣٨، حيث ذكر بأنها مشتقة من مادة «رحم» ففيه نظر، لأنه من المعترف به عموما فى التحقيق الأخير أن «الرحمان» علم لله تعالى، كان يستعمله النصارى فى اللغــة السريانية، وليست له أية علاقة بمادة «رحم» ولم يشتق منها. وكان هذا خطأ مشاعا بين أوساط اللغويين المسلمين، واستمر هذا الاعتقاد الخاطئ إلى أن تصبح دراسة مقارنة للغات السامية مادة إجبارية لجميع الطلاب الذين يتخصصون فى أصول الدين وعلومه.

والنقطة الأخيرة التى نريد أن نشير إليها هى أن اسم هذا الكتاب «روح الإسلام» «Spirit of Islam» يجعل السامع فى التباس وارتباك مع كتاب «أمير على» المعروف بهذا الاسم بذاته.

دعنا نتمنى بأن المؤلف الفاضل ليتابع دراسته وبحثــه عن الإسلام وفيه، فى

ضوء تاريخ الأديان ومقارنتها ليتسنى له أن يقدم للعالم روح الرسالة المحمدية الكاملة على حقيقتها الخالصة بطريقة واضحة وبأسلوب رائق أكثر وأحسن مما قدمها إلينا عامة رجال الدين بطريق كتبهم وخطبهم.

المجلات:

تسلمنا المجلات التالية الذكر:

(١) Unesco Chronicle

وهي مجلة شهرية تصدرها اليونسكو من باريس.

(٢) The Eastern Anthropologist

مجلة تصدرها أربع مرات في السنة جامعة لكهنؤ.

(٣) Adult Education

تصدر من دلهي باشراف الجمعية التعليمية.

(٤) Islamic Quarterly

مجلة تصدرها مركز الثقافة الاسلامية بلندن.

بحث حول «الرحمن»

أوافق تماما على ما أشار إليه الأستاذ آصف على أصغر فيضى بصدد اللغات السامية فيما يتعلق بعلم الألسنة التقابلى فى الاستعراض السابق الذى كتبه حول كتاب «روح الاسلام» للسيد أشفاق حسين. أرجو أن أبحث قليلا حول بعض الكلمات الواردة فى سورة الفاتحة. لأنها تفسر فى أغلب الأحيان تفسيرا بعيدا عن الحقائق، مثلا:

(١) الرب: إن المعنى الصحيح من الناحية اللغوية لكلمة «الرب» هو السيد المعروف فى اللغـــة الأردوية بلفظ «آقا» (Master). وبناء على ذلك وردت فى إزائه صيغة «نعبد» (إياك نعبد) المشتقة من مادة «العبودية»، فالله هو سيدنا ونحن جميعا عبيده.

(٢) العالمين: يراد به الانسان، ويقول القرآن الكريم:

(ألف) وجعلناها آية للعالمين (العنكبوت)

(ب) إن هو إلا ذكر للعالمين (التطفيف)

(ج) وما الله يريد ظلما للعالمين (آل عمران)

(د) الذكران من العالمين (الشعراء)

(هـ) أحداً من العالمين (المائدة)

وغيرها كثيراً من الآيات التى ورد فيها ذكر لفظ «العالمين» ويراد به الانسان.

(٣) الرحمن: إن الرحمن اسم علم لذاته تعالى ولفظ مترادف للفظة «الله» وفى ما يلى نسرد بحثا مفصلا حول «الرحمن» إن شاء الله تعالى.

(٤) ملك: صاحب الملك، صاحب الأمر والسلطة على أمة أو قبيلة أو بلاد. جمع ملوك وأملاك وهو الله «الحاكم» أو «القاضي» وأحكم الحاكمين، وليس معناه «بمالك» لأن الدينونة تتعلق بالحكم والفصل لا بالملكية والملوكية.

(٥) الصراط: أو السراط وهي الكلمة الرومية تكتب «Strata» وفي الانكليزية «Street» ويقول الألمان «Strasse»، ومعناها الشارع أو الطريق المحفوظ والمراد هنا الاسلام أو عبادة رب العالمين.

(٦) الضال: أي الذي يتذبذب أو يقدم رجلا ويؤخر أخرى كما جاء في القرآن الكريم «ووجدك ضالا فهدى» أي حائرا وليس معناه: الذي جار عن الطريق.

تعالوا نبحث قليلا حول كلمة الرحمن التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في عدة مناسبات. أرى من الأحسن بل الأوجب أن لا نفسر أو نترجم لفظة الرحمن، بل وعلينا أن نوضح أنها علم آخر لذات الله تعالى كان يستعمله اليهود والنصارى ولكن المشركين ما كانوا يعترفون بذلك الاسم.

متى نزلت كلمة الرحمن أول مرة

إن الرأي القائل بأن «بسم الله الرحمن الرحيم» قد نزل عقب التعوذ، لقول غير صحيح. ويبدو من مطالعة السيرة النبوية بأن قريش مكة كانوا يعترضون على الرسول عليه الصلوة والسلام بصفة خاصة حول ثلاثة أمور رئيسية:

أولا — البعث بعد الموت، وكانوا ينكرون الحياة الأخروية ويوم الحساب،

ثانيا — أن الرسول العربي أيضاً كان يتلق أحاديثه من الشيطان أو الجان

أو من أي مصدر آخر كما تلقى [illegible]

وما كانوا يعترفون بأن القرآن تنزيل من رب العالمين أو ينزل به عليه روح الأمين.

ثالثا — أنهم رفضوا الاقرار بأن الرحمن هو الله تعالى بل هو رب النصارى الذين أغاروا على مكة، وحاولوا لهدم الكعبة تحت زعامة أبرهة الأشرم صاحب الفيلة قبل أربعين سنة. فلما نزلت سورة الرحمن على رسول الله وقرأها ابن مسعود جهرا أمام الكعبة بدأ المشركون يقولون بأن رحمن يمامة هو الذى يعلم محمدا القرآن وهو يتقرب إلى النصارى الآن لكى يشجع أهل الحبشة على هجوم مكة مرة أخرى (انظر أحوال هجرة الحبشة الأولى).

القرآن والرحمن

وقد بدأ القرآن أن يستعمل كلمة الرحمن قبل الهجرة إلى الحبشة، واستمر ذلك الاستعمال إلى زمن هجرة الرسول إلى يثرب، إلا فى السنوات الثلاث التى كان يعيش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم فى شعب أبى طالب. وقد وردت لفظة «الرحمن» فى كل من سورة مريم وطه فى عدة مناسبات لما فيهما من ذكر النصارى والمسيح ابن مريم عليه السلام. ولكنه يتضح من القرآن أن قريش مكة ما كانوا يستعملون لفظة الرحمن للبارى تعالى، بل وما كانوا يعلمون أنه مرادف لكلمة الله. فيقول القرآن الكريم:

«أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن وما يمسكهن إلا الرحمن»، «قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين» (سورة الملك) وجاء فى سورة مريم أيضا: «إنى أعوذ بالرحمن». «وإنى نذرت للرحمن صوما» «إن الشيطان كان للرحمن عصيا». وجاء فى سورة طـه «الرحمن على العرش

استوى». وفى سورة الأنبياء «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه» الآية. «وهم بذكر الرحمن هم كافرون». «وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون» الآية. والذى يبدو من هذا كله أن المراد بالرحمن هو الله. وورد فى سورة الرعد «وهم يكفرون بالرحمن، قل هو ربى، لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه متاب» وأيضاً جاء فى سورة الفرقان «الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش، الرحمن فاسئل به خبيرا». ولكن مشركى مكة لم يعترفوا بالرحمن أنه الرب تعالى، «وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (الفرقان) وأخيرا جاء فى سورة بنى إسرائيل «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى».

الرحمن فى منحوتات اليمن القديمة

كانت فى اليمن حكومة نصرانية فى الزمن القديم، ويثبت من المنحوتات القديمة التى عثرت عليها فى تلك الأنحاء، أن النصارى كانوا يستعملون لذاته تعالى «الرحمن» أو «الرحانان» فكتب فى النصب التذكارى الذى وضعه أبرهة بقرب بحيرة مأرب: «بفضل الرحمن ومسيحه وروح القدس ينصب رئيس الأحباش أبرهة الأكسومى (Auxum) هذا النصب التذكارى.... وبعناية من الرحمن وصل سفير المودة والمحبة من قبل النجاشى فى عام ٥٤٣ م» (أرض القرآن للسيد سليمان الندوى ج ١ الصفحة ١٩، ٢٠).

لفظة الرحمن فى المنحوتات الحميرية

جاء فى المنحوتات القديمة الحميرية التى يرجع تاريخها إلى ما قبل عام ٢٧٠ الميلاد ذكر عطارد والشمس وغيرهما من معبودات الوثنيين، بينما لا تذكر منحوتات عام ٤٥٨ وعام ٤٧٦ اسم أحد من آلهة الوثنيين ماعدا الاله «رحمانان»

الذى يقال له فى العبرية باسم «رحمان»، وهو المرادف للفظة «الرحمن» باللغة العربية. ومن المتفق عليه بأن لليهود والنصارى نفوذا واسعا فى جزيرة العرب فى القرن الرابع الميلادى.

ومما هو جدير بالذكر أيضا بأن مدينــة سبأ كانت عاصمة مملكة سبأ ومعين. وكانت لها علاقات تجارية مع مصر والهند منذ القرن الثامن قبل الميلاد فصاعدا، ولكنها فقدت مركزهـا التجارى مع مصر والهند بعد أن فتح بطليموس خطا بريا للتجارة من الهند إلى الاسكندرية فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح.

الحمـــيريون

غلب الحميريون على الصابئين الذين أصبحوا يهودا فيما بعد، وهم كانوا يستعملون لفظة «الرحمن» وحاول الرومان أيضا مرة للتغلغل إلى جزيرة العرب ولكن محاولاتهم باءت بالفشل.

الأحـباش

وفى القرن الرابع من الميلاد هزم الأحباش الحميريين وأخرجوهم. ثم تغلب النصارى بمساعدة «بازنطيم» فى عام ٥٢٥م، ولكن أعداء النصارى طلبوا مددا من الفرس فى عام ٥٧٥، فتغلبوا على النصارى وهزموهم شر هزيمـــة. وعين الحكام الفرس فى مختلف الولايات. (انظر: سبأ، حمير، العرب، فى دائرة المعارف البريطانية الطبع ١٤ — والصابئين، الطبع ١١ ص ٩٥٦-٢٧).

الرحمن فى اللغـــة العبرية

" רחם = رخم ومعناه الأصلى «الغـامض»، وأما معنى كلمـة «رخم» فى اللغة العربية «الناعم واللطف»، وفى اللغة الأشورية «Remn»، «Rimn»

وفى العربية «رحم» (Womb) الحنان والشفقة ورخم أيضا ينحدر من «رحم» ومطاوع له. والصابئون يدعون إلههم باسم «رحمان» أى الرحمن باللغة العربية». (انظر: ص ٩٣٣ من العهد القديم لبراؤن وبرج آكسفورد Brown & Brigg, Oxford).

ويطلق (مذكر) رحم = (vă ăm) □□،□'' على الرحم (Womb) وعلى الفتى غير المتزوج، وجمعه: الأرحام. وهو ينطوى على معانى الشفقة والحنان والرحمة والعطف واللين، ويؤنث «رحما».

ويطلق على الفتاة العـذراء. والوصف رحمانى أى الحنون، الشفوق والعطوف، والمؤنث رحمانية والجمع رحمانيوت.

(See: Fonolexioa - Hebrew. English Dr. Feyerabend, Berlin - Schaneberg)

الرحمان والشاعر النصرانى إمرؤ القيس بن حجر (سنة ٥٤٨م)

سئل عبيد إمرؤ القيس: كيف معرفتك فى الأوابد؟ فأجاب، تجدنى كما تريد. فسأل:

«ما الحاكون بلا سمع ولا بصر ه ولا لسان فصيح يعجب الناسا؟»

فأجاب إمرؤ القيس:

«تلك الموازين والرحمن أنزلها ه رب البرية بين الناس مقياسا»

ويظهر من هذا أن الشعراء النصرانيين العرب أيضا يدعون الله باسم الرحمن. (الشعراء النصرانيون من الجزء الأول فى أشعار الجاهليين، طبع ١٩٤٠).

«الرحمن» فى اللغـة العربيـة

قال أبو إسحق: وأما الرحمن الرحيم، فالرحمن اسم الله خاصة لا يقال لغير

الله الرحمن. ومعناه المبالغ فى الرحمة: أرحم الراحمين، وفلان بناء المبالغة. تقول للشديد الامتلاء: ملآن، وللشديد الشبع شبعان. وروى عن أحمد بن يحيى أنه قال هو عبرانى. وهذا مرغوب عنه. ولم يحكها هذا أبو إسحق فى كتابه. (شرح الألفية شرح جامى) ولكنه يبدو من التحقيق الجديد أن لفظة الرحمن تستعمل فى اللغة العربية أيضا.

ويقال: لم قدم ذكر الرحمن وهو أشد مبالغة، وإنما يبدأ فى نحو هذا بالأقل ثم يتبع الأكثر كقولهم «فلان جواد يعطى العشرات والمئين والألوف؟ والجواب فى ذلك أنه بدأ بالرحمن لأنه صار كالعلم إذ كان لا يوصف به إلا الله عزوجل. وحكم الأعلام وما كان من الأسماء أعرف أن يبدأ به ثم يتبع الأنكر وما كان من التعريف أنقص. هذا مذهب سيبويه وغيره من النحويين (المخصص ج ١٧ صفحة ١٥١ طبع حيدرآباد دكن، الهند).

وروى عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عزوجل أنا الرحمن، وهى الرحم اشتققت لها من اسمى اسما، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته. (الآلوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ج ٣ ص ٣٧٥ بيان وصلة الرحم).

غزوات النبى وكلمة الرحمن

والمشركون كانوا يجتنبون كلمة الرحمن ولا يستعملونها، ولو كانوا فى فم الموت كما تجنب أمية بن خلف عن استعمالها بعد هزيمتهم فى بدر، حين دعا صديقه القديم عبد الرحمان ابن عوف بقوله «يا عبد الاله أسرنى أنا أفتدى بالمال» (كتاب المغازى للواقدى طبع كلكته، ص ٧٧).

قال ابن عوف «كان أمية بن خلف لى صديقا بمكة وكان اسمى عبد عمرو،

فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول «يا عبـد عمرو أرغبت عن اسم سماك به أبواك؟» فأقول نعم. فيقول فاني لا أعرف الرحمان فاجعل بيني وبينك شيئا أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأول وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. قال، فكان إذا دعاني يا عبد عمرو لا أجيبه. قال: فقلت له يا أبا علي اجعل ما شئت. قال: فأنت عبد الاله. قال: قلت نعم. قال: فكنت إذا مررت به قال يا عبد الاله فأجيبه (إبن هشام). فيقول أميـة بن خلف إني لا أقول لك عبد الرحمن إن مسيلمة باليمامة يتسمى بالرحمن، فأنا لا أدعوك إليه فكان يدعوني عبد الاله (كتاب المغازي ص ٧٧ طبع كلكته سنة ١٨٥٥ م).

وكذلك في مختلف الغزوات كان المسلمون يدعون «يا رحمن» والمشركون كانوا يدعون «يا هبل» (انظر واقعة بدر وغيرها).

بل في صلح الحديبية لما كتب على الصحيفة «بسم الله الرحمن الرحيم» قال مندوب المشركين إنا لا نعلم «الرحمن». فمحا النبي صلى الله عليه وسلم هذه التسمية بيده، وأقر مكانها التسمية التي كانت رائجة في الجاهلية أي بسمك اللهم (صلح الحديبية — ابن سعد وغيره).

أسماء الرجال وكلمة الرحمن

وإذا نظرنا في كتب أسماء الرجال علمنا أن الذين بدلوا أسماءهم الجاهلية بكلمة الرحمان أو سموا أبناءهم بها لكثيرون جدا بالمقارنة مع أسماء الله الأخرى:

١. عبد عمرو بن عوف الزهري، ولد بعد الفيل بعشر سنين وأسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم.

... ابن كعب المازني.

٣ عبدالكعبة بن العوام.
٤ عبدالكعبة بن أبى بكر.
٥ إبن العباس.
٦ إبن عمر (الأكبر).
٧ أبو شحمة بن عمر (الأوسط).
٨ أبو المجبر بن عمر (الأصغر).
٩ عبدالعزى أبو راشد الأزدى.
١٠ إبن خالد بن وليد.
١١ إبن معاذ بن جبل.
١٢ إبن يزيد بن جارية.
١٣ إبن غنم الأشعرى.
١٤ إبن زيد بن الخطاب.
١٥ إبن حسنة (وغيرهم) الذين بدلوا أسماءهم بكلمة عبدالرحمن فى الزمان الذى كان المشركون ينكرون كلمة الرحمن إذ ذاك. (باب من اسمه عبدالرحمن فى كتاب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن البر القرطبى).

خلاصة القول

إن معنى «بسم الله الرحمن الرحيم» — فى رأينا — أبدأ بسم الله الذى يدعوه اليهود والنصارى باسم «الرحمن» وهو المتصف بالرحيم. أعنى أن الرحمن اسم آخر لله عزوجل وعلم لذاته تعالى.

محمد أجمل خان

THAQĀFAT-'UL-HIND

(Hony. Editor : **M. Ajmal Khān**)

PUBLISHED QUARTERLY in MARCH, JUNE, SEPTEMBER AND DECEM

INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS

PATAUDI HOUSE. NEW DELHI 1

President : Professor Humayun Kabir

The objects of the Indian Council, as laid down in its Constitution, a to establish, revive and strengthen cultural relations between India and oth countries by means of :

(i) Promoting a wider knowledge and appreciation of their languag literature and art ;

(ii) Establishing close contacts between the universities and cultu institutions ;

(iii) Adopting all other measures to promote cultural relations.

CONTENTS

ANNUAL SUBSCRIPTION : Inland Rs. 8. Abroad Sh. 8. **SINGLE COPY :**]

PRINTED AT Q PRESS BY

Khaleel Sharafuddin, 46a Memonwada Road, Bombay 3, and Published by Mr. Inam Rahman Secretary Indian Council for Cultural Relations, Pataudi House, New Delhi 1

THAQĀFATU'L-HIND

(INDIAN CULTURE)

A QUARTERLY ORGAN OF
INDIAN COUNCIL FOR CULTURAL RELATIONS

DECEMBER 1958